تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد العاشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

كِتَابٌ لَوْ يُبَاعُ بِوَزْنِهِ ذَهَباً   لَكَانَ ٱلْبَائِعُ فِيْهِ ٱلْمَغْبُوْنَا
حَوَىٰ مِنْ ثِمَارِ ٱلتَّفْسِيْرِ أَفْنَاناً   فَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا حَبَانَا

آخر

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ   وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ   وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخر

يَا طَالِبَ ٱلْعِلْمِ بَاشِرُ ٱلْوَرَعَا   وَجَانِبِ ٱلنَّوْمَ وَٱحْذَرِ ٱلشِّبَعَا
دَاوِمْ عَلَىٰ ٱلدَّرْسِ لاَ تُفَارِقْهُ   فَٱلْعِلْمُ بِٱلدَّرْسِ قَامَ وَٱرْتَفَعَا

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بحمدك نبتدي، وبعونك نستكفي، وبتوفيقك نهتدي إلى تفسير كتابك الكريم، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ونصلي ونسلم على نبيه وحبيبه سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه ما سطر القلم بمداد الإخلاص تفاسير الكتاب، راجياً منه سبحانه وتعالى الخلاص من التبعات في يوم القيامة، والفوز بدار السلام.

أما بعد: فأقول وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ
لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا
ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا
ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ
شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا
كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ
أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ
مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ
حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ
ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن
يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ
وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ...﴾ الآيات[١]، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ هذه الآيات من تتمة قصص شعيب، ذكر فيها جواب الملأ من قومه عما أمرهم به من عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وعدم الفساد في الأرض، وعما ختم به حديثه من التهديد والإنذار بقوله: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾.

وتولى الرد عليه أشراف قومه، كما هو الشأن في بحث كبريات المسائل ومهام الأمور.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها ظاهرة: وهي أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر جواب الملأ من قوم شعيب، وطلبهم منه العود إلى ملتهم، وبيَّن يأسهم منه بما كان من جوابه لهم الدال على ثباته في مقارعتهم، وأنَّه دائم النصح والتذكير لهم علَّهم يرعوون عن غيّهم.. ذكر هنا أنَّهم حذروا من آمن منهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، إذ سيلحقهم الخسار في دينهم، والخسار في دنياهم، لعل ذلك يثنيهم عن عزيمتهم، ويردهم إلى الرشاد من أمرهم، بحسب ما يزعمون، فكانت عاقبة ذلك أن أصبحوا كأمس الدابر، وأصبحت ديارهم خراباً يبابا، لا أنيس فيها ولا جليس.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[٢] حال الأمم السابقة مع أنبيائها، وبيَّن من العظة والعبرة، فقد كانت العاقبة في كل حال للمتقين، والدائرة تدور على المبطلين.. أشار هنا إلى سنة الله في الأمم التي تكذب رسلها، أنْ ينزل بها البؤس وشظف العيش، وسوء الحال في دنياهم، ليتضرعوا إلى ربهم وينيبوا إليه بالإقلاع عن كفرهم، والتوبة من تكذيب أنبيائهم، وفي هذا من التحذير لقريش والتخويف لهم ما لا يخفى.

ثم ذكر أنَّه بدل الرخاء بالبؤس ليعتبروا ويشكروا، لكنَّهم لم يفعلوا فأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

وقال أبو حيان[1]: مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر ما حل بالأمم السالفة من بأسه وسطوته عليهم آخر أمرهم، حين لا تجدي فيهم الموعظة.. ذكر تعالى هنا أنَّ تلك عادته في أتباع الأنبياء إذا أصروا على تكذيبهم. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بيَّن أخذه لأهل القرى الذين كذبوا رسلهم، وكفروا بما جاؤوا به، وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بما افتنّوا فيه من أفانين الشرك والمعاصي، كما حكى الله في محاورتهم لرسلهم، وإجابة الرسل لهم بما سلف ذكره.. ذكر هنا لأهل مكة ولسائر الناس ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسل، واهتدوا بهديهم، واعتبروا بسنة الله في الأمم من قبلهم، فإنَّ سنته تعالى في الأمم واحدة، لا تبديل فيها ولا تحويل.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّها خطاب وُجِّه إلى النبي ﷺ، تسلية وتثبيتاً له على الصبر على دعوته، بتذكيره بما في قصص أولئك الرسل مع أقوامهم، من وجوه العبر والمواعظ، وبيانِ أن ما يلاقيه منهم من ضروب العناد والاستكبار والإيذاء، ليس بدعا بين الأمم، بل ذلك طريق سلكه كثير من الأمم المجاورة لهم، كعاد وثمود وأصحاب الأيكة، وغيرهم ممن تقدم ذكرهم، وقصصهم تدور على ألسنتهم بحكم الجوار لهم، وطروق أرضهم في حلهم وترحالهم في رحلتي الشتاء والصيف.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: قال الأشراف من قوم شعيب، الذين تكبروا وأنفوا عن الإيمان به، وعن اتباع ما أمرهم به وما نهاهم عنه؛ أي: قالوا مقسمين: والله ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ أنت من قريتنا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾؛ أي:

(١) البحر المحيط.

ولنخرجن معك الذين آمنوا بك، والظرف متعلق بالإخراج لا بالإيمان، أي: والله لنخرجنك وأتباعك ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾ مدين؛ أي: من بلادنا كلها، بغضاً لكم ودفعاً لغشكم ﴿أَوْ﴾ والله ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾؛ أي: أو لترجعن إلى ديننا ومعتقداتنا التي ورثناها عن آبائنا، وتدخلن في زمرتنا، وتندمجن في غمارنا.

الخلاصة[1]: ليكونن أحد الأمرين: إخراجكم من البلاد، أو عودتكم في الملة، فاختاروا لأنفسكم ما ترونه أرفق بكم وأوفق لكم.

وشعيب عليه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة أخرى غير ملة قومه، فساغ لهم أنْ يطالبوه بالعود إلى ملتهم، وكونه لم يشاركهم في شركهم وفي بخس الناس أشياءهم - أمر سلبي لا يعده به جمهورهم خروجاً عنهم - فلا منافاة بين هذا وعصمة الأنبياء عن الكفر.

قال في «الخازن»: وهذا الكلام فيه إشكال، وهو[2] أنَّ شعيباً عليه السلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع إلى ما كان عليه، فما معنى قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾؟ وأجيب عن هذا الإشكال: بأنَّ أتباع شعيب كانوا قبل الإيمان به على ملة أولئك الكفار، فخاطبوا شعيباً وأتباعه جميعاً، فدخل هو في الخطاب، وإنْ لم يكن على ملتهم قط، وقيل معناه: لتصيرن إلى ملتنا، فوقع العود على معنى الابتداء، كما تقول: قد عاد عليَّ من فلان مكروه، بمعنى قد لحقني منه ذلك، وإنْ لم يكن قد سبق منه مكروه، فهو كما قال الشاعر:

فَإِنْ تَكُنِ ٱلأَيَّامُ أَحْسَنَّ مُدَّةً ... إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

أراد فقد حارت لهن ذنوب، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان. انتهى.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾؛ أي[3]: أتأمروننا أنْ نعود

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

في ملتكم، وتهددوننا بالنفي من أوطاننا، والإخراج من ديارنا، إن لم نفعل، ولو كنا كارهين لكل من الأمرين؟ والاستفهام فيه للإنكار

والمعنى: لا تطمعوا في عودنا مختارين ولا مكرهين، فتأمل ـ ذكره الصاوي ـ إنَّكم لقد جهلتم أنَّ الدين عقيدة وأعمال، يتقرب بها إلى الله الذي شرعها لتكميل الفطرة البشرية، كما جهلتم أنَّ حب الوطن لا يبلغ منزلة حب الدين لدي ولدى قومي، فظننتم فيَّ وفيمن آمن معي أنَّنا نؤثر التمتع بالإقامة في الوطن على مرضاة الله تعالى بالتوحيد المطهِّر من أدران الخرافات، وبالفضائل المهذبة للنفوس، والمرقية لها في معارج الكمال، حتى تتم لنا سعادة الدنيا والآخرة.

فللدين منزلة في النفوس لا تسمو إليها منزلة أخرى، فإنْ تمكن صاحبه من إقامته في وطنه، وإصلاح أهله به.. فهم أحق به، وإن فتن في دينه فيه.. كان تركه واجباً عليه، وقد أوجب الله الهجرة على من يستضعف في وطنه، فيمنع من إقامة دينه فيه، فإن لم يفعل ذلك.. دخل تحت وعيد قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الآية.

وقال الشوكاني[(١)]: وجملة قوله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود، والواو للحال؛ أي: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا للعود إليها، أو أتخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا للخروج منها، أو في حال كراهتنا للأمرين جميعاً؟

والمعنى: أنَّه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين، ولا يصح لكم ذلك، فإنَّ المكره لا اختيار له، ولا تعد موافقته مكرها موافقةً، ولا عوده إلى ملتكم مكرهاً عوداً، وبهذا التقدير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين في هذا

---

(١) فتح القدير.

المقام، حتى تسبب من ذلك تطويل ذيول الكلام.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾ واختلقنا ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَذِبًا﴾ عظيماً وتخرصنا عليه من القول باطلاً ﴿إِنْ﴾ نحن ﴿عُدْنَا﴾ ورجعنا ودخلنا في ﴿مِلَّتِكُم﴾ الباطلة، وقد علمنا فساد ما أنتم عليه من الملة والدين ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وخلصنا ﴿مِنْهَا﴾ وبصرنا خطأها، وهدانا الصراط المستقيم، باتباع ملة إبراهيم، وإذا كان اتباع ملتكم يعد افتراء على الله لأنَّه قول عليه، لا علم لنا به بوحي ولا برهان من العقل.. فكيف بمن يفتري عليه ويضل عن صراطه على علم؟ فالكفر بالحق وغمطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر، والافتراء على الله فيه أفظع ضروب الافتراء، التي لا تقبل فيها الأعذار بحال.

وفي قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، أيضاً فيه من الإشكال[1] مثل ما في الأول، وهو أنَّ شعيباً عليه السلام ما كان في ملتهم قط حتى يقول: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ والجواب عنه مثل ما أجيب به عن الإشكال الأول، وهو أنْ تقول: إنَّ الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة، إلا أنَّ شعيباً نظم نفسه في جملتهم وإنْ كان بريئاً مما كانوا عليه من الكفر، فأجرى الكلام على حكم التغليب، وقيل: معنى ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ علمنا قبح ملتكم، وفسادها، فكأنَّه خلصنا منها. وعبارة المراغي قوله: ﴿إِذْ نَجَّىٰنَا﴾؛ أي: نجى أصحابي منها، فهو تغليب بإدخاله في زمرتهم، أو: نجاني من الإنتماء إلى هذه الملة التي ما كنت أؤمن بعقيدتها، ولا أعمل بعمل أهلها. انتهى.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾؛ أي: ما ينبغي لنا، ولا يصح منا، ولا يستقيم ﴿أَن نَّعُودَ﴾ ونرجع إلى ملتكم وندخل ﴿فِيهَآ﴾ ونترك الحق الذي نحن عليه في حال من الأحوال ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾؛ أي: إلا في حال مشيئة ربنا أنْ نعود فيها، فهو وحده القادر على ذلك، لا أنتم ولا نحن، لأنَّا موقنون بأن ملتكم باطلة، وملتنا هي الحق، التي بها صلاح حال البشر وعمران الأرض، فحينئذ يمضي

(١) الخازن.

قضاء الله وقدره فينا، وينفذ سابق مشيئته علينا.

وهذه الجملة[1] رفض آخر للعود إلى ملتهم، مؤكد أبلغ التأكيد، مُؤْسٍ لهم من عودته ومن آمن معه إلى ملتهم، فبعد أن نفى وقوع العود منهم باختيارهم، نفاه نفياً مؤكداً بأنَّه ليس من شأنهم، ولا يجيء من قبلهم بحال من الأحوال، كالترغيب والترهيب، بالرجاء في المنافع، والخوف من المضار، كالإخراج من الديار إلا حالاً واحدة، وهي مشيئة الله، ومشيئته تجري بحسب علمه وحكمته في خلقه، وسنته في خلقه أنْ ينصر أهل الحق على أهل الباطل ما داموا ناصرين له، وقائمين بما هداهم إليه منه.

وخلاصة ذلك: لا تطمعوا أن يشاء ربنا الحفي بنا، عودتنا في ملتكم، بعد إذ نجانا منها بفضله، فما كان الله ليدحض حجته ويغير سنته.

وقال الواحدي: معنى[2] العود هنا الابتداء.

والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية: أنَّ شعيباً وأصحابه قالوا: ما كنا نرجع إلى ملتكم بعد أن وقفنا على أنَّها ضلالة تكسب دخول النار، إلا أنْ يريد الله إهلاكنا، فأمورنا راجعة إلى الله، غير خارجة عن قبضته، يُسعد من يشاء بالطاعة، ويشقي من يشاء بالمعصية، وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله تعالى، ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر، ألا ترى إلى قول الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. وكان نبينا محمد ﷺ كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قال الزجاج ـ رحمه الله تعالى ـ: المعنى: وما يكون لنا أنْ نعود فيها، إلا أنْ يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أنْ نعود فيها، وتصديق ذلك قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ أي: أحاط علم ربنا سبحانه وتعالى أزلاً بكل الأشياء، ويعلم ما كان وما سيكون، قبل أنْ يكون، فالسعيد من سعد في علم الله، والشقي من شقي في علم الله، فهو سبحانه وتعالى يعلم كل حكمة ومصلحة ومشيئة تجري على موجب الحكمة، فكل

---

(١) المراغي.　　(٢) الواحدي.

ما يقع فهو مشتمل عليها، وفي هذا إيماء إلى عدم الأمن من مكر الله سبحانه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتمدنا، وفي أنْ يثبتنا على ما نحن عليه من الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله، ويتم علينا نعمته ويعصمنا من نقمته، وإليه استندنا في أمورنا كلها، فإنَّه الكافي لمن توكل عليه؛ أي: إلى الله وحده وكلنا أمورنا، مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من الحفاظ على شرعه ودينه، فهو الذي يكفينا تهديدكم، وما ليس في استطاعتنا من جهادكم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. إذ من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية، ومراعاة السنن الكونية، والاجتماعية، فمن يترك العمل بالأسباب.. فهو الجاهل المغرور، لا المتوكل المأجور.

كيف وقد قال النبي ﷺ لمن سأله: أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله؟ «إعقلها وتوكل». رواه الترمذي، وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ، بعد أنْ أمره بمشورة أصحابه في غزوة أحد: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ وإنما يكون العزم بعد الأخذ في الأسباب، فقد لبس من يومئذ درعين، وأعد العدة لقتال أعدائه، ورتب الجيوش بحسب القوانين المعروفة في ذلك العصر.

وخلاصة رد شعيب على الملأ من قومه: أنَّه عجب من تهديدهم وإنذارهم، وأقام الأدلة على امتناع عودهم إلى ملة الكفر باختيارهم، وعدم استطاعة أحد إجبارهم عليه، غير الله الفعال لما يريد، ثمَّ ثنى بذكر توكله على الله الذي يكفي من توكل عليه ما أهمه، مما هو فوق كسبه واختياره، ثمَّ ثلث بالدعاء الذي لا يكون مرجو الإجابة إلا بعد القيام بعمل ما في الطاقة من الأعمال الكسبية مع التوكل على الله فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ﴾واحكم وافصل واقض ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل الذي لا جور فيه، ولا ظلم ولا حيف، الذي مضت به سنتك في التنازع بين المرسلين والكافرين، وبين المحقين والمبطلين. وكرر الظرف في قوله: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ بخلاف قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ زيادة في تأكيد تميزه ومن معه من قومه ا. هـ «سمين» ﴿وَأَنتَ﴾: يا ربنا ﴿خَيْرُ

﴿ٱلْفَٰتِحِينَ﴾؛ أي: خير الحاكمين لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم، وتنزهك عن ابتاع الظلم واتباع الهوى في الحكم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: وقال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم؛ أي: قال الرؤساء من قومه للسفلة ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ في دينه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ في حال اتبعتموه فيما يقول ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: لمغبونون في الدين وفي الدنيا؛ لأنَّه يمنعكم من أخذ الزيادة من أموال الناس.

والمعنى: وقال الكافرون من قوم شعيب ـ وهم الملأ الذين جحدوا آيات الله، وكذبوا رسوله، وتمادوا في غيهم ـ لآخرين منهم: والله لئن اتبعتم شعيباً فيما يقول، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله، وأقررتم بنبوته.. إنَّكم إذاً لخاسرون في فعلكم وترككم ملتكم التي أنتم عليها، وعمموا الخسران ليشمل خسران الشرف والمجد، إذ بإيثاركم ملته على ملة آبائكم وأجدادكم، تعترفون بأنَّهم كانوا ضالين ومعذبين عند الله، وخسران الثروة والربح بما تحترفونه من تطفيف الكيل والميزان، وبخس الغرباء أشياءهم.

ووصف الملأ أولا بالاستكبار؛ لأنَّه هو الذي جرَّأهم على تهديده، وإنذاره بالإخراج من القرية، وإشعاره بأنَّهم أرباب السلطان فيها، وثانياً بالكفر؛ لأنَّه هو الحامل على الإغواء وصدهم عن الإيمان، والأخذ بما جاء به، ثم عللوا لهم صدهم بأنَّ في ذلك لهم مصلحة أيما مصلحة، وفائدة أيما فائدة.

والخلاصة: أنه تعالى وصفهم أولاً بالضلال، ثم وصفهم ثانياً بالإغواء والإضلال.

ثم ذكر عاقبة أمرهم وما أصابهم من نكال فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة الشديدة المهلكة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾؛ أي: فصاروا في مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: منكبين على وجوههم ميِّتين. وقد بين سبحانه في سورة الشعراء أنَّ الله أرسل شعيباً إلى أصحاب الأيكة ـ وهم إخوة مديَن في النسب ـ. أخرج ابن عساكر، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال: كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر ومديَن، وفي ذلك دليل على أن الله أرسله

إلى أهل مديَن وإلى من اتصل بهم إلى ساحل البحر، وأن حال الفريقين في الكفر والمعاصي كانت واحدة، وكان ينذرهم متنقلاً بينهم، وكان عذاب مدين بالصيحة والرجفة المصاحبة لها، وعذاب أصحاب الأيكة بالسموم والحر الشديد، وقد انتهى ذلك بظلةٍ من السحاب، فزعوا إليها يتبردون بظلها، فأطلقت عليهم فاختنقوا بها أجمعون.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾؛ أي: استؤصلوا بالمرة، وصاروا كأنَّهم لم يقيموا في قريتهم أصلاً؛ أي: عوقبوا بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾. وصاروا هم المخرجين من القرية إخراجاً لا دخول بعده أبداً ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودُنيا دون الذين اتبعوه؛ فإنَّهم الرابحون في الدارين.

وعبارة «المراغي» هنا: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ الآية. جاءت هذه الجملة بياناً من الله لما انتهى إليه أمرهم، وكيف كان عاقبة عملهم، فكأنَّ سائلاً سأل عما آل إليه تهديدهم لشعيب وقومه بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ وقولهم لقومهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فأجاب عن الأول جواباً مناقضاً له بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا...﴾ إلخ؛ أي: الذين كذبوا شعيباً وأنذروه بالإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم، فحرموها كأنْ لم يقيموا فيها، ولم يعيشوا فيها بحال، وأجاب عن الثاني: بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: الذين كذبوا وزعموا أنَّ من يتبعه يكون خاسراً، كانوا هم الخاسرين لما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة، دون الذين اتبعوه؛ فإنَّهم كانوا هم الفائزين المفلحين.

وفي الآية[1] إيماء إلى أنَّ الحريص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على أهل الحق، تكون عاقبته الحرمان الأبدي منه، كما أنَّ الحريص على الربح، بأكل أموال الناس بالباطل، ينتهي بالحرمان منه ومن غيره.

---

(١) المراغي.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فأدبر شعيب عنهم، وخرج من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله ﴿وَقَالَ﴾ حزناً عليهم ﴿يَٰقَوْمِ﴾ والله ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ وأديت إليكم ما بعثني به إليكم، من الأوامر والنواهي والتوحيد ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: وأظهرت لكم النصح فأبيتم قَبوله، فجاءكم العذاب ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؛ أي: فكيف أحزن على عذاب قوم جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسله، وأتوجع لهلاكهم، بعد أنْ أعذرت إليهم، وبذلت جهدي في سبيل هدايتهم ونجاتهم، فاختاروا ما فيه هلاكهم؛ لأنَّهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر وإنَّما يأسى مَن قصر فيما يجب عليه من النصح والإنذار.

والمعنى[(١)]: لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة مما حل بكم، فلم تَسمعوا قولي، ولم تقبلوا نصحي، فكيف آسى عليكم؟ والمراد: أنَّهم ليسوا مستحقين بأنْ يأسى الإنسان عليهم، والاستفهام فيه للإنكار وفيه معنى التعجب.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِّن نَّبِىٍّ﴾؛ أي: نبياً من الأنبياء فكذبه أهلها ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾؛ أي: عاقبناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾؛ أي: بالشدة في أحوالهم، كالخوف وضيق العيش ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ أي: الأمراض والأوجاع، أي: وما أرسلنا في قرية من القرى نبياً من الأنبياء، فكذبه أهلها، إلا أخذنا أهلها وعاقبناهم بالفقر والجوع، والأوجاع والأمراض ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾؛ أي: لكي يتضرعوا ويتذللوا، فَيَدَعوا ما هم عليه من الاستكبار وتكذيب الأنبياء، وينقادوا لأمر الله تعالى.

والمعنى: أنَّ سنتنا قد جرت ـ ولا مبدل لها ـ أنَّنا إذا أرسلنا نبياً في قوم وكذبوه.. أنزلنا بهم الشدائد والمصائب، لنُعِدَّهم ونؤهِّلهم للتضرع والإخلاص في دعائنا بكشفها، وقد ثبت بالتجارب لدى علماء الأخلاق: أنَّ الشدائد تربي الناس، وتصلح فساد أحوالهم، فالمؤمن قد يشغله هناء العيش عن حاجته إلى

(١) المراح.

ربه، لكن الشدائد تذكره به، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها له بفقدها، وتنبهه الشدائد والأهوال إلى وجود الرب الخالق، والمدبر لأمور الخلق، وتذكره الأهوال بمصدر هذا النظام في الكون ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أخذناهم بالبأساء والضراء ﴿بَدَّلْنَا﴾؛ أي: أعطينا لهم ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾؛ أي: الرخاء والسعة؛ أي: ثمَّ أعطيناهم السعة والصحة بدل ما كانوا فيه من البلاء والمرض؛ لأنَّ ورود النعمة في المال والبدن يدعو إلى الاشتغال بالشكر، والمراد: بدلنا مكان الحال السيئة من البأساء والضراء، الحال الحسنة من السراء والنعمة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾؛ أي: حتى كثروا في أنفسهم وأموالهم ونموا، إذ إنَّ الرخاء مما يكون سبباً في كثرة النسل، وبه تتم النعمة في الدنيا على الموسرين، ومن هذه الحسنات: ما حدث لقوم هود من النعم التي بطروا بها، وذكرهم هود بها في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وكذا ما قاله صالح لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. ﴿وَقَالُوا۟﴾ قولاً يدل على أنَّهم لا يعتبرون بأحداث الزمان، إذ قالوا: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا﴾ ممن قبلنا ﴿ٱلضَّرَّآءُ﴾؛ أي: ما يسوؤهم من الشدائد والأمراض ﴿وَٱلسَّرَّآءُ﴾؛ أي: ما يسرهم من الرخاء والراحة والخصب، كما أصابنا، وما نحن إلا مثلهم، فيصيبنا مثل ما أصابهم، وهذه عادة الزمان في أهله، فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد، ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة، وتلك عادة الدهر بأبنائه، فلا الضراء عقاب على ذنب يرتكب، ولا السراء جزاء على صالحات تكتسب، فصبروا على دينهم، فنحن مثلهم، نقتدي بهم، فليست عقوبة من الله بسبب ما نحن عليه من الدين والعمل، فلمَّا لم ينقادوا بالشدة وبالرخاء، ولم ينتفعوا بذلك الإمهال.. أخذهم الله بغتة أينما كانوا، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بعد ذلك ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة بالعذاب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: والحال أنَّهم لا يعلمون وقت نزول العذاب بهم، ولا يخطرون ببالهم شيئاً من المكاره، أي: فكان عاقبة أمرهم أنْ أخذناهم بالعذاب فجأة، وهم لا شعور لديهم بما سيحل بهم، إذ هم

قد جهلوا سنن الله التي وضعها في شؤون الاجتماع، فلا هم اهتدوا إليها بعقولهم، ولا هم صدقوا الرسل فيما أنذروهم به، ونحو هذه الآية قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فالكافرون إذا مسهم الشر.. يئسوا وابتأسوا، وإذا مسهم الخير.. بطروا واستكبروا وبغوا في الأرض، وأهلكوا الحرث والنسل، والمؤمنون بالله وما جاء به رسله تكون الشدائد والمصائب تربيةً لهم وتمحيصاً.

ولما ترك[1] المسلمون هدى القرآن في حكوماتهم ومصالحهم العامة، في أعمال الأفراد.. سلبهم الله ما أعطاهم من أنواع العلم والحكمة، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، فاتبعوا أهل الكتاب في خرافاتهم وحفلهم، وتقليد آبائهم وأجدادهم، فغشيهم الجهل والثابتة منهم قلدوا الإفرنج في الفسق والفجور، وشر ما وصلوا إليه في طور فساد حضارتهم، وقلدوهم حتى فيما لا يوافق أحوالهم وبلادهم ومصالحهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ الذين أهلكناهم ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿لَفَتَحْنَا﴾؛ أي: لبسطنا ﴿عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿و﴾ بركات من ﴿الأرض﴾ بالنبات، والثمار، والحبوب، والمواشي، والأمن، والسلامة؛ أي: لوسعنا عليهم الخيرات من فوقهم ومن تحتهم، ومن كل الجوانب من النعم التي لم يروا مثلها قط. وقال[2] السدِّي: المعنى: لفتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق، وقيل: بركات السماء إجابة الدعاء، وبركات الأرض تيسير الحاجات. وقيل: البركات النمو والزيادة، فمن السماء بجهة المطر والريح والشمس والقمر، ومن الأرض بجهة النبات والحفظ لما نبت؛ وذلك لأنَّ السماء تجري مجرى الأب، والأرض تجري مجرى الأم،

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

ومنهما تحصل جميع الخيرات بخلق الله وتدبيره. ذكره أبو حيان.

وقرأ ابن[1] عامر وعيسى الثقفي وأبو عبد الرحمن: ﴿لفتَّحنا﴾ بتشديد التاء. ومعنى الفتح هنا التيسير عليهم، كما تيسر على الأبواب المنغلقة بفتحها، ومنه: فتحت على القارىء، إذا يسرت عليه بتلقينك إياه ما تعذر عليه حفظه من القرآن إذا أراد القراءة.

والمعنى[2]: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ التي أرسلنا إليها رسلنا ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالرسل المرسلين إليهم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما صمموا عليه من الكفر، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ليسرنا لهم خير السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها، ويجوز أن يكون اللام في ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ للجنس، والمعنى: ولو أنَّ أهل القرى أينما كانوا، وفي أي بلد سكنوا آمنوا واتقوا. إلى آخر الآية.

وقيل المعنى[3]: ولو أنَّ أهل مكة ومن حولهم من أهل القرى آمنوا بما دعاهم إليه خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه، من عبادته تعالى وحده، واتقوا ما نهاهم عنه من الشرك والفساد في الأرض، بارتكاب الفواحش والآثام.. لفتحنا عليهم أنواعاً من بركات السماء والأرض لم يعهدوها من قبل، فتكون لهم أبواب نعم وبركات، غير التي عهدوا في صفاتها ونمائها وثباتها وأثرها فيهم، فأنزلنا عليهم الأمطار النافعة التي تخصب الأرض، وتكسب البلاد رفاهية العيش، وآتيناهم من العلوم والمعارف، وفهم سنن الكون، ما لم يصل إلى مثله البشر من قبل.

والخلاصة: أنَّهم لو آمنوا.. لوسعنا عليهم الخير من كل جانب، ويسرناه لهم، بدل ما أصابهم من عقوبات بعضها من السماء، وبعضها من الأرض.

والقاعدة التي أقرها القرآن الكريم: أنَّ الإيمان الصحيح، ودين الحق سبب

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

في سعادة الدنيا، ويشارك المؤمنين في المادي منها الكفار، وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: إنَّ ذلك الفتح كان ابتلاء واختبارا لحالهم، وكان من أثره فيهم البطر والأشر، بدلاً من الشكر لمولي النعم، فكان نقمة لا نعمة، وفتنة لا بركة، ولكن المؤمنين إذا فتح الله عليهم.. كان أثره فيهم شكر الله تعالى عليه، والاغتباط بفضله، واستعماله في سبيل الخير دون الشر، وفي الإصلاح دون الإفساد، وكان جزاؤهم على ذلك زيادة النعم في الدنيا، وحسن الثواب عليها في الآخرة.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ بالأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بالعذاب والجدوبة ﴿بِـ﴾سبب ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من الذنوب والمعاصي الموجبة لعذابهم، أو بسبب كسبهم الذنوب.

أي: ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا، بل كذبوا، فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصي التي تفسد نظم المجتمع البشري، وذلك الأخذ بالشدة أثر لازم لكسبهم المعاصي، بحسب السنن التي وضعها المولى في الكون، ويكون فيه العبرة لأمثالهم، إنْ كانوا يعقلون هذه النواميس العامة، التي لا تبديل فيها ولا تغيير.

ثم عجب من حالهم وذكر من غفلتهم فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ والتقريع، والهمزة داخلة على محذوف، والفاء عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، والتقدير: أجهل أهلُ مكة وغيرهم من أهل القرى الذين بلغتهم الدعوة والذين ستبلغهم ما نزل بمن قبلهم، وغرهم ما هم فيه من نعمة فأمِنوا؟ ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾؛ أي: عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾؛ أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم غافلون عن ذلك، فلا ينبغي لهم أنْ يأمنوا ذلك، والهمزة في قوله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي أيضاً، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أجهلوا ذلك وأمِنوا؟ ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾؛ أي: عذابنا ﴿ضُحًى﴾؛ أي: نهاراً ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: والحال أنَّهم يشتغلون بما لا ينفعهم؛ أي: والحال أنَّهم مشتغلون باللعب،

ومنهمكون في أعمالهم التي هي كأنَّها لعب أطفال، لعدم الفائدة التي تترتب عليها.

والخلاصة: أنّه تعالى خوفهم نزول العذاب بهم في أوقات الغفلات، إما وقت النوم، وإمَّا وقت الضحى، إذ يكثر فيه تشاغل الناس باللذات. وفي «الخازن»: والمقصود من الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى خوفهم بنزول العذاب وهم في غاية الغفلة، وهو حال النوم في الليل، ووقت الضحى في النهار؛ لأنَّه الوقت الذي يغلب على الإنسان التشاغل فيه بأمور الدنيا، وأمور الدنيا كلها لعب، ويحتمل أنْ يكون المراد خوضهم في كفرهم، وذلك لعب أيضاً يضر ولا ينفع. انتهى.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر(١): ﴿أوْ أمن﴾ بسكون الواو، وجعل أو عاطفة، ومعناها التنويع، لا أن معناها الإباحة أو التخيير، خلافاً لمن ذهب إلى ذلك، وحذف ورش همزة: ﴿أمن﴾ ونقل حركتها إلى الواو الساكنة، والباقون بهمزة، فالاستفهام بعدها واو العطف، وتكرر لفظ ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لما في ذلك من التسميع والإبلاغ والتهديد والوعيد بالسامع، ما لا يكون في الضمير لو قال: أو أمنوا؛ فإنه متى قصد التفخيم والتعظيم والتهويل جيء بالاسم الظاهر.

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ للتقريع(٢) والتوبيخ وإنكار ما هم عليه من أمان ما لا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم في هذين الوقتين، وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لإنكار ما أنكره عليهم، وجاء العطف بالفاء وإسناد الفعل إلى الضمير؛ لأن الجملة المعطوفة تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أو ﴿أَمِنَ﴾ وتأكيد لمضمون ذلك، فناسب إعادة الجملة مصحوبة بالفاء. وقال أبو السعود: تكرير المكرر لزيادة التوبيخ والتقريع، والمراد بـ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هنا إتيان بأسه في الوقتين المذكورين؛ ولذلك عطف الأول والثالث بالفاء؛ فإنَّ الإنكار فيهما متوجه إلى ترتب الأمن على الأخذ المذكور، وأما الثاني فمن تتمته

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

الأول، فلذلك عطف بالواو. انتهى.

و﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى الفاعل، وهو كناية عن أخذه العبد من حيث لا يشعر. قال ابن عطية: و﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هي إضافة مخلوق إلى الخالق، كما تقول: ناقة الله وبيت الله، والمراد فعل معاقب به مكر الكفرة، فلما كان عقوبة الذنب.. أضيف إلى الله؛ فإن العرب تسمي العقوبة ـ على أي جهة كانت ـ باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة. وهذا نص في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾. انتهى، وقال عطية: ألقوا في مكر الله: عذابه وجزاؤه على مكرهم، وقيل: مكره تعالى استدراجه بالنعمة والصحة، وأخذه على غرة، وكرر المكر مضافاً إلى الله تحقيقاً لوقوع جزاء المكر بهم. ذكره أبو حيان في «البحر».

والمذهب الأسلم الذي نلقى الله عليه: أن مكر الله تعالى صفة ثابتة له تعالى فنثبتها، ولا نكيفه ولا نعطله، أثرها أخذ العبد من حيث لا يشعر.

والمعنى: أجهلوا بأس الله تعالى بمن قبلهم، فأمنوا مكر الله لهم في هذين الوقتين: البيات والضحى ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ وعذابه ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: إلا الكافرون الذين خسروا أنفسهم، حتى صاروا إلى النار المؤبدة.

وقال المراغي: وإذا كانت الآية ناطقة بأن أمن الصالح المتعبد من مكر الله جهلاً يورث الخسر، فما بال من يأمن مكر الله وهو مسترسل في معاصيه، إتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته؟!. وقد كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء بقوله: «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك». وذكر سبحانه أنَّ الراسخين في العلم يدعونه فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

وكما أن الأمن من مكر الله خسران ومفسدة.. فاليأس من رحمة الله كذلك، فكلاهما مفسدة تتبعها مفاسد.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ للتوبيخ والتقريع، كالتي قبلها، وهي داخلة على محذوف، والواو عاطفة ما بعدها على

ذلك المحذوف، والتقدير: أجهل الذين يرثون أرض مكة وما حولها من بعد إهلاك أهلها الذين هم أسلافهم سنتنا فيمن قبلهم؟ أي: أجهل هؤلاء الوارثون سنتنا فيمن قبلهم، من إهلاكهم بذنوبهم، ولم يهد لهم؛ أي: ولم يتبين لهؤلاء الوارثين من بعد إهلاك أهلها، الذين هم أسلافهم. ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا أولئك المتقدمين؛ أي: أجهلوا سنتنا فيمن قبلهم ولم يبين لهم؟ أي: لهؤلاء الوارثين أنَّه؛ أي: أن الشأن والحال، لو شئنا وأردنا إصابة هؤلاء الوارثين بذنوبهم، أصبناهم وأهلكناهم بذنوبهم، وكفرهم بمحمد ﷺ، كما أصبنا وأهلكنا أولئك الموروثين الذين هم أسلافهم بذنوبهم، والواو في قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى (أو) التي تمنع الجمع، عاطفة ما بعدها على أصبناهم؛ أي: أو نطبع ونختم على قلوب هؤلاء الوارثين إن نهلكهم بالعذاب، كما طبعنا على قلوب أولئك المتقدمين ﴿فَهُمْ﴾؛ أي: هؤلاء الوارثون حينئذ؛ أي: حين إذ طبعنا على قلوبهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ الموعظة من أخبار الأمم المهلكة، ولا يقبلونها.

والمراد[1]: لو شئنا نفعل بهؤلاء الوارثين إما الإهلاك وإما الطبع على القلب؛ لأنَّ الإهلاك لا يجتمع مع الطبع على القلب، فإذا أهلك شخص يستحيل أن يطبع على قلبه؛ وإنَّما يجعل الطبع حال استمراره على الكفر، فهو يكفر أولاً، ثم يكون مطبوعاً عليه في الكفر، ولم يكن هذا التقرير منافياً لصحة عطف قوله: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ على ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾.

والمعنى: أي أكان[2] ما ذكر آنفاً مجهولاً لأهل القرى، وأنه هو سنة الله، ولم يتبين لأولئك الذين يرثون الأرض من بعد أهلها، قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، أنَّ شأننا فيهم، كشأننا فيمن سبقهم، فهم خاضعون لمشيئتنا، فلو نشاء أن نعذبهم بسبب ذنوبهم لعذبناهم، كما أصبنا أمثالهم ممن قبلهم بمثلها، وأهلكناهم كما أهلكناهم، فإن لم نهلكهم بالعذاب.. نطبع على قلوبهم، فلا يسمعون

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. إذ أن قلوبهم قد ملئت بمعتقدات وشهوات تصرفها عن غيرها، فجعلتهم من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، وقد كان في مثل هذه القصص عبرة للمسلمين أيما عبرة، فكتابهم يقص عليهم قصص الأمم قبلهم، ويبين لهم أنَّ ذنوب الأمم لا تغفر، كذنوب الأفراد، وسننه فيها لا تتبدل ولا تتحول، فكان عليهم أنْ يتقوا كل ما قصه من ذنوب الأمم التي هلك بها من قبلهم، وزالت بها الدولة لأعدائهم، ولكنهم قصروا في وعظ الأمة بها، وإنذارهم عاقبة الإعراض عنها، وكان عليهم أن يعتبروا بقول النبي ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها» وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وفي «زاد المسير» وقرأ يعقوب[1]: ﴿نهد﴾ بالنون، وكذلك في طه والسجدة. قال الزجاج: من قرأ بالياء.. فالمعنى: أولم يبين الله لهم؟ ومن قرأ بالنون.. فالمعنى: أولم نبين؟ انتهى.

وقال الشوكاني: قرىء ﴿نهد﴾[2] بالنون وبالتحتية، فعلى قراءة النون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه وتعالى، ومفعول الفعل: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أنَّ الشأن هو هذا، وعلى قراءة التحتية يكون فاعل ﴿يهد﴾ هو ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم، والهداية هنا بمعنى التبيين، ولهذا عدِّيت باللام. انتهى.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ التي بَعُد عهدها، وطال الأمد على تاريخها، وجهل قومك حقيقة حالها التي أهلكناها ـ وهي قرى قوم نوح، وهود وصالح، ولوط، وشعيب ـ المتقدم ذكرها ﴿نَقُصُّ﴾ ونتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ونخبرك ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾؛ أي: بعض أخبارها، مما فيه العبرة لقومك، والتسلية لك وللمؤمنين؛ لأنَّه[3] إنَّما قص عليه ﷺ ما فيه عظة وإنزجار، دون غيرهما، ولها أنباء غيرها لم يقصها عليه؛

---

(١) زاد المسير.
(٢) فتح القدير.
(٣) الفتوحات.

وإنَّما قص عليه أنباء أهل هذه القرى؛ لأنَّهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم، فتوهموا أنَّهم على الحق، فذكرها الله تعالى لقوم محمد ﷺ ليحترزوا عن مثل تلك الأعمال.

أي: نقص أنباءها عليك لتتسلى، وليحذر كفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصاب هذه القرى، والمضارع يحتمل أنْ يكون على معناه، والمعنى: نقص عليك فيما سيأتي مفترقاً في السور، كما هو الواقع، فإنَّ القرى المذكورة فيما سبق ستأتي قصصها في السور الآتية بأبسط مما ذكر هنا، ويحتمل أنْ يكون بمعنى الماضي، ويحتمل أنْ يكون بالمعنيين.

وقال المراغي: والحكمة في تخصصها بالذكر، أنَّها كانت في بلاد العرب وما جاورها، وكان أهل مكة. وغيرهم ممن وجهت إليهم الدعوة أول الإسلام يتناقلون بعض أخبارها، وهي جميعاً طبعت على غرار واحد في تكذيب الرسل، والمماراة فيما جاؤوا به من النذر، فحل بهم النكال بعذاب الاستئصال، فالعبرة في جميعها واحدة، ومن ثم فصلها في قصة موسى الآتية؛ لأنَّ قومه آمنوا به، وإنَّما كذب فرعون. انتهى.

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ موطئة للقسم؛ أي: إنَّ من أخبارهم - والله - لقد جاءتهم؛ أي: لقد جاءت كل أمة من تلك الأمم المهلكة أنبياءهم، الذين أرسلوا إليهم بالبينات؛ أي: المعجزات الواضحة، الدالة على صحة رسالتهم الموجبة للإيمان ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾؛ أي: فما كان أهل تلك القرى - بعد رؤية تلك المعجزات - ليؤمنوا بالشرائع التي كذبوها قبل رؤية تلك المعجزات، والمعنى[1]: كانت كلُّ أمة من تلك الأمم في زمن الجاهلية يتسامعون بكلمة التوحيد من بقايا مَنْ قبلهم فيكذبونها، ثم كانت حالهم بعد مجيء نبيهم الذي أرسل إليهم كحالتهم قبل ذلك، كأنْ لم يبعث إليهم أحد.

---

(١) المراح.

والمعنى[1]: ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم، وبالآيات التي اقترحوها عليهم لإقامة حجتهم، فجاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم، ولكن لم يكن من شأنهم أنْ يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كذبوا به من قبل مجيئها حين بدأ الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله وحده بما شرعه، وترك الشرك والمعاصي.

ذاك أنَّ شأن المكذبين عناداً أو تقليداً.. أن يصروا على التكذيب بعد إقامة الحجة، إذ لا قيمة لها في نظرهم، فهم إمَّا جاحدون ومعاندون ضلوا على علم، وإما مقلدون يأبون النظر والفهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما طبع الله سبحانه وتعالى، وختم على قلوب كفار الأمم الخالية، من أهل القرى المذكورة وأهلكهم ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ويختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين كتب عليهم أنَّهم لا يؤمنون من قومك، فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير، ولا ترغيب ولا ترهيب؛ أي: مثل ما ذكر من عناد هؤلاء وإصرارهم على الضلال، وعدم تأثير الدلائل والبينات في عقولهم.. يكون الطبع على قلوب من ران الكفر على قلوبهم، وصار العناد ديدنهم، سنة الله في أخلاق البشر وأحوالهم، إذ هم يأنسون بالكفر وأعماله، وتستحوذ أوهامه على عقولهم، ويملأ حب الشهوات أفئدتهم، فلا يقبلون بحثاً، ولا فيما هم عليه نقدا، فما مثلها إلا مثل السكة التي طبعت على طابع خاص أثناء سبك معدنها وإذابته، ثمَّ جمدت، فلا تقبل بعد ذلك نقضاً ولا شكلاً آخر. وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وإعلام له بأنَّ أهل مكة قد وصلوا إلى حال من الجمود والعناد، وفساد الفطرة وإهمال النظر والعقل، لا تؤثر فيها البينات وإنْ وضحت، والآيات وإنْ اقترحت، وقد كانوا يقترحون عليه الآيات، وكان يتمنى أنْ يؤتيه الله ما اقترحوا منها حرصاً على إيمانهم، حتى بين الله له طباعهم وأخلاقهم، ليعرف مبلغ أمرهم في قبول دعوته، وأنَّه لا أمل له

---

(١) المراغي.

فيهم بحال ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾؛ أي: وما وجدنا[1] لأكثر الأمم الخالية والقرون الماضية، الذين قصصنا خبرهم عليك يا محمد ـ من وفاء بالعهد الذي عهدنا إليهم، وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق ـ قال ابن عباس: إنَّما أهلك الله أهل القرى.. لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به؛ أي: وما وجدنا[2] لأكثر أولئك الأقوام عهداً يفون به، سواء أكان عهد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إذ قد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبي فوق جميع القوى، وعلى إيثار الحسن، واجتناب غيره، وعلى حب الكمال، وكراهة النقص، أم كان العهد الذي أخذه ربهم عليهم ـ وهم في الأصلاب ـ أنه ربهم ومليكهم، وأنَّه لا إلٰه إلا هو، وأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا معه غيره، بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع، وقد جاء في «صحيح مسلم»: «يقول الله: إنّي خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» وفي «الصحيحين»: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»..

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين خارجين عن طاعتنا وأمرنا، وهذا المعنى على مذهب الكوفيين من كون ﴿إن﴾ للنفي واللام بمعنى إلا، وعند غيرهم إنَّ ﴿إن﴾ مخففة، واسمها ضمير الشأن، واللام فارقة، والمعنى حينئذ أي: وإنَّ الشأن والحال وجدنا أكثر الأمم في عالم الشهادة، خارجين عن كل عهد فطري وشرعي وعرفي، فهم ناكثون غادرون للعهود، مرتكبون أفانين المعاصي، وفي التعبير بالأكثر إيماء إلى أنَّ بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهده الله عليه، أو تعاهد عليه مع الناس.

الإعراب

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

(1) الخازن. (2) المراغي.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنَّه قيل: فماذا قالوا بعد سماعهم هذه المواعظ من شعيب؟ إهـ أبو السعود. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول صفة للملأ ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من واو ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾. ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾: مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ اللام: موطئة للقسم ﴿نخرجنك﴾ فعل ومفعول، ونون توكيد، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول قالوا ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء مقول القول على كونها معترضة ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على الكاف في ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿مَعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نخرجنك﴾ وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مَعَكَ﴾ متعلق بالإخراج لا بالإيمان ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿نخرجنك﴾ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ واللام: موطئة للقسم المحذوف ﴿تعودن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل؛ لأنَّ أصله تعودونن، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم معطوف على جملة القسم في قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾. ﴿فِى مِلَّتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تعودن﴾.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿شعيب﴾: والجملة مستأنفة. ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾. وإن شئت قلت: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف تقديره: أتعيدوننا في ملتكم، أو تخرجوننا من قريتكم كارهين، كلا الأمرين، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾[1]. قال الزمخشري: الهمزة:

(١) البحر المحيط.

للاستفهام، والواو: واو الحال تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، أو مع كوننا كارهين. انتهى. فجعل الاستفهام خاصاً بالعود في ملتهم، وليس كذلك، بل الاستفهام هو عن أحد الأمرين: الإخراج أو العود، وجعل الواو واو الحال، وقدره: تعيدوننا في حال كراهتنا وليست واو الحال التي يعبر عنها النحويون بواو الحال، بل هي واو العطف، عطفت على حال محذوفة كقوله: ردوا السائل ولو بظلف محرق، ليس المعنى ردوه في حال الصدقة عليه بظلف محرق، بل المعنى: ردوه مصحوباً بالصدقة، ولو مصحوباً بظلف محرق. ذكره أبو حيان في «البحر». والواو: واو الحال: ﴿لو﴾: حرف شرط بمعنى إنْ الشرطية ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿كَٰرِهِينَ﴾: خبره، وجملة كان فعل شرط لـ﴿لو﴾. وجوابها معلوم مما قبلها تقديره: أو لو كنا كارهين تعيدوننا أو تخرجوننا؟ وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب، حال من ضمير المفعول في الفعل المحذوف تقديره: أتعيدوننا، أو أتخرجوننا، حالة كوننا كارهين كلا الأمرين؟

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة على كونها مقول ﴿قال﴾. وجواب القسم محذوف تقديره: والله لقد افترينا ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿عُدْنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾، على كونها فعل شرط لها ﴿فِى مِلَّتِكُم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عُدْنَا﴾: وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إنْ عدنا في ملتكم. . فقد افترينا على الله كذباً. وجملة ﴿إِنْ﴾: الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بَعْدَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿عُدْنَا﴾. ﴿بَعْدَ﴾: مضاف ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مضاف إليه، ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، والتقدير: بعد وقت تنجية الله تعالى إيانا منها ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَكُونُ﴾:

فعل مضارع ناقص ﴿لَنَآ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يَكُونُ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿نَّعُودَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾: وفاعله ضمير المتكلمين يعود على ﴿شعيب﴾ وأتباعه ﴿فِيهَآ﴾ جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿يَكُونُ﴾ تقديره: وما يكون العود فيها كائناً لنا، وجملة ﴿يَكُونُ﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من عام الأحوال ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَشَآءَ﴾: منصوب به، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، ﴿رَبُّنَا﴾: بدل من الجلالة، أو عطف بيان منه، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: عودنا، وجملة، ﴿أَن﴾ المصدرية مع ما في حيزها في تأويل مصدر مجرور بإضافة المستثنى المقدر إليه والتقدير: وما يكون لنا أن نعود فيها في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئة الله عودنا فيها ﴿وَسِعَ رَبُّنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: مفعول به لـ﴿وَسِعَ﴾. ﴿عِلْمًا﴾: تمييز محول عن الفاعل؛ أي: وسع علمه كل شيء ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَوَكَّلْنَا﴾. ﴿تَوَكَّلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف ﴿ٱفْتَحْ﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾: ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱفْتَحْ﴾. ﴿وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱفْتَحْ﴾. ﴿وَأَنتَ﴾: مبتدأ ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾: حال من الواو ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾: إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: اللام: موطئة للقسم ﴿إِنْ﴾: حرف شرط ﴿ٱتَّبَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿شُعَيْبًا﴾: مفعول به، ﴿إِنَّكُمْ﴾: ﴿إنَّ﴾: حرف نصب، والكاف:

اسمها، ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء ملغاة لا عمل لها لعدم دخولها على الفعل. ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾: اللام: حرف ابتداء، ﴿خاسرون﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾: من اسمها وخبرها جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: إنْ اتبعتم شعيباً.. فإنَّكم لخاسرون.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الفاء: حرف عطف وتعقيب ﴿أَخذتهُمْ الرَّجفَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾. ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، الفاء: عاطفة ﴿أصبحوا﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جَٰثِمِينَ﴾، ﴿جَٰثِمِينَ﴾ خبر ﴿أصبحوا﴾، وجملة ﴿أصبحوا﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: كأنهم ﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَغۡنَوۡاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَّمۡ﴾. ﴿فِيهَاۚ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿كَأَن﴾ وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾: مبتدأ، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿تولى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، وما بينهما اعتراض، ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ﴿تولى﴾ ﴿وَقَالَ﴾: معطوف على ﴿تولى﴾، ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: إلى آخر الآية مقول محكي لقال، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: منادى

مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿لَقَدْ﴾: اللام: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول، ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية، جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَنَصَحْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾. ﴿فَكَيْفَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كيف﴾: اسم استفهام في محل النصب على التشبيه بالحال، ﴿ءَاسَى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿شعيب﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿نصحت﴾، ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ متعلق بـ﴿ءَاسَى﴾، ﴿كَافِرِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمٍ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

﴿وَمَآ﴾: نافية ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾، متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿نَّبِيٍّ﴾: مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ﴿إلا﴾: أداة استثناء مفرغ من عام الأحوال، ﴿أَخَذْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿أَهْلَهَا﴾: مفعول ﴿أَخَذْنَآ﴾، ﴿بِالْبَأْسَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أَخَذْنَآ﴾، ﴿وَالضَّرَّآءِ﴾: معطوف على ﴿الْبَأْسَآءِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ولكنها على تقدير قد والتقدير: وما أرسلنا في قرية من القرى المهلَكة، نبياً من الأنبياء، في حال من الأحوال، إلا في حال كوننا آخذين أهلها بالبأساء والضراء، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج، والهاء اسمها وجملة ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة: مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿بَدَّلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾: مفعول ﴿كان﴾ ومضاف إليه، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: في مكان السيئة، ﴿الْحَسَنَةَ﴾: مفعول أول، والمعنى: بدلنا مكان الحال السيىء الحال الحسن، فالحسنة هي المأخوذة الحاصلة، ومكان السيئة هو المتروك الذاهب، وهو الذي تصحبه الباء في مثل هذا التركيب، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَآ﴾

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿عَفَوا﴾: فعل وفاعل، في محل النصب بأن المضمرة، ﴿وَّقَالُوا﴾: معطوف عليه، والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ الجار والمجرور، متعلق بـ﴿بَدَّلْنَا﴾؛ أي: بدلنا مكان السيئة الحسنة إلى عفوهم، وقولهم: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ﴿وَٱلسَّرَّآءُ﴾: معطوف على ﴿ٱلضَّرَّآءُ﴾: والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ الفاء: عاطفة ﴿أخذناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿قالوا﴾. ﴿بَغْتَةً﴾ مفعول مطلق؛ أي: أخذ بغتة، أو حال من فاعل ﴿أخذنا﴾. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من هاء ﴿أخذناهم﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ الواو: استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ﴿أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: اسمها ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿وَٱتَّقَوْا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾ وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف بعد لو الشرطية؛ لأن ﴿لو﴾ لا يليها إلا الفعل، والتقدير: ولو ثبت إيمان أهل القرى وتقواهم. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ اللام: رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿فتحنا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به: ﴿بَرَكَٰتٍ﴾ مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿بَرَكَٰتٍ﴾، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ وجملة ﴿فتحنا﴾ جواب ﴿لو﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة، على جملة ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿أخذناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أخذنا﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يكسبونه.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف ﴿أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أجهل أهل القرى من مكة وما حولها سنتنا فيمن قبلهم فأمِنوا؟ ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَأْتِيَهُم﴾: فعل ومفعول، ﴿بَأْسُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، والتقدير: أفأمنوا إتيان بأسنا إياهم؟، ﴿بَيَٰتًا﴾: حال من ﴿بَأْسُنَا﴾؛ أي: بائتاً مستخفياً في الليل، وقيل: هو منصوب على الظرفية؛ أي: ليلاً، ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من هاء ﴿يَأْتِيَهُم﴾، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، هذا على مذهب الزمخشري، وأما على مذهب الجمهور: الفاء: عاطفة ما بعدها على ﴿أخذناهم بغتة﴾، وما بينهما اعتراض.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿أَوَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفل أهل القرى عن سنَنِنا فيمن قبلهم، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا؟ والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾: جملة فعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: إتيان بأسنا إياهم، ﴿ضُحًى﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿يأتي﴾. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من هاء ﴿يأتيهم﴾.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنُوا۟﴾ الهمزة: داخلة على محذوف، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف ﴿أمنوا﴾: فعل وفاعل، ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والتقدير: أجهلوا سنتنا فأمنوا مكر الله؟ والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿فَلَا يَأْمَنُ﴾: الفاء: استئنافية، ﴿لا﴾: نافية ﴿يَأْمَنُ مَكْرَ

﴿ٱللَّهِ﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلْقَوْمُ﴾: فاعل، ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: صفته، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَهْدِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾: وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَرِثُونَ﴾. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: أنه ﴿لَّوْ﴾: حرف شرط ﴿نَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ومفعول المشيئة محذوف تقديره: لو نشاء أصبنا إياهم، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لَّوْ﴾. ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وأتى بجواب ﴿لَّوْ﴾ هنا خالياً عن اللام، وهو جائز على قلة، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿يَهْدِ﴾ والتقدير: أغفل الذين يرثون الأرض من بعد أهلها، عن سننا فيمن قبلهم، ولم يهد ويبين لهم إصابتنا إياهم بذنوبهم لو نشاء الإصابة لهم، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ ﴿وَنَطْبَعُ﴾ الواو: عاطفة بمعنى (أو) التي تمنع الجمع، ﴿نطبع﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿نطبع﴾، والجملة معطوفة على ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ على كونها جواب ﴿لَّوْ﴾. ﴿فَهُمْ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، ﴿هم﴾: مبتدأ وجملة ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على ﴿نطبع﴾:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾: بدل منه، أو عطف بيان له، ﴿نَقُصُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿مِنْ﴾: حرف جر وتبعيض، ﴿أَنۢبَآئِهَا﴾: مجرور ومضاف إليه، الجار والمجرور، متعلق بـ﴿نَقُصُّ﴾، أيضاً، وجملة ﴿نَقُصُّ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: استئنافية، اللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَآءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول، ﴿رُسُلُهُم﴾: فاعل ومضاف إليه، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿جاء﴾ والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿فَمَا﴾: الفاء: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾: اللام: حرف جر وجحود، ﴿يؤمنوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يؤمنوا﴾. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: كذبوه، و﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾: وجملة ﴿يؤمنوا﴾ صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر كان، تقديره: فما كانوا مريدين لإيمانهم بما كذبوا من قبل. هذا على مذهب البصريين، وأما على مذهب الكوفيين: فاللام زائدة لتوكيد النفي، والتقدير عندهم: فما كانوا مؤمنين بما كذبوا من قبل. كما ذكرنا ذلك مبسوطاً في كتابنا «الدرر البهية في إعراب أمثلة الآجرومية» وعرف بعضهم لام الجحود ببيت واحد:

وَكُلُّ لاَمٍ قَبْلَهُ مَا كَانَا أَوْ   لَمْ يَكُنْ فَلِلْجُحُوْدِ بَانَا

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَطْبَعُ﴾، والتقدير: يطبع الله على قلوب الكافرين من أمتك طبعاً مثل طبعه على قلوب الكافرين من الأمم الماضية، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: إستئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿وَجَدْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة

مستأنفة، ﴿لِأَكْثَرِهِم﴾[1]: متعلق بوجد، كقولك: ما وجدت له مالاً؛ أي: ما صادفت له مالاً ولا لقيته، ويحتمل أن يكون حالاً ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾؛ لأنَّه في الأصل صفة نكرة، فلمَّا قدم عليها نصب على الحال، والأصل: وما وجدنا عهداً لأكثرهم، وهذا لم يذكر أبو البقاء غيره، وعلى هذين الوجهين: فـ﴿وجد﴾ متعدٍ لواحد، وهو ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾، ومن مزيدة فيه، والوجه الثالث: أنه في محل نصب مفعولاً ثانياً لوجد، إذ هي بمعنى علم، والمفعول الأول هو ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾، وقد يترجح هذا بأن ﴿وجد﴾ الثانية علمية لا وجدانية، بمعنى الإصابة، فإذا تقرر هذا.. فينبغي أن تكون الأولى كذلك مطابقة للكلام، ومناسبة له، ومن يرجح الأول يقول: إن الأولى لمعنى، والثانية لمعنى آخر اهـ «سمين». ﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وإن الشأن والحال، ﴿وَجَدْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: مفعول أول لوجد؛ لأنَّها علمية ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾: اللام فارقة بين المخففة والنافية، ﴿فاسقين﴾: مفعول ثان لوجد على حد قول ابن مالك:

وَخُفِّفَتْ أَنَّ فَقَلَّ ٱلْعَمَلُ   وَتَلْزَمُ ٱللَّامُ إِذَا مَا تُهْمَلُ

وجملة وجد في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ وقال بعض[2] الكوفيين: إن ﴿إن﴾ في مثل هذا التركيب هي النافية، واللام بمعنى إلا، والمعنى: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وفي السمين[3]: وعاد في لسانهم لها استعمالان:

أحدهما: وهو الأصل، أنَّه الرجوع إلى ما كان عليه من الحال الأول.

والثاني: استعمالها بمعنى صار، وحينئذ ترفع الاسم وتنصب الخبر، فلا تكتفي

---

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الفتوحات.

بمرفوع كقولهم: عاد السعر رخيصاً، واستشكلوا على كونها بمعناها الأصلي أنَّ شعيباً عليه السلام لم يكن قط على دينهم، ولا في ملتهم، فكيف يحسن أن يقال: أو لتعودن؛ أي: ترجعن إلى حالتكم الأولى، والخطاب له ولأتباعه؟ وقد أجيب عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنَّ هذا القول من رؤسائهم قصدوا به التلبيس على العوام، والإيهام لهم أنَّه كان على دينهم وعلى ملتهم.

الثاني: أنْ يراد بعوده رجوعه إلى حاله قبل بعثته من السكون؛ لأنَّه قبل أنْ يبعث إليهم كان يخفي إيمانه، وهو ساكت عنهم، بريء من معبوداتهم غير الله.

الثالث: تغليب الجماعة على الواحد؛ لأنَّهم لما أصحبوه مع قومه في الإخراج.. سحبوا عليه وعليهم حكم العود إلى الملة تغليباً لهم عليه، وأما إذا جعلنا بمعنى صار.. فلا إشكال في ذلك، إذ المعنى: لتصيرن في ملتنا بعد أن لم تكونوا، وفي ملتنا حال على الأول، خبر على الثاني، وعدي عاد بفي الظرفية تنبيهاً على أنَّ الملة صارت لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾؛ أي: اقض؛ لأنهم يسمون القاضي: الفاتح والفتاح؛ لأنَّه يفتح مواضع الحق اهـ كرخي، وفي «السمين»: أن الفتح: الحكم بلغة حمير، وقيل: بلغة مراد، وفي «المراغي» الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال وهو قسمان: حسي يدرك بالبصر، كفتح العين والقفل والكلام الذي يكون من القاضي، ومعنوي يدرك بالبصيرة، كفتح أبواب الرزق والمغلق من مسائل العلم، والنصر في وقائع الحرب، والمبهم من قضايا الحكم، ويقال: فتح الله عليه إذا جد وأقبلت عليه الدنيا، وفتح الله عليه نصره، وفتح الحاكم بينهم، وما أحسن فتاحته؛ أي: حكمه كما قال شاعرهم:

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِيْ وَهْبٍ رَسُوْلاً   بِأَنِّيْ عَنْ فَتَاحَتِهِمْ غَنِيُّ

ويقال: بينهم فتاحات؛ أي: خصومات، وولي الفتاحة؛ أي: القضاء. انتهى.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الرجف الحركة والاضطراب، والمراد منها: الزلزلة

الشديدة، ومنه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ وقال هنا وفي سورة العنكبوت: الرجفة، وفي سورة هود ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: صيحة جبريل وصرخته عليهم من السماء، ولعلها؛ أي: الصيحة كانت في مبادىء الرجفة، فأسند هلاكهم إلى السبب القريب تارة، وإلى البعيد أخرى. اهـ أبو السعود.

وقال قتادة[1]: بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين، فأما أصحاب الأيكة.. فأهلكوا بالظلة، وأمَّا أهل مدين.. فأخذتهم الرجفة، صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا جميعاً، وقال أبو عبد الله البجلي: كان أبو جاد وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت، ملوك مدين، وكان ملكهم في يوم الظلة اسمه كلمن، فلما هلك رثته ابنته بشعر اهـ.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أصله يغنيوا بوزن يفعلوا، استثقلت الضمة على الياء ثم حذفت، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، أو يقال: تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان ثم حذفت الألف فصار: يغنوا بوزن يفعوا، وفي «المصباح»: غني بالمال يغنى غنى، مثل رضي يرضى رضى، فهو غني، والجمع أغنياء، وغني بالمكان: إذا نزل به واقام فيه فهو غان. اهـ.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ والأسى شدة الحزن، وأصل آسى أأسى بهمزتين، قلبت الثانية ألفاً، وفي «المصباح» وأَسِيَ أساً ـ من باب تعب ـ حزن، فهو أسى مثل حزين. اهـ.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ قال أهل اللغة: السيئة كل ما يسوء صاحبه، والحسنة: كل ما يستحسنه الطبع والعقل، فأخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه يؤاخذ أهل المعاصي والكفر تارة بالشدة، وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ القرية المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها ـ العاصمة ـ والبأساء الشدة والمشقة، كالحرب والجدب، وشدة الفقر، والضراء ما

---

(١) الفتوحات.

يضر الإنسان في بدنه، أو نفسه، أو معيشته، والأخذ بها، جعلها عقاباً لهم. والتضرع إظهار الضراعة؛ أي: الضعف والخوضع ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾؛ أي: حتى نموا وكثروا عدداً وعُدداً، من عفا النبات والشعر إذا كثر وتكاثف ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة، فهو الأخذ حال السعة والرخاء، لا حال الجدب كما قيل؛ فإنَّه قد بدل بالسعة. اهـ أبو السعود.

﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تشمل معارف الوحي العقلية، ونفحات الإلهام الربانية، والمطر، ونحوه مما يوجب الخصب والخير في الأرض، وبركات الأرض، النبات والثمار، وجميع ما فيها من الخيرات والأنعام والأرزاق، والأمن، والسلامة من الآفات، وكل ذلك من فضل الله وإحسانه على عباده، وأصل البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، وسمي المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه، وكذا ثبوت البركة في نبات الأرض، لأنَّه نشأ من بركات السماء، وهي المطر، وقال البغوي: أصل البركة المواظبة على الشي؛ أي: تابعنا عليهم المطر من السماء، والنبات من الأرض، ورفعنا عنهم القحط والجدب. اهـ خازن.

﴿بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ البأس العذاب، بياتاً؛ أي: وقت بيات، وهو الليل.

﴿ضُحًى﴾؛ أي: ضحوة النهار، وهي في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت، اهـ أبو السعود، وفي «السمين»: والضحى: انبساط الشمس، وامتداد النهار، وسمى به الوقت، ويقال: ضحى وضحاء، إذا ضممته قصرته، وإذا فتحته مددته، وقال بعضهم: الضحى ـ بالضم والقصر ـ لأول ارتفاع الشمس، والضحاء ـ بالفتح والمد ـ لقوة ارتفاعها قبل الزوال، والضحى مؤنث اهـ.

﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: يلهون من فرط غفلتهم ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾: والمكر التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب، وفي «المختار»: المكر الاحتيال والخديعة، وقد مكر من باب نصر، فهو ماكر ومكَّار. اهـ وفي «السمين»: والمراد بمكر الله هنا: فعل يعاقب به الكفرة على كفرهم، وأضيف إلى الله لما كان عقوبة على ذنبهم ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ يقال: هداه

السبيل وهداه إليه، وهداه له؛ أي: دله عليه وبينه له.

﴿مِّنْ عَهْدٍۢ﴾ العهد الوصية، والوصية تارة يراد بها إنشاؤها وإيجادها، وأخرى يراد بها ما يوحى به، ويقال: عهدت إليه بكذا؛ أي: وصيته بفعله أو حفظه، وهو إما أن يكون بين طرفين ـ وهو المعاهدة ـ وإما من طرف واحد، بأن يعهد إليك بشيء، أو تلزم بشيء، والميثاق: هو العهد الموثق بضرب من ضروب التوكيد.

وقال الراغب[1]: عهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به في الكتاب وألسنة رسله، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع، كالنذور وما يجري مجراها اهـ ﴿الفاسقين﴾ والفسوق: الخروج عن كل عهد فطري وشرعي، بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصي، ووجدنا الأولى بمعنى ألفينا، والثانية بمعنى علمنا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الأيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تغليب حكم الجماعة على الواحد في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ﴾؛ لأنَّ شعيباً لم يكن في ملتهم قط، فيعود فيها.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لزيادة التقرير.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا﴾؛ لأنَّه كناية عن الإحاطة، وفي قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾؛ لأن الفتح حقيقة في الأجسام كفتح الباب، وفي قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب، كما ذكره أبو السعود. وفي قوله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ

(١) المراغي.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول، فهو من باب الاستعارة التصريحية التبعية؛ أي: وسعنا عليهم الخير من جميع الأطراف.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، من الإسناد إلى السبب؛ أي: فأخذهم الله بالرجفة.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةِ﴾ وبين لفظ ﴿ٱلضَّرَّآءُ﴾ و﴿السراء﴾ في قوله: ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ وبين قوله: ﴿ٱلضَّرَّآءُ﴾ و﴿السراء﴾ في قوله: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾.

ومنها: التفخيم[1] والتهويل في تكرار لفظ ﴿أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لما في ذلك من التسميع والإبلاغ والتهديد، ما لا يكون في الضمير لو قال: أو أمنوا؛ فإنَّه متى قصد التفخيم والتعظيم والتهويل جيء بالاسم الظاهر.

ومنها توسيط[2] النداء باسمه العَلمي بين المعطوفين في قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾، لزيادة التقرير والتهديد، الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان؛ أي: والله لنخرجنك وأتباعك.

ومنها: الإخبار المتضمن معنى التعجب في قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، كأنَّه قيل: ما أكذبنا على الله إن عدنا إلى الكفر، قاله الزمخشري.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

(٢) أبو السعود.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا
أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن
كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾
وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ
أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ
﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ
﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي
الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

المناسبة

لما قص[١] الله سبحانه وتعالى على نبيه أخبار نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وما آل إليه أمر قومهم، وكان هؤلاء لم يبق منهم أحد أتبع بقصص موسى وفرعون وبني إسرائيل، إذ كانت معجزاته من أعظم المعجزات، وأمته من أكثر الأمم تكذيباً وتعنتاً واقتراحاً وجهلاً، وكان قد بقي من أتباعه عالم وهم اليهود.. فقص الله علينا قصصهم لنعتبر ونتعظ وننزجر عن أن نتشبه بهم.

---

(١) البحر المحيط.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّ بين موسى وشعيب عليهما السلام مصاهرة - كما حكى الله تعالى في كتابه - ونسباً لكونهما من نسل إبراهيم، ولما استفتح قصة نوح بأرسلنا بنون العظمة.. أتبع ذلك قصة موسى فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾، ذكره أبو حيان في «البحر».

وعبارة «المراغي» هنا: هذه هي القصة السادسة من قصص الأنبياء التي ذكرت في هذه السورة، وفيها من الإيضاح والتفصيل ما لم يذكر في غيرها؛ لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات غيره ممن سبق ذكرهم، وجهل قومه كان أفحش، وقد ذكرت قصته في عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة، وذكر اسمه في سور كثيرة، زادت على مئة وثلاثين مرة، وسر هذا أنَّ قصته أشبه قصص الرسل بقصص النبي ﷺ، إذ أنَّه أوتي شريعة دينية دنيوية، وكوَّن الله تعالى به أمة عظيمة، ذات ملك ومدنية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾؛ أي: ثمَّ بعثنا من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، أو من بعد إهلاك الأمم المذكورة؛ أي: ثم بعدما فرغنا من ذكر قصص الأنبياء المذكورين وأممهم، نذكر قصة موسى وقومه فنقول: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا موسى بن عمران من بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل المذكورين في هذه السورة، وإهلاك أممهم، وقطع دوابرهم، حالة كونه مؤيداً ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ومعجزاتنا التسع، وملتبساً بأدلتنا وحججنا الدالة على صدقه، مثل العصا واليد، وغيرهما من الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، كما سيأتي التعبير عنها بهذا العدد في سورة الإسراء إنْ شاء الله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: أشراف قومه، وتخصيصهم[2] بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم؛ لأنَّ من عداهم كالأتباع لهم، سموا[3] ملأ لأنَّهم يملؤون المجالس بأجرامهم،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) أبو السعود.

والعيون بجمالهم، والقلوب بمهابتهم. ذكره أبو السعود.

وقال في «التحبير»[1]: فرعون اسمه الوليد بن مصعب بن الريان، وكنيته أبو مرة، وقيل: أبو العباس، وهو فرعون الثاني الذي أرسل إليه موسى، وكان قبله فرعون آخر، وهو أخوه، واسمه قابوس بن مصعب ملك العمالقة، ولم يذكر في القرآن، وفرعونُ إبراهيم النمروذُ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل. انتهى.

فائدة: كان ملك فرعون أربع مئة سنة، وعاش ست مئة وعشرين سنة، ولم ير مكروهاً قط، ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم، أو حمى ليلة، أو وجع.. لما ادعى الربوبية، وفرعون في الأصل علم لشخص، ثم صار لقباً لكل من ملك مصر، كما في «الشهاب».

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾؛ أي: ظلم فرعون وأتباعه بتلك الآيات، وجحدوا بها وأنكروها؛ لأنَّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وكانت هذه الآيات معجزات ظاهرة قاهرة، فكفروا بها؛ أي[2]: وضعوا الإنكار في موضع الإقرار بها، ووضعوا الكفر في موضع الإيمان، وذلك ظلم منهم على تلك الآيات الظاهرة، أو معنى ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾؛ أي: ظلموا الناس بسببها لما صدوهم عن الإيمان بها، أو ظلموا أنفسهم بسببها ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد، أو أيها المخاطب بعين بصيرتك ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ بالكفر من إهلاكهم؛ أي: أنظر بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم، حيث صاروا مغرقين، وجعلناهم مثلاً نوعد به كفرة من كان في عصرك يا محمد.

وحاصل المعنى: أي ثمَّ[3] بعثنا ـ من بعد أولئك الرسل ـ موسى بالمعجزات التي تدل على صدقه فيما يُبلغه عنا إلى فرعون وأشراف قومه، فظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبراً وجحوداً، فكان عليم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم، وقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِۦ﴾ ولم يقل فرعون

---

(١) التحبير.

(٢) المراغي.

(٣) أبو السعود.

وقومه؛ لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبني إسرائيل، وبيدهم أمرهم، وليس لسائر المصرين من الأمر شيء؛ لأنَّهم كانوا مستعبدين أيضاً، ولكن الظلم كان على بني إسرائيل الغرباء أشد، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر المصريين؛ لأنَّهم كانوا تبعاً لهم، وقد كان موسى مرسلاً إلى قومه بني إسرائيل قصداً، وإلى فرعون وملئه وسيلةً ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ أي: فانظر أيها الرسول كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين في الأرض، بالظلم واستعباد البشر، حين جحدوا آيات الله وكفروا بها.

وفي هذا تشويق وتوجيه للنظر إلى ما سيقصه الله تعالى من عاقبة أمرهم، إذ نصر رسوله موسى ـ وهو واحد من شعب مستضعف مستعبد لهم ـ على فرعون وملئه، وهم أعظم أهل الأرض قوة وصولة، بأن أبطل سحرهم، وأقنع علماءهم وسحرتهم بصحة رسالته، وكون آياته من عند الله تعالى، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد، ثم بإنقاذ قومه وإغراق فرعون ومن تبعه من ملئه وجنوده، وهذه عبرة قائمة على وجه الدهر، وحجة على أنَّ الغَلَب ليس للقوة المادية فحسب، كما يقوله المغرورون بعظمة الأمم الظالمة الأجنبية لمن استضعفتهم من أهل الوطن، كما هو مشاهد الآن في شرقي أفريقيا كأرمينيا.

وبعد التشويق والتنبيه المتقدم، قص الله تعالى ما كان من أولئك القوم في ابتداء أمرهم، حتى انتهوا إلى تلك العاقبة فقال:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ وهذا كلام[1] مستأنف لتفصيل ما أجمل قبله من كيفية إظهار الآيات، وكيفية عاقبة المفسدين، ولم يكن هذا القول وما بعده من جواب فرعون إثر ما ذكر ههنا، بل بعد ما جرى بينهما من المحاورات المحكية بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ الآيات. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ الآيات. فطوى ذكره هنا للإيجاز؛ أي: وقال موسى عليه السلام ـ حين دخل على فرعون ودعاه إلى الإيمان بالله تعالى، وإلى الإيمان به:

---

(١) أبو السعود.

إنّي رسول؛ أي: مرسل إليك وإلى قومك من رب العالمين؛ أي: من خالق العالمين كلهم، وسيدهم ومالكهم ومدبر جميع أمورهم، وأنا ﴿حَقِيقٌ﴾؛ أي: جدير وحريص ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا﴾ القول ﴿ٱلْحَقَّ﴾ والكلام الصدق، فهو لا يقول على الله إلا القول الحق، إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولاً يكذب عليه، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، فهو معصوم من الكذب والخطأ في التبليغ.

والخلاصة: أنَّ كلامه اشتمل على عقيدة الوحدانية، وهي أنَّ للعالمين رباً واحداً، وعلى عقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ والهداية.

وقرأ نافع[1]: ﴿عليَّ أن لا أقول﴾ بتشديد الياء، جعل (على) داخلة على ياء المتكلم، فـ﴿حقيق﴾: مبتدأ، وخبره ما دخلت عليه ﴿أن﴾؛ أي: واجب وثابت علي ترك القول على الله إلا بالحق، وقرأ باقي السبعة ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمد اللام على أنَّها جارة للمصدر المنسبك مما بعدها، فـ﴿حَقِيقٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: وأنا حقيق وحريص على عدم القول على الله إلا الحق، كما مر آنفاً في حلنا. وقال أبو الحسن والفراء والفارسي: ﴿عَلَىٰٓ﴾: بمعنى الباء؛ أي: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، كما أنَّ الباء تكون بمعنى (على) في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾؛ أي: على كل صراط، فكأنه قيل: حقيق بأن لا أقول، كما تقول: فلان حقيق بهذا الأمر وخليق به، ويشهد لهذا التوجيه قراءة أبي ﴿بأن لا أقول﴾ وضع مكان ﴿عَلَىٰٓ﴾ الباء، وقرأ عبد الله والأعمش ﴿حقيق أن لا أقول﴾ بإسقاط ﴿عَلَىٰٓ﴾ فاحتمل أنْ يكون على إضمار (على)، كقراءة من قرأ بها، واحتمل أن يكون على إضمار الباء كقراءة أبي، وعلى كلا الاحتمالين يكون التعلق بـ﴿حقيق﴾.

ولمَّا ذكر أنَّه رسول من عند الله، وأنَّه لا يقول على الله إلا الحق.. أخذ يذكر المعجزة والخارق الذي يدل على صدق رسالته فقال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ والخطاب فيه لفرعون وملائه الحاضرين معه؛ أي: قد جئتكم ببرهان قاطع ﴿مِّن

---

(١) البحر المحيط.

﴿رَبِّكُمْ﴾ ومعجزة شاهدة على رسالتي، دالة على صدق ما أقول، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] إيماء إلى أنَّهم مربوبون، وأنَّ فرعون ليس رباً ولا إلهاً، وإلى أنَّ البينة ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به عليه السلام. ثم فرع على مجيئه بالبينة طلبه منه أن يرسل معه بني إسرائيل؛ أي: يطلقهم من أسره ويعتقهم من رقه وقهره، ليذهبوا معه إلى دار غير داره، ويعبدوا فيها ربهم وربه فقال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أطلقهم من أسرك، وخلهم من استعبادك، ليذهبوا معي إلى الأرض المقدسة، التي هي وطن آبائهم مع أموالهم فكان فرعون عاملهم معاملة العبيد في الاستخدام والأعمال الشاقة، مثل ضرب اللبِن، ونقل التراب، ونحو ذلك من الأعمال الشاقة. وقال المفسرون: كان سبب سكنى بني إسرائيل بمصر - مع أنَّ أباهم كان بالأرض المقدسة - أن الأسباط أولاد يعقوب جاؤوا مصر إلى أخيهم يوسف، فمكثوا وتناسلوا في مصر، فلما ظهر فرعون. استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة، فأحب موسى أنْ يخلصهم من هذا الأسر، ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم، وكانوا يؤدون إلى فرعون الجزاء، فاستنقذهم الله بموسى.

وكان[2] بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر، واليوم الذي دخل فيه موسى أربع مئة عام، والظاهر أن موسى لم يطلب من فرعون في هذه الآية إلا إرسال بني إسرائيل معه، وفي غير هذه الآية دعاه إياه إلى الإقرار بربوبية الله تعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝﴾ وكل نبي داع إلى توحيد الله تعالى، وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ فهذا ونظائره دليل على أنَّه طلب منه الإيمان، خلافاً لمن قال: إنَّ موسى لم يدعه إلى الإيمان، ولا إلى التزام شرعه. وليس بنو إسرائيل من قوم فرعون والقبط؛ ألا ترى أنَّ بقية القبط - وهم الأكثر - لم يرجع إليهم موسى، ثمَّ حكى سبحانه ما قاله فرعون حينئذ: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﴿إِن كُنتَ﴾ يا موسى ﴿جِئْتَ﴾ وأتيت من عند من أرسلك ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ ومعجزة وحجة دالة

---

(١) المراغي.　　(٢) البحر المحيط.

على صدقك ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾؛ أي: فأحضرها عندي ليثبت صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك أنَّك رسول.

أي: قال فرعون لموسى: إنْ كنت قد جئت مؤيداً بآية من عند من أرسلك كما تدّعي.. فأتني بها، وأظهرها لدي إن كنت ممن يقول الصدق، ويلتزم قول الحق.

ثم ذكر أن موسى أجابه إلى ما طلبه فقال: ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾؛ أي: فلم يلبث موسى أنّ ألقى ورمى عصاه ـ التي كانت بيمينه ـ أمام فرعون ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: العصا ﴿ثُعْبَانٌ﴾؛ أي: حية ضخمة صفراء ذكر ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر بيِّن، لا خفاء ولا شك في كونه ثعباناً حقيقياً، يسعى وينتقل من مكان إلى آخر، وتراه الأعين من غير أنْ يسحرها ساحر فيخيل إليها أنَّها تسعى.

روي[1] أنَّه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، قائماً على ذنبه، مرتفعاً من الأرض بقدر ميل، وضع لحيه الأسفل على الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليبتلعه، فوثب فرعون عن سريره هارباً وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، فصاح فرعون: يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأُرسل بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصاً، فإنْ قلت: وصفها هنا بالثعبان، والثعبان من الحيات العظيم الضخم، ووصفها في آية أخرى بأنَّها جان، والجان الحية الصغيرة، فبين الوصفين معارضة؟

قلت: يمكن الجمع بين الوصفين أنَّها كانت في عظم الحية كالثعبان العظيم، وفي خفة الحركة كالحية الصغيرة، وهي الجان. ذكره في «الخازن».

قيل[2]: بدأ بالعصا دون سائر المعجزات لأنَّها معجزة تحتوي على معجزات كثيرة، قالوا منها: أنَّه ضرب بها باب فرعون ففزع من قرعها، فشاب رأسه فخضبه بالسواد، فهو أول من خضب السواد. ومنها: انقلابها ثعباناً،

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

وانقلاب خشبة لحماً ودماً قائماً به الحياة من أعظم الإعجاز، ويحصل من إنقلابها ثعباناً من التهويل ما لا يحصل في غيره، وضربه بها الحجر فينفجر عيوناً، وضربه بها الأرض فتنبت، قاله ابن عباس، ومحاربته بها اللصوص والسباع القاصدة غنمه، واشتعالها في الليل كاشتعال الشمعة، وصيرورتها كالرشا لينزح بها الماء من البئر العميقة، وتلقفها الحبال والعصي التي للسحرة، وإبطالها لما صنعوه من كيدهم وسحرهم.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾؛ أي: نزع موسى يده اليمنى، وجذبها وأخرجها وأظهرها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه ـ بعد إلقاء العصا ـ أو من تحت إبطه، وفي التنزيل ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: يده التي أخرجها ﴿بَيْضَآءُ﴾ بياضاً نورانياً، تتلألأ نوراً غلب شعاعه شعاع الشمس يظهر ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ إليها؛ أي: لكل من ينظر إليها.

ثم حكى الله سبحانه وتعالى ما قاله قومه، بعد أنْ رأوا من موسى ما رأوا فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾؛ أي: الأشراف ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم أهل مشورته ورؤساء دولته ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الرجل، يعنون موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: حاذق في علم السحر، كثير في فهمه ومعرفته وفائق فيه، يعنون أنَّه ليأخذ بأعين الناس، حتى يخيل لهم أنَّ العصا صارت حية، ويرى الشيء بخلاف ما عليه، كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون، وإنَّما قالوا ذلك لأنَّ السحر كان هو الغالب في ذلك الزمان، فلما أتى بما يعجز عنه غيره.. قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

فإنْ قلت[1]: قد أخبر الله تعالى في هذه السورة أنَّ هذا الكلام من قول الملأ لفرعون، وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فكيف الجمع بين الآيتين؟

قلتُ: لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولاً، ثم إنَّهم قالوه بعده، فأخبر الله تعالى عنهم هنا، وأخبر عن فرعون في سورة الشعراء. وقيل: يحتمل أنَّ فرعون

---

(١) الخازن.

قال هذا القول، ثم إنَّ الملأ من قومه ـ وهم خاصته ـ سمعوه منه، ثم إنَّهم بلغوه إلى العامة، فأخبر الله عز وجل هنا عن الملأ، وأخبر هناك عن فرعون، والله أعلم.

وجملة قوله: ﴿يُرِيدُ﴾؛ أي: موسى ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾ أيها القبطيون ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ ووطنكم مصر، صفة ثانية لساحر.

والمعنى: قال[1] الأشراف والرؤساء من قوم فرعون: إنَّ هذا الرجل لساحر عليم؛ أي: ماهر في فنون السحر، قد وجه كل همه لسلب ملككم منكم، وإخراجكم من أرضكم بسحره، إذ به يستميل الشعب إليه، وينتزع منكم الملك، ثم يخرج الملك وعظماء رجاله من البلاد، حتى لا يناوئُوه في شؤون الملك واستعادته منه، استشعرت[2] نفوسهم الخبيثة ما صار إليه أمرهم، من إخراجهم من أرضهم، وخلو مواطنهم منهم، وخراب بيوتهم، فبادروا إلى الإخبار بذلك، وكان الأمر كما استشعروا، إذ أغرق الله فرعون وآله، وأخلى منازلهم منهم، وهذا المذكور من كلام الملأ لفرعون، وأما قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فقيل[3]: هو من كلام فرعون؛ أي: قال فرعون للملأ ـ لما قالوا ما تقدم ـ بأي شيء تأمرونني فيه؟ وقيل: هو من كلام الملأ؛ أي: قالوا لفرعون: فبأي شيء تأمرنا فيه؟ وخاطبوه بما يخاطب به الجماعة تعظيماً له، كما يخاطب الرؤساء أتباعُهم، ولكن كون هذا من كلام فرعون هو الأولى، بدليل ما بعده، وهو قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾؛ أي: قال الملأ لفرعون حين استشارهم بقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أرجه وأخاه هارون؛ أي: أخر الفصل والقضاء في أمره وأمر أخيه، وأرسل في مدائن ملكك جماعات من رجال شرطتك وجندك، ﴿حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: جامعين لك السحرة منها، وسائقيهم إليك، وكان رؤساء السحرة ومهرتهم في أقصى مدائن الصعيد.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، ومن ثم خيل إلى كثير منهم أنَّ ما جاء به موسى من قبيل ما تشعبذ به سحرتهم، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما حكى الله عن فرعون حيث قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾؛ أي: إنْ ترسلهم.. يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم بكل ساحر عليم؛ أي: بكل ماهر في السحر، كثير العلم بصناعته، فيكشفوا لك حقيقة ما جاء به موسى، فلا يفتن به أحد، وإنَّما قالوا: ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾؛ لأن السحر من العلوم التي توجد في المدائن الجامعة المأهولة بدور العلم والصناعة؛ وإنَّما نصحوه بإحضار السحرة الماهرين؛ لأنَّهم الجديرون أنْ يأتوا موسى بمثل ما أتى به من الأمر العظيم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بفتح النون، على أنَّ النون نون علامة الرفع هنا وفي الشعراء، وروى كردم عن نافع: بكسر النون فيهما، على أنَّ النون نون الوقاية، حذفت بعدها ياء المتكلم.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾ فيه[2] ست قراءات، ثلاث بإثبات الهمزة التي بعد الجيم، وهي: كسر الهاء من غير إشباع لابن ذكوان عن أبي عامر، وضمها كذلك لأبي عمرو، وبإشباع حتى يتولد من الضمة واو على الأصل لابن كثير وهشام عن ابن عامر، وثلاث بحذف الهمزة، وهي: سكون الهاء وصلاً ووقفاً لعاصم وحمزة، وكسر الهاء من غير إشباع لقالون، وبه حتى يتولد منها ياء لنافع والكسائي وورش.

وقرأ الأخوان حمزة والكسائي[3]: ﴿بكل سحار﴾ هنا، وفي يونس والباقون

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) البحر المحيط.

﴿ساحر﴾ وفي الشعراء أجمعوا على ﴿سحار﴾ لتناسب ﴿سحار عليم﴾ لكونهما من ألفاظ المبالغة، ولما كان قد تقدم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.. ناسب هنا أنْ يقابل بقوله: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

فذلكة في السحر وضروبه: السحر[1] أعمال غريبة وحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم لأسبابها، وقد كان فناً من الفنون التي يتعلمها قدماء المصريين في مدارسهم الجامعة مع كثير من العلوم الكونية، واقتفى أثرهم في ذلك البابليون، والهنود، وغيرهم، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين من الهنود أعمال غريبة مدهشة من السحر، اهتم بعض الإنجليز وغيرهم بالبحث عن حقيقة أمرها، فعرفوا بعضاً وجهلوا تعليل الأكثر.

وهو لا يروج إلا بين الجاهلين، وله مكانة عظيمة في القبائل الهمجية، والبلادُ ذات الحضارة تسميه بالشعوذة ـ الاحتيال والدجل ـ وهو أنواع ثلاثة:

١ ـ ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة، معروفة للساحر، مجهولة عند من يسحرهم بها، كالزئبق الذي قيل إن سحرة فرعون وضعوه في حبالهم وعصيهم، كما سنذكره بعد، ولو ادعى علماء الطبيعة والكيمياء في هذا العصر السحر في أواسط أفريقيا وغيرها من البلاد التي يروج فيها السحر.. لأروهم العجب العجاب من غرائب الكهرباء وغيرها، حتى لو ادعوا فيهم الألوهية.. لخضعوا لهم، فضلاً عن النبوة والولاية.

٢ ـ الشعوذة التي ملاك أمرها خفة اليدين في إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض، وإراءة بعضها بغير صورها، وغير ذلك مما هو معروف في هذه البلاد وغيرها من البلاد المتمدنة.

٣ ـ ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية، في الأنفس الضعيفة، القابلة للأوهام والانفعالات التي يسميها علماء النفس: بالأنفس الهستيرية، وأصحاب هذا النوع يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين، ومنهم

---

(١) المراغي.

من يكتب بالأوفاق والطلسمات للحب والبغض، إلى نحو ذلك، ومن ذلك ما استحدث في هذا العصر من التنويم المغناطيسي، وعلى الجملة: فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص الكتاب الكريم، وبالاختبار الذي لم يبق فيه شك بين العلماء في هذا العصر.

وبعد أن ذكر فيما سلف أنَّهم طلبوا إليه تأخير الفصل في أمره، حتى يحضر السحرة ليفسدوا عليه أعماله، ويبينوا خبيء حيله.. ذكر هنا أن السحرة جاؤوا وطلبوا المثوبة من فرعون إن هم نفذوا ما طلبه، فأجابهم إلى ذلك، ففعلوا أفاعيلهم السحرية التي أوقعت الرهب في قلوب المشاهدين فقال: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ الذين حشرهم أعوان فرعون وشرطته ﴿فِرْعَوْنَ﴾ اللعين، وقال أبو حيان: وفي الكلام حذف يقتضيه المعنى، تقديره: فأرسل جنده حاشرين، وجمعوا السحرة، وأمرهم بالمجيء، وجاؤوا إليه وحين جاؤوا ﴿قَالُوٓاْ﴾ لفرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾؛ أي: إن لنا عليك لجعلاً عظيماً وأجراً وجائزة، كفاء ما نقوم به من العمل العظيم الذي يتم به الغلب على موسى ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ على موسى. قرأ[1] نافع وابن كثير وحفص عن عاصم ﴿إن لنا﴾ بهمزة واحدة على الإخبار فكأنهم قاطعون بالجعل، وإنَّه لا بد لهم منه، وجوز أبو علي أن تكون ﴿إن﴾ استفهاماً حذفت منه الهمزة، كقراءة الباقين الذين أثبتوها، قال: والاستفهام أشبه بهذا الموضع؛ لأنَّهم لم يقطعوا أن لهم الأجر، وإنَّما استفهموا عنه. ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير»، وقرأ حمزة والكسائي، وابن عامر وأبو بكر وأبو عمرو بهمزتين، فمنهم من حققهما، ومنهم من سهل الثانية، ومنهم من أدخل بينهما ألفاً، كأبي عمرو، والخلاف في كتب القراءات مبسوط على الاستفهام، استفهموا فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة، والاستفهام هنا للتقرير.

واشتراط[2] الأجر وإيجابه على تقدير الغلبة، لا يريدون مطلق الأجر، بل المعنى: إن لنا لأجراً عظيماً، ولهذا قال الزمخشري: والتنكير للتعظيم، كقول

---

(١) المراح والبحر.
(٢) البحر المحيط.

العرب: إنَّ له لإبلاً، وإن له لغنماً، يقصدون الكثرة، وفي خطاب السحرة بذلك لفرعون دليل على استطالتهم عليه باحتياجه إليهم، وبما يحصل للعالم بالشيء من الترفع على من يحتاج إليه، وعلى من لا يعلم مثل علمه ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيباً لهم إلى ما طلبوا ﴿نَعَمْ﴾. قرأ الكسائي[1] بكسر العين؛ أي: إنَّ لكم لأجراً عظيماً على ما تقومون به من ذلك العمل الجليل ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك الأجر ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلينا، فتجمعون بين المال والجاه، وذلك منتهى ما تطمعون فيه من نعيم الدنيا وسعادتها، والمعنى[2]: إنَّ فرعون قال للسحرة: إنِّي لا أقتصر معكم على الأجر، بل أزيدكم عليه، وتلك الزيادة أني أجعلكم من المقربين إلي بالمنزلة، قال الكلبي: تكونون أول من يدخل علي، وآخر من يخرج من عندي.

وفي[3] مبادرة فرعون لهم بالوعد والتقريب منه، دليل على شدة اضطراره لهم، وأنَّهم كانوا عالمين بأنَّه عاجز، ولذلك احتاج إلى السحرة في دفع موسى عليه السلام.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالت السحرة لموسى بعد وعد فرعون لهم: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ اختر ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما عندك أولاً ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾؛ أي: وإما أنْ نلقي نحن ما عندنا أولاً، وفي هذا التخير منهم له دليل على اعتدادهم بسحرهم، وثقتهم بأنفسهم، وعدم المبالاة بعمله، ولولا ذلك لما خيروه، إذ المتأخر في العمل يكون أبصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى جهد خصمه.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى عليه السلام - وهو واثق بشأنه، محتقر لهم غير مبال بهم - ﴿أَلْقُوا۟﴾ ما أنتم ملقون، وهو عليه السلام لم يأمرهم بفعل السحر ابتداء؛ وإنَّما أمرهم بأن يتقدموه فيما جاؤوا به لأجله، ولا بد لهم منه، وأراد بذلك التوصل إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه، ولم يكن هناك وسيلة للإبطال إلا ذلك، وقد صرح فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ

---

(١) المراح.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط.

﴿ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ ما ألقوا من حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها بما جاؤوا به من التمويه والتخييل الذي يفعله المشعوذون وأهل الخفة؛ أي: خيلوا إليهم ما لا حقيقة له، كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾؛ أي: استرهبوا الناس وأفزعوهم وأوقعوا في قلبهم الرهب والخوف، وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيلوها حيات تسعى ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في مظهره، كبير في تأثيره في أعين الناس، يخافه كل من رآه، قال ابن كثير: أي: خيلوا إلى الأبصار أنَّ ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ألقوا حبالاً غلاظاً، وخُشباً طوالاً، فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وهذا هو السحر الذي هو محض تخييل في عين الرائي، والشيء المسحور حقيقته على ما هي عليه لم تقلب، وأما المعجزة ففيها قلب حقيقة الشيء - كالعصا - حيث صارت حية، هذا هو الفارق بين السحر والمعجزة اهـ. «خازن».

قال ابن إسحاق[١]: صف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى رجل منهم ما في يده من العِصيّ والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الجبال - قد ملأت الوادي - يركب بعضها بعضاً، وكانت سعة الأرض ميلاً في ميل، فصارت كلها حيات، قيل[٢]: إنَّهم أتوا بالحبال والعصي ولطخوا تلك الحبال بالزئبق، وجعلوا الزئبق في دواخل تلك العصي، فلما أثَّر تسخين الشمس فيها.. تحركت والتوى بعضها على بعض، وكانت كثيرة جداً، فالناس تخيلوا أنها تتحرك وتلتوي باختيارها وقدرتها ﴿استرهبوهم﴾؛ أي: بالغوا في تخويف عظيم للعوام من حركات تلك الحيات والعصي، وخاف موسى أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته، فكان خوفه لأجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوه من أمر تلك الحيات، وليس خوفه لأجل سحرهم؛

(١) الطبري. (٢) المراح.

لأنه كان على ثقة من الله تعالى أنَّهم لن يغلبوه وهو غالبهم.

فعلى هذا[١]: يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية إذا صح خبرها، ويمكن أنْ تكون هناك حيلة أخرى، كإطلاق أبخرة أثرت في الأعين، فجعلتها تبصر ذلك، أو أنَّ الحبال والعصي جعلت على صور الحيات، وحركت بمحركات خفية سريعة، لا تدركها أبصار الناظرين.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ على لسان جبريل بـ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها، فلما ألقاها ﴿فَإِذَا هِىَ﴾؛ أي: العصا ﴿تَلْقَفُ﴾؛ أي: تأخذ وتبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: ما يكذبون فيه من الحبال والعصى، ويقلبونه من الحق إلى الباطل؛ لأنَّه لا حقيقة له في الواقع، بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة؛ أي[٢]: ولما ألقى موسى العصا.. صارت حية عظيمة، حتى سدت الأفق، ثم فتحت فكها، فكان ما بين فكيها ثمانين ذراعاً، وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وكانت حمل ثلاث مئة بعير، فلما أخذها موسى.. صارت عصا كما كانت من غير تفاوت في الحجم أصلاً.

وظاهر السياق[٣] يقتضي أن إلقاء العصا وانقلابها حية وقع مرتين بحضرة فرعون: الأولى كانت سبباً في جمع السحرة، والثانية بحضرتهم، فالأولى ذكرت سابقاً بقوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ الخ، والثانية هي المذكورة هنا، ووقع انقلابها حية أيضاً مرة أخرى قبل هاتين المرتين، ولم يكن حاضراً هناك أحد غير موسى، وقد ذكرت هذه المرة في صورة طه في قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾.

وقرأ حفص[٤]: ﴿تلقف﴾، بسكون اللام من لقف، من باب علم وفهم، وقرأ باقي السبعة بفتح اللام وتشديد القاف، من تلقف يتلقف، من باب تفعل الخماسي، حذفت إحدى تائيه، إذ الأصل: تتلقف، وقرأ البزي بإدغام تاء المضارعة في التاء في الأصل، وقرأ ابن جبير ﴿تلقم﴾ بالميم؛ أي: تبلع كاللقمة

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الفتوحات.
(٤) البحر المحيط.

قال الشاعر:

أَنْتَ عَصَا مُوسَىٰ ٱلَّتِي لَمْ تَزَلْ تَلْقَمُ مَا يَأْفِكُهُ ٱلسَّاحِرُ

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: فظهر الحق الذي جاء به موسى، وثبت ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من السحر؛ أي: ظهر بطلانه وفساده. وسبب هذا الظهور أن السحرة قالوا: لو كان ما صنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا، فلما فقدت.. ثبت أن ذلك حصل بقدرة الله تعالى، لا لأجل السحر، فتبين لمن حضره وشهده أنَّ موسى رسول من عند الله، يدعو إلى الحق، وأنَّ ما عملوه ما هو إلا إفك السحر وكذبه ومخايله ﴿فَغُلِبُوا۟﴾؛ أي: فرعون وقومه ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾؛ أي: صاروا ذليلين مبهوتين؛ أي: غلب موسى فرعون وجموعه في ذلك الجمع العظيم، الذي كان في عيد لهم، ضربه موسى موعداً لهم كما جاء في سورة طه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ وعادوا من ذلك الحفل صاغرين أذلة بما رزئوا من خيبة وخذلان.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾؛ أي: خروا سجداً لله تعالى؛ أي: فكأنَّهم من سرعة سجودهم ألقوا؛ أي: وألقي السحرة حينما عاينوا عظيم قدرة الله تعالى ساقطين على وجوههم سجداً لربهم؛ لأنَّ الحق قد بهرهم واضطرهم إلى السجود، حتى كأن أحداً دفعهم وألقاهم.

والخلاصة[1]: أن ظهور بطلان سحرهم، وإدراكهم فجأة لآية موسى، وعلمهم بأنَّها من عند الله تعالى، لا صنع فيها لمخلوق، ملأت عقولهم يقيناً، وقلوبهم إيماناً، فكأن اليقين الحاكم على الأعضاء والجوارح هو الذي ألقاهم على وجوههم سجداً لرب العالمين، الذي بيده ملكوت كل شيء، وزالت من نفوسهم عظمة فرعون الدنيوية الزائلة، بعد أن ظهر لهم صَغاره أمام هذه الآية، فنطقوا بما حكى الله عنهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾؛ أي: قالوا صدقنا بما

---

(١) المراغي.

جاءنا به موسى، وأنَّ الذي علينا أن نعبده هو رب الإنس والجن وجميع المخلوقات، المدبر لها. وهذه الجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ماذا قالوا عند سجودهم أو في سجودهم؟ وأجيب: بأنَّهم قالوا: آمنا برب العالمين، ولما قالوا ذلك فكأن فرعون قال: إياي تعنون؟ فقالوا: لا بل ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾؛ أي: مالكهما ومعبودهما.

ولما[1] ظفروا بالمعرفة.. سجدوا لله تعالى في الحال، وجعلوا ذلك السجود شكراً لله تعالى على الفوز بالإيمان والمعرفة، وعلامة على انقلابهم من الكفر إلى الإيمان، وإظهاراً للخضوع والتذلل لله تعالى، فكأنهم جعلوا ذلك السجود الواحد علامة على هذه الأمور الثلاثة، على سبيل الجمع، وأولئك القوم كانوا عالمين بحقيقة السحر، فلما وجدوا معجزة موسى خارجة عن حد السحر.. علموا أنَّها أمر من الله، فاستدلوا بها على أن موسى نبي صادق من عند الله تعالى.

فصل

اختلفوا في عدد السحرة على ثلاثة عشر قولاً[2]:

أحدها: اثنان وسبعون، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: اثنان وسبعون ألفاً، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مقاتل.

والثالث: سبعون، روي عن ابن عباس أيضاً.

والرابع: إثنا عشر ألفاً، قاله كعب.

والخامس: سبعون ألفاً، قاله عطاء، وكذلك قال وهب في رواية، إلا أنَّه قال: فاختار منهم سبعة آلاف.

والسادس: سبع مئة، وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب أنه

---

(١) المراح. (٢) زاد المسير.

قال: كان عدد السحرة الذين عارضوا موسى سبعين ألفاً متخيرين من سبع مئة ألف، ثم إنَّ فرعون اختار من السبعين الألف سبع مئة.

والسابع: خمسة وعشرون ألفاً. قاله الحسن.

والثامن: تسع مئة. قاله عكرمة.

والتاسع: ثمانون ألفاً. قاله محمد بن المنكدر.

والعاشر: بضعة وثلاثون ألفاً. قاله السدي.

والحادي عشر: خمسة عشر ألفاً. قاله ابن إسحاق.

والثاني عشر: تسعة عشر ألفاً. رواه أبو سليمان الدمشقي.

والثالث عشر: أربع مئة. حكاه الثعلبي.

فأما أسماء رؤسائهم.. فقال ابن إسحاق: رؤوس السحرة: ساتور، وعاذور، وحطحط، ومصفى، وهم الذين آمنوا، كذا حكاه ابن ماكولا، ورأيت عن غير ابن إسحاق: سابورا، وعاذورا وقال مقاتل: اسم أكبرهم شمعون.

قال ابن زيد(١): كان اجتماعهم بالاسكندرية، وبلغ ذَنَب الحية وراء البحر، ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً، فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم، واحداً واحداً، حتى ابتعلت الكل، وقصدت القوم الذين حضروا ذلك المجمع، ففزعوا ووقع الزحام، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وفرعون يضحك تجلدا، فأقبلت الحية نحو فرعون، فصاح: يا موسى يا موسى، فأخذها موسى فصارت في يده عصا كما كانت، فلما رأت السحرة ذلك.. عرفوا أنَّه ليس بسحر، فعند ذلك خروا ساجدين، وآمنوا برب العالمين.

وكل هذا مبالغات إسرائيلية، وتهويلات لم يصح شيء منها، وليس في التوراة ما يأيدها.

---

(١) المراح.

فائدة[1]: وبدؤوا هنا بموسى قبل هارون ـ وإن كان أكبر سناً من موسى قيل بثلاث سنين ـ لأنَّ موسى هو الذي ناظر فرعون، وظهرت المعجزتان في يده وعصاه؛ ولأن قوله: ﴿وَهَـٰرُونَ﴾، فاصلة، وجاء في طه ﴿رب هارون وموسى﴾؛ لأنَّ ﴿مُوسَىٰ﴾ فيها فاصلة، ويحتمل وقوع كل منهما مرتبا من طائفة وطائفة، فنسب فعل بعض إلى المجموع في سورة، وبعض إلى المجموع في سورة أخرى.

قال المتكلمون: وفي الآية دلالة على فضيلة العلم؛ لأنَّهم لما كانوا كاملين في علم السحر.. علموا أنَّ ما جاء به موسى حق خارج عن جنس السحر، ولولا العلم.. لتوهموا أنَّه سحر، وأنَّه أسحر منهم. ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ للسحرة ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: آمنتم برب موسى وهارون، أو صدقتم بموسى واتبعتموه مذعنين لرسالته ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ فيه وآمركم به؛ أي: قال ما ذكر منكراً على السحرة، موبخاً لهم على ما فعلوه، فالاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ الصنيع الذي صنعتموه من الإيمان بموسى واتباعه ﴿لَمَكْرٌ﴾؛ أي: لحيلة وخديعة ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾؛ أي: احتلتموه ودبرتموه اتفاقاً مع موسى، وأنتم ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: في مدينة مصر قبل أنْ تخرجوا إلى هذا الميعاد وإلى هذه الصحراء، بما أظهرتم من المعارضة والرغبة في الغلب عليه مع إسرار اتباعه، بعد ادعاء ظهور حجته، كما قال في سورة طه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فأجمعتم كيدكم لنا في هذه المدينة ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ﴾؛ أي: من المدينة ﴿أَهْلَهَا﴾ من القبطيين؛ أي: لأجل أنْ تخرجوا المصريين منها بسحركم، ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والرياسة والتصرف في البلاد.

وكل[2] ذي لب وفطنة يعلم أنَّ هذه مقالة لا نصيب لها من الصحة، ولا ظل لها من الحقيقة؛ فإن موسى ـ إثر مجيئه من مدين ـ دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة، فلم يكن من فرعون إلا أنْ أرسل جنده في المدائن حاشرين، ووعدهم بالعطاء الجزيل، وموسى لا يعرف منهم أحداً، ولا رآه ولا

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنَّما قال ذلك تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾.

والحاصل[1]: أن قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ﴾ وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ﴾ الخ. هاتان شبهتان ألقاهما إلى أسماع عوام القبط، فأراهم أنَّ إيمان السحرة مبني على المواطأة بينهم وبين موسى، وأنَّ غرضهم بذلك إخراج القوم من المدينة، وإبطال ملكهم، ومعلوم أنَّ مفارقة الأوطان مما لا يطاق فجمع اللعين بين الشبهتين تثبيتاً للقبط على ما هم عليه، وتهييجاً لعداوتهم لموسى، ثم عقبهما بالوعيد ليريهم أن لهم قوة فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أصنع بكم من العذاب جزاء على هذا المكر والخداع، ثم بين ذلك بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾؛ أي: والله لأنكِّلن بكم أشد التنكيل، فلأقطعن الأيدي والأرجل منكم، حالة كونها مختلفة في شق وجانب؛ أي: أنه يقطع من كل شق طرفاً فيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، فيخالف بينهما في القطع ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: ثم بعد قطع الأيدي والأرجل لأعلقنكم على الأخشاب، ممدودة أيديكم على صورة الصليب؛ أي: ثمَّ لأصلِّبَنَّ كل واحد منكم ـ وهو على تلك الحال ـ لتكونوا عبرة لمن تحدثه نفسه بالكيد لنا، والترفع عن الخضوع لعظمتنا، قال ابن عباس رضي الله عنه: أول من قطع الأيدي والأرجل وصلب فرعونُ.

والخلاصة: أنّ اتهامه السحرة بالتواطؤ مع موسى، إنَّما كان تمويها على قومه المصريين، إذ خاف عاقبة إيمان الشعب بموسى، فادعى أنَّه لا ينتقم من السحرة إلا حبا فيهم، ودفاعاً عنهم، وابقاء لاستقلالهم في وطنهم، كما هو شأن كل رئيس أو ملك في شعب يخاف أن ينتفض عليه وتجتمع كلمته على اختيار زعيم آخر، يقوم بدعوة دينية أو سياسية، وجاء هنا بـ﴿ثُمَّ﴾ وفي يونس والشعراء بـ﴿الواو﴾؛ لأنَّ الواو صالحة للمهلة، فلا تنافي في الآيات. ذكره في «الفتوحات».

---

(١) الفتوحات

واختلف[1] في قوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ هنا وفي طه وفي الشعراء على أربع مراتب:

الأولى: قراءة الأخوين حمزة والكسائي وأبي بكر، عن عاصم وهي تحقيق الهمزتين في السور الثلاث من غير إدخال ألف بينهما، وهو استفهام إنكار، وأما الألف الثالثة فالكل يقرؤونها كذلك، وهي فاء الكلمة يجب قلبها ألفا لكونها بعد همزة مفتوحة، وأما الأولى: فمحققة ليس إلا، والثانية: قراءة حفص وهي ﴿أمنتم﴾ بهمزة واحدة بعدها ألف، والثالثة: قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر والبزي عن ابن كثير وهي تحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين، والرابعة: قراءة قنبل عن ابن كثير فقرأ في هذه السورة حال الابتداء ﴿أآمنتم﴾ بهمزتين، أولاهما محققة والثانية مسهلة بين بين وألف بعدها، كقراءة البزي، وحال الوصل يقرأ ﴿قال فرعون وآمنتم﴾ بإبدال الأولى واواً، وتسهيل الثانية بين بين وألف بعدها، وقرأ في سورة طه كقراءة حفص، وفي سورة الشعراء كقراءة البزي.

وقرأ[2] مجاهد وحميد المكي وابن محيص: ﴿لأقطعن﴾: مضارع قطع الثلاثي، و﴿لأصلبنكم﴾ مضارع صلب الثلاثي، بضم لام ﴿لأصلبنكم﴾ وروي بكسرها، وجاء هنا بـ﴿ثُمَّ﴾ وفي السورتين بالواو في ﴿ولَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ فدل على الواو أريد بها معنى (ثم)، من كون الصلب بعد القطع، والتعدية قد يكون معها مهلة وقد لا يكون.

وعندما سمع السحرة التهديد والوعيد السابق من ذلك الجبار المتكبر أجابوه بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: السحرة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: راجعون بالموت بلا شك، سواء كان بقتلك أو لا، فيحكم بيننا وبينك، وإنَّا إلى رحمة ربنا راغبون.

أي[3]: إنَّهم لا يبالون بقتلهم؛ لأنَّهم راجعون إلى ربهم، راجون مغفرته ورحمته، فتعجيل القتل يكون سبباً لقرب لقائه، والتمتع بجزائه، قال أبو حيان[4]: وهذا تسليم واتكال على الله تعالى، وثقة بما عنده، والمعنى: إنَّا نرجع

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

إلى ثواب ربنا يوم الجزاء على ما نلقاه من الشدائد، أو: إنا ننقلب إلى لقاء ربنا ورحمته، وخلاصنا منك ومن لقائك، أو: إنا ميِّتون منقلبون إلى الله فلا نبالي بالموت، إذ لا تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه. انتهى.

وقد يكون المعنى: إنا وإياك سننقلب إلى ربنا، وما أنت بمخلَّد بعدنا، فلئن قتلتنا.. فسيحكم الله بعدله بينك وبيننا، وما أحسن قول الشاعر:

إِلَــىٰ دَيَّــانِ يَــوْمِ ٱلــدِّيْــنِ نَــمْـضِــيْ   وَعِــنْــدَ الــلَّــهِ تَــجْــتَــمِــعُ ٱلْــخُــصُــوْمُ

وفي هذا إيماء إلى تكذيبه في دعوى الربوبية، وتصريح بإيثار ما عند الله على ما عنده من الشهوات الدنيوية الزائلة.

وما جاء في سورة الشعراء من قولهم: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ يؤيد المعنى الأول.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾؛ أي: وما تكره منا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾؛ أي: إلا إيماننا وتصديقنا بآيات ربنا ومعجزاته، التي ظهرت على يد عبده ورسوله موسى عليه السلام﴿لَمَّا جَآءَتْنَا﴾؛ أي: حين جاءتنا على يد موسى؛ أي: ما تعيب علينا إلا إيماننا بآيات ربنا، أو: ما لنا عندك ذنب تعذبنا عليه إلا إيماننا بآيات ربنا حين جاءتنا، وهذا الاستثناء شبيه بقوله:

وَلاَ عَـيْـبَ فِـيْـهِـمْ غَـيْـرَ أَنَّ سُـيُـوْفَـهُـمْ   بِـهِـنَّ فُـلُـوْلٌ مِـنْ قِـرَاعِ ٱلْـكَـتَـائِـبِ

والخلاصة: أي وما تعيب منا وما تنكر منا إلا خير الأعمال، وأصل المفاخر، الذي هو الإيمان بالله تعالى، ومثل هذا لا يمكن العدول عنه مرضاة لك، ولا طلباً للزلفى إليك، وفيه تيئيس له، وكأنهم قالوا: لا مطمع لك في رجوعنا عن إيماننا، وإنَّ تهديدك لا يجدي فائدة.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو اليسر هاشم، وابن أبي عبلة[(١)]: ﴿وما تنقَم﴾ بفتح القاف، مضارع نقم بكسرها، وهما لغتان، والأفصح قراءة الجمهور.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى كلام السحرة بدعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا

---

(١) المراغي.

مالك أمرنا ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾؛ أي: أصبب علينا صبراً كاملاً تاماً عند القطع والصلب ليكلا نرجع كفاراً؛ أي: هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا، حتى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء إفراغاً، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: أمتنا ثابتين على الإسلام، منقادين لأوامرك، مخلصين لك على دين موسى وإبراهيم، **والمعنى**: ربنا[1] هب لنا صبراً واسعاً تفرغه علينا، وأيدنا بروحك حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك، ولا من الرجاء في سوى فضلك، وتوفنا إليك، مذعنين لأمرك ونهيك، مستسلمين لقضائك، غير مفتونين بتهديد فرعون، ولا مطيعين له في قوله ولا فعله، وقد ذكر المؤرخون قديماً وحديثاً أنَّ المؤمنين بالله واليوم الآخر، من كل ملة ودين، يكونون أعظم شجاعة، وأكثر صبراً على مشاق الحروب من غيرهم، ومن ثم يحرص زعماء الشعوب على بث النزعة الدينية بين رجالات الجيوش، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء.

قال الكلبي: إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، وقال غيره إنَّه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

الإعراب

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿بَعَثۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿بَعَثۡنَا﴾. ﴿مُّوسَىٰ﴾: مفعول به ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من موسى؛ أي: حال كونه ملتبساً بآياتنا. ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿بَعَثۡنَا﴾. ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: معطوف على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾. ﴿فَظَلَمُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿بَعَثۡنَا﴾ ﴿بِهَاۖ﴾: متعلق بـ﴿ظلموا﴾. ﴿فَٱنظُرۡ﴾: ﴿الفاء﴾:

(١) البحر المحيط.

فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ظلمهم بها، وأردت التعجب من عاقبتهم.. فأقول لك ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليه وجوباً لكونه مما يلزم الصدارة ﴿عَٰقِبَةُ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾، ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾: جملة استفهامية في محل النصب على إسقاط حرف جر تقديره: فانظر إلى مآل عاقبة المفسدين. كما في «الفتوحات» وجملة ﴿انظر﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بَعَثْنَا﴾ ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿فرعون﴾: في محل النصب منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنِّي﴾: ﴿إن﴾ حرف نصب، و﴿الياء﴾ اسمها ﴿رَسُولٌ﴾: خبرها ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾ جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿حَقِيقٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: أنا حقيق ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر ﴿أَن﴾: حرف نصب ﴿لَّآ﴾ نافية. ﴿أَقُولَ﴾ فعل مضارع منصوب ﴿أَن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير المتكلم يعود على موسى، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَقُولَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مفعول به لـ﴿أَقُولَ﴾ لأنَّه بمعنى: أذكر أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: إلا القول الحق، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ تقديره: على عدم قولي إلا الحق، والجار والمجرور متعلق بـ﴿حَقِيقٌ﴾ ولكن ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى الباء؛ أي: حقيق بعدم قولي إلا الحق، هذا على قراءة الجمهور، وقرأ نافع: ﴿حقيق عليَّ أن لا أقول﴾

بتشديد الياء، وذلك لقلب ألف (على) ياء وإدغامها في ياء المتكلم، فعلى هذه القراءة ﴿حَقِيقٌ﴾: مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة عمله في الجار والمجرور بعده، فإنَّ ﴿عليَّ﴾: متعلق بـ﴿حَقِيقٌ﴾ وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية تقديره: حقيق على عدم قولي على الله إلا الحق، والجملة الإسمية على كلا التقديرين في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿جِئْتُكُم﴾: فعل وفاعل، ومفعول، ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾: متعلق به، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة لـ﴿بينة﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿فَأَرْسِلْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿أرسل﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿فرعون﴾ والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿جِئْتُكُم﴾. ﴿مَعِيَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أرسل﴾، ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿فرعون﴾، والجملة مستأنفة ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية ﴿جِئْتَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان ﴿فَأْتِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب إن الشرطية ﴿ائت﴾ فعل أمر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿بِهَآ﴾ جار ومجرور، متعلق به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إنْ كنت من الصادقين.. فأت بها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿ألقى﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾، ﴿عَصَاهُ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: فجائية حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هِيَ﴾: مبتدأ ﴿ثُعْبَانٌ﴾: خبره، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة لـ﴿ثُعْبَانٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ألقى﴾. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ألقى﴾ ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: حرف فجأة ﴿هِيَ﴾: مبتدأ ﴿بَيْضَآءُ﴾: خبره، ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ متعلق بـ﴿بَيْضَآءُ﴾، أو صفة له؛ لأنَّه اسم فاعل لمؤنث، كحمراء وأحمر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿نزع﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿ٱلْمَلَأُ﴾. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿قالوا﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ حرف نصب، واسم الإشارة اسمها ﴿لَسَٰحِرٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿ساحر﴾ خبر ﴿إن﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: صفة ﴿ساحر﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾ أو على ﴿ساحر﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، حال من الضمير المستكن في ﴿ساحر﴾، أو في محل الرفع صفة ثانية ﴿لَسَٰحِرٌ﴾، ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يريد إخراجه إياكم ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، متعلق بـ﴿يُخْرِجَكُم﴾. ﴿فَمَاذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة داخلة على قول محذوف تقديره: فقال فرعون: ماذا تأمرون؟ ﴿ماذا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول ثان مقدم وجوباً للزومه صدر الكلام، ﴿تَأْمُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والواو عائدة على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، والمفعول الأول محذوف تقديره: فقال فرعون: أي شيء تأمرونني فيه؟ والجملة الفعلية في

محل النصب مقول لـ﴿قَالَ﴾ المحذوف، وجملة ﴿قَالَ﴾ المحذوف معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ ويجوز أنْ تكون ﴿ما﴾ اسم استفهام مبتدأ ﴿ذا﴾: اسم موصول بمعنى الذي، في محل الرفع خبره، وجملة ﴿تَأْمُرُونَ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: فقال فرعون ما الذي تأمرونني فيه؟.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافياً بيانياً ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَرْجِهْ﴾: فعل أمر مبني بسكون على الهمزة المحذوفة للتخفيف؛ لأنه من أرجأ و﴿الهاء﴾: ضمير للمفرد المذكر الغائب في محل النصب مفعول به، مبني على السكون تشبيهاً له بهاء السكت مع إجراء الوصل مجرى الوقف، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿وَأَخَاهُ﴾: معطوف على ضمير المفعول ﴿وَأَرْسِلْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿أَرْجِهْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾: متعلق به، ﴿حَٰشِرِينَ﴾: مفعول به لـ﴿أرسل﴾، ومفعول ﴿حَٰشِرِينَ﴾ محذوف تقديره: حاشرين السحرة ﴿يَأْتُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به. ﴿عَلِيمٍ﴾: صفة ﴿سَٰحِرٍ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿جاء﴾ تقديره: وجاء السحرة فرعون فقالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ إلى آخر الآية. مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿لَنَا﴾: خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿لَأَجْرًا﴾: اسمها مؤخر ﴿واللام﴾: حرف ابتداء وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بإنْ على كونه فعل شرط لها، ﴿نَحْنُ﴾: ضمير فصل، أو مؤكد لاسم كان،

﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إن كنا نحن الغالبين.. فإن لنا لأجراً، وجملة ﴿إِن﴾: الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿نَعَمْ﴾: حرف جواب وتصديق، قائم مقام الجملة الجوابية تقديرها: قال: إن لكم لأجراً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَإِنَّكُمْ﴾: الواو عاطفة ﴿إِن﴾: حرف نصب ﴿والكاف﴾: اسمها ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ المحذوفة، القائم مقامها حرف ﴿نَعَمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: إلى آخر الآية. مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿إِمَّآ﴾: حرف تخيير ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تُلْقِىَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود على موسى، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب، على كونه مفعولاً لفعل محذوف تقديره: اختر إما إلقاءك، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿وَإِمَّآ﴾: الواو عاطفة لـ﴿إِمَّآ﴾ على ﴿إِمَّآ﴾، ﴿أَن نَّكُونَ﴾: ناصب وفعل ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود على السحرة ﴿نَحْنُ﴾: ضمير فصل، أو مؤكد لاسم ﴿نَّكُونَ﴾، ﴿ٱلْمُلْقِينَ﴾: خبر نكون، وجملة ﴿نَّكُونَ﴾ في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها تقديره: إختر إما إلقاءك وإما إلقاءنا، ومفعول الإلقاء في الموضعين محذوف لعلمه تقديره: إختر إما إلقاءك حبالك وعصيك، وإما إلقاءنا حبالنا وعصينا.

﴿قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة مستأنفة ﴿أَلْقُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن موسى أمرهم بالإلقاء، وأردت بيان ما وقع منهم بعد أمره بالإلقاء.. فأقول لك ﴿لما ألقوا﴾ ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿أَلْقَوْاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمَّا﴾، ﴿سَحَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿سَحَرُوٓاْ﴾، ﴿وَجَآءُو﴾: فعل، وفاعل معطوف على ﴿سَحَرُوٓاْ﴾، ﴿بِسِحْرٍ﴾: متعلق بـ﴿جَآءُو﴾، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة لـ﴿سحر﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾: جار ومجرور، متعلق به ﴿أَنْ﴾: مفسرة أو مصدرية ﴿أَلْقِ﴾: فعل أمر في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ ﴿عَصَاكَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، وجملة ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: وأوحينا إلى موسى إلقاءه عصاه ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فألقاها فإذا هي ﴿إذا﴾: فجائية حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هِىَ﴾: مبتدأ، ﴿تَلْقَفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على العصا، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب مفعول ﴿تَلْقَفُ﴾، أو مصدرية، وجملة ﴿يَأْفِكُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما يأفكونه، أو الجملة صلة ما المصدرية، والتقدير: تلقف إفكهم؛ أي: مأفوكهم من الحبال والعصي.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿فَوَقَعَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿وقع الحق﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوحينا﴾، ﴿وَبَطَلَ﴾: فعل ماض، ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع فاعل لـ﴿بَطَلَ﴾، ويصح أنْ تكون مصدرية، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه، أو صلة ﴿مَا﴾ المصدرية والتقدير: وبطل عملهم، وجملة ﴿بطل﴾ معطوفة على جملة ﴿وقع﴾. ﴿فَغُلِبُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿غلبوا﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿بطل﴾، ﴿هُنَالِكَ﴾ ﴿هنا﴾: اسم إشارة يشار به للمكان البعيد، في محل النصب على الظرفية المكانية مبني على السكون، ﴿اللام﴾: لبعد المشار إليه، ﴿والكاف﴾: حرف دال على الخطاب، والظرف متعلق بـ﴿غلبوا﴾، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿غلبوا﴾، ﴿صَٰغِرِينَ﴾: حال من الواو في ﴿انقلبوا﴾.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿غلبوا﴾ ﴿سَٰجِدِينَ﴾: حال من ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية حال ثانية من ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ والتقدير: وألقي السحرة حالة كونهم ساجدين قائلين: آمنا برب العالمين. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿رَبِّ مُوسَىٰ﴾: بدل من ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَهَٰرُونَ﴾: معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾ مقول محكي، وإنّ شئت قلت: ﴿ءَامَنتُم﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿قَبْلَ﴾: منصوب

على الظرفية، متعلق بـ﴿ءَامَنتُم﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿ءَاذَنَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾. وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره: قبل إذني لكم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿هَٰذَا﴾: اسمها، ﴿لَمَكْرٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿مكر﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿مكر﴾، ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾، ﴿لِتُخْرِجُوا﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وكي ﴿تخرجوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي ﴿منها﴾ متعلق بـ﴿تخرجوا﴾، ﴿أَهْلَهَا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإخراجكم منها أهلها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم مكركم وأردتم بيان عاقبته.. فأقول لكم سوف تعلمون ما يحل بكم، وجملة ﴿سوف تعلمون﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿أقطعن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير المتكلم المستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿وَأَرْجُلَكُم﴾: معطوف عليه ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾: جار ومجرور، حال من الأيدي والأرجل؛ أي: حالة كونها مختلفة في القطع، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أصلبنكم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لضمير المخاطبين، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب

معطوفة على جملة القَسم الأول. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ إلى قوله: ﴿وقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّآ﴾: حرف نصب واسمه ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾: متعلق بـ﴿مُنقَلِبُونَ﴾، ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّآ﴾ وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿تَنقِمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرْعَوْنُ﴾ ﴿مِنَّآ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل ماض، وفاعله في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية، ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء تقديره: إلا إيماننا بآيات ربنا، ﴿لَمَّا﴾: حينية في محل النصب على الظرفية، ﴿جَآءَتْنَاۚ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الآيات، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾ تقديره: حين مجيئها إيانا، والظرف متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿أَفْرِغْ﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباري سبحانه، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به، ﴿صَبْرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها جواب النداء ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿مُسْلِمِينَ﴾: حال من ضمير المتكلمين، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَفْرِغْ﴾ على كونها جواب النداء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾. ﴿مُّوسَىٰ﴾[1] موسى ابن عمران

(١) المراغي.

ـ بكسر العين ـ وأهل الكتاب يقولون: عمرام بفتح أوله، وإنَّما سمي موسى لأنَّه ألقي بين ماء وشجر، فالماء بالقبطية: مو، والشجر: سى، وذلك أنَّ أمه وضعته بعد ولادته في تابوت ـ صندوق ـ وأقفلته إقفالاً محكماً، وألقته في نهر النيل، خوفاً من فرعون وحكومته أنْ يعلموا به فيقتلوه، إذ كانوا يذبحون ذكور بني إسرائيل عند ولادتهم، ويتركون نساءهم، وفرعون لقب لملوك مصر القدماء، كلقب قيصر لملوك الروم، وكسرى لملوك الفرس، كما مر، والراجح لدى كثير ممن يعنون بالتاريخ المصري القديم، أن فرعون موسى هو الملك منفتاح، وكان يلقب بسليل الإله: رع؛ أي: الشمس وقد كتب بجانب هيكله الذي بدار الآثار المصرية. الآية الكريمة ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ والملأ أشراف الناس، يملؤون المجالس بأجرامهم، والعيون بجمالهم، والقلوب بمهابتهم، كما مر عن أبي السعود، ومن المراد هنا ما يشمل الرفيع والوضيع ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾؛ أي: جحدوا بها وكفروا ﴿حَقِيقٌ﴾؛ أي: جدير وخليق به، يقال: أنت حقيق بكذا، كما يقال: أنت جدير به وخليق، وقال الليث: حق الشيء معناه: وجب، ويحق عليك أن تفعله، وحقيق أن أفعله، فهو بمعنى فاعل، وقد يكون بمعنى مفعول، تقول: فلان محقوق عليه أن يفعل ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ والنزع إخراج الشيء من مكانه ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؛ أي: تشيرون في أمره، يقال: مرني بكذا على معنى: أشر علي وأدل رأيك. ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛ أي: أرجىء أمره وأخره ولا تقض فيه بادىء الرأي، وهو من أرجأ الرباعي ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ جمع مدينة، ومدينة على وزن فعيلة، فالياء زائدة في المفرد، فلذلك تقلب همزة في الجمع على حد قوله في الخلاصة:

وَٱلْـمَـدُّ زِيْـدَ ثَـالِـثَـاً فِـيْ ٱلْـوَاحِـدِ   هَـمْـزاً يُـرَىٰ فِـيْ مِـثْـلِ كَـٱلْـقَـلَائِـدِ

والمدينة من مدن بالمكان يمدن، إذا أقام به، فالفعل من باب نصر، وفي «السمين»: والمدائن جمع مدينة ووزنها فعيلة، فميمها أصلية، وياؤها زائدة، مشتقة من مدن يمدن مدوناً؛ أي: أقام ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يجوز[1] أنْ يكون استفعل هنا

(١) الفتوحات.

بمعنى أفعل؛ أي: أرهبوهم، وهو قريب من قولهم قر واستقر، وعظم واستعظم، وهذا رأي المبرد، ويجوز أنْ تكون السين على بابها؛ أي: استدعوا رهبة الناس منهم، وهو رأي الزجاج. اهـ «سمين».

﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[1] قرأ العامة: ﴿تلقف﴾ بتشديد القاف من ﴿تلقف﴾ والأصل تتلقف بتائين، فحذفت إحداهما، إما الأولى وإما الثانية، وقد تقدم ذلك في نحو ﴿تذكرون﴾ والبزي: على أصله وإدغامها فيما بعدها، فيقرأ: ﴿فإذا هي تلقف﴾ بتشديد التاء أيضاً، وقرأ حفص ﴿تَلْقَفُ﴾ بتخفيف القاف من لقف، كعلم يعلم، وركب يركب، يقال: لقفت الشيء ألقفه لقفاً، وتلقفته أتلقفه تلقفاً إذا أخذته بسرعة فأكلته أو ابتلعته، ويقال: لقف ولقم بمعنى واحد، قاله أبو عبيد اهـ «سمين»، وفي «المختار»: لقف من باب فهم، وتلقفه؛ أي: تناولته بسرعة اهـ. ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أصل الإفك قلب الشيء عن وجهه، ومنه قيل للكذاب أفَّاك؛ لأنَّه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح إلى الباطل. اهـ «خازن». وفي «المصباح» أفك يأفك من باب ضرب، إفكاً بالكسر فهو أفوك وأفاك، وأفكته صرفته، وكل أمر صرف عن وجهه فقد أفك. اهـ وفي «المراغي»: المأفوك[2] المصروف عن وجهه الذي يحق أنْ يكون عليه، ومن ثم يقال للرياح التي عدلت عن مهابها: مؤتفكة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ⑨﴾ وقال: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، وعن الصدق في المقال إلى الكذب، وعن الجميل في الفعل إلى القبيح، فالإفك بالقول كالكذب، وقد يكون بالفعل، كعمل سحرة فرعون.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾. ﴿هُنَالِكَ﴾: يجوز أنْ يكون مكاناً؛ أي: غلبوا في المكان الذي وقع فيه سحرهم، وهذا هو الظاهر، وقيل: يجوز أن يكون زماناً، وهذا ليس أصله، وقد أثبت له بعضهم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وفي قول الشاعر:

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

ولا حجة فيهما؛ لأن المكان فيهما واضح. اهـ «سمين» ﴿وَانقَلَبُوا﴾؛ أي: عادوا ﴿صَٰغِرِينَ﴾؛ أي: أذلة بما رزئوا به من الخذلان والخيبة ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾؛ أي: خروا - سجداً؛ لأنَّ الحق بهرهم، واضطرهم إلى السجود.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: قال[1] ما ذكر منكراً على السحرة، موبخاً لهم على ما فعلوه، فالاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ، وأصل هذا الفعل آمن بوزن آدم، وأصله أأمن بهمزتين، فقلبت الثانية ألفاً وجوباً على القاعدة، والثانية هي فاء الكلمة، والأولى زائدة، فهو بوزن أفعل، كأكرم ثمَّ إنَّه دخلت عليه همزة الاستفهام، فاجتمع همزتان صريحتان، وبعدهما ألف منقلبة عن همزة في الأصل ﴿قبل أنْ آذن لكم﴾ أصله[2] أأْذن وهو فعل مضارع منصوب بأنْ المصدرية، والهمزة الأولى همزة المتكلم التي تدخل على المضارع، والثانية قلبت ألفاً لوقوعها ساكنة بعد همزة أخرى، وأصله أأذن على وزن أعلم. المكر: صرف الإنسان عن مقصده بحيلة، وهو **نوعان**، **محمود**: يراد به الخير، **ومذموم**: يراد به الشر ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والعكس بالعكس ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ والصلب: الشد على خشبة ونحوها، وشاع في تعليق الشخص بنحو حبل في عنقه ليموت، وهو المتعارف اليوم.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ عبارة «الخازن» يعني: وما تكره منا وما تطعن علينا. وقال عطاء: معناه وما لنا عندك ذنب تعذبنا عليه. انتهت. وفي «المصباح» نقمت عليه أمره ونقمت منه نقماً، من باب ضرب، ونقوماً، ونقمته أنقمه من باب تعب لغة إذا عبته وكرهته أشد الكراهة لسوء فعله، وفي «التنزيل»: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ على اللغة الأولى؛ أي: وما تطعن فينا وتقدح، وقيل: ليس لنا عندك ذنب، ولا ركبنا

---

(١) أبو السعود.

(٢) الفتوحات.

مكروهاً. اهـ وقال: نقمت بالشيء إذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة، كما قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ و﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾. ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾؛ أي: افض علينا صبراً يغمرنا كما يفرغ الماء من القرَب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإبهام في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ إفادة للتفخيم والتعظيم.

ومنها: التضمين في قوله: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ وهو إشراب كلمة معنى كلمة أخرى؛ لأنَّه ضمن ﴿ظلموا﴾ بمعنى (كفروا) فعداه بالباء.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ومنها: التضمين أيضاً في قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾. على قراءة العامة؛ لأنَّه ضمن ﴿حَقِيقٌ﴾ بمعنى (حريص) فعداه بعلى.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، فإنَّه في مقابلة قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لأنَّه بمعنى خل أمرهم، واترك سبيلهم حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة، وفي قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾؛ لأنَّه استعار النزع ـ الذي هو بمعنى أخذ الشيء بسرعة ـ للإخراج؛ لأنَّه بمعنى: أخرج يده من جيبه، أو من كمه.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ للمبالغة، أكده بإن وبإسمية الجملة، وباللام، وفي قوله: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أكد الجملة بإن، وباللام لإزالة الشك من نفوس السحرة، ويسمى هذا النوع من أنواع الخبر إنكارياً.

ومنها: التنكير إفادة للتعظيم في قوله: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ قال الزمخشري:

كقولهم: إن له لإبلاً، وإن له لغنماً وفي قوله: ﴿لَمَكْرٌ﴾.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ما يحل بكم، ثم البيان بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ جاء به في جملة قسمية تأكيداً لما يفعله.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿تلقي﴾ و﴿الملقين﴾ في قوله: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾. وتغيير النظم في الجملة الثانية ـ بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل، وتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل ـ يدل على رغبتهم في التقدم وعدم مبالاتهم بموسى؛ لأن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا ممن له قوة وملكة في الأمر الذي يدعيه، فيخير من يقابله في الابتداء في العمل أو التأخر، فكأنَّه يقول: لا أبالي بفعلك سواء تقدم أو تأخر.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ لأنَّه استعار الوقوع للثبوت والحصول، وفي قوله: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ لأنَّ الإفراغ حقيقة في الماء.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا﴾ مثل قوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ
سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ
وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن
قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ
أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا
فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ
وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا
كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ
قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ
﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ
فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ
أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى[1] يخبر عما تمالأ عليه

---

(١) المراغي.

فرعون وملؤه، وما أضمروه لموسى وقومه، لقد نصح موسى قومه، ودار بينهم حوار قصه الله علينا في تلكم الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ . . .﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حكى وعد موسى لقومه بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ. . .﴾. . ذكر هنا مبادىء الهلاك الموعود به بما أنزله على فرعون وقومه من المحن، حالاً بعد حال، إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال تنبيهاً للسامعين، وزجراً لهم عن الكفر وتكذيب الرسل، حذر أن ينزل بهم من الشر مثل ما نزل بهؤلاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى. . .﴾ الآيات[(١)]، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر الله سبحانه وتعالى الآيات الخمس التي سبق ذكرها. . بين هنا ما كان من أثرها في نفوس المصريين جميعاً، وطلبهم من موسى أن يرفع الله عنهم العذاب، فإذا هو فعل. . آمنوا به، ثم تبين نكثهم وخلفهم للوعد كل مرة حدث فيها الطلب، حتى حل بهم عذاب الاستئصال بالغرق في البحر.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا . . .﴾ مناسبتها لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما بين ما حل بالمصريين من الغرق عقوبة لهم على تكذيبهم بموسى، بعد وجود الآية تلو الآية الدالة على صدقه. . ذكر هنا ما فعله ببني إسرائيل من الخيرات، إذ أصبحوا أعزة بعد أن كانوا أذلة، وملكوا الأرض المقدسة التي بارك الله فيها، وهي بلاد الشام.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ. . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين أنواع نعمه على بني إسرائيل، بأن أهلك عدوهم، وأورثهم أرضهم وديارهم. . أتبع ذلك بالنعمة الكبرى عليهم، وهي أنَّه جاوز بهم البحر آمنين، ثم ارتدوا وطلبوا من موسى أن يعمل لهم آلهة وأصناماً. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ عما رآه من اليهود بالمدينة، فإنَّهم جروا معه على دأب

---

(١) المراغي.

أسلافهم مع أخيه موسى صلوات الله وسلامه عليهم، وإيقاظ للمؤمنين أنْ لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم، ومراقبة نعم الله تعالى عليهم، فإن بني إسرائيل وقعوا فيما وقعوا فيه من جزاء غفلتهم عما مَنَّ الله تعالى به عليهم من النعم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ لفرعون لما خلى سبيل موسى: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾؛ أي: أتترك موسى وقومه بني إسرائيل أحراراً آمنين؟ والاستفهام للإنكار التعجبي؛ أي: لا تذرهم ﴿لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرض مصر؛ أي: لتكون عاقبتهم أنْ يفسدوا عليك قومك القبطيين بإدخالهم في دينهم، أو بجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم. ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾؛ أي: ويترك عبادتك وعبادة آلهتك، فلا يعبدوك ولا يعبدوها، فيظهر لأهل مصر عجزك وعجزها، ولا يغيبن عنك إيمان السحرة، فقد يكون مقدمة لما بعده.

والتاريخ[١] المصري المستمد من العادات المصرية يدل على أنه كان للمصريين آلهة كثيرة، منها: الشمس ويسمونها: رع، وفرعون عندهم سليل الشمس وابنها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[٢]: كانت لفرعون بقرة كان يعبدها، وكان إذا رأى بقرةً حسنة أمرهم بعبادتها، ولذلك أخرج لهم السامري عجلاً، وقال السدي: كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناماً، وكان يأمرهم بعبادتها، وقال لهم: أنا ربكم ورب هذه الأصنام، وذلك قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، والأولى أن يقال: إن فرعون كان دهرياً منكراً لوجود الصانع، فكان يقول: مدبر هذا العالم السفلي هي الكواكب، فاتخذ أصناماً على صورة الكواكب، وكان يعبدها ويأمر بعبادتها، وكان يقول في نفسه،: إنه هو المطاع والمخدوم في الأرض، فلهذا قال: أنا ربكم الأعلى. اهـ من «الخازن».

(١) المراغي. (٢) الخازن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ويذرك﴾ بياء الغيبة ونصب الراء، وفي النصب وجهان، أظهرهما: أنَّه على العطف على ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾، والثاني: أنَّه منصوب على جواب الاستفهام، كما ينصب في جوابه بعد الفاء، وقرأ نعيم بن ميسرة والحسن في رواية عنه: ﴿ويذرك﴾ بالرفع عطفاً على أتذر بمعنى أتذره ويذرك، وعلى الاستئناف إخباراً بذلك، أو على الحال على تقدير: وهو يذرك، وقرأ الأشهب العقيلي والحسن في رواية عنه ﴿ويذرك﴾ بالجزم، إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة، أو عطفاً على ﴿يفسدوا﴾ على توهم الجازم كما قيل: في ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وقرأ أنس بن مالك: ﴿ونذرك﴾ بالنون ورفع الراء، توعدوه بتركه وترك آلهته، أو على معنى الإخبار؛ أي: إن الأمر يؤول إلى هذا.

وقرأ أبي وعبد الله[2]: ﴿ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك﴾ وقرأ الأعمش: ﴿وقد تركك وآلهتك﴾ وقرأ الجمهور: ﴿وآلهتك﴾ بفتح الهمزة على صيغة الجمع. والظاهر: أن فرعون كان له آلهة يعبدها كما مر عن ابن عباس، وقيل: إن الإضافة لأدنى ملابسة باعتبار أنَّه صنعها وأمرهم بعبادتها، لتقربهم إليه. وقرأ ابن مسعود وعلي وابن عباس وأنس رضي الله عنهم، والشعبي والضحاك: ﴿وإلهتك﴾: بكسر الهمزة، وفسروا ذلك بأمرين:

أحدهما: أن المعنى: ويذكر وعبادتك فلا يعبدك؛ لأن فرعون كان يعبد ولا يعبد، فيكون حينئذ مصدراً بمعنى العبادة.

والثاني: أن المعنى: ويذرك ومعبودك، والمراد بالآلهة الشمس التي كان يعبدها، والشمس تسمى إلهةَ، علماً عليها ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث، ونقل ابن الأنباري عن ابن عباس أنَّه كان ينكر قراءة الجمهور ويقرأ: ﴿وإلهتك﴾ ويقول إن فرعون يعبد ولا يعبد. اهـ «سمين».

واعلم[3]: أن فرعون بعد واقعة السحر كان كلما رأى موسى خافه أشد

---

(١) البحر المحيط وغيره.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح.

الخوف، ولا يتعرض له، إلا أن قومه لم يعرفوا ذلك، فحملوه على أخذه وحبسه حين قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ قال فرعون مجيباً للملأ ـ لما لم يقدر على موسى أن يفعل معه مكروهاً لخوفه منه ـ ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ أي: سنقتل أبناء بني إسرائيل تقتيلاً كلما تناسلوا ﴿وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾؛ أي: ونستبقي نساءهم أحياء للخدمات كما كنا نفعل بهم قبل ولادته، حتى ينقرضوا ويعلموا أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة.

وقال ابن عباس(١): كان فرعون قد ترك القتل في بني إسرائيل بعدما ولد موسى، فلما جاءه موسى بالرسالة ـ وكان من أمره ما كان ـ أعاد فيهم القتل، وقيل: لم يعد فيهم القتل بل وعده وهدده إياهم، وقرأ نافع وابن كثير ﴿سنَقْتل﴾ بالتخفيف مع فتح النون وسكون القاف، وقرأ الباقون بالتشديد مع ضم النون ﴿وإنا فوقهم﴾؛ أي: فوق بني إسرائيل في المنزلة والتمكن في الدنيا؛ أي: مُستَعلون عليهم بالغلبة والسلطان ﴿قَٰهِرُونَ﴾ لهم وغالبون عليهم، كما كنا من قبل فلا يقدرون على إذايتنا، ولا على الإفساد في أرضنا، ولا على الخروج من عبوديتنا، وإنما تركنا موسى وقومه بلا حبس لعدم التفاتنا إليهم، وعدم مبالاتنا لهم، لا لعجز ولا لخوف.

واختلف المفسرون(٢): هل أعاد عليهم القتل أم لا؟ فمنهم من قال: أعاد عليهم القتل، ومنهم من قال: لم يفعل ذلك لعدم قدرته لقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. ولكن لما سمع بنو إسرائيل هذا الوعيد.. خافوا من فرعون، فشكوا ذلك إلى موسى، فطمأنهم موسى كما حكى الله عنه بقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾: بني إسرائيل يا قوم ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: اطلبوا معونة الله وتأييده على رفع ذلك الوعيد عنكم، ورفع أذاهم عنكم؛ فإن الله هو الكافي لكم ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على أذاهم، أو على ما سمعتم من أقاويله الباطلة، ولا تحزنوا ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض مصر وكذا سائر أقطار الأرض، شرقها وغربها ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى

(١) الخازن.
(٢) المراح.

خلقاً وملكاً، لا لفرعون، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء ﴿يُورِثُهَا﴾؛ أي: يورث الأرض ويعطيها ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي لمن يشاء إعطاءه إياها ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فهي على مقتضى سننه دول وأيام، وهذا إطماع من موسى عليه السلام لبني إسرائيل أنه يهلك فرعون وقومه، ويملك بنو إسرائيل أرضهم وبلادهم بعد إهلاكهم كما قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة، وعاقبة كل شيء آخره ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: لمن يتقون الله، ويراعون سننه في أسباب إرث الأرض، باتحاد الكلمة، والاعتصام بالحق، وإقامة العدل، والصبر على الشدائد، والاستعانة بالله لدى المكاره، ونحو ذلك مما هدت إليه التجارب، ودلت عليه الشرائع، وهم موسى وقومه.

وقرأ الحسن، ورويت عن حفص[1]: ﴿يُوَرِّثها﴾: بضم الياء وفتح الواو وتشديد الراء المكسورة للتكثير، وقرأت فرقة: ﴿يورَثها﴾: بفتح الراء، مبيناً للمفعول. وقرأ ابن مسعود: ﴿العاقبة﴾: بالنصب عطفاً على الأرض، فالاسم معطوف على الاسم، والخبر على الخبر فهو من عطف المفردات، فنتيجة طلب الإعانة توريث الأرض لهم، ونتيجة الصبر العاقبة المحمودة، والنصر على من عاداهم، فلذلك كان الأمر شيئين ينتج عنهما شيئان:

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة ـ أعني قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ ـ من الواو، وأدخلت على التي قبلها ـ أعني قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾؟

قلت: هذه جملة مستأنفة، والتي قبلها معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾. انتهى.

والخلاصة: ليس الأمر كما قال فرعون، بل القهر والغلبة لمن صبر واستعان بالله، ولمن وعده الله تعالى توريث الأرض، ونحن الموعودون بذلك، ولكن بشرط أن نقيم شرعه ونسير على سننه في الخلق، وليس الأمر كما يظن فرعون وقومه من بقاء القوي على قوته، والضعيف على ضعفه، اعتمادا على أنَّ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الكشاف.

الآلهة ضمنت له بقاء ملكه، وعظمته، وجبروته، لكن هذه الوصية وتلك النصائح لم تؤثر في قلوب بني إسرائيل، ففزعوا من فرعون وقومه ﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال بنو إسرائيل لموسى استكشافاً لكيفية وعد موسى إياهم بزوال تلك المضار، هل في الحال، أولا، لا كراهة لمجيء موسى بالرسالة، وشكاً في وعده ﴿أُوذِينَا﴾ يا موسى من جهة فرعون وقومه، بقتل أبنائنا، واستخدام نسائنا ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ بالرسالة ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ رسولا بإعادة ذلك علينا، وذلك[1] أن بني إسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه، وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة نصف النهار، فلما جاء موسى - وجرى بينه وبين فرعون ما جرى - شدد فرعون في استعمالهم، فكان يستعملهم جميع النهار، وأعاد القتل فيهم، ولما ذكروا ذلك لموسى.. أجابهم بما حكاه الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿قَالَ﴾ موسى لقومه مسليا لهم، حين رأى شدة جزعهم بما شاهدوه من فعل فرعون ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾؛ أي حقق ربكم ﴿أَن يُهۡلِكَ﴾ ويستأصل ﴿عَدُوَّكُمۡ﴾ فرعون وقومه ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يجعلكم خلفاء في أرض مصر بعد هلاك أهلها، أو المعنى: قال[2] موسى لهم: إن رجائي من فضل الله أن يهلك عدوكم الذي ظلمكم، ويجعلكم خلفاء في الأرض.

﴿فَيَنظُرَ﴾ سبحانه وتعالى ويرى ﴿كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ بعد استخلافه إياكم فيها، أتشكرون النعمة أم تكفرون، وتصلحون في الأرض أم تفسدون، ويكون جزاؤكم في الدنيا والآخرة وفق ما تعملون، وعبر بالرجاء - دون أن يجزم بذلك - لئلا يتركوا ما يجب من العمل، ويتكلوا على ذلك، أو لئلا يكذبوه؛ لأنَّ أنفسهم قد ضعفت بما طال عليها من الذل والاستخدام لفرعون وقومه، واستعظامهم لقومه وملكه، وقال التبريزي: يحتمل أن يكون قد أوحي بذلك إلى موسى، فعسى: للتحقيق، أو لم يوح، فيكون على الترجي منه، وهذا تصريح[3] بما رمز إليه أولاً. من أن الأرض لله، وقد حقق الله تعالى رجاءه وملكوا مصر في زمان

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

داود وسليمان، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون، وأهلك فرعون وقومه بالغرق، وأنجاهم.

ثم شرع في تفصيل مبادىء هلاكهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ابتلينا آل فرعون وقومه، في المدة التي كان موسى أقام بينهم يدعوهم إلى الله تعالى، والأخذ[1] ـ التناول باليد ـ ومعناه: هنا الابتلاء ومعنى ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ بالقحوط والجدوب، والسنة تطلق على الحول، وتطلق على الجدب ضد الخصب. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وذهابها بالعاهات؛ أي: ابتليناهم بالجدب وضيق المعيشة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي يتذكروا ضعفهم أمام قدرة الله، وعجز ملكهم العالي الجبار، وعجز آلهتهم، ويرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل، ويجيبوا دعوة موسى عليه السلام، إذ قد دلت التجارب على أن الشدائد ترقق القلوب، وتهذب الطباع، وتوجه النفوس إلى مناجاة الرب سبحانه، والعمل على مرضاته والتضرع له، دون غيره من المعبودات متى اتخذوها وسائل إليه وشفعاء عنده.

فإن لم تجد المصائب في تذكر المولى، وبلغ الأمر بالناس أن يشركوا به، حتى في أوقات الشدائد، فهم في خسران مبين، وضلال بعيد، وكذلك كان دأب آل فرعون، بعد أن أنذرهم موسى عليه السلام.

قال ابن عباس وقتادة[2]: أما السنون فكانت لباديتهم ومواشيهم، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم، وهذه سيرة الله في الأمم، يبتليها بالنقم ليزدجروا ويتذكروا بذلك ما كانوا فيه من النعم، فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب، والرجوع إلى طلب لطف الله وإحسانه، وكذا فعل بقريش حين دعا عليهم رسول الله ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» وروي أنه يبس لهم كل شيء، حتى نيل مصر، ونقصوا من الثمرات، حتى كانت النخلة تحمل التمرة الواحدة.

ثم بين أن المصائب لم تفدهم ذكرى، بل زادتهم عتوا فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾؛ أي: فإذا جاءهم الخصب، والثمار، والمواشي، والسعة في الرزق

---

(١) البحر المحيط.   (٢) البحر المحيط.

والعافية ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال آل فرعون ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ الحسنة؛ أي: نحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس، فبلادنا بلاد خصب ورخاء، وقد غاب عنهم أن يعلموا أن هذا من الله، فعليهم أنْ يشكروه عليها ويقوموا بحق النعمة فيه. قال أبو السعود: وهذه الجملة بيان لعدم تذكرهم وتماديهم في الغي. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: وإنْ أصابهم قحط وجدب ومرض وبلاء ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين؛ أي: تشاءموا بموسى وقومه وقالوا: إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه، وغفلوا عن سيئات أنفسهم، وظلمهم لقوم موسى، توهماً منهم أنَّ ذلك حق من حقوقهم.

وهذه المعاملة يعامل بها الآن الأجنبي في الوطن أو في الدين، كما نراه الآن في بعض الدول العصرية، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون.

قال الزمخشري[(١)]: فإنْ قلت: كيف قيل: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ بـ﴿إذا﴾ وتعريف الحسنة، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بـ﴿إن﴾ وتنكير السيئة؟

قلتُ: لأنَّ جنس الحسنة وقوعه، كالواجب لكثرته واتساعه، وأما السيئة: فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا يسير منها، ومنه قول بعضهم:

وَقَــــدْ عَــــدَّدْتَ أَيَّـــامَ ٱلْــبَــــلَاءِ   فَــهَـــلْ عَـــدَدْتَ أَيَّـــامَ ٱلــرَّخَـــاءِ

انتهى.

وقرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف: ﴿تطيروا﴾ بالتاء وتخفيف الطاء، فعلاً ماضياً ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾؛ أي: حظهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سبب خيرهم وشرهم في جميع ما ينالهم من خصب وقحط، هو من عند الله تعالى، ليس بسبب موسى ومن معه؛ أي: إن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله وتقديره، وهو الذي وضع لنظام الكون سنناً تكون فيه المسببات وفق أسبابها، وبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل عليها البلاء، ويكون إمتحاناً واختباراً لهم، ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم على بني إسرائيل، وعن طغيانهم وإسرافهم في

---

(١) البحر المحيط.

جميع أمورهم، وقرأ الحسن: ﴿ألا إنما طيرهم﴾ وكان النبي ﷺ ﴿يتفاءل ولا يتطير﴾ وأصل الفأل الكلمة الحسنة، كانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد، فأثبت النبي ﷺ الفأل وأبطل الطيرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة تصرف الخالق في هذا الكون، ولا أسباب الخير والشر، ولا أن كل شيء فيه جاء بمشيئته وتدبيره؛ لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة، ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وقدره، والحق أن الكل من الله، فإسنادها إلى غير الله تعالى يكون جهلاً بكمال الله تعالى.

وبعد أن ذكر أن هذه الحسنات والسيئات لم تردعهم عماهم فيه من الطغيان.. ذكر أنَّه أصابهم بضروب أخرى من العذاب، وهي في أنفسها آيات بينات وهم مع ذلك لم يرعووا عن كفرهم وعنادهم ﴿وقالوا﴾؛ أي: آل فرعون وهم القبطيون لموسى عليه السلام ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾؛ أي: أي شيء تأتنا به وتظهره لدينا ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ أي: من علامة من عند ربك ﴿لِّتَسْحَرَنَا﴾؛ أي: لتصرفنا عما نحن عليه من الدين ﴿بِهَا﴾؛ أي: بتلك الآية ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدقين لك في الرسالة بسبب تلك الآية.

أي: إنَّك إن جئتنا بكل نوع من أنواع الآيات، التي يستدل بها على أنَّك محق في دعوتك، لأجل أن تسحرنا بها، وتصرفنا بها بدقة ولطف عما نحن فيه من ديننا، ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا، فما نحن بمصدقين لك، ولا بمتبعين رسالتك، والضميران في ﴿بِهِۦ﴾ و﴿بِهَا﴾ راجعان لـ﴿مَهْمَا﴾ الأول مراعاة للفظها، والثاني مراعاة لمعناها.

وهذا شروع في بيان ضرب آخر مما أخذوا به من فنون العذاب، التي هي أنفسها آيات بينات، وعدم رجوعهم مع ذلك عما كانوا عليه من العناد؛ أي: قالوا بعد ما رأوا ما رأوا من شأن العصا والسنين، ونقص الثمار: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ...﴾ الخ. وكان موسى رجلاً حديداً حاراً، فعند ذلك دعا عليهم وقال: يا رب إنَّ عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا، وإنَّ قومه قد نقضوا العهد، رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدهم آية،

فاستجاب الله له فقال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ﴾؛ أي: أرسلنا على آل فرعون عقوبة على جرائمهم، وقد عدد سبحانه هنا من الآيات والعقوبات خمساً، وفي سورة الإسراء تسعاً، الأول: منها ما ذكره بقوله: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾؛ أي: أنزلنا عليهم مطراً أغرق أرضهم، وأتلف زرعهم وثمارهم، وبيوتُ بني إسرائيل وبيوت القبط متشبكة مختلطة، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، ومن جلس منهم غرق، ولم يدخل من ذلك الماء في بيوت بني إسرائيل شيء، وركب ذلك الماء على أرضهم، فلم يقدروا أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً، ودام ذلك عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، حتى كان الرجل منهم لا يرى شمساً ولا قمراً، ولا يستطيع الخروج من داره، فصرخوا إلى فرعون فاستغاثوا به، فأرسل إلى موسى عليه السلام فقال: اكشف عنا العذاب فقد صارت مصر بحراً واحداً؛ فإن كشفت هذا العذاب عنا.. آمنا بك، فأزال الله تعالى عنهم المطر، وأرسل الريح، فجفت الأرض، وخرج من النبات ما لم ير مثله قط، فقالوا: هذا الذي جزعنا منه خير لنا، لكنا لم نشعر، فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل، فنكثوا العهد ولم يؤمنوا، فأقاموا شهراً في عافية ﴿و﴾ أرسل الله عليهم ﴿ٱلۡجَرَادَ﴾ فأكل زروعهم وثمارهم، وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم، وابتلي الجراد بالجوع، فكانت لا تشبع، ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك، وعظم الأمر عليهم، حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس، ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعاً، فضجوا في ذلك إلى موسى وقالوا: يا موسى أدع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز.. لنؤمنن لك، فأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى عليه السلام، فكشف الله تعالى عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فأرسل الله تعالى ريحاً فألقته في البحر، وكان قد بقي من زرعهم وغلاتهم بقية، فنظروا إلى ما بقي منها فقالوا: هذا الذي بقي يكفينا، ولا نؤمن بك ﴿و﴾ أقاموا شهراً في عافية، فأرسل الله عليم ﴿القمل﴾ واختلفوا في معنى القمل، والصحيح أنَّه هو القمل المعروف الذي يكون في بدن الإنسان وثيابه، ويؤيد هذا المعنى قراءة الحسن: ﴿والقمل﴾ ـ بفتح القاف وسكون الميم ـ فيكون فيه لغتان. القمل ـ بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة ـ كقراءة الجمهور، والقمل

كقراءة الحسن، وقيل: القمل البراغيث، وقيل الجعلان، وقيل: إنه السوس الذي يخرج من الحنطة، وقيل: غير ذلك مما يطول الكلام بذكره، وعن سعيد بن جبير: كان إلى جنبهم كثيب أحمر، فضربه موسى عليه السلام بعصاه، فصار قملاً، فأخذت أبشارهم وأشعارهم، وأشعار عيونهم، وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنَّه الجدري، ومنعهم النوم والقرار، فصاحوا وصرخوا هم وفرعون إلى موسى عليه السلام، وقالوا: إنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء، فدعا موسى فرفع الله عنهم القمل بعدما أقام عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا: اليوم قد تيقنا أنه ساحر، حيث جعل الرمل دواب ولم يؤمنوا ﴿و﴾ أقاموا شهراً في عافية، فأرسل الله عليهم ﴿الضفادع﴾ الحيوان المعروف، فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم، فلا يكشف أحد منهم عن ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى رقبته، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه، وكان يثب في قدورهم، فيفسد عليهم طعامهم، ويطفىء نيرانهم، وكان أحدهم يضطجع، فيركبه الضفدع، فيكون عليه ركاماً حتى لا يستطيع أنْ ينصرف إلى شقه الآخر، ويفتح فاه إلى أكله فيسبق الضفدعُ أكلَه إلى فيه، ولا يعجن عجيناً، ولا يفتح قدراً إلا امتلأ الضفادع، فلقوا منها أذى شديداً، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة، فما بقي إلا أنْ نتوب التوبة النصوح، ولا نعود إلى الكفر، فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بأنْ أماتها وأرسل عليها المطر والريح فاحتملها إلى البحر بعدما أقامت عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، ثم أظهروا الكفر ﴿و﴾ أقاموا شهراً في عافية فأرسل الله علهم ﴿الدم﴾ في مياههم، فصارت مياههم كلها دماً، فما يسقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دماً عبيطاً ـ الخالص الطري ـ أحمر، فشكوا إلى فرعون وقالوا: إنَّه ليس لنا شراب، فقال فرعون: سحركم موسى، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا دما عبيطاً، وكان فرعون لعنه الله تعالى يجمع بين القبطي والإسرائيلي على الإناء الواحد، فيكون ما يلي القبطي دماً، وما يلي الإسرائيلي ماء، حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم

العطش فتقول لها: اسقيني ماءك، فتصب لها من قربتها فيعود في إناء القبطية دماً، حتى كانت القبطية تقول للإسرائيلية: اجعليه في فيك ثم مجيه في فيّ، فتأخذه في فيها ماء، وإذا مجته في فيها.. صار دماً، واعترى فرعون العطشُ، حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها دماً، فمكثوا على ذلك سبعة أيام، من السبت إلى السبت، لا يشربون إلا الدم فأتوا موسى وشكوا إليه ما يلقونه، وقالوا: ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الدم لنؤمنن لك، ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل مع أموالهم، فدعا موسى عليه السلام ربه فكشفه عنهم وقوله: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ حال من تلك الأشياء الخمسة؛ أي: فأرسلنا عليهم هذه الأشياء الخمسة، حالة كونها آيات مفصلات؛ أي: علامات مبينات ومعجزات واضحات، لا يخفى على كل عاقل أن هذه الخمسة من آيات الله تعالى، التي لا يقدر عليها غيره، أو حالة كونها آيات مفرقات بعضها من بعض بزمان مدة شهر لامتحان أحوالهم، أيقبلون الحجة أو يستمرون على التقليد، وكان كل عذاب يبقى عليهم أسبوعاً، من سبت إلى سبت، وبين كل عذابين شهر ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ أي: تكبروا عن الإيمان بها وعن عبادة الله تعالى، لرسوخهم في الإجرام والإصرار على الذنوب، وإنْ كانوا يعتقدون صدق دعوته، وحجة رسالته، ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾؛ أي: مصرين على الذنب، لا يهتدون إلى الحق، ولا يقلعون عن الباطل.

والذي دلت عليه الآية[1]: أنَّه أرسل عليهم ما ذكر فيها، وأما كيفية الإرسال ومكث ما أرسل عليهم من الأزمان والهيئات، فمرجعه إلى النقل عن الأخبار الإسرائيليات، إذ لم يثبت من ذلك في الحديث النبوي شيء.

فقوله ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ...﴾. الخ، موزع[2] على الخمسة المذكورة، وهي الطوفان وما بعده، إذ كانوا في كل واحدة من الخمس المذكورة يلتجؤون إلى موسى ويطلبون منه الدعاء، ويسألونه أن يطلب لهم من ربه كشف ما نزل بهم، ويواعدونه بالإيمان به وإرسال بني إسرائيل معه، ويدعو الله فيكشف عنهم،

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

فيستمرون على الإيمان شهراً ثم ينكثون؛ أي: فكلما وقع عليهم، وحل بهم الرجز والعذاب، الذي هو واحد من الخمسة المذكورة في الآية السابقة، اضطربوا وفزعوا أشد الفزع و﴿قَالُواْ﴾ كل مرة منها ﴿يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وتوسل إليه ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾؛ أي: بعهده عندك ورسالته لك أنْ يكشف عنا هذا الرجز والعذاب الذي نزل بنا، ونحن نقسم لك ﴿لَئِن كَشَفۡتَ﴾ ورفعت ﴿عَنَّا﴾ هذا ﴿ٱلرِّجۡزَ﴾ والعذاب بدعائك ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ ولنصدقن رسالتك ﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ﴾؛ أي: لنطلقن ﴿مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ليعبدوا ربهم معك.

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ﴾؛ أي: فكلما كشفنا ورفعنا عنهم الرجز والعذاب، مرة بعد أخرى من المرات الخمسة السابقة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ ومدة من الزمن ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ ومنتهون إليه لا بد، وهو وقت إهلاكهم بالغرق في اليم ﴿إذا هم ينكثون﴾ وينقضون عهدهم ويحنثون في قسمهم في كل مرة؛ أي: فكلما رفعنا عنهم العذاب فاجؤوا نكث العهد من غير تأمل وتوقف، ثم عند حلول ذلك الأجل لا نزيل عنهم العذاب، بل نهلكهم به.

والخلاصة[(١)]: أنه كشف العذاب عنهم إلى حين من الزمان هم واصلون إليه ولابد، فمعذبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الغرق، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ عند بلوغ الأجل المضروب لهم؛ أي: فلما بلغوا الأجل المؤقت لهم.. أردنا الانتقام منهم، والعقوبة لهم على ما أسلفوا من المعاصي ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾؛ أي: فأهلكناهم في البحر الملح ﴿بـ﴾سبب ﴿أنهم كذبوا بآياتنا﴾ التسع كلها الدالة على صدق رسولنا ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا﴾، أي: عن تلك الآيات ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ أي: معرضين غير ملتفتين إليها.

أي فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم، بأن أغرقناهم في البحر وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات، وعدم تفكرهم فيها، حتى صاروا كالغافلين عنها،

---

(١) المراغي.

فالمراد بالغفلة عدم التدبر، وهذا مؤاخذ به، فسقط ما يقال: الغفلة لا مؤاخذة بها.

والخلاصة: أنَّهم كانوا يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب، ثم يكذبون، حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم، انتقمنا منهم بسبب أنَّهم كذبوا بها كلها، وكانوا غافلين عما يعقبها من العذاب في الدنيا والآخرة، إذ كانت في نظر الكثير منهم من قبيل السحر والصناعة، ومن ثم كانوا يكابرون أنفسهم في كل آية منها، ويحاولون أن يأتي سحرتهم وعلماؤهم بمثلها.

ومنهم من اهتدى إلى الحق وظهر له صدقه، فآمن به جهرة ككبار السحرة، ومنهم من كتم إيمانه كالذي عارض فرعون وملأه بالحجة والبرهان، في قتل موسى كما سيأتي في سورة غافر، ومنهم من جحد بها كبراً وعلواً في الأرض، كفرعون وأكابر وزرائه ورؤسائه.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾؛ أي: يغلبون ويذلون ويمتهنون بقتل أبنائهم، واستبقاء نسائهم، وضرب الجزية عليهم، واستعمالهم في الأعمال الشاقة لفرعون وقومه، وهم بنو إسرائيل ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ التي كانت للعمالقة أولاً، التي باركنا فيها بكثرة الأشجار والثمار والأنهار فيها، وهي الشام ﴿وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ التي كانت للفراعنة أولاً ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة الأرزاق، وبالنِيْل وهي مصر؛ أي: ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فيها ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: نفذت كلمة الله وقضاؤه، ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة، وأنجز لهم وعده الحسن الذي وعدهم بالنصر لهم على أعدائهم حيث قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالمراد بالكلمة: وعدهم بالنصر على عدوهم والتمكين في الأرض من بعدهم، وتمامها: إنجاز ما وعدهم به من تمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم، وقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يرسم لفظ كلمت هنا بالتاء المبسوطة، وما عداها في القرآن يرسم بالهاء المربوطة على الأصل، ذكره في «الفتوحات» والحسنى صفة لكلمة، وهي تأنيث الأحسن ﴿بما صبروا﴾؛ أي:

بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه، وقد كان وعد الله تعالى إياهم مقروناً بأمرهم بالصبر والاستقامة، كما أمرهم نبيهم عليه السلام مبلغاً عن ربه ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ فمن قابل البلاء بالجزع.. وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر.. ضمن الله له الفرج، وقد تم وعد الله تعالى لهم بذلك، ثم سلبهم تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس، ولم يكن من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى.

﴿وَدَمَّرْنَا﴾؛ أي: دمرنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ في مصر من المباني والقصور التي كانوا يبنونها للمصريين، والمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة لإبطال آياته، والتشكيك فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾.

فـ﴿فرعون﴾[1] اسمُ كان، و﴿يصنع﴾ خبر لـ﴿كان﴾ مقدم؛ أي: وخربنا الذي كان فرعون وقومه يصنعه من المدائن والقصور ﴿و﴾ خربنا ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾؛ أي: ما كان فرعون وقومه يعرشونه ويرفعونه من الشجر والكروم، أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان.

وقرأ[2] ابن عامر وشعبة وأبو بكر بضم الراء، وباقي السبعة والحسن ومجاهد، وأبو رجاء بكسر الراء هنا، وفي «النحل» وهي لغة الحجاز، وقال الزيدي: هي أفصح، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿يعرشون﴾ بضم الياء وفتح العين وتشديد الراء، قال الزمخشري: وبلغني أنَّه قرأ بعض الناس ﴿يغرسون﴾ من غرس الأشجار، وما أحسبه إلا تصحيفاً.

وأسباب هذا التدمير لتلك المصانع والعروش أمور[3]:

١ - الآيات التي أيد الله تعالى بها موسى من الطوفان والجراد وغيرها، وسمتها التوراة الضربات العشر.

٢ - إنجاء بني إسرائيل، وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم في أعمالهم.

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

٣ ـ هلاك من غرق من قوم فرعون، وحرمان البلاد وسائر الأمة من ثمرات أعمالهم في العمران، وقد أنذرهم موسى عاقبة ذلك، فكذبوا بالآيات وأصروا على الجمود والعناد، فظلموا أنفسهم وما ظلمهم الله تعالى.

ووجه العبرة في هذه الآيات ما كان للإيمان في قلب موسى وهارون من التأثير، إذ تصديا لأكبر ملك، في أكبر دولة في الأرض استعبدت قومه في خدمتها عدة قرون، وما زالا يكافحانه بالحجج والآيات حتى أظفرهما الله تعالى به، وأنقذا قومهما من ظلمه، ولهذا يحذر ألا تستعظم قوة الدول الظالمة أمام قوة الحق كما قال: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا[١] آخر ما قص الله تعالى من نبأ فرعون والقبط، وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعارضته، ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مملكة فرعون واستعباده، ومعاينتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر، وطلب رؤية الله جهرة، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان، وأنَّه كما وصف: ظلوم كفار، جهول كفور إلا من عصمه الله تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. وليسلي رسول الله ﷺ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهذا[٢] شروع في قصة بني إسرائيل، وشرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة، بعد أن أنقذهم الله من مهلكة فرعون، والمقصود من سياقها تسلية رسول الله ﷺ، وتنبيه المؤمنين، حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم.

أي: عبرنا بهم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ بالسلامة، بأنْ فلق الله تعالى البحر عندضرب موسى البحر بالعصا؛ أي: إنَّهم تجاوزوه وخرجوا منه بعناية الله تعالى وتأييده وحفظه، حتى كانوا من الشط الغربي إلى الشط الشرقي، والبحر بحر القلزم طرف من بحر فارس، كما في النهر، وهو عند خليج السويس الآن، وروي[٣] أنه عبر

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات. (٣) البحر المحيط.

بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء، بعد ما أهلك الله فرعون وقومه، فصاموا شكراً لله تعالى، وأعطي موسى التوراة يوم النحر، فبين الأمرين أحد عشر شهراً.

وقرأ الحسن وإبراهيم وأبو رجاء ويعقوب: ﴿وجوَّزنا﴾ بتشديد الواو المفتوحة، من باب فعل المضعف، وهو مما جاء فيه فعل بمعنى فعل المجرد، نحو: قدر وقدر، وليس التضعيف للتعدية.

﴿فَأَتَوۡا﴾؛ أي: مروا عقب مجاوزتهم البحر ودخولهم في بلاد العرب من البحر الآسيوي. ﴿عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾ قال[1] قتادة وأبو عمرو الجوني: هم من لخم وجذام، كانوا يسكنون الريف، وقيل كانوا نزولاً بالرقة رقة مصر، وهي قرية بريف مصر، تعرف بساحل البحر، يتوصل منها إلى الفيّوم، وقيل: هم الكنعانيون الذين أمر موسى بقتالهم ﴿يَعۡكُفُونَ﴾؛ أي: يقيمون ويواظبون ﴿عَلَىٰٓ﴾ عبادة ﴿أَصۡنَامٍ﴾ وتماثيل على صور البقر كانت ﴿لَّهُمۡۚ﴾؛ أي: لأولئك القوم الذين مروا عليهم، وهذا مبدأ شأن العجل الذي اتخذوه بعد ذلك وتعلقوا به، وكان ذلك أول فتنة العجل.

وقرأ الأخوان ـ حمزة والكسائي ـ وأبو عمرو في رواية عبد الوارث ﴿يعكِفون﴾ بكسر الكاف، وباقي السبعة بضمها وهما فصيحتان.

فصل في حقيقة الصنم

والأصنام[2] جمع صنم، وهو ما يصنع وينحت من الخشب أو الحجر أو المعدن، مثالاً لشيء حقيقي أو خيالي، ليعظم تعظيم العبادة، وقد اتخذ بعض العرب في الجاهلية أصناماً من عجوة التمر فعبدوها، ثم جاعوا فأكلوها، والتمثال لا بد أن يكون مثالاً لشيء حقيقي، وقد يكون للعبادة فيسمى صنماً، وقد يكون للزينة، كالذي يكون على جدران بعض القصور، أو أبوابها، أو في حدائقها، وقد يكون للتعظيم غير الديني، كالتماثيل التي تنصب لبعض الملوك

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وكبار العلماء والقادة، للتذكير بتاريخهم وأعمالهم، للاقتداء بهم.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال بنو إسرائيل لموسى لما رأوا تلك التمثال عند أولئك القوم: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾؛ أي عيّن لنا تمثالاً نتقرب بعبادته إلى الله تعالى. ﴿كَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: كما لهؤلاء القوم ﴿ءَالِهَةٌ﴾؛ أي: تماثيل يعبدونها.

قالوا[1] ذلك حنينا منهم إلى ما ألفوا في مصر من عبادة المصريين وتماثيلها وأنصابها وقبورها، وسر هذا الطلب أنَّهم لم يكونوا قد فهموا التوحيد الذي جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين، إذ إن السحرة كانوا من العلماء، فأمكنهم التمييز بين آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، والسحر الذي هو من صناعات البشر وعلومهم.

ولم يذكر القرآن شيئاً يعين شأن هؤلاء القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل، والراجح أنَّهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر، روي عن قتادة أنَّهم من عرب لخم كما مر، وعن ابن جريج أن أصنامهم كانت تماثيل بقر من النحاس.

﴿قَالَ﴾ موسى للقائلين من قومه ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا قوم ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: جاهلون عظمة الله تعالى، وأنَّه لا يستحق أن يعبد سواه؛ لأنَّه هو الذي أنجاكم من فرعون وقومه، فأغرقهم في البحر وأنجاكم منه، فلا جهل أعظم مما قلتم؛ فإنَّكم قلتموه بعدما شاهدتم المعجزة العظمى، وعن[2] واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: لما خرج إلى غزوة حنين.. مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من قبلكم» أخرجه الترمذي، قال أبو حيان[3]: تعجب موسى عليه السلام من قولهم على إثر ما رأوا من الآيات العظيمة، والمعجزات الباهرة، ووصفهم بالجهل المطلق، وأكده بـ﴿إنَّ﴾؛ لأنَّه لا جهل أعظم من هذه المقالة، ولا أشنع، وأتى بلفظ

---

(١) المراغي.　(٢) الخازن.　(٣) البحر المحيط.

﴿تَجْهَلُونَ﴾ ولم يقل جهلتم، إشعاراً بأنَّ ذلك منهم كالطبع والغريزة، لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل. انتهى.

والخلاصة[1]: أنَّكم تجهلون مقام التوحيد، وما يجب من تخصيص الله بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر، كالأصنام والتماثيل والعجل، فالله قد كرم البشر، وجعلهم أهلاً لمعرفته ودعائه ومناجاته بلا واسطة تقربهم إليه، فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد.

وبعد أن بين لهم جهلهم وسفههم، بين لهم فساد ما طلبوه، عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه فقال:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾؛ أي: مهلك مدمَّر مكسر مضمحل معدوم، منمحق ما هم عليه من الدين والعبادة؛ أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى يهدم دينهم عن قريب، ويحطم أصنامهم ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ زائل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها؛ أي: فلا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا دفع ضر.

والمعنى: إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضي على ما هم فيه بالتبار والهلاك، بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار، وزائل ما كانوا يعملون من عبادة غير الله تعالى، فإنما بقاء الباطل في ترك الحق له وبعده عنه.

وفي هذا بشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض، وقد حقق الله تعالى ما قال: ﴿قَالَ﴾ لهم موسى متعجباً من قولهم: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾؛ أي: أأطلب لكم معبوداً غير الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: والحال أنَّه سبحانه وتعالى قد فضلكم على عالمي زمانكم، بالإسلام والتوحيد، أو فضلكم على العالمين كلهم بتخصيصكم بنعم لم يعطها

---

(١) المراغي.

غيركم، كالتخصيص بتلك الآيات القاهرات؛ فإنه لم يحصل مثلها لأحد من العالمين، وإنْ كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال[1]، مثاله: رجل تعلم علماً واحداً، وآخر تعلم علوماً كثيرة سوى ذلك العلم، فصاحب العلم الواحد مفضل على صاحب العلوم الكثيرة بذلك الواحد، وفي الحقيقة أن صاحب العلوم الكثيرة مفضل على صاحب العلم الواحد، والمعنى: أأمركم أن تعبدوا رباً يتخذ ويطلب، بل الإله هو الذي يكون قادراً على الإيجاد وإعطاء الحياة، وجميع النعم، والاستفهام فيه للإنكار والتعجيب والتوبيخ.

والخلاصة[2]: أن موسى بدأ جوابه لقومه بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم، وثنى ببيان فساد ما طلبوه، وكونه عرضة للتبار والزوال؛ لأنَّه باطل في نفسه، ثم انتقل إلى بيان أن العبادة لغير الله لا تصح ألبتة، سواء أكان المعبود أفضل المخلوقات كالملائكة والنبيين، أو أخسها كالأصنام، ثم أنكر عليهم أن يكون هو الوساطة في هذا الجعل الذي دعا إليه الجهل، ليعلمهم أن طلب هذا الأمر المنكر منه عليه السلام جهل بمعنى رسالته، وأيد إنكاره لكلا الأمرين بما يعرفون من فضل الله تعالى عليهم، بتفضيلهم على أهل زمانهم، ممن كانوا أرقى منهم مدنيةً وحضارةً، وسعة ملك وسيادة على بعض الشعوب، وهم فرعون وقومه، برسالة موسى وهارون منهم، وتجديد ملة إبراهيم فيهم، وإيتائهما من الآيات ما تقدم ذكره.

ثم ذكر سبحانه وتعالى منته على بني إسرائيل فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل قصة وقت إنجائنا إياكم من فرعون وقومه بإهلاكهم بالكلية، حالة كون آل فرعون ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يذيقونكم أشد العذاب باستعمالكم في الأعمال الشاقة، وحالة كونهم ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ صغاراً ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: ويبقون بناتكم بلا قتل لاستخدامهن، وجملة ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ وما بعدها مفسرة لـ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، أو بدل منه ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.

الإنجاء أو العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾؛ أي: إنعام أو ابتلاء ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أفلا تتعظون وتنتهون عن قولكم: اجعل لنا إلهاً؟!.

وحاصل المعنى: واذكروا إذ أنجيناكم ـ بإرسال موسى وبما أيدناه من الآيات ـ من آل فرعون الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب بجعلكم عبيداً مسخرين لخدمتهم، ويقتلون ما يولد لكم من الذكور، ويستبقون نساءكم لتزدادوا ضعفاً بكثرتهن، وفي ذلك العذاب والإنجاء منه ـ بفضل الله عليكم، وتفضيله إياكم على غيركم من سكان مصر، وسكان الأرض المقدسة التي سترثونها ـ بلاء عظيم؛ أي: اختبار لكم من ربكم، المدبر لأموركم، ليس هناك اختبار أعظم منه، فلا أجدر بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان ممن يعطى النعمة بعد النقمة، وأحق الناس بمعرفة الله تعالى، وإخلاص العبادة له، من يرى في نفسه وفي الآفاق ما يوقن به، أنَّه لا يمكن أن يكون فيه شركة لغير الله، وإن أعجب العجب أن تطلبوا بعد هذا كله ممن رأيتم على يديه هذه الآيات أنْ يجعل لكم آلهة من أخس المخلوقات، تجعلونها واسطة بينكم وبين الله تعالى، وهو قد فضلكم عليها وعلى من يعبدونها، ومن هم أرقى منهم.

وقرأ الجمهور: ﴿أنجيناكم﴾ وفرقة: ﴿نجيناكم﴾: مشدداً، وابن عامر: ﴿أنجاكم﴾، فعلى قراءة: ﴿أنجاكم﴾، يكون جارياً على قوله: ﴿وهو فضلكم﴾ خاطب به موسى قومه، وفي قراءة النون خاطبهم الله تعالى بذلك، قال الطبري: الخطاب لمن كان على عهد الرسول ﷺ تقريعاً لهم بما فعل أسلافهم، وبما جاؤوا به، وقرأ نافع: ﴿يقتلون﴾ من قتل الثلاثي، والجمهور ﴿يقتلون﴾ بالتشديد من قتل المضعف.

الإعراب

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ الواو: عاطفة أو مستأنفة، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾: فعل وفاعل، والجملة

معطوفة على جملة قوله: ﴿قال فرعون﴾، أو مستأنفة، ﴿مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾، ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قال﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَتَذَرُ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، ﴿تذر﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، والجملة في محل النصب مقولِ ﴿قال﴾ ﴿مُوسَىٰ﴾ مفعول به ﴿وَقَوۡمَهُۥ﴾: معطوف عليه، ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وعاقبة، ﴿يفسدوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإفسادهم في الأرض، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تذر﴾، ﴿وَيَذَرَكَ﴾، الواو: عاطفة ﴿يذرك﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿وَءَالِهَتَكَۚ﴾: معطوف على الكاف في ﴿يذرك﴾ ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير المتكلمين يعود على ﴿فرعون وقومه﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿سَنُقَتِّلُ﴾، ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب و﴿نا﴾: اسمها، ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر أول لـ﴿إن﴾ ﴿قَٰهِرُونَ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَنُقَتِّلُ﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لِقَوۡمِهِ﴾: جار ومجرور، متعلق به ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: اسمها ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر إنَّ، والجملة في محل

النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللة لما قبلها ﴿يُورِثُهَا﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله والجملة في محل نصب حال من الجلالة تقديره: حالة كونه مورثاً لها من يشاء من عباده، أو حال من الضمير المستكن تقديره: إنَّ الأرض مستقرة لله حال كونها موروثة من الله لمن يشاء من عباده. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يشاؤه، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من العائد المحذوف، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ مبتدأ، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة إنَّ على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾ وعلى قراءة النصب معطوفة على اسم إن.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أُوذِينَا﴾: إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿أُوذِينَا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أُوذِينَا﴾ ﴿أَن تَأْتِيَنَا﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره: من قبل إتيانك إلينا، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله، ﴿مَا﴾: مصدرية ﴿جِئْتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره: ومن بعد مجيئك إيانا، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾ والجملة مستأنفة ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿عَسَىٰ﴾: من أفعال الرجاء تعمل عمل كان، ﴿رَبُّكُمْ﴾: اسمها ﴿أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَىٰ﴾ تقديره: عسى ربكم إهلاكه عدوكم، ولكنه في تأويل مهلكاً عدوكم، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿يُهْلِكَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به،

﴿فَيَنظُرَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ينظر﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يستخلف﴾: وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام معلق ما قبلها عن العمل فيما بعدها في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه ما بعدها ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مفعول به لـ﴿ينظر﴾: علق عن العمل في لفظه باسم الاستفهام، والتقدير: عسى ربكم مهلكاً عدوكم، ومستخلفاً إياكم في الأرض فناظر كيف تعملون، وجملة عسى في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿أَخَذْنَآ﴾: فعل وفاعل ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول ومضاف إليه، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَخَذْنَآ﴾، ﴿وَنَقْصٍ﴾: معطوف على ﴿السنين﴾، ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلق بـ﴿نقص﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمها، وجملة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾ وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل جواب القسم.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أخذنا إياهم بالسنين وما بعده، وأردت بيان حالهم ومقالتهم حينئذ.. فأقول لك: ﴿إذا جاءتهم الحسنة﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة، ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾: مقول محكي، أو مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿وَإِن﴾ الواو: عاطفة، ﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: فعل ومفعول، وفاعل مجزوم

بإن الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿يَطَّيَّرُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾: على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إذا﴾، ﴿بِمُوسَىٰ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَطَّيَّرُوا﴾، ﴿وَمَن﴾ موصولة في محل الجر، معطوفة على ﴿موسى﴾. ﴿مَّعَهُۥٓ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صلة مَنْ الموصولة ﴿أَلَآ﴾: حرف استفتاح وتنبيه، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة من قِبله تعالى لرد مقالتهم الباطلة، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾، الواو: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك ونصب، ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبرها، والجملة الاستدراكية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ الواو: استئنافية ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مَهْمَا﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، أو في محل النصب مفعول مقدم، والخبر جملة الجواب، أو الشرط أو هما، على الخلاف المذكور، ﴿تَأْتِنَا﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿مَهْمَا﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير المخاطب يعود على ﴿موسى﴾ ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَأْتِنَا﴾ والضمير عائد على ﴿مَهْمَا﴾ ذكره نظراً للفظه ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾: جار ومجرور، حال من ضمير به ﴿لِّتَسْحَرَنَا﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾. ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والضمير عائد على ﴿مَهْمَا﴾، وأنثه نظراً إلى كونه بمعنى ﴿ءَايَةٍ﴾، وجملة ﴿تسحرنا﴾ في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لسحرك إيانا، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَأْتِنَا﴾، ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَهْمَا﴾ وجوباً، ﴿ما﴾: حجازية أو تميمية، ﴿نَحْنُ﴾: في محل الرفع اسمها أو مبتدأ، ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية، أو خبر المبتدأ، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية، أو جملة المبتدأ في محل الجزم بـ﴿مَهْمَا﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَهْمَا﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فدعا عليهم، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾. ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به، ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾: معطوفات على ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾، وجملة ﴿أرسلنا﴾: معطوفة على جملة دعا المحذوفة، ﴿ءَايَٰتٍ﴾: حال من الأشياء الخمسة، ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾: صفة لآيات، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿استكبروا﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿أرسلنا﴾، ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَوْمًا﴾ خبرها، ﴿مُّجْرِمِينَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، وجملة كان معطوفة على جملة ﴿استكبروا﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: استئنافية ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿وَقَعَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلرِّجْزُ﴾: فاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿ما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة، ﴿يَٰمُوسَى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَى﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿ٱدْعُ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، ﴿رَبَّكَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿ٱدْعُ﴾ جواب النداء، في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿عَهِدَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿عِندَكَ﴾: متعلق بـ﴿عَهِدَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، وجملة ﴿ما﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بعهده عندك؛ أي: برسالته عندك؛ أي: متوسلاً بالرسالة التي جعلها عندك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱدْعُ﴾، ويصح أن تكون ﴿ما﴾ موصولاً اسمياً ﴿لَئِن﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿إنْ﴾: حرف شرط: ﴿كَشَفْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل

شرط لها، ﴿عَنَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَشَفْتَ﴾، ﴿ٱلرِّجْزَ﴾: مفعول به لـ﴿كَشَفْتَ﴾، قال أبو حيان: وجملة القسم حال من واو ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قالوا ذلك مقسمين لئن كشفت.. الخ انتهى، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للام الأولى، أتي باللام ثانياً إيذاناً بأنَّ الجواب بعدها مبني على قسم مقدر قبلها، لا على الشرط تقديره: والله لئن كشفت.. الخ ذكره في «الفتوحات». ﴿نؤمنن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير المتكلمين، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: إنْ كشفت عنا الرجز نؤمن لك، وجملة القسم مع جوابه، وكذلك جملة الشرط في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿نؤمنن﴾ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ﴾: الواو: عاطفة، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى، ﴿نرسلن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد وفاعله ضمير يعود على قوم فرعون، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾، على كونها جواب القسم، ﴿مَعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نرسلن﴾، أو حال من ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فدعا موسى الكشف عنهم فكشفنا عنهم الرجز المذكور، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَشَفْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْهُمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱلرِّجْزَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لما﴾: لا محل لها من الإعراب، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَشَفْنَا﴾، ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الجر صفة، لـ﴿أَجَلٍ﴾، ولكنها سببية، ﴿إِذَا﴾: فجائية خلف عن الفاء الرابطة، حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَنكُثُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فنكثوا عهودهم فانتقمنا منهم، ﴿انتقمنا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿مِنۡهُمۡ﴾: متعلق بـ﴿انتقمنا﴾، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾: تفسيرية عاطفة، ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿انتقمنا﴾، مفسرة لها لأنَّ الإغراق عين الانتقام، ﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾ متعلق بـ﴿أغرقنا﴾، ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾: الباء حرف جر وسبب، ﴿أنَّ﴾: حرف نصب و﴿الهاء﴾: اسمها، ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿غَٰفِلِينَ﴾: خبر كان، ﴿عَنۡهَا﴾: متعلق بـ﴿غَٰفِلِينَ﴾، وجملة ﴿كانوا﴾: معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُواْ﴾، على كونها خبراً لـ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿كَذَّبُواْ﴾: في محل الرفع خبر أنَّ، وجملة أنَّ في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: فأغرقناهم بسبب تكذيبهم بآياتنا، وغفلتهم عنها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أغرقنا﴾.

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾.

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة ﴿أغرقنا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان صلة الموصول ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: مفعول ثان لـ﴿أورثنا﴾، ﴿وَمَغَٰرِبَهَا﴾: معطوف على ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿ٱلَّتِي﴾: صفة للمشارق والمغارب كما أشرنا إليه في مبحث التفسير ﴿بَٰرَكۡنَا﴾: فعل وفاعل ﴿فِيهَاۖ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أورثنا﴾، ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تمت﴾، ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ الباء حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿صَبَرُواْۖ﴾: فعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلق بـ﴿تمت﴾ تقديره: وتمت عليهم كلمت ربك بسبب صبرهم على إذاية فرعون.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾.

﴿وَدَمَّرْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ولكن الواو لا تقتضي ترتيباً فلا يقال: إن التدمير قبل تمام النعمة، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿دَمَّرْنَا﴾، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿يَصْنَعُ﴾ فعل مضارع مرفوع بالضم والفاعل تقرير هو ﴿فِرْعَوْنُ﴾: اسم كان مؤخر، ﴿وَقَوْمُهُۥ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿يَصْنَعُ﴾: خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كان فرعون وقومه يصنعونه، ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾: معطوفة على ﴿مَا﴾ الأولى على كونها مفعول ﴿دمرنا﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص، واسمه، وجملة ﴿يَعْرِشُونَ﴾: خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره وما كانوا يعرشون.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: متعلق بـ﴿جاوزنا﴾، ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ﴿جاوزنا﴾، ﴿فَأَتَوْا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿جاوزنا﴾. ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿أتوا﴾، وجملة ﴿يَعْكُفُونَ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾: متعلق بـ﴿يَعْكُفُونَ﴾، ﴿لَّهُمْ﴾: صفة لـ﴿أَصْنَامٍ﴾، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب لما المحذوفة تقديرها: فلما رأوهم وأصنامهم قالوا: يا موسى... إلى قوله: ﴿قال﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا۟﴾ وإن شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَى﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء مقول: ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿ٱجْعَل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يوعد على ﴿موسى﴾ والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. على كونها جواب النداء، ﴿لَّنَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱجْعَل﴾، ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول به لـ﴿ٱجْعَل﴾؛ لأنه بمعنى اصنع فتعدى إلى مفعول واحد، ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية ﴿لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة ﴿ما﴾: المصدرية، وحسن ذلك كون الظرف مقدراً بالفعل. كما ذكره أبو البقاء. الجار والمجرور صفة لـ﴿إِلَٰهًا﴾ تقديره: إلهاً كائناً كالآلهة التي

استقرت لهم، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّكُمْ﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب والكاف اسمها، ﴿قَوْمٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿تَجْهَلُونَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿مُتَبَّرٌ﴾: خبرها، ولكنه خبر سببي، وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾، ﴿مَآ﴾: موصولة في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿مُتَبَّرٌ﴾: لأنه اسم مفعول يعمل عمل الفعل المغير لاعتماده على المخبر عنه، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة ﴿مَآ﴾ الموصولة ﴿وَبَٰطِلٌ﴾: معطوف على ﴿مُتَبَّرٌ﴾، ﴿ما﴾: موصولة في محل الرفع فاعل، ﴿باطل﴾، ﴿كَانُوٓا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبر كان، وجملة كان صلة ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة مستأنفة ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري حقها أن تدخل على الفعل المذكور بعده، ﴿غير الله﴾: مفعول به لـ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ مقدم عليه أصله: أأبغي غير الله لكم إلهاً؟ فلمَّا قدم غير حذف الجار، واتصل الكاف بالفعل.. فصار، أبغيكم، ﴿إِلَٰهًا﴾: تمييز لـ﴿غير﴾ منصوب به، أو منصوب على الحال ﴿وَهُوَ﴾ الواو: واو الحال، هو: مبتدأ، وجملة ﴿فَضَّلَكُمْ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب إما حال من الجلالة، أو من ضمير المخاطبين، أو مستأنفة، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ﴿فضل﴾.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبنية على السكون، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره:

واذكروا إذا أنجيناكم، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب بدل من جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ على كونها حالاً من ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، وجملة قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، معطوفة على جملة ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ على كونها بدلاً من ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿بَلَآءٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفة أولى لـ﴿بَلَآءٌ﴾، ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ثانية له، والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ كثر استعمال الأخذ في العذاب كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾، و﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قومه وخاصته وأعوانه في أمور الدولة، وهم الملأ من قومه، ولا يستعمل هذا اللفظ إلا فيمن يختص بالإنسان بقرابة قريبة، كما قال عَزَّ اسمه. ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ أو بموالاة ومتابعة في الرأي، كما قال: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: جمع سنة، وهي بمعنى الحول، ولكن أكثر ما تستعمل في الحول الذي فيه الجدب، كما هنا بدليل نقص الثمرات، وأصل سنة سنهة، فلامها هاء لقولهم: عاملته مسانهة، وقيل لامها واو لقولهم: سنيوة، وفي لفظ سنين لغتان:

أشهرهما: إجراؤه مجرى جمع المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجر بالياء، وتحذف نونه للإضافة، كما في الحديث الصحيح «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف».

واللغة الثانية: أن يجعل الإعراب على النون، ولكن مع الياء خاصة، نقل هذه اللغة أبو زيد والفراء.

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾: والمراد بالحسنة هنا الخصب والرخاء، وبالسيئة: ما يسؤهم من جدب وجائحة، أو مصيبة في الأبدان والأرزاق ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ﴾؛ أي: يتشاءموا، وسر[1] إطلاق التطير على التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير، فإذا طارت من جهة اليمين.. تيمنت بها، ورجت الخير والبركة، وإذا طارت من جهة الشمال.. تشاءمت وتوقعت الشر، وسُميَ الطائر الأول السانح، والثاني البارح، وسموا الشؤم طيراً وطائراً، والتشاؤم تطيراً.

وأصل[2] ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾: يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء لمقاربتها لها في المخرج، وقيل أصل التطير: أن يفرق المال ويطير بين القوم، فيطير لكل واحد حظه وما يخصه، ثم أطلق على الحظ والنصيب السيء بالغلبة، وفي «الخازن»: قال ابن عباس[3]: طائرهم ما قُضِيَ لهم وقدر عليهم من عند الله تعالى، وفي رواية عنه: شؤمهم عند الله، ومعناه أنَّ ما جاءهم بكفرهم بالله تعالى، وقيل الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله تعالى من عذاب النار. انتهى.

وفي «المصباح»: طائر الإنسان عمله الذي يقلده، وتطير من الشيء وٱطَّير منه، والاسم الطيرة، وزان عنبة أو هي التشاؤم. اهـ وفيه أيضاً: الشؤم الشر، ورجل مشؤوم غير مبارك، وتشاءم القوم به مثل تطيروا به.

﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ الطوفان لغة: ما طاف بالشيء وغشيه، وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو من الأرض، وفيه قولان، أحدهما: أنَّه جمع طوفانه؛ أي: هو اسم جنس كقمح وقمحة، وشعير وشعيرة، وقيل: بل هو مصدر كالنقصان والرجحان. وهذا قول المبرد مع آخرين، والأول قول الأخفش، قال: هو فعلان من الطواف؛ لأنه يطوف حتى يعم، وواحدته في القياس طوفانة، والطوفان الماء الكثير. قاله الليث، اهـ «سمين» ﴿الجراد﴾ جمع جرادة، الذكر والأنثى فيه سواء، يقال: جرادة ذكر وجرادة أنثى، كنملة وحمامة، قال أهل اللغة: وهو مشتق من

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات. (٣) الخازن.

الجراد، قالوا: والاشتقاق[1] في أسماء الأجناس قليل جداً، يقال: أرض جرداء؛ أي: ملساء، وثوب أجرد إذا ذهب وبره. اهـ «سمين» ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيل: هو القردان، وقيل: دواب تشبهها أصغر منها، وقيل: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وقيل: هو نوع من الجراد وأصغر منه، وقيل: الحمنان الواحدة حمنانة نوع من القردان، وقيل: هو القمل المعروف الذي يكون في بدن الإنسان وثيابه، ويؤيد هذا المعنى قراءة الحسن: ﴿والقَمْل﴾ بفتح القاف وسكون الميم كما مر.

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ جمع ضفدع بوزن درهم، ويجوز كسر داله، فيصير بزنة زبرج، والضفدع مؤنث وليس بمذكر، فعلى هذا يفرق بين مذكره ومؤنثه بالوصف فيقال: ضفدع ذكر، وضفدع أنثى، كما قلنا ذلك في الملتبس بتاء التأنيث نحو: حمامة وجرادة وقملة اهـ «سمين».

وفي «القاموس»[2] الضفدع كزبرج وجعفر وجندب ودرهم، وهذا أقل ومردود، الواحدة بهاء، والجمع ضفادع وضفادي اهـ ﴿والدم﴾ هو الرعاف، وقيل هو دم كان يحدث في مياه المصريين. ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾، ﴿ٱلرِّجْزُ﴾[3]: العذاب الذي يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم، وذلك شامل نقمة وجائحة أنزلها الله تعالى على قوم فرعون، كالخمس التي ذكرت قبل. ﴿بما عهد إليك﴾ والعهد النبوة والرسالة كما مر ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ والنكث لغة نقض ما غزل أو ما فتل من الحبال، ثم استعمل في الحنث في العهود والمواثيق، وأصله[4] من نكث الصوف ليغزله. ثانياً، فاستعير لنقض العهد بعد إحكامه وإبرامه.

﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ وفي «القاموس»: غفل عنه غفولاً إذا تركه وسها عنه اهـ وفي «المصباح» وقد تستعمل الغفلة في ترك الشيء إهمالاً وإعراضاً اهـ ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، ﴿ٱلْيَمِّ﴾: البحر في اللغة المصرية الموافقة للغة العربية في كثير من مفرداتها، مما يدل على أن أصل الأمتين واحد ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وتمام الشيء وصوله إلى آخر حده، وكلمة الله هي وعده لبني إسرائيل بإهلاك عدوهم

---

(١) الفتوحات.
(٢) القاموس.
(٣) المراغي.
(٤) زاده.

واستخلافهم في الأرض ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ والتدمير إدخال الهلاك على السالم والخراب على العامر ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ والعرش رفع المباني والسقائف للنبات والشجر المتسلق، كعرائش العنب ومنه عرش الملك.

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ وفي «الخازن» يقال: جاز الوادي وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره اهـ، وجاز الشيء وجاوزه وتجاوزه بمعنى؛ أي: عداه وانتقل عنه، وجاوز هنا بمعنى جاز، ففاعل بمعنى فعل ﴿يَعْكُفُونَ﴾ والعكوف على الشيء الإقبال عليه وملازمته تعظيماً له يقال: عكف يعكف بضم الكاف وكسرها من بابي قعد وضرب.

﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ والتبتر الإهلاك والتدمير، يقال: تبره إذا أهلكه ودمره، والتبار الهلاك، ومنه التبر وهو كسارة الذهب لتهالك الناس عليه، وقيل: التبتير التكسير والتحطيم، ومنه التبر؛ لأنَّه كسارة الذهب اهـ «سمين» ﴿وباطل﴾؛ أي: هالك وزائل لا بقاء له، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ يقال بغى وابتغاه إذا طلبه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المماثل في، قوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، والجناس المغاير في قوله: ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ وفي قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ وقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ وبين قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ وقوله: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ وبين قوله: ﴿أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ وبين قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وبين قوله: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ ومنها الوصل في قوله: ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة الماضية في ذهن المخاطب، والأصل: ما صنعوا وما عرشوا.

ومنها: العدول عن صيغة الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ ولم يقل[1] جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كان كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل.

ومنها: تصدير[2] الجملة بالقسم في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ لإظهار الاعتناء بمضمونها.

ومنها: تصديرها بحرف التنبيه في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ لإبراز كمال العناية بمضمونها.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ لأنَّه استعار الأخذ للابتلاء على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، وفي قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ﴾؛ لأنَّ الطائر حقيقة في الحيوان استعارة للحظ والنصيب أو الشؤم، ومنها الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾؛ لأن النكث[3] حقيقة في حل الصوف ليغزله ثانياً، استعاره هنا لنقض العهد على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿بالسنين﴾؛ لأنَّ السنة حقيقة في الحول، استعارها هنا للجدوب والقحوط ونقص الثمرات تجريد، وهو ذكر ما يلائم المشبه المستعار له.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات. (٣) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ
لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ
مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ
سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي
وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ
مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ
(١٤٥) سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ
بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ
أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٤٧) وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ
عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ
(١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ
بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ
ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ
ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٥١)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] ما أنعم به على بني إسرائيل من النجاة من العبودية، ومن جعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يُشرّعه الله

(١) المراغي.

تعالى لها من العبادات والأحكام.. ذكر هنا بدء وحي الشريعة لموسى عليه السلام، ممتناً عليهم بما حصل لهم من الهداية، بتكليم موسى وإعطائه التوراة، وفيها تفاصيل شرعهم وبيان ما يقربهم من ربهم من الأحكام، وقد روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم.. أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون.. سأل موسى ربه الكتاب، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب وهو التوراة.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين في الآيات السالفة ما لحق فرعون وقومه من الهلاك بسبب استكباره وظلمه، وفساده في الأرض.. ذكر هنا سننه تعالى في ضلال البشر بعد مجيء البينات، وتكذيبهم لدعاة الحق والخير من الرسل وأتباعهم، وأبان أن السبب الأول لذلك هو التكبر، فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى، فهم يكونون دائماً من المكذبين بالآيات الدالة عليه، ومن الغافلين، كما هي حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين، كفرعون وملئه، وفي هذا إيماء للنبي ﷺ بأن الطاغين المستكبرين من صناديد قومه لن ينظروا في دعوته، ولا في آيات القرآن الدالة على وحدانية الله تعالى، بما أقامته عليها من البراهين الكثيرة من آيات كونية، وآيات في الآفاق والأنفس.

وجملة الموانع الصادة لهم عن اتباعه ترجع إلى التكبر، فإنَّهم بزعمهم يعتقدون أنهم سادة قريش وكبراؤها وأقوياؤها، فلا ينبغي أن يتبعوا من دونهم سناً وقوةً وثروةً وعصبيةً.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر خبر مناجاة موسى لربه، واصطفائه إياه برسالاته وبكلامه، وأمره بأخذ الألواح بقوة.. ذكر هنا ما حدث أثناء المناجاة من اتخاذ قومه بني إسرائيل عجلا مصوغاً من الذهب والفضة، ثم عبادته من دون الله تعالى، لما رسخ في نفوسهم من فخامة المظاهر الوثنية الفرعونية في

مصر، وقد ذكرت هذه القصة عقب تلك لما بينهما من العلاقات الظاهرة، وللاشتراك في الزمن.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا . . .﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما أحدثه السامري من اتخاذه العجل لبني إسرائيل وعبادته له، ثم ندمهم على ما فرط منهم في جنب الله، وطلبهم الرحمة من ربهم. . ذكر هنا ما حدث من موسى من الأسى والحزن، حين رأى قومه على هذه الحال من الضلال والغي، ومن التعنيف واللوم لهارون على السكوت على قومه، حين رآهم في ضلالتهم يعمهون.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾؛ أي: ضربنا وجعلنا موعداً لموسى عليه السلام لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة ثلاثين ليلة، قيل هي شهر ذي القعدة. ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾؛ أي: وزدنا على تلك الثلاثين بعشر ليال تامات، وفي مصحف أبي ﴿تممناها﴾ بالتضعيف ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: فتم ميقات وعد ربه للمكالمة بتلك العشر المزيدة ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ صعد على جبل سيناء في أول هذا الموعد، وهبط في آخره، قيل: وكان التكليم في يوم النحر، وفائدة الإتيان بقوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مع العلم بأنَّ الثلاثين والعشر أربعون، لئلا يتوهم أنَّ المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها، وقيل: إزالة توهم أن تكون عشر ساعات؛ أي: اتممناها بعشر ساعات، والذي يظهر أن هذه الجملة تأكيد وإيضاح ما ذكره أبو حيان في «البحر».

وروي[1] عن أبي العالية أنَّه قال في بيان زمان الموعد ـ يعني ذا القعدة وعشراً من ذي الحجة ـ: فمكث على الطور ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح فقربه الرب نجيا، وكلمه وسمع صريف الأقلام، والمعنى أي[2]: وعدناه بأنْ نكلمه عند انتهاء ثلاثين ليلة يصومها، وإنَّما عبر بالليالي مع أن الصوم في الأيام

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

لما نقله «زاده على البيضاوي» عن ابن عباس: أنَّه صام تلك المدة الليل والنهار، فكان يواصل الصوم، وحرمة الوصال إنما هي على غير الأنبياء. اهـ شيخنا.

وفي «الخازن»[1] قال المفسرون: إن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل ـ وهو بمصر ـ إذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه أنْ ينزل عليه الكتاب الذي وعد به بني إسرائيل، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً فصامها ـ وهي شهر ذي القعدة ـ فلما أتم الثلاثين.. أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله أن يصوم عشر ذي الحجة وقال له: «أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك؟» فكانت فتنة بني إسرائيل في تلك العشر التي زادها الله تعالى لموسى عليه السلام، وقيل: أمره بأن يتخلى ثلاثين يوماً بالصوم والعبادة، ويعمل فيها ما يتقرب به، ثم كلمه وأعطاه الألواح في العشر التي زادها فلهذا قال: وأتممناها بعشر.

وهذا التفصيل الذي ذكره هنا هو تفصيل ما أجمله في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ فذكره هناك على الإجمال وهنا على التفصيل اهـ.

وفي «زاده على البيضاوي»[2]: ما الحكمة في تفصيل الأربعين هنا إلى الثلاثين والعشر مع الاقتصار على الأربعين في البقرة حيث قال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؟ وتقرير الجواب: أنَّ الحكمة في التفصيل هنا الإشارة إلى أنَّ أصل المواعدة كان على صوم الثلاثين، وزيادة العشرة كانت لإزالة الخلوف، وما ذكره في سورة البقرة فهو بيان للحاصل وجمع بين العددين، أو يقال: فصل الأربعين هنا إلى مدتين لكون ما وقع في إحدى المدتين مغايراً لما وقع في الأخرى، فالثلاثون للتقرب، والعشر لإنزال التوراة. انتهى.

---

(١) الخازن. (٢) زاده.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين أراد الذهاب إلى الجبل لميقات ربه ﴿لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ﴾ وكان أكبر منه سناً ﴿ٱخْلُفْنِي﴾؛ أي: كن خليفتي ﴿فِي قَوْمِي﴾ وراقبهم فيما يأتون وما يذرون، وكانت الرياسة فيهم لموسى، وكان هارون وزيره ونصيره بسؤاله لربه حين قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم وأمرهم بعبادة الله تعالى، فهي صلاحهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تسلك سبيل من سلك الإفساد في الأرض بالمعاصي، ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم في أعمالهم، ومساعدتهم عليها، ومعاشرتهم والإقامة معهم حال اقتراف الإفساد.

والمقصود(١) من هذا النهي التأكيد؛ لأنَّ هارون عليه السلام لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين، فهو كقوله: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ وكقولك للقاعد: أقعد، بمعنى دم على ما أنت عليه من القعود، والمعنى: دم على عدم اتباع سبيل المفسدين.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾؛ أي: لميعادنا الذي وقتنا له للكلام فيه، ولإعطاء الشريعة له، وعبارة «المراح»: ولما جاء موسى لميعادنا في مدين، في يوم الخميس، يوم عرفة، فكلمه الله تعالى فيه من غير واسطة وأعطاه التوراة صبيحة يوم الجمعة يوم النحر. انتهى.

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ من وراء حجاب بغير واسطة ملك؛ أي: أزال الحجاب بين موسى وبين كلامه فسمعه من جميع جهاته، استشرفت نفسه للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فـ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ﴾ ذاتك المقدسة، واجعل لي من القوة على حمل تجليك ما أقدر به على النظر إليك، وكمال المعرفة بك؛ أي: مكنّي من رؤيتك ﴿انظر إليك﴾ يا إلهي ﴿قال﴾ سبحانه وتعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾؛ أي: إنك لا تراني الآن ولا فيما يستقبل من الزمان الدنيوي، إذ ليس لبشر أن يطيق النظر إلي في الدنيا.

---

(١) الخازن.

قال أهل الأخبار: لما جاء موسى لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام، ثم أتى طور سيناء، فأنزل الله تعالى ظلة غشيت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية، وطرد عنه الشيطان وهوام الأرض، ونحى عنه الملكين، وكشط له السماء، فرأى الملائكة قياماً في الهواء، ورأى العرش بارزاً، وأدناه ربه حتى سمع صريف الأقلام على الألواح، وكلَّمه وكان جبريل معه لم يسمع ذلك الكلام، فاستحلى موسى كلام ربه، فاشتاق إلى رؤيته فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ. . .﴾ الخ. وإنَّما سألها مع علمه بأنَّها لا تجوز في الدنيا لما هاج به من الشوق، وفاض عليه من أنواع الجلال، واستقر في بحر المحبة، فعند ذلك سأل الرؤية، وقيل: إنما سأل الرؤية ظناً منه بأنه تعالى يرى في الدنيا، وتعالى الله عن ذلك. وقال السدي: لما كلم الله موسى عليه السلام. . غاص عدو الله إبليس الخبيث في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى، فوسوس إليه أن مكلمك شيطان، فعند ذلك سأل موسى ربه الرؤية اهـ «خازن».

وسؤال موسى[1] للرؤية يدل على أنَّها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها، والجواب بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يفيدا أنَّه لا يراه في هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنَّه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا لا يأتي بفائدة، ومنهج الحق واضح، والاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ معناه أنَّك لا تثبت لرؤيتي ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرماً وصلابة وقوة، وهو الجبل فانظر إليه ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ﴾ الجبل ﴿مَكَانَهُۥ﴾ ولم يتزلزل عند رؤيتي له ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾؛ أي: فلعلك تراني وإنْ ضعف الجبل عن ذلك فأنت منه أضعف، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل، أو من باب التعليق بالمحال، وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما قدمنا.

والمعنى: فإنْ[2] ثبت الجبل لدى التجلي، وبقي مستقراً في مكانه. . فسوف

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

تراني، إذ هو مشارك لك في مادة هذا العالم الفاني، وإذا كان الجبل في قوته وثباته لا يستطيع أنْ يثبت ويستقر؛ لأنَّ مادته غير مستعدة لقوة تجلي خالقه وخالق كل شيء، فاعلم أنَّك لن تراني أيضاً، وأنت مشارك له في كونك مخلوقاً من هذه المادة، وخاضعاً للسنن الربانية في ضعف استعدادها، وقبولها للفناء ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: رب موسى أو رب الجبل ﴿لِلْجَبَلِ﴾؛ أي: ظهر له بعض ظهور وأدناه وأقله ظهوراً بلا كيف ﴿جَعَلَهُۥ﴾؛ أي: جعل ذلك التجلي الجبل ﴿دَكًّا﴾؛ أي: مدكوكاً مدقوقاً، فصار تراباً من الدك، وهو الدق مصدر بمعنى اسم المفعول، هذا على قراءة الجمهور[1]، وقرأ حمزة والكسائي ﴿دكاء﴾ بزنة حمراء، والدكاء الناقة التي لا سنام لها، والمعنى: جعله أرضاً دكاء؛ أي: مستوية لا ارتفاع فيها، تشبيهاً له بالناقة الدكاء، وقال الزمخشري: والدكاء اسم للرابية الناشزة من الأرض كالدكة. انتهى، والمعنى على هذا: جعله جبلاً صغيراً كالرابية، وقرأ ابن وثاب: ﴿دُكّ﴾ بضم الدال، وبالقصر جمع دكاء بالمد نحو: غز جمع غزاء، والمعنى: جعله قطعاً صغاراً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾؛ أي: سقط موسى على وجهه ﴿صَعِقًا﴾؛ أي: مغشياً عليه كمن أخذته الصاعقة، والتجلي إنَّما كان للجبل دونه، فما بالك لو كان له، والمعنى: أنَّه صار حاله لما غشى عليه، كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له، أي: النار النازلة من السماء عند الرعد والبرق ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ موسى وصحا من غشيته ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يا إلهي؛ أي: تنزيهاً لك وتقديساً عما لا ينبغي في شأنك مما سألت؛ أي: أنزهك تنزيهاً من أنْ أسألك شيئاً لم تأذن لي به ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال، وأكثر المفسرين يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنَّه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى، فتاب ورجع عما طلب، وقال مجاهد: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: اسألك الرؤية. قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية؛ فإنَّ الأنبياء معصومون، وقيل: هي توبة من قتله للقبطي. ذكره القشيري. ولا وجه له في مثل هذا المقام.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بك قبل قومي الموجودين في هذا العصر، المعترفين بعظمتك وجلالك.

والخلاصة[1]: أنَّ موسى لما نال فضيلة التكليم بلا واسطة، فسمع من عالم الغيب ما لم يسمع من قبل، تاقت نفسه أن يمنحه الرب شرف رؤيته، فطلب ذلك منه، وهو يعلم أنَّه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته التي منها كلامه، ولكن الله تبارك وتعالى قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولكي يخفف عليه ألم الرد أراه بعينه من تجليه للجبل ما فهم منه أنَّ المانع من جهته لا من جانب الفيض الإلهي، حينئذ نزه الله وسبَّحه وتاب إليه من هذا الطلب، فبشره بأنَّه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه، وأمره أنْ يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين له كما قال.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ واخترتك وفضلتك ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ المعاصرين لك من بني إسرائيل ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾، قرأ نافع وابن كثير بالإفراد، وهو مراد به المصدر؛ أي: بإرسالي، أو يكون على حذف مضاف؛ أي: بتبليغ رسالتي؛ لأنَّ مدلول الرسالة غير مدلول المصدر، وقرأ باقي السبعة بالجمع نظراً إلى أن الذي أرسل به ضروب وأنواع من الوحي ﴿و﴾ اصطفيتك ﴿بكلامي﴾؛ أي: بتكليمي لك بلا توسط ملك، وإنْ كان من وراء حجاب، وقد طلب موسى رفع هذا الحجاب لتحصل له الرؤيا مع الكلام، وقرأ الجمهور ﴿وبكلامي﴾ بالإفراد، على أنَّه مصدر كما فسرنا، أو على أنَّه على حذف مضاف؛ أي: وبسماع كلامي، وقرأ أبو رجاء ﴿برسالتي وبكلمي﴾ جمع كلمة؛ أي: وسماع كلمي، وقرأ الأعمش ﴿برسالاتي وتكلمي﴾ ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾؛ أي: فخذ ما أعطيتك من الشريعة، وهي التوراة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: من جماعة الشاكرين لنعمتي عليك وعلى قومك بإقامتها بقوة وعزيمة، والعمل بها، وأداء حقوق نعمي جميعها عليك، تنل المزيد من فضلي ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾.

---

(١) المراغي.

فصل في كلام الله تعالى ورؤيته

وأعلم[1]: أن إثبات الكلام والتكليم لله تعالى صريح في القرآن الكريم في آيات عدة، لا تعارض بينها، وأما الرؤية ففيها آيات متعارضة كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وهما أصرح في النفي من دلالة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ على الإثبات؛ فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير في القرآن وفي كلام العرب، كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ وقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وفي الأحاديث الصحيحة تصريح بإثبات الرؤية بحيث لا تحتمل تأويلاً، والمرفوع منها مروي عن أكثر من عشرين صحابياً، ولم يرد في معارضتها شيء أصرح من حديث عائشة عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة المعراج؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، ثلاث من حدثكهن.. فقد كذب، من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه.. فقد كذب وفي رواية: فقد أعظم الفرية، ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ ومن حدثك أنه يعلم ما في غد.. فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ومن حدثك أنَّه كتم شيئاً من الدين.. فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قال مسروق ـ وكنت متكئاً ـ فجلست وقلت: ألم يقل الله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ على ذلك؟ فقال: «إنما هو جبريل».

ومن هذا تعلم أنَّ عائشة تنفي دلالة سورة النجم على رؤية النبي ﷺ لربه بالحديث المرفوع، وتنفي جواز الرؤية مطلقاً، أو في هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ وهذا الاستدلال ليس نصاً في النفي حتى يرجح على الأحاديث الصريحة في الرؤية، وقد قال بها بعض علماء الصحابة، كابن

---

(١) المراغي.

عباس رضي الله عنهما، والمثبتون للرؤية يقولون: إن استنباط عائشة إنما هو لنفي الرؤية في الدنيا فقط، كما قال بذلك الجمهور، ولا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شؤونهم في الدنيا؛ لأنَّ لذلك العالم سنناً ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه، حتى في الأمور المادية كالأكل والشرب والمأكول والمشروب، فماء الجنة غير آسن، فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره في مقره أو جوِّه، قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء.

وجمهرة المسلمين: أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق، وأنَّها أعلى وأكمل للنعيم الروحاني التي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة، وأنَّها أحق ما يصدق عليه قوله ﷺ: «قال الله عز وجل: اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وهي المعبر عنها بقولهم: إنَّها رؤية بلا كيف.

وبعد أن أخبر سبحانه في الآيات السالفة أنَّه منع موسى رؤيته في الدنيا، وبشره بأنَّه اصطفاه على أهل زمانه برسالته وبكلامه، اخبرنا فيما بعد بما أتاه يومئذ بالإجمال فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾؛ أي: وكتبنا لموسى في ألواح التوراة ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: كل شيء يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام، والمحاسن والقبائح، فـ﴿من﴾ زائدة في المفعول. وقوله: ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ بدل ﴿من كل شيء﴾، باعتبار محله وهو النصب على المفعولية. وقوله: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾؛ متعلق بتفصيلاً؛ أي: وكتبنا[1] له في الألواح كل شيء من المواعظ التي توجب الرغبة في الطاعة، والنفرة عن المعصية، ومن تفصيل الأحكام وشرح أقسامها؛ أي: إننا[2] أعطيناه ألواحاً كتبنا له فيها أنواعَ الهداية، والمواعظ التي تؤثر في القلوب، ترغيباً، وترهيباً، وتفصيلاً لأصول الشرائع، وهي أصول العقائد والآداب، وأحكام الحلال والحرام، والراجح أنَّ هذه الألواح كانت أول ما أوتيه من وحي التشريع الإجمالي، أما سائر الأحكام

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

التفصيلية من العبادات والمعاملات المدنية والحربية والعقوبات.. فكانت تنزل عليه وقت الحاجة كالقرآن.

وهذه[1] الألواح هي التوراة، قيل كانت من زمردة خضراء، وقيل: من ياقوتة حمراء، وقيل: من زبرجد، وقيل: من صخرة صماء، وقد اختلفوا في عدد الألواح، فمن مقل قال: إنَّها اثنان وهذا ضعيف؛ لأنَّ أقل ما يصدق عليه الجمعُ ثلاثة على المشهور، ومن مكثر قال: إنَّها اثنا عشر، أو عشرة، أو سبعة، والله أعلم بحقيقة الحال. والألواح جمع لوح، وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وأسند الله سبحانه وتعالى الكتابة إلى نفسه تشريفاً للمكتوب في الألواح، وهي مكتوبة بأمره سبحانه، وقيل: هي كتابة خلقها الله تعالى في الألواح.

﴿فـ﴾قلنا له ﴿خُذْهَا﴾؛ أي: خذ الألواح واعمل بما فيها ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجد ونشاط، لا بتراخ وكسل؛ فإن العلم لا يأتي إلا للمجد المشتاق، سواء كان كسبياً أو وهبياً، فلا بد لمتعاطي العلم من الكد والتعب، ومخالفة النفس قال بعضهم:

بِقَدْرِ ٱلْكَدِّ تُكْتَسَبُ ٱلْمَعَالِيْ ... وَمَنْ طَلَبَ ٱلْعُلاَ سَهِرَ ٱللَّيَالِيْ

تَرُوْمُ ٱلْعِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلاً ... يَغُوْصُ ٱلْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ ٱللَّآلِيْ

وقال بعض العارفين:

فَجُدْ بِٱلرُّوْحِ وَٱلدُّنْيَا خَلِيْلِيْ ... كَذَا ٱلأَوْطَانُ تُدْرَكُ مِنْ سَنَاهُ

ذكره الصاوي.

وهذا الأمر على إضمار القول كما قدرنا؛ أي: وكتبنا له في الألواح ما ذكر، وقلنا له: هذه وصايانا وأصول شريعتنا وكلياتها، فخذها بقوة وجد وعزم ذاك أنَّك ستُكون بها شعباً جديداً بعادات جديدة، وأخلاق جديدة، مخالفة في جوهرها وصفاتها لما كان عليه هذا الشعب من الذل والعبودية لدى فرعون وقومه، وما كانوا عليه من الشرك والوثنية التي ألفوها من فرعون وقومه، وراضت

(١) الشوكاني.

أنفسهم لقبولها، فأنى للقائد والمرشد أن يصلح ذلك الفساد، ويرأب ذلك الصدع، إذا لم يكن ذا عزيمة وقوة وبأس شديد وحزم في أوامره ونواهيه ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل أن ﴿يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ﴾؛ أي: بأحسن ما في تلك الألواح التي هي التوراة؛ لأنَّ فيها حسناً وأحسن، كالقود والعفو، والانتصار والصبر، والمأمور به والمباح، فأمروا بما هو الأكثر ثواباً، فعلى هذا المعنى: فأفعل التفضيل على بابه وهو مثل قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: أكثره أجراً، وقيل: أفعل التفضيل ليس على بابه، فمعنى: ﴿بِأَحْسَنِهَاۚ﴾: بحسنها إذ كل ما فيها حسن، أو يقال: أمروا فيها بالخير، ونهوا عن الشر، وفعل الخير أحسن من ترك الشر.

وقيل المعنى(١): يعملوا بمحكمها، ويؤمنوا بمتشابهها، وقال بعضهم: الحسن يدخل فيه الواجب والمندوب والمباح، وأحسن هذه الثلاثة الواجبات، والمندوبات، وقال المراغي: أي: وأمر قومك بالاعتصام بهذه الموعظة، والأحكام المفصلة في الألواح التي هي منتهى الكمال والحسن، كالإخلاص لله في العبادة، إذ يتحلى العقل، وتتزكى النفس مع ترك اتخاذ الصور والتماثيل؛ لأنَّها ذرائع للشرك، وسبب للوصول إليه ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قيل(٢) هي أرض مصر التي كانت لفرعون وقومه، وقيل: منازل عاد وثمود، وقيل: هي جهنم، وقال مجاهد: وهذا المعنى أحسن، وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها، والمعنى على هذا القول: سأدخلكم الشام بطريق الايراث، وأريكم منزال الكافرين الذيك كانوا متوطنين فيها من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها، فلا تفسقوا مثل فسقهم، وقيل: الدار بمعنى الهلاك، والمعنى: سأريكم هلاك الفاسقين والخارجين عن طاعتنا كفرعون وقومه.

وقرأ الحسن(٣): ﴿سأوريكم﴾ بواو ساكنة بعد الهمزة، على ما يقتصيه رسم المصحف، وقال الزمخشري: وهذه لغة فاشية بالحجاز، يقال: أورني كذا

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

وأوريته، فوجهه أن يكون من أوريت الزند، كأن المعنى: بينه لي، والمعنى هنا: سأبين لكم عاقبتها، وقرأ ابن عباس وقَسَامةُ بن زهير ﴿سأورثكم﴾ بالثاء المثلثة، قال الزمخشري: وهي قراءة حسنة يقويها قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾.

وقال المراغي: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي[1]: إنْ لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة، وتتبعوا أحسنه.. كنتم فاسقين عن أمر ربكم، فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجاكم الله منهم، ونصركم عليهم، وسيريكم ما حل بهم بعدكم من الغرق.

قال ابن كثير: أي سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار.

قال ابن جرير: وإنَّما قال: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخالفه: سؤريك غداً ما يصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره، وفي الآية عبرة لمن يقرأها ويتدبر أمرها من وجوه:

١ ـ أن الشريعة يجب أنْ تتلقى بعزيمة وجد لتنفيذ ما بها من الإصلاح، وتكوين الأمة تكويناً جديداً، ومظهر ذلك الرسولُ المبلِّغ لها والداعي إليها، والمنفذ لها بقوله وعمله، فهو الأسوة والقدوة، وهذه سنة الله في كل انقلاب وتجديد اجتماعي وسياسي، وإنْ لم يكن بهدى الله، فما بالك بالدين ـ وهو أحوج ما يكون إلى إصلاح الظاهر والباطن ـ وقد أخذ سلفنا الصالح القرآن بقوة بالعمل بهداية دينهم، فسادوا جميع الأمم التي كانت لها القوة الحربية والصناعية والمالية والعددية، وسعدوا به في دنياهم، وسيكونون كذلك في آخرتهم، وخلف من بعدهم خلف أعرضوا عنه، وتركوا هدايته، فشقوا في دنياهم وآخرتهم كما قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى

---

(١) المراغي.

﴿ٱلْأَرْضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢ ـ أن شعب إسرائيل عظم ملكه حين أقام شريعته بقوة، حتى إذا غلبه الغرور، وظن أن الله ينصره لنسبه، وأنَّه شعب الله، ففسق وظلم. . أنزل الله به البلاء، وسلط عليهم البابليين، فأزالوا ملكه، ثم ثاب إلى رشده، فرحمه وأعاد إليه بعض ملكه، ثم ظلم وأفسد، فسلط عليه النصارى، فمزقوه كل ممزق.

٣ ـ أن المسلمين الذين اتبعوا سننهم، اغتروا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب الإسلام ولقب أمة محمد ولم يثوبوا إلى رشدهم، فزالت دولتهم، وذهب ريحهم، وامتلك عدوهم ناصيتهم، وجد في إفساد عقائدهم وأخلاقهم، وإيقاع الشقاق فيما بينهم، وتولى تربيتهم وتعليمهم كما يحب ويهوى، كما يرى ذلك كثيراً في أكثر بلدان المسلمين، خصوصاً في الجهات التي دخلها الشيوعيون شرقاً وغرباً، خاصة في شرقي إفريقيا كالشعوب الأروميا التي استعبدها استعمار الحبوش، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

﴿سَأَصْرِفُ﴾ وادفع ﴿عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ التي جاء بها موسى وغيره من الرسل ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ أي: مكر الذين يتكبرون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حالة كونهم ملتبسين ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ويترفعون عن الإيمان بها بإهلاكهم؛ أي: سأزيل[1] الذين يتكبرون في الأرض بالدين الباطل، وأدفعهم عن إبطال آياتي بإهلاكهم على يد موسى، وإنْ اجتهدوا كما اجتهد فرعون في إبطال ما رآه من الآيات على يد موسى، فلا يقدرون على منع موسى من تبغليها، وعلى منع المؤمنين من الإيمان بها، وقال الشوكاني[2]: سأمنعهم فهم كتابي، وقيل: سأصرفهم عن الإيمان بها، وقيل: سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾. وقيل: سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها، ولا يعتبروا بها، واختلف في تفسير الآيات فقيل: هي المعجزات، وقيل: الكتب المنزلة، وقيل: هي خلق السموات والأرض، وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها، ولا مانع من

(١) المراح.
(٢) فتح القدير.

حمل الآيات على جميع ذلك، وحمل الصرف على جميع المعاني المذكورة، و ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إما متعلق بقوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ أي: يتكبرون بما ليس بحق، أو بمحذوف وقع حالاً؛ أي: يتكبرون ملتبسين بغير الحق. انتهى.

وقال المراغي: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ . . .﴾ إلخ، أي: سأمنع[1] قلوب المتكبرين عن طاعتي وعلى الناس بغير حق، فهم الأدلة والحجج الدالة على عظمتي وعلى ما في شرائعي من هدى وسعادة لهم كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾. كما منعت فرعون وقومه عن فهم آيات موسى التي أوحيناها إليه، وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بتلبسهم بالباطل، وانغماسهم فيه، إذ لا قيمة للحق عندهم، فهم لا يبحثون عنه، ولا يطلبونه، وقد تظهر لهم آياته ويجحدونها، وهم بها موقنون، كما قال تعالى في قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ثم بين صفات المتكبرين وأحوالهم فقال:

١ - ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾؛ أي: وإنْ يشاهدوا كل معجزة كفروا بكل واحدة منها، فهذه الجملة[2] معطوفة على ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ منتظمة معه في حكم الصلة، والمعنى: سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات، ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة، والآيات التكوينية والمعجزات، أي: لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت.

والمعنى[3]: أنَّهم إذا رأوا الآيات التي تدل على الحق وتثبته. . . لا يستفيدون منها فائدة ما، فلا يؤمنون بها؛ لأنَّ كثرة الآيات وتعدد أنواعها إنَّما تفيد من تكون نفسه تواقة لمعرفة الحق لكنه يجهل الوصول إليه، أو يشك في الطريق الموصلة إليه، لتعارض الأدلة لديه لخفاء دلالتها، أو لسوء فهمه لها، فإذا خفيت عليه دلالة بعضها. . فقد تظهر له دلالة غيره، فتنكشف الحقيقة واضحة أمامه، وتسفر له عن وجهها، وفي هذا إيماء إلى النبي ﷺ بأن الذين يقترحون

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

عليه الآيات من قومه لا يقصدون استبانة الحق وإيضاحه، بل يريدون إحداث الشغب والتعجيز، فإنْ هم أُجيبوا إلى طلبهم لم يؤمنوا بما جئت به، وقرأ مالك بن دينار ﴿وَإِن يُرَوا﴾ بضم الياء في الموضعين.

٢ - ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾؛ أي: سنبيل الهدى والبيان الذي جاء من الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أي[١]: لا يسلكوا سبيله؛ أي: وهم ينفرون من سبيل الهدى والرشاد، وهي السبيل المعبدة الواضحة، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لا يختارها لنفسه، ولا يفضلها على ما هو عليه من الغي، وهذا منتهى ما يكون من الطبع على القلب، والخروج عن جادة العقل، والفطرة، ومن الناس من يسلك هذه السبيل عن جهل، فإذا رأى لنفسه مخرجاً منها ارعوى وتركها، واختار لنفسه سبيل الرشاد.

٣ - ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾؛ أي: الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾؛ أي: يختارونه مسلكاً لأنفسهم؛ أي: إنَّهم إذا رأوا سبيل الغي والضلال.. هرعوا إليها، وخبوا فيها، وأوضعوا بما تزينه لهم أنفسهم من سلوكها، والسير فيها إلى آخر الحلبة، وهذه حال لهم شر من سابقتيها، وهؤلاء الذين اجتمعت لهم هذه الصفات هم الذين طبع الله على قلوبهم، وختم على سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فسبيل الحق بغيضة إليهم، وطريقه مكروهة لديهم.

قال الشوكاني[٢]: وجملة قوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ معطوفة على ما قبلها، داخلة في حكمها، وكذلك جملة قوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾ المعنى: أنَّهم إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد.. تركوه وتجنبوه، وإن رأوا سبيلاً من سبل الغي.. سلكوه واختاروه لأنفسهم.

وقرأ حمزة والكسائي[٣]: ﴿الرَّشَد﴾ بفتح الراء والشين، والباقون بضم الراء وسكون الشين. وروي عن ابن عامر بضمتين، وقال أبو عمرو بن العلاء

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح والبحر المحيط.

﴿ٱلرُّشْدِ﴾ ـ بضم وسكون ـ الصلاح في النظر، وبفتحتين الاستقامة في الدين، وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿الرشاد﴾ وهي مصادر كالسقم والسقم والسقام، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿لا يتخذوها ويتخذوها﴾ على تأنيث السبيل، والسبيل تذكر وتؤنث قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ ولما نفى عنهم الإيمان وهو من أفعال القلب، استعار للرشد والغي سبيلين، فذكر أنَّهم تاركوا سبيل الرشد، سالكوا سبيل الغي.

ثم علل ما سلف من صرفهم عن النظر في الآيات، وعدم اعتبارهم بها فقال: ﴿ذلك﴾؛ أي: تكبرهم وعدم إيمانهم بشيء من الآيات، وإعراضهم عن سبيل الرشد، وإقبالهم التام إلى سبيل الغي، حاصل ﴿بـ﴾سبب ﴿أنهم كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على صدق رسلنا، وباهر قدرتنا ﴿و﴾ بسبب أنَّهم ﴿كَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ أي: كانوا معرضين عن النظر والتفكر فيها؛ أي: ذلك حاصل بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها.

أي: إننا[1] عاقبناهم على تكذيبهم بالآيات والغفلة عن النظر إلى الأدلة الموصلة إلى الحق، فيما أمرنا به ونهينا عنه بالختم على قلوبهم والغشاوة على أعينهم، حتى لا يجد الحق منفذاً في الوصول إليها.

والخلاصة: أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق هؤلاء مطبوعين على الغي والضلال طبعاً، ولم يجبرهم إجباراً ويكرههم عليه إكراهاً، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم، إذ هم آثروا التكذيب بالآيات، والصد عن السبيل الموصلة إلى الرشاد، وغفلوا عن النظر في أدلتها لشغلهم بأهوائهم، واتباع شهواتهم، وبذا لجوا في الطغيان، وتمادوا في العصيان، واحتقروا ما سوى ذلك، مما يهدي عقولهم إلى صواب الحق وسلوك طريقه، وأمثال هؤلاء هم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

---

(١) المراغي.

ولا شك أنَّ كثيراً من المسلمين الذين تعلموا التعاليم الغربية، ورأوا زخرف المدنية الأوروبية، وغرهم بهرجها وخبلتهم زينتها، تنطبق عليهم هذه الصفات، فهم يحتقرون هداية الدين الروحية وأوامره ونواهيه، وسائر تعاليمه، وماله من تأثير عظيم في النفوس وتوجيه لها إلى الخير، وصد لها عن الشر، والبعد عن الفواحش والمنكرات.

ذاك أنَّهم رأوا أنفسهم بعيدين عن الفنون والصناعات وزخرف الحياة الذي وصل فيه الغربيون إلى الغاية القصوى، وهم عبيد شهواتهم، منصرفون عن هداية الأديان إلى أبعد غاية، فحدثتهم أنفسهم أن ينهجوا نهجهم، ويسيروا على سنتهم، علهم يصلون في ذلك إلى بعض ما وصلوا إليه، ولو ساغ لبني إسرائيل أن لا يتبعوا موسى عليه السلام؛ لأنَّه لم يكن عنده من زينة الدنيا ومن الفنون والصناعات، ومن رائع المدنية مثل ما كان عند فرعون وقومه، لساغ لهم أنْ ينحدروا في تلك الهوة ويقعوا في تلك الحفرة، ولله في خلقه شؤون، وهو يصرف الأمور بيده، وله الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ وجحدوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا؛ أي: لم يصدقوها، ولم يأتمروا بأوامرها، ولم ينتهوا بنواهيها ﴿وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: وكذبوا بلقائهم الدار الآخرة، وما فيها من المجازاة بالبعث والنشور، وماتوا على ذلك ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ أي[1]: حسناتهم التي لا تتوقف على نية، كصلة الأرحام، وإغاثة الملهوفين؛ أي: لا يثابون عليها في الآخرة وإنْ نفعتهم في تخفيف العذاب، لكن التخفيف لا يقال له ثواب، والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إنكاري، بمعنى النفي؛ أي: ما يجزون في الآخرة إلا على ما كانوا يعملون في الدنيا من الكفر والمعاصي.

والمعنى[2]: والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق، والهدى على رسلنا، فلم يؤمنوا بها، ولم يهتدوا بهديها، وكذبوا بما يكون في الآخرة من الجزاء على الأعمال، من ثواب على الخير وعقاب على الشر، تحبط أعمالهم وتذهب

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

سدى؛ لأنَّهم عملوا لغير الله تعالى وأتعَبوا أنفسهم في غير ما يرضي الله تعالى، فتصير أعمالهم وبالاً عليهم، ولا يجزون إلا جزاء ما استمروا على عمله من الكفر والمعاصي، فأثر في نفوسهم وأرواحهم، حتى دساها وأفسدها، فقد مضت سننه تعالى بجعل الجزاء في الآخرة أثراً للعمل، مرتباً عليه، كترتيب المسبب على السبب ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ في جزائه مثقال ذرة ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾؛ أي: وصاغ بنو إسرائيل ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد إنطلاق موسى عليه السلام وذهابه إلى الجبل لمناجاة ربه، وفاء للموعود الذي وعده إياه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾؛ أي: من حلي القبط وذهبهم التي استعاروها منهم لعلة العرس ﴿عِجْلًا﴾، أي: تبيعاً وأبدل منه قوله: ﴿جَسَدًا﴾؛ أي: جرماً وتمثالاً، لدفع توهم أنَّه صورة عجل منقوشة على حائط مثلاً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾؛ أي: له صوت مثل صوت تبيع البقر؛ أي: صاغ لهم موسى السامري ـ رجل منهم، وكان رجلاً مطاعاً فيهم، ذا منزلة واحترام؛ لأنَّه رباه جبريل في الجبل ـ، ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ وتمثالاً على صورة عجل البقر، له صوت وصياح، فقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه، وإنَّما نسب الاتخاذ إليهم ـ مع أن الصائغ له هو موسى السامري ـ لأنَّه عمله برأي جمهورهم الذين طلبوا أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه.

قيل[1]: إن بني إسرائيل كان لهم عيد يتزينون فيه، ويستعيرون من القبط الحلي، فلما أغرق الله القبط بقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، وصارت ملكاً لهم، فجمع السامري تلك الحلي ـ وكان رجلاً مطاعاً فيهم، صائغاً ـ فصاغ السامري عجلاً، وأخذ كفاً من تراب حافر فرس جبريل عليه السلام، فألقاه في جوف ذلك العجل، فانقلب لحماً ودماً، وظهر منه الخوار مرة واحدة، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى عليه السلام، وكان[2] اسم السامري موسى بن ظفر، من قرية تسمى سامرة، وكان ابن زنا، وضعته أمه في جبل فأرسل الله جبريل فصار يرضعه من إصبعه، فكان يعرفه إذا نزل إلى الأرض، فلما نزل جبريل يوم غرق فرعون، وكان راكباً فرساً، فكان كل شيء وطئه بحافرها يخضر

---

(١) المراح.   (٢) الصاوي.

ويثمر، ففطن موسى السامري لذلك، وعلم أن هذا التراب له أثر، فأخذ شيئاً منه ادخره، فلما توجه موسى عليه السلام للمناجاة.. صنع لهم العجل، ووضع التراب في فيه فصار له خوار، فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فنسي كما في سورة طه، وكان موسى السامري منافقاً، وانظر إلى من رباه جبريل، حيث كان منافقاً، وإلى من رباه فرعون، حيث كان مرسلاً فإنَّ هذا دليل على أن السعادة والشقاوة بيد الله، قال بعضهم:

إِذَا ٱلْمَرْءُ لَمْ يُخْلَقْ سَعِيْدَاً مِنَ ٱلأَزَلِ   فَقَدْ خَابَ مَنْ رَبَّىٰ وَخَابَ ٱلْمُؤَمِّلُ
فَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ جِبْرِيْلُ كَافِرٌ   وَمُوْسَىٰ ٱلَّذِيْ رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

قال ابن كثير[١]: وقد اختلف المفسرون في ذلك العجل، هل صار لحماً ودماً له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب إلا أنَّه يدخل فيه الهواء، فيصوت كالبقر، على قولين والله أعلم، انتهى.

ويرى[٢] الرأي الأول قتادة والحسن البصري، في جماعة آخرين، وتعليل ذلك عندهم: أن السامري رأى جبريل حين جاوز ببني إسرائيل البحر راكباً فرساً، ما وطىء بها أرضاً إلا حلت فيها الحياة، واخضر نباتها، فأخذ من أثرها قبضة فنبذها في جوف تمثال العجل، فحلت فيه الحياة وصار يخور كما يخور العجل.

ويرى جماعة آخرون الرأي الثاني، ويقولون: إن خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجها من فيه، ذاك أنَّه صنع تمثال عجل مجوفاً، ووضع في جوفه أنابيب على طريق فنية، مستمدة من دراسة علم الصوت، وجعل وضعه على مهب أنابيب الرياح، فمتى دخلت الريح في جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل، وقال آخرون: بل ذلك الخوار كان تمويهاً وعملاً منه يشبه عمل الحواة، ذاك أنَّه جعل التمثال أجوف، وجعل تحت الموضع الذي نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس، فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار، والناس يفعلون مثل هذا في النافورات التي تجري فيها المياه، وبهذا الطريق ونحوه ظهر

---

(١) ابن كثير.   (٢) المراغي.

الصوت من التمثال، ثم ألقى في روع الناس أن هذا العجل إلهكم وإله موسى، فعبدوه كلهم إلا هارون وقليلاً منهم وافقوه، كما قال الحسن، وقال الكرماني[(١)]: جعل في بطن العجل بيتاً يفتح ويغلق، فإذا أراد أن يخور. أدخل غلاماً يخور بعلامة بينهما إذا أراد، وقيل: يحتمل أن يكون الله أخاره ليفتن بني إسرائيل، وخواره قيل مرة واحدة ولم يثنِّ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقيل مراراً، فإذا خار سجدوا، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم، وقال ابن عباس وأكثر المفسرين: إن هذا العجل قد ذبحه موسى وحرقه وذرأه في الهواء، كما سيأتي في سورة طٰه في قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ الخ.

وقرأ الكسائي وحمزة[(٢)]: ﴿من حِلِيهم﴾ بكسر الحاء، إتباعاً لحركة اللام، كما قالوا: عصي، وهي قراءة أصحاب عبد الله ويحيى بن وثاب، وطلحة والأعمش، وقرأ باقي السبعة والحسن وأبو جعفر وشيبة بضم الحاء، وهو جمع نحو: ثَدْيٍ وثُديّ، وقرأ يعقوب: ﴿من حَليهم﴾ بفتح الحاء وسكون اللام وهو مفرد، ويراد به الجنس، أو اسم جنس مفرده حلية، كثمر وثمرة، وأضيفت الحلي إليهم لأنَّهم ملكوها غنيمة لما غرق قوم فرعون، أو أضيفت إليهم وإن كانت لغيرهم تجوزاً لأدنى ملابسة.

وقرأ علي وأبو السمال وفرقة ﴿جؤار﴾ بالجيم والهمز، من جار إذا صاح بشدة صوت. فرد الله عليهم ضلالاتهم، وأبان لهم فساد آرائهم، وقرعهم على جهالاتهم فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ؛ أي: ألم يعلم قوم موسى أنَّ هذا العجل لا يكلمهم بشيء ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً توصلهم إلى مصالحهم وسعادتهم بوجه من الوجوه.

أي: ألم يروا أنَّه فاقد لما يُعرف به الإله الحق من تكليمه لمن يختاره من البشر لرسالته، لتعليم عباده ما يجب عليهم معرفته من صفاته، وسبيل عبادته، كما كلم رب العالمين موسى عليه السلام، وألقى إليه الألواح التي فيها من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الشرائع ما يزكي النفوس، وتقوم بها مصالح العباد، وعليها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

وخلاصة ذلك: أنَّه فاقد لأهم صفة من صفات الإله الحق، وهي صفة الهداية والإرشاد للعباد، بإرسال الرسل الذين يختارهم إلى الناس، ومرجعها صفة الكلام، ثم أكد ما سلف وقرره بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي: اتخذوا ذلك العجل إلهاً وعبدوه ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى، واشتغلوا بعبادة العجل.

أي: إنهم لم يتخذوه عن دليل وبرهان، بل اتخذوه عن تقليد للمصريين، إذ رأوهم يعبدون العجل ـ أبيس ـ من قبل، وعن تقليد لما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد، فعبدوه مثلهم، ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل، وازدادت حسرتهم على ما فرط منهم في جنب الله تعالى، وتحيروا بعد عود موسى من الميقات ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾؛ أي: وعلموا أنَّهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً بعبادة العجل ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: إن ذنبنا لعظيم، وإنْ جرمنا لكبير، وإنَّه لن يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة الله التي وسعت كل شيء و ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بقبول توبتنا ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن جريمتنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: من الذين خسروا سعادة الدنيا ـ وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد ـ وخسروا سعادة الآخرة وهي دار الكرامة والنعيم المقيم وجنات النعيم.

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا كناية عن[1] الندم، ومعلوم أنَّ الندم متأخر عن علمهم بالخطأ، فتقديمه على الرؤية للمسارعة إلى بيانه، والإشعار بغاية سرعته، حتى كأنَّه سابق على الرؤية. اهـ «أبو السعود». ﴿وسقط﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وأصل الكلام: سقطت أفواههم على أيديهم، ففي بمعنى على، وذلك من شدة الندم، فإن العادة أنَّ الإنسان إذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه على أصابعه، فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم،

---

(١) الفتوحات والمراح.

فأطلق اسم اللازم، وأريد الملزوم على سبيل الكناية، وهذا التركيب لم تعرفه العرب إلا بعد نزول القرآن الكريم.

وقرأ ابن أبي عبلة[1]: ﴿أسقط في أيديهم﴾ رباعياً مبنياً للمفعول، وقرأ ابن السميقع ﴿سقط في أيديهم﴾ مبنياً للفاعل، وفاعله مضمر؛ أي: الندم، هذا قول الزجاج، وقال الزمخشري: سقط العض، وقال ابن عطية: سقط الخسران والخيبة. وكل هذه أمثلة، ذكره في «الفتوحات».

وقرأ الأخوان ـ حمزة والكسائي ـ والشعبي وابن وثاب، والجحدري وابن مصرف، والأعمش وأيوب: بالخطاب في ﴿ترحمنا وتغفر لنا﴾ ونصب ﴿ربنا﴾ على النداء حكاية لدعائهم، وفاعل الفعلين مستتر؛ أي: لئن لم تغفر أنت يا ربنا. وقرأ باقي السبعة ومجاهد والحسن والأعرج، وأبو جعفر وشيبة بن نصاح وغيرهم: ﴿يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ بالياء فيهما، ورفع ﴿ربنا﴾ على الفاعلية حكاية لأخبارهم فيما بينهم؛ أي: قال بعضهم لبعض: لئن يرحمنا ربنا ويغفر لنا، وفي مصحف أبي: ﴿قالوا ربنا لئن ترحمنا وتغفر لنا﴾ بتقديم المنادى، وهو ﴿ربنا﴾ وفي قولهم: ﴿ربنا﴾ استعطاف حسن إذ الرب هو المالك الناظر في أمر عبيده، والمصلح منهم ما فسد.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام من مناجاته لربه في جبل الطور ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بني إسرائيل حالة كونه ﴿غَضْبَٰنَ﴾ على أخيه هارون، إذ رأى أنَّه لم يكن فيهم صلب الرأي، قوي الشكيمة، نافذ الكلمة ﴿أَسِفًا﴾؛ أي: حزيناً لما فعله قومه من عبادة غير الله تعالى، وكان قد أخبره الله تعالى بذلك قبل رجوعه كما سيأتي في سورة طه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ فقوله: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ حالان من موسى، وذكر جواب لما بقوله ﴿قال﴾ موسى لهم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾؛ أي: بئس وقبح خلافة خلفتمونيها ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾؛ أي: من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة ربي، وقد كنت لقنتكم التوحيد، وكففتكم عن الشرك، وبينت

---

(١) البحر المحيط والفتوحات.

لكم فساده وسوء عاقبته، وحذرتكم صنيع القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر.

وقد كان من الحق عليكم أنْ تقتفوا أثري وتتبعوا سيرتي، بيد أنَّكم سلكتم ضد ذلك، فصنعتم صنماً كأحد أصنامهم، فعبده بعضكم، ولم يردعكم عن ذلك باقيكم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ، قال صاحب «الكشاف»: المعنى: أعجلتم عن أمر ربكم ـ وهو انتظار موسى ـ حافظين لعهده وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره، ولم أرجع إليكم فحدثتكم أنفسكم بموتي، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم.

وعبارة «المراح» هنا قوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيَ﴾؛ أي: بئسما قمتم مقامي، وكنتم خلفائي من بعد انطلاقي إلى الجبل، وهذا الخطاب إما لعبدة العجل ـ السامري وأشياعه ـ أي: بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله تعالى، وإما لهارون والمؤمنين معه؛ أي: بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم هذه ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: أعجلتم وعد ربكم من الأربعين، فلم تصبروا له، وذلك أنَّهم قدروا أن موسى لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة قد مات.

﴿وَأَلْقَى﴾ موسى ﴿الْأَلْوَاحَ﴾؛ أي: ألواح التوراة التي جاء بها؛ أي: وضعها في موضع ليتفرغ لما قصده من مكالمة قومه، فلما فرغ من مكالمتهم عاد إليها فأخذها؛ أي: طرحها من يديه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾؛ أي: بشعر رأس هارون بيمينه ولحيته بشماله حالة كونه ﴿يَجُرُّهُ﴾؛ أي: يجر هارون ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى نفسه بذؤابته لا على سبيل الإهانة، بل ليستكشف منه كيفية تلك الواقعة، ظناً منه أنه قد قصر في ردعهم وتأنيبهم، وكفهم عن عبادة العجل، كما فعل هو بتحريقه وإلقائه في اليم إنْ قدر، أو أن يتبعه إلى جبل الطور إنْ لم يستطع، كما حكى الله تعالى عنه في سورة طه ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝٩٣﴾ ولا شك أنَّ سياسة الأمم تختلف باختلاف أحوال رعاتها وسائسيها،

فالقوي منهم الشديد الغضب للحق كموسى، يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه الحلم ولين العريكة كهارون عليه السلام.

ثم ذكر سبحانه جواب هارون لموسى فقال: ﴿قَالَ﴾ هارون لموسى ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾؛ أي: يا ابن أمي لا تعجل بلومي وتعنيفي، ولا تظنن تقصيري في جنب الله تعالى، فإنِّي لم آل جهداً في الإنكار على القوم والنصح لهم ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾؛ أي: ولكن القوم قد وجدوني واعتقدوني ضعيفاً، ولم يرعووا لنصحي، ولم يمتثلوا لأمري ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾؛ أي: بل وأوشكوا وقاربوا أن يقتلونني لأنِّي نهيتهم عن عبادة العجل.

ناداه[1] نداء استعطاف وترفق، وكان شقيقه، وهي عادة العرب تتلطف وتتحنن بذكر الأم، كما قال:

يَـا ٱبْـنَ أُمِّـيْ وَيَـا شَـقِـيْـقَ نَـفْـسِـيْ

وقال آخر:

يَـا ٱبْـنَ أُمِّـيْ فَـدَتْـكَ نَـفْـسِـيْ وَمَـالِـيْ

وأيضاً: فكانت أمهما مؤمنة، قالوا: وكان أبوه مقطوعاً عن القرابة بالكفر، كما قال تعالى: لنوح عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وأيضاً لما كان حقها أعظم، لمقاساتها الشدائد في حمله وتربيته، والشفقة عليه.. ذكره بحقها، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، وكان كثير الحلم، ولهذا كان محبباً في بني إسرائيل.

وقرأ الحرميان[2] - نافع وابن كثير - وأبو عمرو وحفص ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ بفتح الميم، فقال الكوفيون أصله: يا ابن أماه، فحذفت الألف تخفيفاً كما حذفت في يا غلام، أصله: يا غلاما، وسقطت هاء السكت لأنَّه درج، فعلى هذا الاسم معرب، إذ الألف منقلبة عن ياء المتكلم فهو مضاف إليه لابن، وقال سيبويه:

---

(١) البحر المحيط.   (٢) البحر المحيط.

هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد، كخمسة عشر ونحوه، فعلى قوله: ليس مضافاً إليه ابن، والحركة حركة بناء.

وقرأ باقي السبعة: بكسر الميم، فقياس قول الكوفيين: أنَّه معرب وحذفت ياء المتكلم، واجتزىء عنها بالكسرة، كما اجتزؤا بالفتحة عن الألف المنقلبة عن ياء المتكلم، وقال سيبويه: هو مبني أضيف إلى ياء المتكلم، كما قالوا: يا أحد عشر أقبلوا، وحذفت الياء، واجتزؤا عنها بالكسرة، وقرىء بإثبات ياء الإضافة فتقول: يا ابن أمي. وقرىء ابن أمِّ بكسر الهمزة والميم. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾؛ أي: فلا تفرح الأعداء أصحاب العجل بما تفعل بي من المكروه؛ أي: فلا تفعل بي من اللوم والتقريع ما يجعل الأعداء يشمتون ويفرحون بي.

وقرأ ابن محيصن[1]: ﴿تَشْمِت﴾ بفتح التاء وكسر الميم ونصب الأعداء. ومجاهد كذلك، إلا أنَّه فتح الميم، وعن مجاهد أيضاً ﴿فَلاَ تَشَمت﴾ بفتح التاء والميم ورفع الأعداء، وعن حميد بن قيس كذلك، إلا أنَّه كسر الميم، جعلاه فعلاً لازماً فارتفع به الأعداء.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا تعجلني في زمرة القوم الظالمين لأنفسهم، وهم الذين عبدو العجل، فتغضب مني كما غضبت منهم، وتؤاخذني كما آخذتهم؛ فإني لست منهم في شيء؛ أي: ولا تظن أنِّي واحد من الذين عبدوا العجل مع برائتي منهم، وإنما قال هارون تلك المقالة لأنَّه خاف أنْ يتوهم جهال بني إسرائيل أنَّ موسى عليه السلام غضبان عليه، كما أنَّه غضبان على عبدة العجل.

وفي هذا دليل على أنَّ هارون كان دون موسى في شدة العزيمة، وقوة الإرادة، وأَخْذ الأمور بالحزم، وهذا ما أطبق عليه المسلمون وأهل الكتاب، ثم أبان سبحانه أثر هذا الاستعطاف في قلب موسى عليه السلام فقال: ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ فيما أقدمت على أخي هارون من هذا الغضب ﴿وَلِأَخِي﴾ في تركه

(١) البحر المحيط.

التشديد على عبدة العجل ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾؛ أي: في جنتك بمزيد الإنعام بعد غفران ما سلف منا ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ أي: فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا.

وحاصل المعنى: أي قال موسى: رب اغفر لي ما فرط مني من قول وفعل فيهما غلظة وجفاء، واغفر له ما عساه يكون قد قصر فيه من مؤاخذة القوم على ما اجترموه من الآثام، خوفاً مما توقعه من الإيذاء الذي قد يصل إلى القتل، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ التي وسعت كل شيء، واغمرنا بجودك وفضلك، فأنت أرحم بعبادك من كل رحم، والآية صريحة في براءة هارون من جريمة اتخاذ العجل وفي إنكاره على متخذيه وعابديه من قومه.

الإعراب

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

﴿وَوَاعَدْنَا﴾ الواو استئنافية، ﴿واعدنا﴾: فعل وفاعل، ﴿مُوسَىٰ﴾: مفعول أول، ﴿ثَلَاثِينَ﴾: مفعول ثان ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: انقضاء ثلاثين أو تمام ثلاثين، ﴿لَيْلَةً﴾: تمييز لـ﴿ثَلَاثِينَ﴾. منصوب به، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿واعدنا﴾، ﴿بِعَشْرٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أتممنا﴾، ﴿فَتَمَّ﴾: الفاء عاطفة تفريعية ﴿تم﴾: فعل ماض ﴿مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾: فاعل ومضاف إليه، ﴿أَرْبَعِينَ﴾: مفعول به، ﴿لَيْلَةً﴾: تمييز لـ﴿أَرْبَعِينَ﴾ منصوب به، وجملة ﴿تم﴾ من الفعل والفاعل معطوفة مفرعة على جملة ﴿أتممنا﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لِأَخِيهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿قال﴾، ﴿هَارُونَ﴾: بدل من ﴿أخيه﴾ بدل كل من كل، أو عطف بيان منه، ﴿اخْلُفْنِي﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿اخْلُفْنِي﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿هَارُونَ﴾، والجملة في محل النصب مقول

﴿قال﴾، ﴿فِي قَوۡمِي﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾، ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿هَٰرُونَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّبِعۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿هَٰرُونَ﴾، ﴿سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أصلح﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: استئنافية ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿جَآءَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جَآءَ﴾، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعل معطوف على ﴿جَآءَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة، ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿أَرِنِيٓ﴾ ﴿أر﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وهي الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والنون نون الوقاية والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: أرني نفسك، والجملة الفعلية جواب النداء في محل النصب مقول القول، ﴿أَنظُرۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق؛ لأنَّه في تقدير: فإنْ فعلت بي ذلك أنظر إليك، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿إِلَيۡكَۚ﴾ متعلقان بـ﴿أَنظُرۡ﴾ ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الرب، والجملة مستأنفة، ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿لَن﴾: حرف نصب، ﴿تَرَىٰنِي﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾ وعلامة نصبه فتحة مقدرة منع من ظهورها التعذر، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والنون نون الوقاية، والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول به لـ﴿ترى﴾؛ لأنَّ ترى

بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلَٰكِنِ﴾، الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿أَنظُرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿أَنظُرْ﴾، والجملة الاستدراكية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾.

﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَإِنِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إنْ﴾: حرف شرط، ﴿ٱسْتَقَرَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْجَبَلِ﴾، ﴿مَكَانَهُۥ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿ٱسْتَقَرَّ﴾، ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة تسويفية، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس، ﴿تَرَىٰنِى﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على الجملة الاستدراكية. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فتجلى ربه للجبل، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِلْجَبَلِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَجَلَّىٰ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل ﴿صَعِقًا﴾ حال من موسى، والجملة معطوفة على جملة ﴿جعل﴾، ﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطف على محذوف وتقديره: ثم أفاق موسى، ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿أَفَاقَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، والجملة جواب لما، وجملة لما معطوف على جملة محذوفة، ﴿سُبْحَٰنَكَ...﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنّ شئت قلت: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: أسبحك سبحاناً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿تُبْتُ﴾:

فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿تُبْتُ﴾، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تُبْتُ﴾.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّي﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، والياء اسمها ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿اصطفى﴾، ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق أيضاً بـ﴿اصطفى﴾، ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله، وكرر حرف الجر تنبيهاً على مغايرة الاصطفاء للكلام، كما في السمين، ﴿فَخُذْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿خذ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾ والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿إنّي﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، ﴿ءَاتَيْتُكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: آتيتكه، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾: أوصفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف من ﴿ءَاتَيْتُكَ﴾، ﴿وَكُن﴾: فعل ناقص واسمه، ضمير يعود على موسى، ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كن﴾، وجملة ﴿كن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

﴿وَكَتَبْنَا﴾ الواو: استئنافية ﴿كتبنا﴾: فعل وفاعل، والجلمة مستأنفة، ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كتبنا﴾، وكذا يتعلق به قوله: ﴿فِي ٱلْأَلْوَاحِ﴾،

﴿مِن﴾: زائدة ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: مفعول به لـ﴿كتبنا﴾. ﴿مَّوْعِظَةً﴾ بدل من محل ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: على كونه مفعول ﴿كتبنا﴾. ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ معطوف على ﴿مَّوْعِظَةً﴾. ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تفصيلاً﴾.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿فَخُذْهَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة داخلة على قول محذوف تقديره: فقلنا له خذها، وجملة القول المحذوف معطوفة على جملة ﴿كتبنا﴾ ﴿خذها﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف الذي قدرناه آنفا، ﴿بِقُوَّةٍ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿خذها﴾؛ أي: خذها حال كونك متلبساً بقوة ونشاط، لا بتكاسل وغفلة، ﴿وَأْمُرْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿خذها﴾، ﴿قَوْمَكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿يَأْخُذُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بالطلب السابق تقديره: إن أمرتهم يأخذوا، ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَأْخُذُوا﴾، ﴿سَأُورِيكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

﴿سَأَصْرِفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة مسوقة لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات، التي هي ما كتب في ألواح التوارة أو ما يعمها وغيرها، ﴿عَنْ آيَاتِيَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أصرف﴾. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع في محل النصب مفعول به، ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم ملتبسين بالدين غير الحق، ﴿وَإِن﴾: الواو: عاطفة ﴿إنْ﴾ حرف شرط، ﴿يَرَوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن الشرطية، ﴿كُلَّ آيَةٍ﴾: مفعول به لـ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنَّ رأى بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، ﴿لَّا يُؤْمِنُوا﴾:

فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿لَا يُؤْمِنُوا﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، على كونها صلة الموصول ﴿وَإِن يَرَوْا﴾: جازم وفعل وفاعل مجزوم على كونه فعل الشرط ﴿سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول مجزوم بإن الشرطية، على كونه جواباً لها، ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول ثان لـ﴿اتخذوا﴾، جملة إنْ الشرطية معطوفة على جملة الصلة أيضاً.

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: عاطفة ﴿إنْ يروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن على كونه فعل شرط لها، ﴿سَبِيلَ الْغَيِّ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان مجزوم بإن الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة الصلة أيضاً. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، وسبب، ﴿أنَّهم﴾: ناصب واسمه، ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور، متعلق به، ﴿وَكَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿عَنْهَا﴾ متعلق بـ﴿غَافِلِينَ﴾ ﴿غَافِلِينَ﴾ خبر كان، وجملة كان في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا﴾، وجملة ﴿كَذَّبُوا﴾ في محل الرفع خبر أنَّ، وجملة أن من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك الصرف المذكور عن آياتنا كائن بسبب تكذيبهم آياتنا، وبسبب غفلتهم عنها، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَذَّبُوا﴾ صلة الموصول ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿كَذَّبُوا﴾، ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿آياتنا﴾ مجرور بالكسرة الظاهرة، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل

الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري، ﴿يُجْزَوْنَ﴾: فعل ونائب فاعل، وهو المفعول الأول، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يُجْزَوْنَ﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كانوا يعملونه، وجملة ﴿يُجْزَوْنَ﴾ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اتخذ﴾، ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اتخذ﴾ أيضاً، وجاز[1] تعلق حرفي جر بلفظ واحد بعامل واحد، لاختلاف مدلوليهما؛ لأنَّ ﴿مِنْ﴾ الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض، وأجاز أبو البقاء أن يكون ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: في موضع الحال، فيتعلق بمحذوف؛ لأنه لو تأخر لكان صفة؛ أي: عجلا كائناً من حليهم ﴿عِجْلًا﴾: مفعول أول لـ﴿اتخذ﴾. ﴿جَسَدًا﴾: بدل من ﴿عِجْلًا﴾ أو عطف بيان منه أو صفة له. اهـ. والمفعول الثاني محذوف تقديره: واتخذوا عجلاً جسدا له خوار إلها ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة في محل النصب صفة ﴿عِجْلًا﴾. ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، وقالوا: الهمزة للاستفهام الإنكاري التقريعي، ﴿لم يروا﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة الفعلية إنشائية لا ملح لها من الإعراب ﴿أَنَّهُ﴾ ناصب واسمه، والضمير عائد للعجل، ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على العجل، والجملة في محل الرفع خبر أنَّ، ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على العجل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ على كونها خبرا لـ﴿أنَّ﴾،

(١) البحر المحيط.

وجملة أنَّ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى؛ لأنَّ رأى هنا بمعنى علم، تقديره: ألم يروا عدم تكليمه إياهم، وعدم هدايته إياهم سبيلاً ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: اتخذوه إلهاً، والجملة توكيد لفظي لـ﴿اتخذ﴾ الأول لا محل لها من الإعراب، ﴿وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة مستأنفة، وقال ابن عطية: يحتمل كونها حالاً من فاعل ﴿اتخذوه﴾ انتهى.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿سُقِطَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، وأصله سقطت أفواههم على أيديهم، ففي بمعنى على، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿وَرَأَوْا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سُقِطَ﴾، ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى تقديره: ورأوا ضلالهم، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة، ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿لَئِن﴾، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم المحذوف، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَرْحَمْنَا﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَئِن﴾، ﴿رَبُّنَا﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ معطوف على ﴿يَرْحَمْنَا﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم الآتي تقديره: إن لم يرحمنا نكن من الخاسرين، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى، زيدت إشعاراً بأنَّ ما بعدها جواب القسم لا جواب الشرط، لتقدم القسم عليه، ﴿نكونن﴾ فعل مضارع ناقص في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، واسمها ضمير يعود على المتخذين عجلا، ﴿مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر نكون، وجملة نكون جواب القسم لا محل

لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: عاطفة ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق: بـ﴿رَجَعَ﴾ ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾: حالان من ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عند من يجيز تعدد الحال، وقيل: ﴿أَسِفًا﴾: بدل من ﴿غَضْبَٰنَ﴾ بدل بعض من كل، أو بدل اشتمال ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة لما معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾، أو مستأنفة ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾ وإن شئت قلت: ﴿بِئْسَمَا﴾: فعل ماض لإنشاء الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: هو، يعود على الشيء المبهم و﴿ما﴾: نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز لفاعل بئس، ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب صفة ﴿لما﴾، والرابط محذوف تقديره: بئس الشيء خلافة خلفتمونيها، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: خلافتكم، وجملة بئس في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾ ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي التقريعي، ﴿عجلتم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، عداه إلى المفعول بلا واسطة حرف جر لتضمينه معنى سبق، والأصل: أعجلتم عن أمر ربكم ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾، ﴿وَأَخَذَ﴾. فعل ماض معطوف على ﴿ألقى﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾ ﴿بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أخذ﴾ ﴿يَجُرُّهُۥٓ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾، متعلق به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أخذ﴾.

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا

﴿تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿هارون﴾، والجملة مستأنفة، ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ إلى آخر الآية. مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ٱبْنَ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة في آخره، ﴿ٱبْنَ﴾ مضاف، ﴿أُمَّ﴾: مضاف إليه مجرور وعلامة جره كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف، بعد قلب الكسرة فتحة، المحذوفة تلك الألف اجتزاء عنها بالفتحة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة؛ لأنَّ ما قبل ياء المتكلم لا يكون إلا مكسوراً، ﴿أُمَّ﴾: مضاف، وياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف في محل الجر مضاف إليه، مبني على السكون، هذا على قراءة فتح ميم ﴿أُمَّ﴾. وأما على قراءة كسر ميم ﴿أُمِّ﴾ فتقول في إعرابه ﴿ٱبْنَ﴾: مضاف، ﴿أُمِّ﴾: مضاف إليه مجرور بالمضاف، وعلامة جره كسرة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة لياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة ﴿أم﴾ مضاف، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾: ناصب واسمه، ﴿ٱسْتَضْعَفُونِي﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿وَكَادُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وهو من أفعال المقاربة، ﴿يَقْتُلُونَنِي﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب خبر ﴿كادوا﴾، جملة كاد في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَضْعَفُونِي﴾ على كونها خبراً لـ﴿إن﴾ ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تُشْمِتْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾، ﴿بِيَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تُشْمِتْ﴾، ﴿ٱلْأَعْدَآءَ﴾: مفعول به، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي﴾: جازم وفعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ﴾: ظرف ومضاف إليه في محل المفعول الثاني لجعل، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ وجملة ﴿لا تجعلني﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة مستأنفة ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿ٱغۡفِرۡ﴾: فعل دعاء مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿لي﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱغۡفِرۡ﴾، ﴿وَلِأَخِي﴾، معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿وَأَدۡخِلۡنَا﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿ٱغۡفِرۡ﴾ وفاعله ضمير يعود على الرب جل جلاله، ﴿فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أدخلنا﴾، ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أدخلنا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾: من باب فاعل الرباعي، يتعدى إلى مفعولين؛ أي: واعدناه بأن نكلمه عند انتهاء ثلاثين ليلة يصومها ﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ الميقات الوقت الذي يقرر فيه عمل من الأعمال، كمواقيت الحج، ومواقيت الصلاة ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾؛ أي: كن خليفتي في سياسة القوم، وإصلاح أمورهم، ديناً ودنيا، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ يقال: جلا الشيء والأمر، وانجلى وتجلى، إذا ظهر، وجلاه فتجلى: إذا انكشف ووضح بعد خفاء في نفسه، أو على مجتليه وطالبه، وجلوت العروس بمعنى: أبرزته، وجلوت السيف أخلصته من الصداء، والمعنى: لما ظهر ربه للجبل ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ والدك الدق، وهو تفتيت الشيء أو سحقه، وقيل: تسويته بالأرض، وهو مصدر بمعنى المفعول؛ أي: جعله مدكوكاً مدقوقاً، فصار تراباً، هذا على قراءة من قرأ ﴿دكاً﴾ بالمصدر، وهم أهل المدينة، وأهل البصرة. وأما على قراءة أهل الكوفة ﴿جعله دكاء﴾ على التأنيث والجمع دكاوات كحمراء وحمراوات، وهي اسم للرابية الناشزة من الأرض، أو للأرض المستوية، فالمعنى: أنَّ الجبل صار صغيراً كالرابية، أو أرضاً مستوية ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾

الخر والخرور السقوط من علو والانكباب على الأرض كما قال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿وصَعِقًا﴾؛ أي: صاعقاً صائحاً مغشياً عليه، يقال: صعق الرجل، من باب فرح، فهو صعق ومصعوق، إذا أصابته الصاعقة، والمعنى: أنَّه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ يقال: أفاق إذا رجع إليه عقله وفهمه بعد ذهابهما بالغشيان، والإفاقة رجوع الفهم والعقل إلى الإنسان بعد جنون أو سكر أو نحوهما، ومنه إفاقة المريض وهي رجوع قوته، وإفاقة الحلب وهي رجوع الدر إلى الضرع، يقال: استفق ناقتك، أي أتركها حتى يعود لبنها، والفواق ما بين حلبتي الحالب، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى اهـ «سمين».

﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ والاصطفاء وكذا الاجتباء: اختيار صفوة الشيء؛ أي: خالصه الذي لا شائبة فيه ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ والمراد به المصدر؛ أي: بإرسالي إياك، أو على أنَّه على حذف مضاف؛ أي: بتبليغ رسالتي ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ يحتمل أن يراد به المصدر؛ أي: بتكليمي إياك، فيكون كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾. ويحتمل أن يراد به التوراة، وما أوحاه إليه من قولهم: القرآن كلام الله، تسمية للشيء باسم المصدر، وقدم الرسالة على الكلام لأنَّها أسبق، أو ليترقى إلى الأشرف، وكرر حرف الجر تنبيهاً على مغايرة الاصطفاء للكلام كما مر.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التكبر: التكثر، من الكبر وهو: غمط الحق بعدم الخضوع له، ويصحبه احتقار الناس، فصاحبه يرى أنَّه أكبر من أن يخضع لحق أو يساوي نفسه بشخص، والرُشد والرَشد والرَشاد مصادر، كالسُقم والسَقم والسَقام، واختلف في معنى الرُشد والرَشد، هل هما بمعنى واحد أم لا؟ فقال الجمهور: نعم هما لغتان في المصدر، كالبُخل والبَخل، والسّقم والسَّقم، والحُزن والحَزن. وقال أبو عمرو بن العلاء: الرشد - بضم فسكون - الصلاح في النظر، وبفتحتين في الدين قال: ولذلك أجمعوا على قوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ بالضم والسكون، وعلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ بفتحتين، وروي عن ابن عامر: ﴿الرشد﴾ - بضمتين - فكأنَّه من باب الإتباع اهـ «سمين». وبالجملة الرشد الصلاح والاستقامة، وضده الغي والفساد،

والآيات الأولى هي البينات والدلائل، والثانية هي الآيات المنزلة من حيث اشتمالها على الهداية، وتزكية النفوس.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ الحلي - بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء - جمع حلي، بفتح الحاء وسكون اللام وتخفيف الياء، كثُدِيٍ وثُدْيٍ، وأصله حلوي، اجتمعت الواو والياء، وسبقت الواو بالسكون، فقلبت ياء، وادغمت في الياء وكسرت اللام لأجل الياء ﴿عِجْلًا﴾ والعجل ولد البقر من العراب، أو الجواميس، كالحوار لولد الناقة، والمهر لولد الفرس ﴿جَسَدًا﴾ الجسد: الجثة، وبدن الإنسان، والشيء الأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ والخوار: صوت البقر، كالرغاء لصوت الإبل، والخوَر الضعف، ومنه أرض خوارة وريح خوارة، والخوران مجرى الروث، وصوت البهائم أيضاً ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ وسقط[1] في يده، وأسقط في يده - بضم أولهما بالبناء للمفعول، أي: ندم ويقولون: فلان مسقوط في يده، وساقط في يده؛ أي: نادم. قال في «العباب» و«تاج العروس» هذا نظم لم يسمع قبل القرآن، ولا عرفته العرب، وذكرت اليد لأنَّ الندم يحدث في القلب، وأثره يظهر فيها بِعَضِّهَا، أو الضرب بها على أختها، كما قال سبحانه في النادم: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾؛ لأنَّ اليد هي الجارحة العظمى، وربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾.

وقال الزمخشري[2]: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ولما اشتد ندمهم؛ لأنَّ من شأن من اشتد ندمه وحزنه أن يعض يده غما، فتصير يده مسقوطاً فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها؛ وقيل: من عادة النادم أن يطأطىء رأسه، ويضع ذقنه على يده معتمداً عليها ويصير على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه، فكأن اليد مسقوط فيها، وفي بمعنى على، فمعنى ﴿فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ على أيديهم كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وأعلم أن (سقط في يده) عده بعضهم في الأفعال التي لا تتصرف كنعم وبئس ﴿أَسِفًا﴾ الأسف[3] الحزن والغضب.

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات. (٣) المراغي.

ويقال: أسف يأسف ـ من باب تعب ـ حزن وتلهف، وأسف كغضب وزناً ومعنى، ويعدى بالهمزة فيقال: آسفته، ومن استعمال الأسف بمعنى الحزن، قوله تعالى حكاية عن يعقوب: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وبمعنى الغضب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾. ﴿أَعَجِلۡتُمۡ﴾ يقال عجله إذا سبقه، وأعجله استعجله، ويقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام، وفي «الخازن» العجلة التقدم على الشيء قبل وقته، والمعنى: أعجلتم ميعاد ربكم، فلم تصبروا له؟ أي: أعجلتم وعد ربكم من الأربعين، وقال الإمام: العجلة التقدم بالشيء قبل وقته، ولذلك كانت مذمومة، والسرعة غير مذمومة؛ لأن معناها عمل الشيء في أول أوقاته اهـ.

﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ أصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك، يقال: شمت فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به، والمعنى: لا تُسر الأعداء بما تفعل بي من المكروه. اهـ «خازن»، وفي «المصباح» شمت به يشمت، من باب سلم إذا فرح بمصيبة نزلت به، والاسم الشماتة، وأشمت الله به العدو اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ وقوله: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ وفي قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾، وفي قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَرِنِيٓ﴾، ﴿لن تراني﴾: ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ وفي قوله: ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ و﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لأنه بمعنى ولا تفسد فيهم، وفي قوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾.

ومنها: إرادة الخصوص بما ظاهره العموم في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: من قومه، وفي قوله: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من أهل عصره.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، وفي قوله ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ﴾، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ﴾.

ومنها: الطباق بين كلمتي ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾ و﴿ٱلۡغَيِّ﴾.

ومنها: التكرار والتأكيد في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾ مع قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ حُلِيِّهِمۡ﴾؛ لأنَّ الذي صاغه موسى السامري، فأسند ما للبعض إلى الكل لرضاهم به، من إطلاق ما للبعض على الكل.

ومنها: الإضافة لأدنى ملابسة في قوله: ﴿مِنۢ حُلِيِّهِمۡ﴾؛ لأنَّ الحلي للقبطيين، فاستعاروه لغرض العرس.

ومنها: الإبدال في قوله: ﴿جَسَدٗا﴾؛ لدفع التوهم؛ لأنَّه أبدله من ﴿عِجۡلٗا﴾ لدفع توهم أنَّه صورة عجل منقوشة على حائط مثلاً.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، للمبالغة في الحض على سلوك نهج الصالحين، والأصل: سأريهم؛ أي: قومك.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لأنَّه كناية عن الندم، فإن العادة أن الإنسان إذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه على أصبعه، فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم، فأطلق اسم اللازم، وأريد الملزوم على سبيل الكناية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في استعارة لفظ ﴿في﴾ لمعنى (على) في قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ أي: على أيديهم، شبه الاستعلاء الكلي بالظرفية الكلية، بجامع التمكن في كل، واستعير لفظ الظرفية للاستعلاء؛ أي: يقدر ذلك، فسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات التي هي معاني الحروف، فاستعير لفظ (في) الموضوعة لكل جزئي من جزئيات الظرفية لمعنى (على)، وهو الاستعلاء الخاص؛ أي: المقيد بالسقوط في هذا المثال، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾ و﴿سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ﴾؛ لأنَّ السبيل حقيقة في مكان المرور، فاستعاره للإيمان والضلال اللذين

هما من أعمال القلب، بجامع الإيصال إلى المقصود أو الهلاك في كل.

ومنها: الاستفهام الإنكاري[1] في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾ حيث عبدوا جماداً أو حيواناً عاجزاً، عليه آثار الصنعة، لا يمكن أنْ يتكلم، أو لا يهدي، وقد ركز في العقول أن من كان بهذه المثابة.. استحال أنْ يكون إلٰها، وهذا نوع من أنواع البلاغة يسمى الاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب الكلامي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ
يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ
أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ
وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ
كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ
إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ
أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ
ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ
ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ
كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُواْ مِن
طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر(١) عتاب موسى لأخيه هارون عليهما

(١) المراغي.

السلام، ثم استغفاره لنفسه وله.. قفى على ذلك بذكر ما استحقه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل، وهو مما أوحاه الله تعالى إلى موسى يومئذ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال القوم، وقسمهم إلى قسمين: مُصِرٍّ على الذنب وعبادة العجل، وتائب منيب إلى ربه، وبين مآل كل من القسمين.. ذكر هنا بيان حال موسى بعد أن سكنت ثورة غضبه وهدأ روعه.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر كتابته للرحمة لمن يتبع محمداً ﷺ من قوم موسى، ووصفهم بأنَّهم هم المفلحون.. ذكر هنا حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الإتباع، وعطفهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين ﷺ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً؛ أي: عبدوا العجل واستمروا على عبادته، كالسامري وأشياعه ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: سيصيبهم غضب وسخط وعقوبة كائنة من ربهم في الحياة الدنيا، وهو ما أمروا به من قتل أنفسهم توبة ﴿وَذِلَّةٌ﴾؛ أي: ذل وهوان ومسكنة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منتظرة لهم ولأولادهم جميعاً إلى يوم القيامة، والذلة[1] التي اختص بها السامري هو الإنفراد عن الناس، والابتلاء بلا مساس، ويروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك؛ أي: لا مساس، وإذا مس أحدهم أحداً غيرهم.. حُمَّا جميعاً في الوقت.

والمعنى[2]: أن الذين بقوا على اتخاذ العجل واستمروا عليه كالسامري وأشياعه، سيصيبهم غضب من ربهم في الحياة الدنيا، بأن لا يقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، وذلة عظيمة في الحياة الدنيا، وبالخروج من الديار والغربة عن

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

الوطن، وقال الواحدي[1]: إن الذين اتخذوا العجل، يعني اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، وهم أبناء الذين اتخذوا العجل إلهاً، فأضيف إليهم تعييراً لهم فعل آبائهم.. سينالهم غضب من ربهم؛ أي: عذاب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، وهي الجزية.

قال في «الخازن»: ثم للمفسرين في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن المراد بالذين اتخذوا العجل، الذين باشروا عبادته، وعلى هذا القول ففي الآية سؤال وهو: أن أولئك الأقوام الذين اتخذوا العجل تابوا إلى الله تعالى بقتلهم أنفسهم، كما أمرهم الله تعالى، فتاب عليهم، فكيف ينالهم الغضب والذلة مع التوبة؟ والجواب: أن ذلك الغضب إنما حصل لهم في الدنيا، وهو نفس القتل، فكان ذلك القتل غضباً عليهم، والمراد بالذلة هو: إسلامهم أنفسهم للقتل، واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطأ.

فإنْ قلت: السين في قوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ للاستقبال، فكيف تكون للماضي؟

قلتُ: هذا الكلام إنَّما هو خبر عما أخبر الله به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه، واتخاذهم العجل، ثم أخبره الله في ذلك الوقت أنَّه ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ فكان هذا الكلام سابقاً لوقوعه، وهو القتل الذي أمرهم الله به بعد ذلك.

والقول الثاني: أنَّ المراد بالذين اتخذوا العجل اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ كما مر عن الواحدي آنفاً، انتهى مع زيادة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾؛ أي: وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً في الحياة الدنيا ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾؛ أي: نجزي كل من افترى على الله كذباً وعبد غيره في كل زمان، إذ فضحوا بظهور افترائهم كما فضح هؤلاء، قال[2] الحسن البصري: إنَّ ذل البدعة على أكتافهم وإنْ هملجت[3] بهم البغال، وطقطقت بهم البراذين،

---

(١) الواحدي.

(٢) المراغي.

(٣) هَمْلَجَتْ الدَّابة: سارت سيراً حسناً في سرعة.

وروي عن أبي قلابة أنَّه قرأ هذه الآية وقال: هي والله لكل مفتري إلى يوم القيامة أن يذله الله. وقال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة، ثم قرأ هذه الآية. قال: والمبتدع مفتر في دين الله، قال أبو حيان[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾؛ أي: مثل ذلك النيل من الغضب والذلة، نجزي من افترى الكذب على الله، وأي افتراء أعظم من قولهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، والمفترون عام في كل مفتر، انتهى.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر والمعاصي غيره ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾؛ أي: رجعوا إلى الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾؛ أي: من بعد عمل السيئات، بأنْ رجع الكافر عن كفره، والعاصي عن عصيانه ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: داموا واستمروا على إيمانهم، وزكوه بالعمل الصالح، أو تكون الواو حالية؛ أي: وقد آمنوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾؛ أي: من بعد تلك التوبة المقرونة بالإيمان ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم؛ أي: لستار لذنوبهم وإنْ عظمت وكثرت ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم؛ أي: منعم عليهم، مبالغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية عليهم؛ أي: من أتى بجميع السيئات ثم تاب.. فإن الله سبحانه وتعالى يغفرها له، وهذا من أعظم ما يفيد البشارة للمذنبين.

وينتظم في هذا المسلك متخذوا العجل وغيرهم من المجترحين للسيئات، عظمت ذنوبهم أو حقرت؛ لأنَّ الذنوب وإنْ جلت وعظمت، فعفو الله وكرمه أعظم وأجل، على شريطة التوبة والإنابة، وبدونها الطمع فيه طمع في غير مطمع، ألا ترى أن طمع الفساق في المغفرة بدون الإنابة إلى ربهم قد ذهب بكثير من حرمة الأوامر والنواهي من قلوبهم، وجعلهم يستحلون كثيراً من المحرمات، وكانوا شراً ممن قال الله فيهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ولم يكن طمعهم ثمرة إيمان وعمل صالح، بل هي أماني جر إليها الحمق والغفلة عما يجب من تعظيم تلك الأوامر والنواهي:

إِنَّ ٱلأَمَانِيَ وَٱلأَحْلَامَ تَضْلِيْلُ

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾؛ أي: زال وسكن عنه الغضب، باعتذار

(١) البحر المحيط.

أخيه إليه وتوبة القوم، ولجأ إلى رحمة ربه وفضله، وجأر بالدعاء له أن يغفر له ولأخيه خطاياهما ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾؛ أي: عاد إلى الألواح التي ألقاها غضباً، فأخذها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾؛ أي: وفي المكتوب فيها من اللوح المحفوظ، وقيل: وفيما كتب له فيها، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، وقيل: وفيما نسخ من الألواح المتكسرة، ونقل إلى الألواح الجديدة، قال ابن عباس وعمرو بن دينار: لما ألقى موسى الألواح فتكسرت.. صام أربعين يوماً، فردت عليه في لوحين، وفيهما ما في الأولى بعينها، فيكون نسخها نقلها، وقال عطاء: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ معناه: وفيما بقي منها، وذلك أنَّه لم يبق منها إلا سبعها، وذهب ستة أسباعها، ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء اهـ «قرطبي».

﴿هُدًى﴾؛ أي: بيان للحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح، فالهدى ما يهتدون به من الأحكام، والرحمة ما يحصل لهم من الله تعالى عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة، واللام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ﴾ متعلقة بمحذوف صفة لـ﴿رحمة﴾، وفي قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ متعلقة بـ﴿يَرْهَبُونَ﴾ زيدت لتقوية العامل لضعفه بالتأخر، والمعنى: وفي نسختها هدى من الضلالة، ورحمة كائنة للذين هم يرهبون ويخافون عقاب ربهم، ويرجون ثوابه بالعمل بما فيها.

وقرأ معاوية بن قرة[1]: ﴿ولما سكن عن موسى الغضب﴾ وقرىء: ﴿ولما أسكت﴾ رباعياً مبنياً للمفعول، وكذا في مصحف حفصة؛ أي: أسكت الله عن موسى الغضب، وفي مصحف عبد الله: ﴿ولما صبر عن موسى الغضب﴾. وفي مصحف أبي: ﴿ولما انشق عن موسى الغضب﴾.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ هذا شروع في بيان ما كان من موسى ومن القوم الذين اختارهم، و﴿سَبْعِينَ﴾ مفعول ﴿اختار﴾، و﴿قومه﴾: منصوب بنزع الخافض، أي: من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل إليه؛ أي: وانتخب موسى واصطفى سبعين رجلاً من خيار قومه ممن لم يعبدوا العجل، وجملتهم اثنا عشر ألفاً، وكان جملة بني إسرائيل الذين خرجوا معه من مصر ست

---

(١) البحر المحيط.

مئة ألف وعشرين ألفاً، فكلهم عبدوا العجل إلا هذه الشرذمة القليلة، ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾؛ أي: للميقات الذي وقته الله تعالى له، ودعاهم للذهاب معه إلى حيث يناجي ربه من جبل الطور.

روي[1]: أن موسى اختار من اثني عشر سبطاً ستة ستة، فصاروا اثنين وسبعين فقال: ليستخلف منكم رجلان، فتشاجروا فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين، وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم، فخرج بهم إلى طور سيناء. فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام، وخروا سجداً فسمعوه تعالى يكلم موسى، يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إلى موسى وقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة؛ أي: لن نصدقك في أن الآمِرَ بما سمعنا من الأمر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتى نراه، فأخذتهم رجفة الجبل فماتوا يوماً وليلة ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة الشديدة؛ أي: أهلكتهم وأماتتهم رجفة الجبل وزلزلته وتحركه ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ﴾ إهلاكهم ﴿أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل خروجهم إلى الميقات ﴿و﴾ أهلكتني ﴿إياي﴾ معهم، قاله تسليماً لقضاء الله تعالى؛ أي: إنا كنا مستحقين للإهلاك ولم يكن من موانعه إلا عدم مشيئتك إياه.

والمعنى: أي فلما أخذتهم رجفة الجبل، وصعقوا قال موسى: رب إنني أتمنى أن لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معي إلى هذا المكان، فأهلكتهم وأهلكتني معهم، حتى لا أقع في شديد الحرج مع قومي فيقولوا: قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم، وإنْ لم تفعل فإني أسألك برحمتك أنْ لا تفعل الآن، والاستفهام في قوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ للاستعطاف، وفيه معنى النفي، ظن موسى أنما أهلكهم الله تعالى بعبادة قومهم العجل، أو بسوء أدبهم بسؤالهم رؤية الله جهرة؛ أي: لا تهلكنا يا إلهي بما فعل واقترف السفهاء والجهال منا من عبادة العجل، أو من سؤال رؤيتك جهرة، وفي هذا إيماء إلى أن عقلاء بني إسرائيل، وأصحاب الروية منهم لم يعبدوه، إنما عبده السفهاء وهم

---

(١) المراح.

الأكثرون ﴿إِنْ هِيَ﴾؛ أي[1]: ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾؛ أي: إلا محنتك بأن أوجدت في العجل خواراً فزاغوا به، وأسمعتهم كلامك، فافتتنوا بذلك حتى طمعوا فيما فوق ذلك. ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الفتنة ﴿من تشاء﴾ إضلاله، فلا يهتدي إلى التثبت ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ هدايته إلى الحق، فلا يتزلزل في أمثالها فيقوى بها إيمانه.

وعبارة «المراغي»: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ...﴾ الخ؛ أي: ما تلك الفعلة التي كانت سبباً في أخذهم بالرجفة إلا محنة منك وابتلاء، جعلته سبباً لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية، وما يستحقون عليه العقوبة أو المثوبة، بحسب سننك في خلقك بالعدل والحق، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك، ولست بالظالم لهم في تقديرك، وتهدى من تشاء ولست بالمحابي لهم في توفيقك، فأمرهم دائر بين العدل والفضل. انتهت.

﴿أَنتَ﴾ يا إلهي ﴿وَلِيُّنَا﴾؛ أي: متولي أمورنا الدنيوية والأخروية، والقائم علينا بما تكسب نفوسنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما اقترفته أنفسنا مما يترتب عليه المؤاخذة والعقاب من مخالفة سنتك، والتقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك ﴿وَارْحَمْنَا﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء، بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية علينا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ حلماً وكرماً وجوداً؛ لأنَّك تغفر ذنوب عبادك لا لغرض ولا لطلب عوض، بل لمحض الفضل والكرم والجود، أما غيرك فإنَّما يتجاوز عن الذنب إما طلباً للثواب الجزيل، أو للثناء الجميل، أو دفعاً للربقة الخسيسة عن القلب، وأنت خير الراحمين رحمة، وأوسعهم فيها فضلاً وإحساناً، فرحمة من سواك نفحة مفاضة على قلوبهم من رحمتك ﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾؛ أي: وأثبت لنا ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: في هذه الحياة القريبة الزوال والخسيسة ﴿حَسَنَةً﴾؛ أي: حياة طيبة من نعمة وعافية، وبسطة في الرزق، وتوفيق للطاعة ﴿وَفِي﴾ الدار ﴿الْآخِرَةِ﴾ حسنةً؛ أي: واكتب[2] لنا في الدار الآخرة مثوبة حسنة بدخول جنتك، ونيل رضوانك، فهو بمعنى قوله: فيما علمنا من دعائه ﴿رَبَّنَا

(١) المراح. (٢) المراغي.

ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تبنا إليك مما فرط من سفهائنا، من طلب الآلهة، وعبادة العجل، ومن تقصير عقلائنا في الإنكار عليهم، مستغفرين مسترحمين كما فعل من قبل آدام عليه السلام، إذ تاب من معصيته إليك، فتبت عليه واجتبيته، فكانت تلك سنتك في ولده. وقرأ[1] زيد بن علي، وأبو وجزة: ﴿هدنا﴾ ـ بكسر الهاء ـ من هاد يهيد إذا حرك؛ أي: حركنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك، فيكون الضمير فاعلاً، ويحتمل أن يكون مفعولاً لم يسم فاعله؛ أي: حركنا إليك وأملنا، والضم في ﴿هُدْنَآ﴾ يحتملهما، وتضمنت هذه الجمل كونه تعالى هو ربهم ووليهم، وأنَّهم تائبون عبيد له خاضعون، فناسب عز الربوبية أنْ يستعطف للعبيد التائبين الخاضعين بسؤال المغفرة والرحمة والكتب ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾؛ أي: اخص به ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾ من الكفار والعصاة، وليس لأحد علي اعتراض؛ لأنَّ الكل ملكي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾ وعمت ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من البر والفاجر، والمكلفين وغيرهم، قال[2] جماعة من المفسرين: لما نزلت ورحمتي وسعت كل شيء.. تطاول إبليس إليها وقال: أنا من ذلك الشيء، فنزعها الله تعالى من إبليس، فقال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فآيس إبليس منها، وقالت اليهود: نحن نتقي ونؤتي الزكاة، ونؤمن بآيات ربنا، فنزعها الله من اليهود وأثبتها لهذه الأمة فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الآية.

والظاهر[3]: أنَّ هذه الجملة مستأنفة، مسوقة للإخبار عن عذابه ورحمته سبحانه وتعالى، والمعنى؛ أي: قد كان[4] من سبق رحمتي غضبي أنْ جعلت عذابي خاصا، أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين، فهي من صفاتي التي قام بها أمر العالم منذ خلقته، والعذاب من أفعالي المترتبة على صفة العدل، ولولا الرحمة العامة المبذولة لكل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط بتصرف.

(٤) المراغي.

أحد لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وقرأ زيد بن علي والحسن وطاووس وعمرو بن فائد[1]: ﴿من أساء﴾ ـ بالسين المهملة ـ فعل ماض من الإساءة، وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاووس، وعمرو بن فائد رجل سوء، وقرأ بها سفيان بن عينية مرة واستحسنها، فقام إليه عبد الرحمن المقري، وصاح به وأسمعه، فقال سفيان: لم أدر ولم أفطن لما يقول أهل البدع.

ثم ذكر من ستكتب لهم الرحمة فقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾؛ أي: فسأكتب رحمتي، وأثبتها وأقدرها وأقضيها بمشيئتي في الآخرة خاصة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: المفروضة؛ أي: يعطون زكاة أموالهم وصدقاتها التي تتزكى بها أنفسهم، وخص الزكاة بالذكر دون ما عداها من الطاعات لأن النفوس شحيحة، ففتنته تقتضي أنْ يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين غيرها من الطاعات، كما إنَّ في ذلك إيماء إلى أنَّ اليهود أشربوا في قلوبهم حب المال، وفتنوا بجمعه ومنع بذله في سبيل الله ﴿و﴾ سأكتبها لـ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: بدلائل وحدانيتنا وقدرتنا، وصدق رسلنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون تصديق إيقان مبني على العلم الصحيح، دون تقليد للآباء والأجداد.

ثم بين الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة، ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ نعت ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أو بدل منه، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم الذين يتمسكون دين الرسول الكريم ويتبعون ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ محمداً ﷺ؛ أي: الذي لم يمارس القراءة والكتابة، ومع ذلك جمع علوم الأولين والآخرين، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل، والأمي إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب ـ وهم العرب ـ أو نسبة إلى الأم، والمعنى: إنه باقٍ على حالته التي ولد عليها، لا يكتب ولا يقرأ

(١) البحر المحيط.

المكتوب، وقيل نسبة إلى أم القرى ـ وهي مكة ـ وقرأ يعقوب ﴿الأمي﴾ بفتح الهمزة، وخرجها بعضهم على أنّه من تغيير النسب كما قالوا في النسب إلى أمية: أموي بفتح الهمزة، وخرجها بعضهم على أنَّه نسبة إلى الأم، بمعنى القصد الذي هو مصدر أم يؤم أما، بمعنى قصد، ومعناه: المقصود لكل أحد، وهذا الوصف من خصوصياته ﷺ، إذ كثير من الأنبياء كان يكتب ويقرأ، فالأمية آية من آيات نبوته ﷺ، فهو مع أميته قد جاء بأعلى العلوم النافعة، التي بها يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم، فغير نظم البشر في تلك الحقبة الطويلة، وأثر في حياة الأمم التي حوله أكبر الأثر، بما شهد له المنصفون في كل الأديان، وقد وصف الله تعالى ذلك الرسول الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من بني إسرائيل بصفات:

منها: أنَّه نبي أمي.

ومنها: أنَّه هو ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾؛ أي: يجد الذين يتبعونه من بني إسرائيل اسمه ونعته ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ اللذين هما مرجعهم في الدين، بحيث لا يشكون أنَّه هو، وبالجملة فأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يتناقلون خبر بعثة محمد ﷺ فيما بينهم، ويذكرون البشارات من كتبهم، حتى إذا ما بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون، وكان علماؤهم يصرحون بذلك، كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء اليهود، وتميم الداري من علماء النصارى، وغيرهم من الذين أسلموا في عصر النبي ﷺ.

ومنها: أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره، من التوحيد ومكارم الأخلاق، وبر الوالدين وصلة الأرحام ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: عن كل ما تنكره القلوب ولا تعرفه، وهو ما كان من مساوىء الأخلاق، كعبادة الأوثان، والكفر بما أنزل الله على النبيين، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين.

ومنها: أنَّه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: كل ما تستطيبه الأذواق السليمة من الأطعمة، وفيه فائدة في التغذية مما حرم عليهم في التوراة، كلحوم الإبل،

وشحوم البقرة والغنم.

ومنها: أنَّه ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾؛ أي: كل ما تستخبثه الطبائع السليمة، وتستقذره النفوس، كالميتة والدم المسفوح، والخنازير، وما يؤخذ من الأموال بغير حق، كالربا والرشوة والغضب والخيانة.

ومنها: أنَّه ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾؛ أي: يسقط عنهم ثقل العهد الذي أخذ عليهم، والمراد[1] بالإصر هنا: العهد والميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل على أن يعملوا بما في التوراة من الأحكام، فكانت تلك الشدائد، قاله ابن عباس. وقيل[2]: التشديد الذي كان عليهم من تحريم السبت، وأكل الشحوم، وغير ذلك من الأمور الشاقة، قاله قتادة. وقال مسروق: لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب فيصبح وقد كتب على باب بيته أن كفارته أن تنزع عينيك فينزعهما. وقرأ ابن عامر ﴿أصارهم﴾ بالجمع. وقرىء: ﴿أصرهم﴾ بفتح الهمزة وبضمها. وقرأ طلحة: ﴿ويذهب عنهم إصرهم﴾ ﴿و﴾ يخفف عنهم ﴿الأغلال﴾؛ أي: التكاليف الشاقة ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ في عبادتهم ومعاملاتهم، كقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وكاشتراط قتل النفس في صحة التوبة، وتعيين القصاص في القتل العمد والخطأ، وقطع الأعضاء الخاطئة، وعدم صحة صلاتهم إلا في الكنائس، وغير ذلك من التكاليف التي كانت على بني اسرائيل، شبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق، كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل، فكذلك لا تمتد إلى الحرام الذي نهيت عنه.

والخلاصة[3]: أنَّ بني إسرائيل كانوا قد أخذوا بالشدة في أحكام العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات، فكانت مثلهم مثل من يحمل أثقالاً يئط منها، وهو موثق بالسلاسل والأغلال في عنقه ويديه ورجليه، وقد خفف المسيح عليه السلام عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية، وشدد في الأحكام

---

(١) الخازن.
(٢) زاد.
(٣) المراغي.

الروحية، إلى أن جاءت الشريعة الوسطى السمحة التي بعث بها خاتم الرسل محمد صلوات الله عليه.

ثم بين سبحانه وتعالى كيفية اتباعه ﷺ، وعلو مرتبة متبعيه، واغتنامهم مغانم الرحمة في الدارين، إثر بيان نعوته الجليلة فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: بالرسول النبي الأمي حين بعث من قوم موسى، ومن كل أمة ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾؛ أي: منعوه وحموه من كل من يعاديه، مع التعظيم والإجلال؛ لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه باللسان والسنان ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ﴾ الأعظم ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: مع رسالته، وهو القرآن. سماه نوراً لأنَّه يظهر نور الإيمان لصاحبه، ويزيل عنه ظلمة الجهل والضلال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات السابقة، من الإيمان به والتعزير والنصر له، واتباع النور الذي أنزل معه ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بالرحمة والرضوان؛ أي: الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة، والناجون من السخط والعذاب، دون غيرهم من حزب الشيطان الذين خذلهم الله تعالى في الدنيا والآخرة.

وقرأ الجحدري وقتادة وسليمان التيمي وعيسى[1]: ﴿وعزروه﴾ بالتخفيف. وقرأ جعفر بن محمد: ﴿وعززوه﴾ بزايين، ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل.. أمره سبحانه أن يقول هذا القول الآتي، المقتضي لعموم رسالته ﷺ إلى الناس جميعاً فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لجميع البشر من عرب أو عجم ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: مرسل إليكم كافة لا إلى قومي خاصة، فهو بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾؛ أي: وأنذر به كل من بلغه من الثقلين، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾..

وجاءت أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه ﷺ، بالرسالة العامة:

---

(١) البحر المحيط.

فمنها: ما روى الشيخان عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة وطهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة». وفي رواية: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد من قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». وقوله في الرواية الأولى: «وبعثت إلى كل أحمر وأسود». قيل: أراد بالأحمر العجم، وبالأسود العرب، وقيل: أراد بالأحمر الإنس، وبالأسود الجن.

ومنها: ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بستة: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون».

ثم وصف الله تعالى نفسه بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وبالإحياء وبالإماتة فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: إن الإله الذي أنا رسوله هو من له التصرف والملك في السموات والأرض وتدبير العالم كله، إذ وحدة النظام في جملة المخلوقات، وعدم التفاوت فيها دليل على وحدة مصدرها وتدبيرها، فهو المعبود وحده لا إله إلا هو، وتوحيد الربوبية بالإيمان، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل؛ أي: بعبادة الله وحده، هما أصل الدين، والركن الأول في العقيدة، والركن الثاني: الإيمان برسالة محمد ﷺ، والركن الثالث: عقيدة البعث بعد الموت، وهي تتضمن الإحياء والإماتة وتصرف الرب في خلقه.

وقد بنى على تقرر هذه الأمور الثلاثة الدعوة إلى الإيمان فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾

أيها الناس جميعاً ﴿بِٱللَّهِ﴾ الواحد في ربوبيته وألوهيته، الذي يحيي كل ما تحله الحياة، ويميت كل ما يعرض له الموت بعد الحياة، وهذا أمر مشاهد كل يوم ﴿و﴾ آمنوا بـ﴿رسوله﴾ النبي الأمي الذي بعثه في الأميين رسولاً إلى الخلق أجمعين يعلمهم الكتاب، والحكمة، ويطهرهم من خرافات الشرك والجهل، والتفرق والتعادي، ليكونوا بهدايته أمة واحدة، يتحقق بها الإخاء البشري العام، وقد بشر بهذا النبي والأنبياء صلوات الله عليهم؛ لأنَّه المتمم لما بعثوا به من هداية الناس، قال الزمخشري: فإنْ قلت: هلا قيل: فآمنوا بالله وبي، بعد قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؟

قلتُ: عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقه الالتفات من البلاغة، وليعلم أنَّ الذي يجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنَّه النبي الأمي، الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: يؤمن بتوحيد الله وبكلماته التشريعية، التي أنزلها لهداية خلقه على ألسنة رسله، وهي مظهر علمه ورحمته، والمراد بها القرآن وسائر الكتب السماوية، وبكلماته التكوينية التي هي مظهر إرادته وقدرته وحكمته، وقرأ الأعمش: ﴿الذي يؤمن بالله وآياته﴾ بدل ﴿كلماته﴾. وبعد أن أمرهم سبحانه بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: واتبعوا ذلك النبي الأمي، واسلكوا طريقه، واقتفوا أثره في كل ما يأتي ويذر من أمر الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: رجاء اهتدائكم بالإيمان وباتباعه إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة، وتلك هي الثمرة التي تجنى منهما، فما آمن قوم بنبي.. إلا كانوا بعد الإيمان به خيرا مما كانوا قبله من العزة والكرامة في دنياهم، وسعادتهم في آخرتهم، بنيل رضوان ربهم، والحظوة بالقرب منه.

وليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهي ما لا تعلق له بحق الله ولا حق خلقه، من جلب مصلحة أو دفع مفسدة، كمسائل العادات والزراعات والصناعات والعلوم، والفنون المبنية على التجارب، وما جاء فيها من أمر ونهي فهو إرشاد لا تشريع، وقد ظن بعض الصحابة أنَّ إنكار النبي ﷺ لبعض

الأمور الدنيوية المبنية على التجارب من قبيل التشريع، كامتناعهم عن تلقيح النخل حين نهاهم عنه فأشاص ـ أي خرج ثمره شيصاً رديئاً ـ فراجعوه فأخبرهم أنَّ مقاله كان عن ظن ورأي، لا عن تشريع ووحي، وقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». والحكمة في ذلك تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية متروكة لمعارف الناس وتجاربهم.

قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ كلام مستأنف، مسوق لدفع ما عسى أن يتوهم من تخصيص كتابة الرحمة بمن يتبع محمداً ﷺ، وذلك المتوهم هو حرمان قوم موسى من كل خير، وبيانه أنَّهم ليسوا كلهم يحرمون منها، بل من قوم موسى ﴿أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة عظيمة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ويرشدونهم، ويدعونهم إلى الخير والهدى حالة كونهم متلبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل الذي جاء به موسى عليه السلام من عند الله تعالى ﴿وبه﴾؛ أي: وبالحق الذي جاء به موسى لا بغيره ﴿يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يحكمون بين الناس حكماً عدلاً موافقاً للصواب إذا حكموا بين الناس، فلا يتبعون هوى، ولا يأكلون سحتاً ولا رشا، واختلف[1] في هؤلاء القوم، فقيل: هم الذين أسلموا من بني إسرائيل، كعبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل: هم قوم بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى عليه السلام قبل التحريف والتبديل، ودعوا الناس إليه، فإن[2] قيل: إن هؤلاء القوم كانوا قليلين في العدد ولفظ الأمة ينبىء عن الكثرة؟ **فالجواب**: أنَّهم لما أخلصوا في الدين جاز إطلاق الأمة عليهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾. اهـ كرخي.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾؛ أي: وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ومنهم الظالمون والفاسقون فجعلناهم ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾؛ أي: جعلناهم اثنتي عشرة فرقة تسمى أسباطاً؛ أي: قبائل، وصيرناهم ﴿أُمَمًا﴾؛ أي: جماعات، يمتاز كل منهم بنظام خاص في معيشته، وبعض شؤونه؛ لأنَّ كل سبط كان أمة عظيمة، وسبب[3] تفرقهم اثنتى عشرة أسباطاً أنَّ أولاد يعقوب كانوا

---

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

(٣) الفتوحات.

كذلك، فكل سبط ينتمي لواحد منهم، والأسباط جمع سبط وهو ولد الولد، فهو كالحفيد. هكذا في كتب اللغة، وتخصيص السبط بولد البنت، والحفيد بولد الابن أمر عرفي.

وقرأ أبان بن تغلب عن عاصم[1]: ﴿وقطَعناهم﴾: بتخفيف الطاء، وابن وثاب والأعمش وطلحة بن سليمان: ﴿عشِرة﴾ بكسر الشين، وعنهم الفتح أيضاً، وأبو حيوة وطلحة بن مصرف بالكسر، وهي لغة تميم، والجمهور بالإسكان، وهي لغة الحجاز.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ بنو إسرائيل؛ أي: حين طلبوا منه السقيا ـ وقد أخذهم العطش في التيه ـ فاستسقى ربه لهم؛ أي: أوحينا إليه بـ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ وهو الذي فرّ بثوبه، خفيف مربع كرأس الرجل، رخام أو كذان، كما في «الجلالين» في سورة البقرة فضربه ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾؛ أي: فانفجرت ونبعت وسالت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عيناً من الماء، بقدر عدد أسباطهم، وخص كل واحدة من الأسباط بعين منها للزحام وحفظاً للنظام ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾؛ أي: كل سبط منهم ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ أي: عينهم الخاصة بهم بالعلم الضروري الذي خلقه الله في كلٍّ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾؛ أي: سخرنا لهم السحاب في التيه، تقيهم بظلها من حَرِّ الشمس، تسير بسيرهم وتسكن بإقامتهم، وكان ينزل لهم في الليل عمود من نور، يسيرون بضوئه، ولولا السحاب في التيه.. لأحرقتهم حرارة الشمس، إذ لم يكن هناك من الشجر ما يستظلون به ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ﴾ وهو شيء حلو كان ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس، ويأخذ كل إنسان صاعاً ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾؛ أي: الطير السماني ـ بتخفيف الميم ـ وبالقصر بوزن حبارى، وتسوقه ريح الجنوب عليهم، فيذبح كل واحد ما يكفيهم، وهو[2] يموت إذا سمع صوت الرعد، فيلهمه الله تعالى أن يسكن جزائر البحر، التي لا يكون فيها مطر ولا رعد إلى انقضاء أوانهما، فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض، وخاصيته

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

أن أكل لحمه يلين القلوب القاسية.

والمعنى[1]: فسهلنا عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه، وكان المن يقوم مقام الخبز عندهم، ويكفي الألوف من الناس، وتقوم السماني مقام اللحوم والطيور الأخرى، وقلنا لهم ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ أي: من مستلذات ما رزقناكم، وهو المن والسلوى، وفي ذلك تنبيه وتذكير لهم بما يجب عليهم من شكر هذه النعم، وقرأ عيسى الهمداني[2]: ﴿من طيبات ما رزقتكم﴾ موحداً للضمير.

والمعنى: أقصروا أنفسكم على ذلك المطعوم، ولا تطلبوا غيره، واشكروا رزق ربكم، وسئموا منه وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وطلبوا غيره، فظلموا أنفسهم بكفران هذه النعم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرهم بهذه النعم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمخالفة ما أمروا به؛ أي: بل ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والكفران، وكان ذلك من دأبهم وعادتهم آنا بعد آن.

ولا شك أن من ظلم نفسه.. كان لغيره أظلم، وإن كان ظلمه لنفسه مما يجهل أنَّه ظلم لها، إذ يتجلى له في صورة المنفعة، وتكون عاقبته مضرة، وهكذا الحال في جميع الظالمين والمجرمين، فهم يظنون أنَّهم بظلمهم وإجرامهم ينفعون أنفسهم، جهلاً منهم للعواقب، وقلة تدبر ما ينبغي أن يتفطن له.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلٰهاً، والجملة الفعلية صلة الموصولة، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: جار

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

ومجرور صفة لـ﴿غَضَبٌ﴾. ﴿وَذِلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿غَضَبٌ﴾، ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلق بـ﴿ينال﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، وجملة ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إنَّ مستأنفة، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الواو: استئنافية، ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ونجزي المفترين جزاء مثل جزائنا لهؤلاء المتخذين العجل، ﴿نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿تَابُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَمِلُوا۟﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَابُوا۟﴾، ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَابُوا۟﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، تنازع فيه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿لَغَفُورٌ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ الواو: استئنافية، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿سَكَتَ﴾: فعل ماض، ﴿عَن مُّوسَى﴾: متعلق به، ﴿ٱلْغَضَبُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُّوسَى﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾: لا محل له من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة، ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿هُدًى﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ معطوف على ﴿هُدًى﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، تنازع فيه كل من ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿لِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَرْهَبُونَ﴾، وجملة ﴿يَرْهَبُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ﴾.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿قَوْمَهُۥ﴾: منصوب بنزع الخافض؛ أي: من قومه وهو في محل المفعول الثاني ﴿سَبْعِينَ﴾: مفعول أول لـ﴿اختار﴾، ﴿رَجُلًا﴾: تمييز له منصوب به، ﴿لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿اختار﴾، ﴿فَلَمَّآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فخرج بهم فأخذتهم الرجفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على موسى، والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة لما معطوفة على ذلك المحذوف الذي قدرناه آنفاً، ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿شِئْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾: فعل وفاعل، ومفعول، ﴿مِّن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾، ﴿وَإِيَّـٰىَ ۖ﴾ معطوف على ضمير ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾، وجملة ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، مع كونها جواب النداء.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾.

﴿أَتُهْلِكُنَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الاستعطافي الإنكاري، ﴿تهلكنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تهلكنا﴾، ﴿فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما فعله السفهاء. ﴿مِنَّآ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾، ﴿إِنْ﴾: نافية بطل عملها لانتقاض نفيها بإلا، ﴿هِىَ﴾: مبتدأ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿فِتْنَتُكَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿تُضِلُّ﴾: فعل

مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تُضِلُّ﴾، ﴿مَن﴾: موصولة في محل النصب مفعول ﴿تُضِلُّ﴾، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من تشاء إضلاله، وجملة ﴿تُضِلُّ﴾ في محل النصب حال من الكاف في ﴿فِتْنَتُكَ﴾، ﴿وَتَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿تهدي﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تُضِلُّ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تهدي﴾، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾: صلتها، والعائد محذوف تقديره: من تشاء هدايته، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿فَاغْفِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿اغفر﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿اغفر﴾، ﴿وَارْحَمْنَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿فَاغْفِرْ﴾ أو معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾.

﴿وَاكْتُبْ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَاغْفِرْ﴾، ﴿لَنَا﴾: متعلق به، وكذا قوله: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ﴿اكتب﴾، ﴿حَسَنَةً﴾: مفعول ﴿اكتب﴾، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿هُدْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّا﴾، وجملة ﴿إِنَّا﴾ في محل النصب مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿عَذَابِي﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿أُصِيبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿بِهِ﴾:

متعلق بـ﴿أُصِيبُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أُصِيبُ﴾، ﴿أَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من أشاؤه.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَرَحْمَتِي﴾: مبتدأ، ﴿وَسِعَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الرحمة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿عَذَابِيَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: مفعول ﴿وَسِعَتْ﴾، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية ﴿سأكتبها﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿وَسِعَتْ﴾ على كونها خبر المبتدأ، ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿سأكتبها﴾، ﴿يَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَتَّقُونَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول، ﴿هُم﴾: مبتدأ ﴿بِآيَاتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ في محل الجر نعت لـ ﴿الَّذِينَ﴾ الأول، أو بدل منه، ويجوز قطعه إلى النصب أو الرفع، ﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿النَّبِيَّ﴾ بدل من ﴿الرَّسُولَ﴾ أو عطف بيان له ﴿الْأُمِّيَّ﴾ صفة أولى لـ﴿النَّبِيَّ﴾. ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول في محل النصب صفة ثانية لـ﴿النَّبِيَّ﴾، ﴿يَجِدُونَهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مَكْتُوبًا﴾: مفعول ثان، ﴿عِندَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿مَكْتُوبًا﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾: متعلق بـ﴿مَكْتُوبًا﴾ أيضاً، ﴿وَالْإِنجِيلِ﴾: معطوف على ﴿التَّوْرَاةِ﴾.

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿يَأْمُرُهُم﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿الرَّسُولَ﴾، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من ﴿الرَّسُولَ﴾، ﴿وَيَنْهَاهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الرَّسُولَ﴾، ﴿عَنِ الْمُنكَرِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَأْمُرُهُم﴾. ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾: عطف على ما تقدم، وكذلك الجمل التي بعدها إلى قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ معطوفات على جملة قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾، ﴿الَّتِي﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿الأَغْلَالَ﴾، ﴿كَانَتْ﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿الأَغْلَالَ﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: خبر كان، وجملة كان صلة الموصول.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿فَالَّذِينَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت صفاته المذكورة، وأردت بيان كيفية اتباعه.. فأقول لك، ﴿الذين آمنوا به﴾: ﴿الذين﴾: مبتدأ أول ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، وقوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ جمل معطوفات على جملة الصلة. ﴿الَّذِي﴾: في محل النصب صفة لـ﴿النُّورَ﴾، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿مَعَهُ﴾: ظرف متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ الذي مر في قوله: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿إِنِّي﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب و﴿الياء﴾ اسمها، ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبرها وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿إِلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حالة كوني مرسلاً إليكم، أو متعلق بـ﴿رسول﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المخاطبين في ﴿إِلَيْكُمْ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للجلالة، أو بدل منه، ويجوز القطع إلى الرفع أو النصب، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن، ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره: موجود، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ من اسمها وخبرها بدل أول من جملة الصلة لا محل لها من الأعراب، ﴿يُحْيِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية بدل ثان من جملة الصلة، أو حال من الجلالة، وجملة ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوفة على جملة ﴿يُحْيِۦ﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنِّي رسول الله إليكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح اللازم لكم.. فأقول لكم: ﴿أمنوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿وَرَسُولِهِ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾، ﴿ٱلنَّبِىِّ﴾: بدل من ﴿الرسول﴾ أو عطف بيان منه، ﴿ٱلْأُمِّىِّ﴾: صفة أولى لـ﴿ٱلنَّبِىِّ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾:

في محل الجر صفة ثانية له ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾، ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾: معطوف على الجلالة، ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة لعل مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم، ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لدفع ما عسى أن يتوهم من تخصيص كتابة الرحمة بمن يتبع محمداً، وذلك المتوهم هو حرمان قوم موسى من كل خير، وبيانه: أنَّهم ليسوا كلهم يحرمون منها، بل منهم أمة الخ ذكره في «الفتوحات»، وجملة ﴿يَهْدُونَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أُمَّةٌ﴾، ﴿بِالْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من الواو في ﴿يَهْدُونَ﴾ تقديره: حالة كونهم متلبسين بالحق، ﴿وَبِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾ وجملة ﴿يَعْدِلُونَ﴾: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَهْدُونَ﴾ على كونها صفة لـ﴿أُمَّةٌ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾: عدد مركب معرب الصدر مبني العجز، ﴿اثْنَتَيْ﴾: حال من مفعول ﴿قَطَّعْنَاهُمُ﴾، ﴿عَشْرَةَ﴾ جزء حال لا محل له من الإعراب، مبني على الفتح، والتقدير: وفرقناهم حالة كونهم معدودين بهذا العدد، ويجوز أن يكون ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ مفعولاً ثانياً لـ﴿قَطَّعْنَاهُمُ﴾، إذا كان بمعنى صيرناهم، وجملة ﴿قَطَّعْنَاهُمُ﴾ مستأنفة، وتمييز ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ محذوف لفهم المعنى تقديره اثنتي عشرة فرقة ﴿أَسْبَاطًا﴾: بدل من التمييز المحذوف، ولا يجوز كون أسباطا تمييزاً؛ لأنَّه جمع ﴿أُمَمًا﴾: بدل من ﴿أَسْبَاطًا﴾، ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، معطوف على قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾، ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أوحينا﴾ ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، ﴿اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾: فعل

ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة إذ إليها تقديره: وقت استسقاء قومه إياه، والظرف متعلق بـ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾.

﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۚ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ﴾.

﴿أَنِ﴾: مفسرة بمعنى أي التفسيرية، أو مصدرية، ﴿ٱضْرِب﴾: فعل أمر مبني على السكون أو في محل النصب بـ﴿أَنِ﴾ المصدرية مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على ﴿مُوسَىٰٓ﴾، ﴿بِّعَصَاكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱضْرِب﴾. ﴿ٱلْحَجَرَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾ لا محل لها من الإعراب، أو في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، متعلق بـ﴿أَوْحَيْنَا﴾ تقديره: وأوحينا إلى موسى بالضرب بعصاه الحجر، ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فضربه فانبجست، ﴿انبجست﴾: فعل ماض، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به، ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ﴾: عدد مركب معرب الصدر مبني العجز، ﴿ٱثْنَتَا﴾: فاعل مرفوع بالفعل، وعلامة رفعه الألف، ﴿عَشْرَةَ﴾: جزء فاعل مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمنه معنى حرف العطف، وإنَّما حرك ليعلم أنَّ له أصلا في الإعراب، وكانت الحركة فتحة للخفة مع ثقل التركيب، ﴿عَيْنًا﴾: منصوب على التمييز، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: مفعول به؛ لأنَّ علم بمعنى عرف والجملة مستأنفة ﴿وَظَلَّلْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق به ﴿ٱلْغَمَٰمَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَوْحَيْنَا﴾. ﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على ﴿أَوْحَيْنَا﴾، ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْمَنَّ﴾: مفعول به ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: معطوف عليه.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿كُلُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كُلُوا۟﴾. ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو

صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما رزقناكموه، وجملة ﴿كُلُواْ﴾ مقول لقول محذوف معطوف على ﴿أنزلنا﴾ تقديره: وأنزلنا عليهم المن والسلوى وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: فظلموا وكفروا بتلك النعم، ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾: في محل النصب خبر كان، وجملة كان من اسمها وخبرها جملة استدراكية معطوفة على الجملة التي قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ السكوت[1] في اللغة: ترك الكلام، نسب إلى الغضب على تصويره بصورة شخص ذي قوة ورياسة، يأمر وينهى، فيطاع. قال في «الكشاف»: هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء. اهـ.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾؛ أي: فيما نسخ وكتب منها، من النسخ كالخطبة من الخطاب، فهي فعلة بمعنى مفعول؛ أي: منسوخها؛ أي: مكتوبها، فالنسخ يطلق على الكتابة كما يطلق على النقل والتغيير والإضافة على معنى في؛ أي: المنسوخ والمكتوب فيها. وفي «الخازن» ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ النسخ عبارة عن النقل والتحويل، فإذا نسخت كتاباً من كتاب حرفاً بحرف.. فقد نسخت هذا الكتاب، فهو نقلك ما في الأصل إلى الفرع، فعلى هذا قيل: أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: أراد بها النسخة المكتتبة من الألواح التي أخذها موسى بعدما تكسرت. انتهى.

﴿هُدًى﴾، أي: بيان للحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالإرشاد إلى ما فيه الخير والإصلاح

---

(١) المراغي.

﴿يَرْهَبُونَ﴾ والرهبة أشد الخوف ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ يقال: اختاره من الرجال وانتقاه، إذا اصطفاه من بينهم، اختار[1] افتعل من الخير، وهو التخير والانتقاء، واختار من الأفعال التي تعدت إلى اثنين، أحدهما بنفسه والآخر بواسطة حرف الجر، وهي مقصورة على السماع، وهي اختار واستغفر وأمر وكنى ودعا وزوج وصدق، ثم يحذف حرف الجر ويتعدى إليه الفعل فيقال: اخترت زيداً من الرجال، واخترت زيداً الرجال، قال الشاعر:

ٱخْتَرْتُكَ ٱلنَّاسَ إِذْ رَثَّتْ خَلَائِقُهُم ... وَٱعْتَلَّ مَنْ كَانَ يُرْجَىٰ عِنْدَهُ ٱلسُّوْلُ

أي: اخترتك من الناس. ﴿وٱلرَّجْفَةُ﴾ الصاعقة ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ والفتنة الاختبار والامتحان مطلقاً، أو بالأمور الشاقة ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ الولي المتولي أمور غيره القائم عليها ﴿والحسنة﴾ في الدنيا هي العافية وبسطة الرزق، وعز الاستقلال، والملك و﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ دخول الجنة، ونيل الرضوان ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ من هاد يهود، كقال يقول، إذا تاب ورجع إلى الحق، فهو هائد، وقوم هود، وأصل[2] الهود: الرجوع برفق، وبه سميت اليهود، وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم، وبعده صار اسم ذم، وهو لازم لهم.

﴿ٱلنَّبِيَّ﴾[3] من النبأ، وهو الخبر المهم العظيم الشأن، وفي لسان الشرع من أوحى الله إليه وأنبأه بما لم يكن يعلم، بكسبه من خبر أو حكم به، يعلم علماً ضرورياً أنَّه من الله عز وجل ﴿والرسول﴾ نبي أمره الله تعالى بتبليغ شرع ودعوة دين، وبإقامته والعمل به، ولا يشترط أنْ يكون كتاباً يقرأ وينشر، ولا شرعاً جديداً يعمل به ويحكم بين الناس، بل يكون تابعاً لشرع غيره كله، كالرسل من بني إسرائيل الذين كانوا يتبعون التوراة عملاً وحكماً ﴿والأمي﴾ الذي لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم، وأهل الكتاب يلقبون العرب: بالأميين، كما حكى الله عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ ﴿والمعروف﴾ ما تعرف العقول السليمة حسنه لموافقته للفطرة والمصلحة، بحيث لا تستطيع أن ترده أو

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

تعترض عليه إذا ورد به الشرع ﴿والمنكر﴾: ما تنكره القلوب وتأباه على الوجه المذكور و﴿الطيب﴾ ما تستطيبه الأذواق من الأطعمة، وتستفيد منه التغذية النافعة ﴿والخبيث﴾ من الأطعمة ما تمجه الطباع السليمة، كالميتة والدم المسفوح، أو تصد عنه العقول الراجحة، لضرره في البدن، كالخنزير الذي تتولد من أكله الدودة الوحيدة، أو لضرره في الدين، كالذي يذبح للتقرب به إلى غير الله تعالى على سبيل العبادة ﴿والخبيث﴾ من الأموال ما يؤخذ بغير حق، كالربا والرشوة والغلول والسرقة والغصب، ونحو ذلك ﴿والإصر﴾ الثقل الذي يأصر صاحبه؛ أي: يحبسه من الحركة لثقله ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ واحدها غل - بالضم - وهي الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، ويقال لها: جامعة، وفي «المصباح» الغل - بضم الغين - طوق من حديد يجعل في العنق اهـ.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾؛ أي: عظموه، والتعزير: الإعانة والنصرة حتى لا يقوى عليه عدو، وتعزير الشيء تعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾؛ أي: على أعدائه، فهو معطوف على عزروه عطف لازم على ملزوم، ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾[1]؛ أي: صيرناهم قطعاً وفرقاً، كل فرقة منها سبط، والسبط ولد الولد مطلقاً، وقد يختص بولد البنت، وأسباط بني إسرائيل سلائل أولاده العشرة؛ أي: ما عدا لاوى، وسلائل ولدي ابنه يوسف وهما: افرايم ومنسى، إذ سلائل لاوى نيطت بها خدمة الدين في جميع الأسباط، ولم تجعل سبطاً مستقلاً ﴿والأمة﴾ الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة خاصة، أو مصلحة واحدة، أو نظام واحد ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ والاستسقاء طلب الماء للسقيا ﴿وانبجست﴾ والانبجاس والانفجار واحد، يقال: بجسه فانبجس وبجسه فتبجس، كما يقال: فجره؛ أي: شقه فانفجر، وقال الراغب: الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، وفي «المصباح»: بجست الماء بجساً من باب قتل فانبجس، بمعنى فجرته فانفجر. اهـ ﴿والغمام﴾ السحاب مطلقاً أو الأبيض منه أو الرقيق ﴿والمن﴾ مادة بيضاء تنزل من السماء كالطَّلِّ،

---

(١) المراغي.

حلوة الطعم، شبيهة بالعسل، وإذا جفت.. كانت كالصمغ ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ طير يشبه السماني ـ بوزن حبارى ـ لكنه أكبر منه ﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾ وأناس اسم جمع، واحده إنسان، وقيل: جمع تكسير له، وفي «المصباح» والإنسان اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والواحد والجمع، والأناس بالضم مشتق من الإنس وقد تحذف همزته تخفيفاً على غير قياس فيصير: ناس. اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ في هذا الكلام[1] مبالغة وبلاغة من حيث إنَّه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به، والمغري له عليه، حتى عبر عن سكونه بالسكوت اهـ «بيضاوي». ففي هذه الجملة استعارتان: استعارة بالكناية: حيث شبه الغضب بإنسان ناطق يغرى موسى ويقول له: قل لقومك كذا وكذا، وألق الألواح، وخذ برأس أخيك، ثم يقطع الإغراء ويترك الكلام كما مر، واستعارة تصريحية تبعية: حيث شبه سكون الغضب وخموده بانقطاع كلام المتكلم وسكوته.

ومنها: الطباق بين لفظي ﴿تُضِلُّ﴾ و﴿تهدي﴾ وبين لفظي: ﴿يُحْيِۦ﴾ و﴿يميت﴾ وبين لفظي: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين: ﴿فَٱغْفِرْ﴾ و﴿ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وبين قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ وهي ـ أعني المقابلة ـ أن يؤتى بأمرين أو أمور ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب، وهي من المحسنات البديعية.

---

(١) البيضاوي.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿للذين يتقون﴾؛ فإنَّ فيه تعريضاً بقومه كأنَّه قيل: لا لقومك لأنهم غير متقين.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ فإنَّ فيه التفاتاً من التكلم إلى الغيبة؛ لأنَّ الاسم الظاهر من قبيل الغيبة، لما في الالتفات من البلاغة والنكات المقررة عندهم، كما مر في مبحث التفسير، فحق العبارة أن يقال: فآمنوا بالله وبي.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾؛ لأنَّ الغل في الأصل حديدة تجمع اليد إلى العنق وتمنعها من المد والتحرك، فشبه التكاليف الشاقة بالغل الذي هو الحديد، بجامع المنع في كل؛ لأنَّ التكاليف والتحريمات تمنع من الفعل، كما أن الغل يمنع من الفعل، وقيل: شبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق، فكما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل، فكذلك لا تمتد إلى الحرام الذي نهيت عنه، ذكره في «الفتوحات».

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾؛ لأنَّه استعار التقطيع للتفريق؛ لأنَّ التقطيع حقيقة في فصل الأجسام المتصلة بعضها عن بعض كالحبل، فاشتق منه قطعنا بمعنى فرقنا، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ
وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ
تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ۙ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا
كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟
مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ
كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ
مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ
يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ
وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢) أَوْ
تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ...﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ لا يزال الكلام في قصة بني إسرائيل فالمناسبة ظاهرة؛ لأنَّ السابقة واللاحق كله في قصة واحدة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى[1] لما ذكر هدايته للبشر بإرسال الرسل، وإنزال الكتب في قصة بني إسرائيل.. قفَّى على ذلك بذكر هدايته إياهم بما أودع في فطرتهم، وركب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به، وتوحيده وشكره منذ النشأة الأولى، فهو سبحانه بعد أنْ أظهر تمادي هؤلاء اليهود في الغي بعد أخذ الميثاق الخاص الذي دل عليه قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وذكر هنا أنَّهم نقضوا أيضاً الميثاق العام الذي أخذه على بني آدم جميعاً ـ وهم في صلب آدم ـ واشركوا بالله وقالوا: عزير ابن الله.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ...﴾ الآية، ذكر[2] في سبب نزولها أنَّ بعض اليهود المعاصرين للرسول ﷺ قالوا له: لم يكن من بني إسرائيل عصيان ولا معاندة لما أمروا به، فنزلت هذه الآية موبخة لهم، ومقررة كذبهم، ومعلمة ما جرى على أسلافهم من الإهلاك والمسخ، وكانت اليهود تكتم هذه القصة، فهي من ما لا يعلم إلا بكتاب أو وحي، فإذا أعلمهم بها من لم يقرأ كتابهم.. علم أنَّه من جهة الوحي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء اليهود المعاصرين لك، المنكرين عصيان أسلافهم ومعاندتهم لأمر الله تعالى قصة إذ قيل لهم؛ أي: لأسلافهم ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: قرية الجبارين، قوم من بقية عاد ـ رئيسهم عوج بن عنق ـ أي: قصة إذ قال الله تعالى لهم على لسان موسى: إذا خرجتم من التيه.. أسكنوا بيت المقدس، أو قال لهم على لسان يوشع بعد خروجهم من التيه: اسكنوا أريحاء ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾؛ أي: من ثمار القرية

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وزروعها وحبوبها وبقولها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾؛ أي: من أي مكان شئتم من نواحيها، وفي أي وقت شئتم من غير أنْ يزاحمكم فيها أحد ﴿وَقُولُواْ﴾ وقت دخولها: مسألتنا ومطلبنا منك يا إلهنا ﴿حطة﴾؛ أي: حط ذنوبنا وامحوها بعفوك عنا ﴿وَادْخُلُواْ الْبَابَ﴾؛ أي: باب القرية، وقيل: باب القبة التي كانوا يصلون إليها ﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: حالة كونكم ساجدين سجود انحناء لا سجوداً شرعياً بوضع الجبهة على الأرض، بل المراد اللغوي، وهو الانحناء بأن يكونوا على هيئة الراكعين، شكراً على إخراجهم من التيه ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ﴾ وذنوبكم التي سلفت منكم، إن فعلتم ذلك المذكور الذي أمرتم به من القول والسجود.

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي والحسن والأعمش[1]: ﴿نغفر﴾ بالنون ﴿لكم خطيئاتكم﴾ جمع سلامة بالتاء مهموزاً، إلا أنّ الحسن خفف الهمزة وادغم الياء فيها، وقرأ أبو عمرو: ﴿نغفر﴾ بالنون ﴿لكم خطاياكم﴾ على وزن قضاياكم جمع تكسير، وقرأ نافع ومحبوب عن أبي عمرو: ﴿تغفر﴾ بالتاء مبنياً للمفعول ﴿لكم خطيئاتكم﴾ بجمع سلامة، وقرأ ابن عامر: ﴿تغفر﴾ بتاء مضمومة مبنياً للمفعول ﴿لكم خطيئتكم﴾ بالإفراد مهموزاً، وقرأ ابن هرمز ﴿تغفر﴾ بتاء مفتوحة على معنى إن الحطة تغفر، إذ هي سبب الغفران، وقرىء[2]: ﴿يغفر﴾ بالياء، فعلى هذا لا يقرأ ﴿خطايا﴾ بالإفراد.

﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة والامتثال لأمرنا ثواباً في حسناتهم، وقيل المعنى: من كان محسناً منكم.. كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً.. كانت له توبة ومغفرة كما مر في البقرة، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم ﴿مِنْهُمْ﴾ وهم أصحاب الخطيئة؛ أي: غيروا تلك الكلمة التي أمروا بها للتوبة وقالوا: ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: قالوا حنطة بدل حطة، وكذلك بدلوا الفعل الذي أمروا به من دخولهم سجداً فدخلوا زحفاً، فالحاصل أنَّهم دخلوا الباب زاحفين على أدبارهم، قائلين حنطة على شعيرة، استخفافاً بأمر الله

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

تعالى واستهزاء بموسى، وهذا القول مجرد هذيان منهم، قصدهم إغاظة موسى، وليس له معنى يقابلون به معنى القول الذي قيل لهم. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ عقب ما فعلوا من غير تأخير ﴿رِجْزًا﴾؛ أي: عذاباً كائناً. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: طاعوناً وبلاء وعذاباً مقدراً من السماء. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أنفسهم؛ لأنَّهم خرجوا عن طاعة الله تعالى؛ أي: بسبب ظلمهم وخروجهم عن طاعتنا، روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً أو أقل، فهذا الوباء غير الوباء الذي حل بهم في التيه كما مر في البقرة.

تنبيه: تقدم[1] مثل هاتين الآيتين في سورة البقرة، غير أن بين الموضعين فروقاً كثيرة:

منها: أنَّه قال هنا: ﴿أسكنوا القرية﴾ وفي سورة البقرة ﴿أدخلوا﴾ والفائدة هنا أتم؛ لأنَّ السكنى تستلزم الدخول دون العكس.

ومنها: أنَّه قال هنا: ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، وفي سورة البقرة ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، فجاء العطف هناك بالفاء؛ لأنَّ بدء الأكل يكون عقب الدخول، كأكل الثمرات والفواكه التي تكون في كل ناحية من القرية، أما السكنى فأمر ممتد يكون الأكل في أثنائه لا عقبه.

كما وصف هناك الأكل بالرغد ـ وهو الواسع الهنيء ـ لأنَّ الأكل في أول الدخول يكون ألذ، وبعد السكنى والإقامة لا يكون كذلك.

ومنها: أنَّه قال هنا: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ وقدم هنا ما أخر هناك، وأخر ما قدمه، والواو لا تدل على طلب ترتيب بين الأمرين، فالاختلاف في التعبير دال على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذاك، وبين عكسه، إذ لا فارق بين أنْ يدعوا بقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: حط عنا أوزارنا وخطايانا الذي هو بمعنى قولنا: اللهم غفراناً، في حال التلبس بالتواضع والخضوع، وتنكيس الرؤوس شكراً لله على نعمه عند دخول القرية، وبين أن يبدؤوا بتنكيس الرؤوس

(١) المراغي.

والخضوع والتواضع، ثم يدعوا بقوله: ﴿حِطَّةٌ﴾.

ومنها: أنَّه قال هنا ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بدون واو وهناك ﴿وسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالعطف، والمعنى واحد، وترك الواو أدل على أن الزيادة تفضل من الله سبحانه وتعالى ليست مشاركة للمغفرة فيما جعل سبباً لها من الخضوع والسجود والاستغفار، والدعاء بحط الأوزار.

ومنها: أنَّه قال ههنا: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فزيد منهم على مثله في سورة البقرة.

ومعنى تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم: أنهم عصوا بالقول والفعل، وخالفوا الأمر مخالفةً تامةً لا تحتمل اجتهاداً ولا تأويلاً، فلم يراعوا ظاهر مدلول اللفظ، ولا الفحوى والمقصود منه، حتى كأن المطلوب منه غير الذي قيل لهم.

وما روي في الإسرائيليات من هذا التبديل من الألفاظ العبرانية أو العربية، فلا ثقة به، وإنْ خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفاً ومرفوعاً، كحديث أبي هريرة في «الصحيحين» وغيرهما: قيل لبني إسرائيل: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: ﴿حِطَّةٌ﴾ حبة في شعيرة، إذ هو مروي من طريق همام بن منبه ـ أخي وهب ـ وهمام، صاحب الغرائب في الإسرائيليات، وأبو هريرة لم يصرح بسماعه من النبي ﷺ، فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار، إذ ثبت أنَّه روي عنه.

ومنها: أنَّه قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ وقال هناك ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، فالاختلاف بين الإنزال والإرسال، وهو خلاف لفظي، وبين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وبين ﴿يَظْلِمُونَ﴾ و﴿يَفْسُقُونَ﴾، وفائدته بيان أنَّهم كانوا يجمعون بين الظلم: الذي هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو للغير، والفسق: الذي هو الخروج عن الطاعة، والرجز كما تقدم العذاب الذي تضطرب له القلوب، أو يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم.

والعبرة في هذه القصص[1]: أن نعلم أنَّ الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل أن يعذبها في الآخرة، وأنَّ نبتعد بقدر الطاقة عن الظلم والفسق، فقد عاقب الله بني إسرائيل بظلمهم، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من فضائل ومزايا، ككثرة الأنبياء فيهم، وتفضيلهم على العالمين كما تقدم.

وقوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾[2] معطوف على عامل إذ المقدر؛ أي: واذكر لهم يا محمد إذ قيل لهم ﴿واسألهم﴾ وهذا سؤال توبيخ وتقريع؛ أي: اسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها، المخالف لما أمرهم الله به وقرىء ﴿وسلهم﴾.

وقد ذكرت[3] هذه القصة في سورة البقرة إجمالاً، وههنا ذكرت تفصيلاً، إذ كانت سورة الأعراف نزلت بمكة في أوائل الإسلام، ولم يكن النبي ﷺ لقي أحداً من اليهود، وقد كان أمياً لا يقرأ كتاباً كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فكان ذلك أدل على الإعجاز.

والخطاب فيه للنبي ﷺ، والسؤال للتقرير المتضمن للتقريع والتوبيخ، وبيان أن كفر أهل الكتاب بمحمد ﷺ وبمعجزاته ليس بدعاً جديداً منهم، فإنَّ أسلافهم أقدموا على هذا الذنب القبيح، والمعصية الفاحشة، واعتدوا هذا الاعتداء الشائن الذي قص خبره.

والمعنى: واسأل يا محمد اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع عن خبر أهل المدينة التي كانت قريبة من بحر القلزم ـ وهي أيلة قرية بين مدين والطور ـ وقيل: هي قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا، وتقدم لك في أسباب النزول: أن اليهود قالوا: لم يصدر من بني إسرائيل عصيانٌ ولا مخالفة للرب، فأمره الله

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

تعالى أن يسألهم عن حال أهل هذه القرية في زمن داود عليه السلام تقريعاً فإنَّهم يعتقدون أنَّه لا يعلمه أحد غيرهم، فذكر الله لهم قصة أهل تلك المدينة، فبهتوا وظهر كذبهم، والظرف في قوله ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ متعلق بمضاف محذوف تقديره: واسألهم عن حال القرية إذ يتجاوزون حدود الله بصيد السمك في يوم السبت المأمورين بتركه فيه، وذلك أن اليهود أمرهم الله تعالى باتخاذ يوم الجمعة عيداً يعظمونه كما نعظمه، فأبوا واختاروا يوم السبت، فشدد الله عليهم ونهاهم عن الصيد فيه، وفيما اختاروه إشارة إلى انقطاعهم عن الخير إذ السبت في اللغة: القطع، فاختاروا ما فيه قطيعتهم، وقرىء[1]: ﴿يعدون﴾ من الإعداد للآلة، وكانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت، وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة، وقرأ شهر بن حوشب، وأبو نهيك ﴿يعدون﴾ ـ بفتح العين وتشديد الدال ـ وأصله يعتدون، فأدغمت التاء في الدال، كقراءة من قرأ: ﴿لا تعدوا في السبت﴾ وقرأ الجمهور ﴿يَعْدُونَ﴾ بفتح الياء وسكون العين، وضم الدال مخففة، وقرأ[2] ابن السميفع في: ﴿الأسبات﴾ على الجمع.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ متعلق بـ﴿يعدون﴾؛ أي: يتجاوزون حدود الله وينتهكون حرماتها باصطياد السمك، إذ تأتيهم الحيتان والأسماك يوم سبتهم؛ أي: يوم تعظيمهم لأمر السبت بالتجرد والتفرغ للعبادة، وقرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿يوم أسباتهم﴾، قال أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامع»: وقد ذكرت هذه القراءة عن عمر بن عبد العزيز، وهو مصدر من أسبت الرجل إذا دخل في السبت، وقوله: شرعاً، حال من فاعل ﴿تَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: إذ تأتيهم الحيتان حالة كونها شرعاً؛ أي: ظاهرة على وجه الماء، قريبة من الساحل، ينظرون إليها ابتلاء من الله واختباراً لهم، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل، كما قال: ﴿ويوم لا يسبتون﴾؛ أي: لا يدخلون في السبت ولا يراعون حرمتها، وهو سائر الأيام ﴿لا تأتيهم﴾ كما كانت تأتيهم يوم سبتهم؛ أي: لا تظهر على ظاهر الماء، ولا تقرب إلى

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

الساحل، حذراً من اصطيادهم لاعتيادها أحوالهم، قيل: إنَّها اعتادت أنْ لا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت، فأمنت وصارت تظهر فيه، وتختفي في الأيام التي لا يسبتون فيها، لما اعتادت من اصطيادها فيها، فلما رأوا ظهورها وكثرتها يوم السبت.. أغراهم ذلك بالاحتيال على صيدها فيه.

وقرأ عيسى بن عمر وعاصم بخلاف عنه ﴿لا يسبُتون﴾ بضم كسرة الباء في قراءة الجمهور، وقرأ علي والحسن وعاصم بخلاف عنه ﴿يُسبِتون﴾ بضم ياء المضارعة، من أسبت إذا دخل في السبت، قال الزمخشري: وعن الحسن ﴿لا يُسبَتون﴾ بضم الياء على البناء للمفعول؛ أي: لا يدار عليهم السبت، ولا يؤمرون بأن يسبتوا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا البلاء والاختبار بظهور السمك يوم السبت ﴿نَبْلُوهُم﴾؛ أي: نبتليهم ونختبرهم، ونعاملهم معاملة المختبر لحال من يراد إظهار حاله، ليترتب الجزاء على عمله ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب فسقهم المستمر، وخروجهم عن أمر ربهم، واعتدائهم حدود شرعه، وقد جرت سنة الله تعالى بأن من أطاعه.. سهل له أمور الدنيا، وأجزل له الثواب في الآخرة، ومن عصاه.. ابتلاه بأنواع المحن والبلاء.

والظرف في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ معمول لعامله داخل في حكمه؛ أي: واسألهم يا محمد عن حال أهل تلك القرية، حين قالت جماعة منهم؛ ـ أي: من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والمشقة في موعظة أولئك الصيادين، حتى أيسوا من قبولهم الموعظة ـ لأقوام آخرين من الصلحاء الذين لم يقلعوا عن وعظ الصيادين، ولم يتركوه رجاء للنفع، وطمعاً في فائدة الإنذار؛ أي: قال الآيسون من الوعظ للمستمرين فيه: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾؛ أي: لم تستمرون في وعظ قوم ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؛ أي: مخزيهم في الدنيا بعذاب الاستئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ موجعاً لعدم إقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والاصطياد.

وفي ذلك[1] دلالة على أن الذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية لا جميعهم، وإنَّ أهلها كانوا فرقاً ثلاثاً:

فرقة العادين في السبت التي أشير إليها في الآية الأولى.

وفرقة الواعظين لهؤلاء العادين، لينتهوا عن عدوانهم ويكفوا عنه.

وفرقة اللائمين للواعظين التي قالت لهم: لم تعظون قوماً قضى الله عليهم بالهلاك بالاستئصال، أو بعذاب شديد دون الاستئصال، أو المراد: مهلكهم في الدنيا، ومعذبهم في الآخرة، والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال الواعظون للائمين لهم: نعظهم ﴿مَعْذِرَةً﴾؛ أي: موعظة اعتذار نعتذر بها ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ عن السكوت على المنكر، فإذا طولبنا بإقامة فريضة النهي عن المنكر.. قلنا قد فعلنا، فنكون بذلك معذورين ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: ورجاء لأن يتقوا بعض التقاة، ويتركوا الصيد في السبت، فهو معطوف على معنى معذرة؛ أي: وعظناهم للاعتذار إلى ربكم، ولرجاء أن ينتفعوا بالموعظة، فيحملهم ذلك على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه، إذ نحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق كما أنتم منهم يائسون، وقرأ الجمهور[2]: ﴿مَعْذِرَةٌ﴾ بالرفع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: موعظتنا معذرة؛ أي: موعظتنا إقامة عذر إلى الله، ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التقصير، ولطمعنا في أنْ يتقوا المعاصي، وقرأ حفص عن عاصم وزيد بن علي وعيسى بن عمر وطلحة بن مصرف ﴿مَعْذِرَةً﴾ ـ بالنصب ـ على أنَّه مفعول لأجله؛ أي: وعظناهم لأجل المعذرة، وللرجاء في اتقائهم المعاصي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: فلما ترك العادون ما وعظوا به، وأعرضوا عنه، حتى صار كالمنسي عنه، بحيث لا يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ أصلاً، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾؛ أي: عن العمل السيء الذي هو أخذ الحيتان في يوم السبت، وهم الفريقان الآخران ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أنفسهم بأخذ

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

الحيتان يوم السبت؛ أي: أهلكناهم ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾؛ أي: بعذاب شديد موجع ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب تماديهم في الفسق، حتى صار ديدنهم وهجيرهم؛ أي: أخذناهم بالعذاب بسبب الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة، وهو الظلم، فالباءان متعلقتان بـ ﴿أخذنا﴾؛ لأنَّ الأولى للتعدية، والثانية للسببية، فلا اعتراض.

والخلاصة[1]: أنه لما ذكَّر المذكِّرون ولم يتذكر المعتدون.. أنجينا الأولين وأخذنا الآخرين، وقد جرت سنة الله بأن لا يؤخذ الظالم في الدنيا بكل ما يقع منه من ظلم، كما يدل على ذلك قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾، وقوله: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، ولكنه يؤاخذ الأمم والشعوب في الدنيا قبل الآخرة بما يقع منها من ظلم يظهر أثره بالاستمرار عليه كما قال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، كما عاقب الله بني إسرائيل كافة بتنكيل البابليين، ثم النصارى بهم، وسلبهم ملكهم حين عم فسقهم، ولم يدفع ذلك عنهم وجود بعض الصالحين فيهم.

وبالجملة: فالآية صريحة في هلاك الظالمين الفاسقين، ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السوء وارتكاب المنكر، وسكت عن الفرقة التي أنكرت على الواعظين وعظهم وإنكارهم، وهي ناجية أيضاً؛ لأنَّها كانت منكرة للمنكر مستقبحة له، بدليل أنَّها لم تفعله، وإنَّما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهي، واعتقادها أنَّ القوم قد استحقوا عقاب الله تعالى بإصرارهم على الفسق، فلا يفيدهم الوعظ، وهذا رأي ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿بئيس﴾ على وزن فعيل، كرئيس، فالهمزة بين الباء والياء، وقرأ نافع: ﴿بيس﴾ بكسر الباء من غير همز، وقرأ ابن عامر كذلك، إلا أنَّه همز، وروى خارجة عن نافع: ﴿بيس﴾ ـ بفتح الباء ـ من غير همز ـ على وزن فعل ـ، وروى أبو بكر عن

---

(١) المراغي.

عاصم: ﴿بيأس﴾ على وزن فيعل كضيغم، وقرأ ابن عباس وأبو رزين وأيوب: ﴿بيآس﴾ على وزن فيعال، وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي ومعاذ القارىء: ﴿بئس﴾ بفتح الباء وكسر الهمزة، من غير ياء على وزن تعس، وقرأ الضحاك وعكرمة: ﴿بيس﴾ بتشديد الياء، مثل قيم، وقرأ أبو العالية وأبو مجلز: ﴿بئِس﴾ بفتح الباء والسين وبهمزة مكسورة، من غير باء ولا ألف، على وزن فعل، وقرأ أبو المتوكل وأبو رجاء ﴿بَآئِس﴾ بألفٍ ومدَّةٍ بعد الباء، وبهمزة مكسورة بوزن فاعل.

﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ﴾ وأبوا أن ينكفوا ويقلعوا ﴿عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ من الاصطياد؛ أي: فلما تمرَّدُوا وتكبروا، وأبو أن يتركوا ما نهاهم عنه الواعظون ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ﴾؛ أي: لأولئك العادين باصطياد السمك ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾؛ أي: صاغرين أذلاء بعداء عن الناس؛ أي: تعلقت إرادتنا بأن يكونوا كذلك، فكانوها صورةً ومعنى.

وهذا الجزاء تفصيل للعذاب البئيس الذي ذكر في الآية السالفة، وقيل: إنَّه عذاب آخر، فقد عاقبهم أوّلاً بالبؤس والشقاء في المعيشة، إذ من الناس من لا يربيه ولا يهذبه إلا الشدة والبؤس، ولما لم يزدهم البؤس إلا عتوا وإصراراً على الفسق والظلم.. مسخهم مسخ خَلْق وجسم، فكانوا قردةً على الحقيقة، وهذا ما يراه جمهرة العلماء، أو مسخ خُلُق ونَفْس، فكانوا كالقردة في الطيش والشر والإفساد لما تصل إليه أيديهم، وهذا رأي مجاهد قال: مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق.

وفي الآية إيماء إلى أنَّ هذا المسخ كان لمخالفتهم الأوامر وتماديهم في العصيان، ولم يكن لاصطياد الحيتان فحسب.

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد قصة إذ أعلم ربك أسلاف اليهود على ألسنة أنبيائهم، إن لم يؤمنوا بأنبيائهم وعزني وجلالي ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: ليسلطن عليهم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ﴾؛ أي: من يذيقهم ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ أي: أشد العذاب؛ أي: من يقاتلهم إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية، وهو محمد ﷺ وأمته، والظرف في قوله: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ﴾ منصوب على المفعولية بمقدر معطوف على ﴿وأسألهم﴾ والتقدير: واذكر يا محمد لليهود وقت أن تأذن ربك؛

أي أعلم أسلافهم، والمعنى: واذكر أيها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم مرة إثر أخرى أنَّه قضى عليهم في علمه، وفقاً لما قامت عليه نظم الاجتماع، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يوقع بهم العذاب الشديد على ظلمهم وفسقهم وفسادهم في الأرض، والآية بمعنى قوله في سورة الإسراء ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾؛ أي: وإنْ عدتم بعد عقاب المرة الآخرة إلى الإفساد.. عدنا إلى التعذيب والإذلال، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى، فسلبوا ملكهم الذي أقاموه بعد أن نجوا من سبى البابليين، وقهرهم واستذلالهم، إلى أن جاء الإسلام فعاداه منهم الذين هربوا من الذل والنكال، ولجؤوا إلى بلاد العرب، فعاشوا فيها آمنين أعزاء، لكنهم نكثوا العهد الذي أعطوه للنبي ﷺ، وبه أمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم، فنصروا المشركين عليه، فسلطه الله عليهم، فقاتلهم ونصره عليهم، فأجلى بعضهم، وقتل بعضاً، وأجلى عمر البقية الباقية منهم إلى سورية، ولما فتحها.. انتقل اليهود من حكم الروم الجائر إلى سلطة الإسلام العادلة، ولكنهم فقدوا الملك والاستقلال في جميع الحالات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه إذا جاء وقته، فيعاقبهم في الدنيا، أما قبل مجيء وقت العذاب فهو شديد الحلم.. والمعنى: أي إن ربك سريع العقاب للأمم التي تفسق عن أمره، وتفسد في الأرض، فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد، يؤيد هذا قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: وإذا أردنا هلاك قرية من القرى.. أمرنا سادتها وكبرائها بالحق والعدل والرحمة، فعصوا أمر ربهم وأفسدوا وظلموا في الأرض، فحق عليهم القول بمقتضى سنته في خلقه، فحل بهم الهلاك، وحاق بهم النكال جزاء بما كانوا يعملون. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب من الكفر واليهودية ودخل في دين الإسلام.

والمعنىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أقلع عن ذنبه وأناب إليه، وأصلح ما كان قد أفسد في الأرض، قبل أن يحل به عذابه، والآية بمعنى قوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ

﴿لِمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾ وقلما ذكر عذاب الفاسقين إلا قرنه بذكر الرحمة والمغفرة للمحسنين، حتى لا ييأس صالح مصلح من رحمة ربه بذنب عمله بجهالة، ولا يأمن مفسد من عقابه اغتراراً بعفوه وكرمه، وهو مُصِرّ على ذنبه، وقد فصل سبحانه عقابهم، فذكر بدء إذلالهم بإزالة وحدتهم، وتمزيق جامعتهم، فقال: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾؛ أي: وفرقنا بني إسرائيل الذين قبل النبي ﷺ في نواحي الأرض وأقطارها حالة كونهم فرقاً كثيرة، وأمماً؛ أي: جماعات مشتتة، فيها كل فرقة منهم في قطر من أقطارها، فلا يخلو منهم قطر، وليس لهم شوكة ولا دولة.. ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ كالذين نهوا من اعتدوا في السبت عن ظلمهم، والذين كانوا يؤمنون بالأنبياء من بعد موسى، والذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾ أناس ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ المذكورين في الصلاح لم يبلغوا مبلغهم، وهم سائر المؤمنين من بني إسرائيل، ومنهم الغلاة في الكفر والفسق، كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق، ومنهم السماعون للكذب، الأكالون للسحت والرشا، لتبديل الأحكام، والقضاء بغير ما أنزل الله تعالى، كما هو شأن الأمم؛ فإنَّها تفسد تدريجاً لا دفعة واحدة، كما نشاهد ذلك في المسلمين الذين تتبعوا نظم النصارى، ورضعوا البانهم، وقيل معنى ﴿وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾؛ أي: ومنهم أناس غير أولئك الصالحين، وهم الذين كفروا من بني إسرائيل وبدلوا وغيروا ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾؛ أي: واختبرناهم ﴿بِٱلۡحَسَنَٰتِ﴾؛ أي: بالنعم والخصب والعافية ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: بالجدوبة والشدائد ﴿لعلهم يرجعون﴾؛ أي: لكي يرجعوا عن معصيتهم إلى طاعة ربهم؛ فإن كلا من الحسنات والسيئات يدعو إلى الطاعة بالترغيب والترهيب، والمعنى: واختبرنا بني إسرائيل وامتحنا استعدادهم بالنعم التي تحسن في عيونهم، وتقر بها أفئدتهم، وبالنقم التي تسؤهم - وإنْ كانت قد تحسن بالصبر عاقبتها لديهم - رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم، وينيبوا إلى ربهم، فيعود إليهم فضله ورحمته.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾؛ أي: جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم بدل سوء ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: أخذوا التوراة من أسلافهم يقرؤونها ولا يعملون بها وقرأ الحسن: ﴿وُرِّثوا﴾ بضم الواو وتشديد الراء، حالة كونهم ﴿يَأۡخُذُونَ﴾ من

سفلتهم ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: متاع الدنيا على تحريف الكلام في صفة محمد ﷺ، وفي الأحكام، وهم يستحقرون ذلك الذنب ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ أي: يغفر الله لنا ذنبنا ولا يؤاخذنا عليه؛ لأننا أبناؤه وأحباؤه، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ﴾؛ أي: وإنْ يأتهم متاع مثل ما أتاهم أمس ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ لحرصهم على الدنيا، أو المعنى: إنَّهم يتمنون المغفرة من الله تعالى، والحال أنَّهم مصرون على الذنب غير تائبين عنه.

وحاصل المعنى: أي نبتت من أولئك ـ الذين منهم الصالح والطالح ـ نابتة ورثوا التوراة؛ أي: وقفوا على ما فيها، وكانوا عالمين بأحكامها بعد أسلافهم، والحال أنَّهم يؤثرون حطام الدنيا ومتاعها، بما يأكلونه من السحت والرشا، والاتجار بالدين والمحاباة في الحكم، ويقولون: سيغفر لنا ولا يؤاخذنا بما فعلنا، فإنَّنا أبناء الله وأحباؤه، وسلائل أبنائه وشعبه الذي اصطفاه من سائر البشر، إلى نحو ذلك من الأماني والأضاليل، وهم بالغون في خطاياهم، مصرون على ذنوبهم، فإن يأتهم عرض آخر مثل الذي أخذوه أولاً بالباطل.. يأخذوه ولا يستعففوا عنه، وهم يعلمون أن الله إنما وعد بالمغفرة للتائبين الذين يقلعون عن ذنبهم، ندماً وخوفاً من ربهم، ويصلحون ما كانوا قد أفسدوا، ثم رد الله عليهم ما زعموه بقولهم: سيغفر لنا، وهم مقيمون على ظلمهم وفسادهم وحبهم للدنيا فقال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والاستفهام فيه لتقرير ما بعد النفي، ولا يخفى ما فيه من التقريع والتوبيخ؛ أي: ألم يؤخذ ويجعل عليهم في التوراة العهد المؤكد باليمين على ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾؛ والصدق الذي بينه فيه، وقد منعوا فيها من تحريف الكتاب وتغيير الشرائع لأجل أخذ الرشوة. وللتمني، ففيه افتراء على الله تعالى، ففيها أن من ارتكب ذنباً عظيماً فإنَّه لا يغفر له إلا بالتوبة، ﴿و﴾ قد ﴿درسوا ما فيه﴾؛ أي: ما في الكتاب وقرؤوه وعلموا ما فيه، والمعنى: أنَّهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب، والحال أنَّهم قد درسوا ما في الكتاب وعلموه، فكان الشرك منهم عن علم لا عن جهل، والمقصود من الاستفهام التقريري: إثبات ما بعد النفي، والمعنى: قد أخذ عليهم الميثاق في الكتاب، ودرسوا ما فيه من الميثاق، وفهموا ما فيه، فهم ذاكرون لما أخذ عليهم من تحريم أكل أموال الناس بالباطل، والكذب على الله تعالى، وقيل: معنى

﴿درسوا ما فيه﴾؛ أي: محوه بترك العمل به والفهم له، من قولهم: درست الريح الآثار، إذا محتها، ولكن فيه بعد، وقرأ علي والسلمي: ﴿وادارسوا﴾، وأصله وتدارسوا، كقوله: ﴿فادارأتم﴾؛ أي: تدارأتم ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأَخِرَةُ﴾؛ أي: ولثواب دار الآخرة ونعميها وهو الجنة ﴿خَيۡرٌ﴾ من تلك الرشوة الخبيثة الخسيسة، المعقبة خزي الدنيا والآخرة ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ﴾ عقاب الله، بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، ﴿أ﴾ تجهلون خيرية ذلك ﴿فلا تعقلون﴾؛ أي: فلا تعلمون أنَّ الدنيا فانية والآخرة باقية، وفي هذا الاستفهام من التوبيخ والتقريع ما لا يقادر قدره، أو المعنى: أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أنَّ ما في الآخرة خير وأبقى؛ لأنَّها دار المتقين.

والمعنى[١]: والدار الأخرة وما فيها من النعيم خير للذين يقتون المعاصي ما ظهر منها وما بطن؛ أي: خير لهم من حطام الدنيا الفاني، الذي يؤخذ بالرشا والسحت وغير ذلك، أتجهلون ذلك فلا تعقلون، وهو واضح لا يخفى على كل ذي عقل لم تطمسه الشهوات، ولم يعم بصيرته حطام الدنيا العاجل، وبذا يرجح الخير على الشر، والنعيم المقيم على المتاع الزائل، وفي هذا إيماء إلى أنَّ الطمع في متاع الدنيا هو الذي أفسد على بني إسرائيل أمرهم، واستحوذ عليهم حب العاجلة، فأذهب عنهم رشدهم.

وفي هذا عبرة للمسلمين الذين سرى إليهم كثير من هذا الفساد، وغلب عليهم الطمع وحب الدنيا وعرضها الزائل، وهم قد درسوا كتابهم الكريم، لكن التحلي بلقب الإسلام ـ والتعلل بأماني المغفرة مع الإصرار على الذنوب اتكالاً على الشفاعات والمكفرات ـ هو الذي غرهم وجعلهم يتمادون في غيهم، وكتابهم ينهاهم عن الأماني والأوهام، وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله تعالى لمن رضي عنه كما قال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾.

وقرأ[٢] نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب إلتفاتاً لهم، ويكون المراد إعلاماً بتناهي الغضب، وتشديد التوبيخ، أو يكون خطاباً لهذه الأمة؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط، والمراح.

أفلا تعقلون حالهم، والباقون بالياء جرياً على الغيبة في الضمائر السابقة. ﴿والذين يمسكون﴾ قرأ عمر[1] وأبو العالية وأبو بكر عن عاصم ﴿يمسكون﴾ من أمسك، والجمهور ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ مشدداً، من مسك المضعف، وهما لغتان جمع بينهما كعب بن زهير:

فَمَا تَمَسَّكُ بِٱلْعَهْدِ ٱلَّذِيْ زَعَمَتْ   إلاَّ كَمَا يُمْسِكُ ٱلْمَاءَ ٱلْغَرَابِيْلُ

وقرأ عبد الله والأعمش ﴿استمسكوا﴾ وفي حرف أبي ﴿تمسكوا﴾ بالكتاب.

أي: والذين يعملون ﴿بـ﴾ما في ﴿الكتاب﴾ الأول التوراة والإنجيل، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويبينون صفة محمد ﷺ ونعته، ولم يحرفوه ولم يغيروا، فإنَّهم بالتمسك به، كانوا أشد تمسكاً بالكتاب الثاني الذي هو القرآن ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: وداموا على إقامتها في مواقيتها، كعبد الله بن سلام وأصحابه، وإنَّما أفرد الصلاة بالذكر ـ وإن كانت داخلة في التمسك بالكتاب ـ تنبيهاً على عظم قدرها، وأنَّها من أعظم العبادات بعد الإيمان بالله ورسوله، والموصول مبتدأ والخبر قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بالعمل بما في الكتاب وبالصلاة؛ أي: لا نضيع ولا نحبط أجر أعمالهم الصالحة، وجاز جعل هذه الجملة خبراً عن الموصول؛ لأن الربط حاصل بلفظ ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ لأنَّه قائم مقام الضمير، لا سيما وهو فيه الألف واللام؛ فإنها تكفي في الربط عند الكوفيين، ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على الموصول الذي قبله، وهو قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وتكون حينئذ جملة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ جملة معترضة.

والمعنى[2]: أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب، ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه، وهم من تقدم ذكره، وطائفة يتمسكون بالكتاب؛ أي: بالتوراة ويعملون بما فيه، ويرجعون إليه في أمر دينهم، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

وحاصل معنى الآية: أي والذين يستمسكون بأوامر الكتاب، ويعتصمون بحبله في جميع شؤونهم، ويقيمون الصلاة التي هي عماد الدين وركن منه متين، كعبد الله بن سلام وأصحابه، لا نضيع أجرهم؛ لأنَّهم قد أصلحوا أعمالهم، والله لا يضيع أجر المصلحين، وهي بمعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

ثم ختم سبحانه هذه القصة مذكراً ببدء حالهم في إنزال الكتاب عليهم، عقب بيان مخالفتهم لأمور دينهم، والخروج عنه فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لهم قصة إذ نتقنا جبل الطور وقلعناه من أصله ورفعناه ﴿فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: فوق بني إسرائيل حتى صار ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: كأن ذلك الجبل ﴿ظلة﴾ وغمامة أظلت فوقهم ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾؛ أي: أيقنوا أنَّهم إنْ خالفوا أوامر دينهم ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أنَّ ذلك الجبل ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾؛ أي: ساقط عليهم لا محالة. وذلك أنَّه أخذ عليهم الميثاق ليأخذن الشريعة بقوة وعزم، فخالفوا الميثاق، فرفع فوقهم الطور، وأوقع في قلوبهم الرعب خوف وقوعه عليهم، فخر كل واحد منهم ساجداً لربّه، وقبل العمل بالميثاق.

روي[(١)]: أنَّ بني إسرائيل أبَوَ أنْ يقبلوا التوراة، فرفع الجبل فوقهم، وقيل لهم: إنَّ قبلتم العمل بها وإلا ليقعن عليكم، فوقع كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنّا بها العقوبة حين امتثلنا ما أمرنا به.

وفي الآية تعريض بأنَّهم إذا كانت حالهم في مبدأ أمرهم مخالفة كتابهم، فلا عجب إذا آل أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الأمد، وقساوة القلوب، والأنس بالمعاصي والذنوب، وقلنا لهم في حال رفع الجبل فوقهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾؛ أي: ما أعطيناكم من الكتاب وأحكام الشريعة، واعملوا به حالة

---

(١) المراغي.

كونكم متلبسين ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجد واجتهاد وعزم على تحمل تكاليفه ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾؛ أي: واذكروا ما في الكتاب الذي أعطيناكموه من الأوامر والنواهي بالعمل به، ولا تنسوه، وقيل: واذكروا ما فيه من الثواب والعقاب، وقيل: واعملوا بما فيه من الحلال والحرام. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي تجعلوا ذلك الامتثال وقاية وستراً لكم من عذاب الله تعالى، وتزكية لنفوسكم من الأدناس؛ فإنَّ قوة العزيمة في إقامة الدين تزكي النفوس وتهذب الأخلاق، كما أنَّ التهاون فيها يدسِّيها ويغريها على اتباع الشهوات ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ أو المعنى: لكي تتقون قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق. وقرأ[١] الأعمش ﴿واذكروا﴾ بالتشديد من الأذكار. وقرأ ابن مسعود ﴿وتذكروا﴾، وقرىء ﴿وتذكروا﴾ بالتشديد بمعنى وتذكروا.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ عطف قصةٍ على قصة، والحكمة في تخصيص[٢] بني إسرائيل بهذه القصة الزيادة في إقامة الحجة عليهم، حيث أعلمهم الله بأنَّه أعلم نبيه بمبدأ العالم، فضلاً عن وقائعم؛ أي: واذكر يا محمد للناس كافة قصة إذ أخذ ربك العهد ﴿مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ على التوحيد وقال لهم: اعلموا أنه لا إله غيري، وأنا ربكم لا رب لكم غيري، فلا تشركوا بي شيئاً، فإنِّي سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي، وإنِّي مرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي هذا، ومنزل عليكم كتاباً، فتكلموا جميعاً وقالوا: شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك، فأخذ بذلك مواثيقهم حين استخرج ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أخرج بعضهم من ظهور بعض، آخر الأبناء من الآباء بطناً بعد بطن، فأخرج أولاً ذرية آدم من ظهره، فأخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، ثم أخرج من هذا الذر الذي أخرجه من آدم ذريته ذراً، ثم أخرج من الذر الآخر ذريته ذراً، وهكذا إلى آخر النوع الإنساني، وانحصر الجميع قدام آدم، ونظر لهم بعينه، وخلق فيهم العقل والفهم والحركة والكلام، وبين مسلمهم من كافرهم، بأن جعل الذر المسلم أبيض والكافر أسود ﴿وَأَشْهَدَهُمْ

---

(١) البحر المحيط. (٢) الصاوي.

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: أشهد أنفسهم على أنفسهم على أخذ ذلك الميثاق وقَبوله؛ أي: قررهم، فإنَّ الشهادة على النفس معناها الإقرار، وأشهد بعضهم على بعض، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ﴾ أنا ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ وخالقكم ومعبودكم ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أنت ربنا لا رب لنا غيرك، فأخذ بذلك مواثقهم، ثم كتب الله آجالهم، وأرزاقهم، ومصائبهم، فنظر إليهم آدم عليه السلام، فرأى منهم الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: رب هلا سويت بينهم؟ فقال: إني أحب أن أشكر، فلمَّا قررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض، أعادهم إلى صلب آدم، فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق، ثم استشهد الملائكة على قبولهم الميثاق، فقال: يا ملائكتي اشهدوا على قبولهم هذا الميثاق. قالت الملائكة: ﴿شَهِدْنَآ﴾ ذلك عليهم، وعلى هذا المعنى يحسن الوقف على قوله ﴿بَلَىٰ﴾؛ لأنَّ كلام الذرية قد تم وانقطع بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾؛ وقوله: ﴿شَهِدْنَآ﴾ مستأنف من كلام الملائكة، وقيل هو من كلام الذرية، والمعنى: شهدنا على أنفسنا بهذا الإقرار، وعلى هذا المعنى لا يحسن الوقف على بلى؛ لأنَّ مقولهم لم يتم ولم ينقطع على ﴿بَلَىٰ﴾ وقيل[1]: المراد ببني آدم هنا آدم نفسه، وعلى هذا يكون معنى الآية: أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم.. مسح ظهره، فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذر، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وموقوفاً على غيره من الصحابة.

وقد أخرج مالك في «الموطأ» وأحمد في «المسند» وعبد بن حميد والبخاري في «تاريخه»، وأبو داود والترمذي، وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن حبان في «صحيحه» وغيرهم: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾.. الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها؟ فقال: «إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا

---

(١) الشوكاني.

رسول الله ففيم العمل؟ فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله النار».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وأما المروي عن الصحابة في تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه في عالم الذر، وأخذ العهد عليهم وإشهادهم على أنفسهم.. فهي كثيرة، منها عن ابن عباس عند ابن حميد وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾... الآية. قال: خلق الله آدم، وأخذ ميثاقه أنَّه ربه، وكتب أجله ورزقه، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر، فأخذ مواثيقهم أنَّه ربهم، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم. وقد أخرج عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره، وفيما قاله رسول الله ﷺ في تفسيرها، مما قدمنا ذكره ما يغني عن التطويل.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر ونافع[1]: ﴿ذرياتهم﴾ بالجمع، وقرأ باقي السبعة ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالإفراد، وهي تقع على الواحد والجمع، ثم بين سبحانه وتعالى سبب الإشهاد وعلته فقال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ قرأ أبو عمرو هنا وفيما يأتي بالياء التحتية على الغيبة، كما كان فيما قبله على الغيبة، وقرأ الباقون بالتاء الفوقية على الخطاب، وجملة ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ علة لمحذوف تقديره: فعلنا ذلك الأخذ والإشهاد كراهة أنْ تقولوا أيها الذرية، أو لكي لا تقولوا: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ التوحيد؛ أي: عن كون الله ربنا وحده لا شريك له ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ أي: ساهين جاهلين؛ أي: إنَّا[2] فعلنا هذا الأخذ والإشهاد بكم منعاً لاعتذاركم يوم القيامة بأن تقولوا: «إذا عذبت على الإشراك: إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين، إذ لم ينبهنا إليه منبه، ومآل هذا أنَّه لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل؛ لأنَّهم نبهوا بنصب الأدلة، وجعلوا

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

مستعدين لتحقيق الحق، وإبعاد الشرك عن قلوبهم وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ بالتاء أو الياء معطوف على ﴿تَقُولُوٓاْ﴾ الأول؛ أي: فعلنا ذلك الأخذ والميثاق كراهية أنْ تعذروا بالغفلة أو بقولكم: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: إنَّما أسس الإشراك آباؤنا من قبل زماننا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً﴾ موجودين ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مقتدين بهم في الإشراك، جاهلين لا نهتدي إلى الحق، ولا نعرف الصواب، والفاء في قوله ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ داخلة على محذوف تقديره: أتؤاخذنا يا مولانا فتهلكنا بالإشراك الذي أسسه لنا، واخترعه آباؤنا المبطلون؛ أي: الملتبسون بالباطل، الذي هو الإشراك، ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر واقتفائنا آثارهم، والاستفهام فيه للاستعطاف، وفيه معنى الإنكار ولفظة ﴿أَوْ﴾ مانعة خلو لا جمع، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين.

والمعنى: أي أو[1] تقولوا في ذلك اليوم: إن آباءنا اخترعوا الإشراك وسنوه من قبل زماننا، وكنا جاهلين ببطلان شركهم، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم، ولم نهتد إلى التوحيد، أتؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب بما فعله المبطلون من آبائنا المضلين، فتجعل عذابنا كعذابهم؟

والخلاصة[2]: أنَّ الله لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد الآباء والأجداد، إذ التقليد عند قيام الدلائل، والقدرة على الاستدلال بها، مما لا يركن إليه ولا ينبغي لعاقل أن يلجأ إليه، كما أنَّ الاعتذار بالجهل بعدما أقام عليهم من البينات الفطرية والعقلية مما لا يقبل.

والحاصل: أنَّ الله سبحانه وتعالى[3] بين في هذه الآية الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم، وأشهدهم على أنفسهم، وأنَّه فعل ذلك لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة، ويعتلوا بهذه العلة الباطلة، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي[4]: ومثل هذا التفصيل الذي فصلناه في

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

الآيات السابقة في أخذ الميثاق وغيره، نفصل الآيات؛ أي: نبين الآيات اللاحقة الدالة على توحيدنا ليتدبروا فيها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: ولكي يرجعوا عن شركهم، وعبادة غير الله تعالى، إلى عبادته وتوحيده بذلك التفصيل والتوضيح، وقرأت فرقة ﴿يفصل﴾ بالياء؛ أي: يفصل هو؛ أي: الله تعالى.

والمعنى[1]: أي ومثل ذلك التفصيل المستتبع للمنافع الجليلة نفصل لبني آدم الآيات والدلائل، ليستعملوا عقولهم في التبصر فيها، والتدبر في أمرها، لعلهم يرجعون بها عن جهلهم، وتقليد آبائهم وأجدادهم.

وفي الآية إيماء إلى أنَّ مَنْ لم تبلغه بعثة رسول.. لا يعذر يوم القيامة في الشرك بالله تعالى، ولا بفعل الفواحش والموبقات التي تنفر منها الفطر السليمة، وتدرك ضررها العقول الحصيفة، بل يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه أنْ لا يعرف إلا منهم، وهو تفصيل العبادات، وعالم الغيب، وما سيكون في اليوم الآخر من أحوال العاصين، وشؤون النبيين والصديقين من عقاب وثواب، وكنه ذلك على الحقيقة.

الإعراب

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية متعلقة بمحذوف تقديره: واذكريا محمد لهم قصة إذ قيل لهم، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به، ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ إلى آخر الآية نائب فاعل محكي، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿اسْكُنُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿هَٰذِهِ﴾: في محل النصب على الظرفية عند سيبويه، وعلى المفعول به عند الأخفش ﴿الْقَرْيَةَ﴾ نعت لـ﴿هَٰذِهِ﴾ أو عطف بيان منه، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل

---

(١) المراغي.

لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿وَكُلُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾. ﴿مِنۡهَا﴾ متعلق به، ﴿حَيۡثُ﴾: في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بـ﴿كلوا﴾. ﴿شِئۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيۡثُ﴾.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿وَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾، ﴿حِطَّةٞ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: مسألتنا حطة، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قولوا﴾، ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾، ﴿ٱلۡبَابَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بـ﴿ادخلوا﴾، ﴿سُجَّدٗا﴾ حال من واو ﴿ادخلوا﴾. ﴿نَّغۡفِرۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب الطلب لا محل لها من الإعراب، ﴿لَكُمۡ﴾ متعلقان بـ﴿نَّغۡفِرۡ﴾. ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿سَنَزِيدُ﴾: فعل مضارع، ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة بعاطف مقدر كما أظهره في سورة البقرة على جملة ﴿نَّغۡفِرۡ﴾ على كونها جواب الطلب، وإنَّما لم يجزم لأنَّ الطلب عامل ضعيف فلا يعمل في المعطوف.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿فَبَدَّلَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنَّهم أمروا بقول حطة وأردت بيان ما قالوا.. فأقول لك، ﴿بدل الذين﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذ المقدرة، وجملة إذ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿ظَلَمُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور، حال من واو ﴿ظَلَمُواْ﴾، ﴿قَوۡلًا﴾: مفعول به، ﴿غَيۡرَ﴾: صفة لـ﴿قَوۡلًا﴾، ﴿غَيۡرَ﴾: مضاف، ﴿ٱلَّذِي﴾: مضاف إليه، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿لَهُمۡ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿أرسلنا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿بدل﴾،

﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أرسلنا﴾، ﴿رِجْزًا﴾ مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿رِجْزًا﴾، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب ظلمهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أرسلنا﴾.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾: الواو: عاطفة قصة على قصة، ﴿اسألهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة في قوله: ﴿وإذ قيل لهم﴾ أعني: أذكر، أو مستأنفة، ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني، متعلق بـ﴿اسأل﴾، ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿كَانَتْ﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾: خبرها ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية، متعلق بمضاف محذوف في قوله: ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ تقديره: واسألهم عن حال القرية وقت عدوانهم في يوم السبت، ﴿يَعْدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ متعلق بـ﴿يَعْدُونَ﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، والظرف بدل من الظرف الذي قبله، أعني قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾، ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، ﴿شُرَّعًا﴾: حال من ﴿حِيتَانُهُمْ﴾؛ أي: تأتيهم حيتانهم حالة كونها ظاهرة على وجه الماء.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾، ﴿لَا يَسْبِتُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الحيتان،

والجملة مستأنفة استئنافاً بيانيا، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: بلاء مثل البلاء المذكور وهو إتيانها لهم يوم السبت شرعاً، وعدم إتيانها في غيره نبلوهم بلاءً آخر بسبب فسقهم، ﴿نَبْلُوهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْسُقُونَ﴾: خبرها، وجملة كان صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بسبب فسقهم، الجار والمجرور، متعلق بـ﴿نَبْلُوهُم﴾ بسبب فسقهم وتقدير الكلام: نبلوهم بسبب فسقهم المستمر بلاء آخر مثل البلاء المذكور في الحيتان.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان معطوف على الظرف في قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ على كونه متعلقاً بالمضاف المحذوف الذي قدرناه سابقاً، والتقدير: واسألهم عن حال القرية إذ يعدون في السبت، واسألهم عن حالهم إذ قالت أمة منهم، ﴿قَالَتْ أُمَّةٌ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لأمة، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿لِمَ﴾: اللام حرف جر، ﴿م﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَعِظُونَ﴾ والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع، ﴿تَعِظُونَ قَوْمًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾، ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾ خبره ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾: معطوف على ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق لـ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾، ﴿شَدِيدًا﴾: صفة لـ﴿عَذَابًا﴾، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿مَعْذِرَةً﴾: منصوب على كونه مفعولاً لأجله لفعل محذوف تقديره وعظناهم لأجل المعذرة، أو منصوب على المفعولية المطلقة بفعل مقدر من لفظه

تقديره نعتذر معذرة، وعلى قراءة الرفع مرفوع على كونه خبر مبتدأ محذوف تقديره: موعظتنا معذرة إلى ربكم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿مَعْذِرَةً﴾ ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ الواو: عاطفة، لعل: حرف نصب والهاء اسمها، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: خبرها، وجملة لعل في محل النصب معطوفة على معنى معذرة، على كونها مقولاً لـ﴿قَالُوا﴾ والتقدير: قالوا وعظناهم معذرة إلى ربكم ولعلهم يرجعون عما هم عليه من العدوان باصطياد السمك.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت انقسام أهل القرية إلى واعظة وعادية، وأردت بيان عاقبة كل من الفريقين.. فأقول لك، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿نَسُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿نَسُوا﴾، ﴿ذُكِّرُوا﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿بِهِ﴾ متعلق به، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة ﴿لما﴾ والعائد أو الرابط ضمير به، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿يَنْهَوْنَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنِ السُّوءِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَنجَيْنَا﴾، ﴿ظَلَمُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِعَذَابٍ﴾: متعلق به، ﴿بَئِيسٍ﴾: صفة لـ﴿عذاب﴾: والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر، وسبب، و﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْسُقُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، والباء متعلقة بـ﴿أخذنا﴾؛ أي: أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم، والباء الأولى للتعدية، وهذه للسببية، فلا اعتراض بتعلق حرفي جر متحدي اللفظ بعامل واحد، لاختلاف معناها.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ ١٦٦﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل، ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿عَتَوْا﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿عَن مَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿عَتَوْا﴾، ﴿نُهُوا﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، ﴿قُلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ الأولى على كونها مفصلة لأخذهم بالعذاب، ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قُلْنَا﴾: وإن شئت قلت: ﴿كُونُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قِرَدَةً﴾: خبر ﴿كُونُوا﴾، ﴿خَٰسِئِينَ﴾: صفة لـ﴿قِرَدَةً﴾: وجملة ﴿كُونُوا﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْنَا﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: عاطفة، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بمحذوف معطوف على قوله ﴿واسألهم﴾ تقديره: واسألهم عن القرية واذكر إذ تأذن ربك، ﴿تَأَذَّنَ﴾: فعل ماض بمعنى: أقسم ﴿رَبُّكَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿يبعثن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يبعثن﴾، وكذلك قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: متعلق به أيضاً، ﴿مَن﴾: موصولة في محل النصب مفعول ﴿يبعثن﴾، ﴿يَسُومُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿رَبَّكَ﴾: اسمها، ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، وكذلك جملة قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: معطوفة عليها على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، أو مفعول أول، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، ﴿أُمَمًا﴾ إما حال من مفعول ﴿قطعناهم﴾، وإما مفعول ثان على تضمين قطع معنى صير، ﴿مِنْهُمُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿الصَّالِحُونَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب صفة لـ﴿أُمَمًا﴾، ﴿وَمِنْهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لمبتدأ محذوف تقديره: ومنهم فريق كان دون ذلك الفريق الصالح، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ على كونها صفة لـ﴿أُمَمًا﴾، ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿قطعناهم﴾، ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾: متعلق بـ﴿بلونا﴾، ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾: معطوف على ﴿الحسنات﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج بمعنى كي التعليلية، والهاء اسمها، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر مسوقة لتعليل ما قبلها والتقدير: وبلوناهم بالحسنات والسيئات لرجاء رجوعهم إلى طاعة الله تعالى.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾.

﴿فَخَلَفَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت انقسام هؤلاء المذكورين إلى فريقين فريق صالح وفريق طالح، وأردت بيان من خلف عنهم.. فأقول لك، ﴿خَلَفَ﴾: فعل ماض، ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: متعلق به، ﴿خَلْفٌ﴾: فاعل، والجملة من الفعل والفاعل في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿خَلْفٌ﴾، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿هَذَا الْأَدْنَى﴾: مضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿وَرِثُوا﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَأْخُذُونَ﴾، ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿سَيُغْفَرُ﴾:

فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور نائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَإِن﴾. الواو: حالية أو استئنافية، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يَأْتِهِمْ﴾: فعل ومفعول مجزوم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿عَرَضٌ﴾: فاعل، ﴿مِّثْلُهُۥ﴾: صفة لـ﴿عَرَضَ﴾، ﴿يَأْخُذُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة إنْ الشرطية في محل النصب حال من فاعل ﴿يقُولُونَ﴾ أو مستأنفة.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، وهو الاستفهام الذي يقصد به إثبات ما بعد حرف النفي ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يُؤْخَذْ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به، ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أَن﴾: حرف نصب، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَقُولُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَقُولُوا۟﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه بدلاً من ﴿مِّيثَٰقُ﴾ تقديره: ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب عدم قولهم على الله إلا الحق، ﴿وَدَرَسُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ﴿يُؤْخَذْ﴾ الداخل عليه همزة الاستفهام التقريري؛ أي: ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب، وألم يدرسوا ما فيه، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿درسوا﴾، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور، صلة لـ﴿مَا﴾: أو صفة لها، ﴿وَٱلدَّارُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْءَاخِرَةُ﴾: صفة له ﴿خَيْرٌ﴾ خبر، والجملة مستأنفة، ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بخبر، وجملة ﴿يَتَّقُونَ﴾: صلة الموصول، ﴿أَفَلَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف تقديره: أتجهلون خيرية ذلك، ﴿فلا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لا﴾: نافية ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: أفلا تعقلون خيرية ذلك، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة

المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ، ﴿يُمَسِّكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿بِالْكِتَابِ﴾: متعلق به، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة يمسكون، ﴿إِنَّا﴾: حرف نصب واسمه، ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿إن﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والرابط محذوف، تقديره: لا نضيع أجر المصلحين منهم، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: استئنافية أو عاطفة، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف معطوف على قوله: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ تقديره: واسئلهم عن القرية واذكر إذ نتقنا الجبل أو مستأنفة استئنافاً نحوياً، ﴿نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه، ﴿فَوْقَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نَتَقْنَا﴾، ﴿كَأَنَّهُ﴾: حرف نصب واسمه، ﴿ظُلَّةٌ﴾: خبره، وجملة ﴿كأن﴾ في محل النصب حال من ﴿الْجَبَلَ﴾ تقديره: حالة كونه مشابهاً بظلة، ﴿وَظَنُّوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على ﴿نَتَقْنَا﴾ أو في محل النصب حال من ﴿الْجَبَلَ﴾، ولكنه على تقدير: قد، ﴿أَنَّهُ﴾ حرف نصب واسمه ﴿وَاقِعٌ﴾ خبره. ﴿بِهِمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿وَاقِعٌ﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن تقديره: وظنوا وقوعه بهم، ﴿خُذُوا مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف حال من فاعل ﴿نَتَقْنَا﴾ تقديره: وإذ نتقنا الجبل فوقهم حالة كوننا قائلين لهم: خذو ما آتيناكم أو معطوف على ﴿نَتَقْنَا﴾ تقديره: وقلنا لهم، ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف؛ لأن آتى بمعنى أعطى تقديره: ما آتيناكموه، والجملة

صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، ﴿بِقُوَّةٍ﴾: جار ومجرور حال من واو ﴿خُذُواْ﴾؛ أي: خذوا حالة كونكم ملتبسين بقوة، ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿خُذُواْ﴾، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾: حرف ترج وتعليل بمعنى، كي والكاف اسمها، وجملة ﴿تَتَّقُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو: استئنافية، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر قصة إذ أخذ ربك، والجملة مستأنفة أو معطوفة على القصص التي قبلها، ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أَخَذَ﴾، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، بدل من الجار والمجرور قبله، بدل بعض من كل، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبُّكَ﴾، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَخَذَ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أشهد﴾.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

﴿أَلَسْتُ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لست﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِرَبِّكُمْ﴾: خبره، ﴿والباء﴾: صلة، والجملة مقول لقول محذوف معطوف على ﴿أَخَذَ﴾ تقديره: وقال ألست بربكم ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي المذكور قبلها، قائمة مقام الجواب المحذوف تقديره: بلى أنت ربنا، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

فائدة: ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب تفيد إثبات النفي المذكور قبلها؛ لأنَّها لا يُجاب بها إلا النفي، سواء كان مقروناً بالاستفهام التقريري كما هنا، أو مجرداً، وأما نعم.. فحرف جواب لتصديق ما قبلها، قال ابن عباس: لو قالوا: نعم..

لكفروا؛ لأنَّ نعم لتقرير ما قبلها، مثبتاً كان أو منفياً، فكأنهم أقروا أنَّه ليس بربهم، وإلى ذلك أشار علي الأجهوري رحمه الله بقوله:

بَلَىٰ حَرْفُ جَوَابٍ لَكِنَّهُ يَصِيْرُ إِثْبَاتَاً كَذَا قَرَّرُوْا
نَعَمْ لِتَقْرِيْرِ ٱلَّذِيْ قَبْلَهَا إِثْبَاتَاً أَوْ نَفْيَاً كَذَا حَرَّرُوْا

﴿شَهِدْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ إن قلنا إنَّه من كلام الذر، أو مقول لقول محذوف، إن قلنا إنَّه من كلام الملائكة تقديره: قالت الملائكة: شهدنا على قبولهم الميثاق ﴿أَن تَقُولُوا﴾: ناصب وفعل وفاعل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: ظرف متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر إليه، المعلل لفعل محذوف تقديره: فعلنا الأخذ بالميثاق كراهية قولكم يوم القيامة، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿تَقُولُوا﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾: حرف نصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿عَنْ هَـٰذَا﴾: متعلق بـ﴿غَـٰفِلِينَ﴾، ﴿غَـٰفِلِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿تَقُولُوا﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا﴾ معطوف على ﴿تَقُولُوٓا﴾ الأول ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول ﴿تَقُولُوٓا﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر ونفي، ﴿أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَشْرَكَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿تَقُولُوٓا﴾، ﴿وَكُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿ذُرِّيَّةً﴾: خبره ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور، صفة لذرية تقديره: كائنة من بعدهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾. ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الاستعطافي الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: أتؤاخذنا، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿تهلكنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الرب، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لما أوصفه لها والعائد أو الرابط محذوف تقديره بما فعله

﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، وجملة ﴿تهلكنا﴾: معطوفة على الجملة المحذوفة الداخلة عليها الهمزة كما قدرناه آنفاً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿تَقُولُوٓاْ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾. الواو: استئنافية ﴿كذلك﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: وتفصيلا مثل ذلك التفصيل المذكور هنا ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على الله، والتقدير: ونفصل الآيات اللاحقة تفصيلاً مثل تفصيلنا الآيات السابقة ليتدبروها ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾. الواو: عاطفة، ﴿لعل﴾: حرف ترج وتعليل، و﴿الهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: في محل الرفع خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ معطوفة على جملة محذوفة معللة للفعل السابق، والتقدير: ونفصل الآيات مثل ذلك ليتدبروها، ولعلهم يرجعون إلى طاعة الله سبحانه وتعالى؛ أي: ولرجاء رجوعهم إلى طاعة الله عما هم عليه من الإشراك.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾، هي أيلة، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية: ﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: قريبة منه على شاطئه. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾؛ أي: يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه.

﴿حِيتَانُهُمْ﴾ سمكهم جمع حوت، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، كنون ونينان لفظاً ومعنى. ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾؛ أي: تعظيمهم للسبت، وهو مصدر سبت اليهود تسبت، من باب ضرب، إذا عظمت السبت بترك العمل فيه، والتفرغ فيه للعبادة، وقيل: إنه اسم لليوم، والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه. ذكره أبو السعود.

وفي «المصباح» وسبت اليهود انقطاعهم عن المعيشة والاكتساب، وهو مصدر، يقال: سبتوا سبتاً، من باب ضرب إذا قاموا بذلك، وأسبتوا بالألف لغة اهـ.

﴿شُرَّعًا﴾: جمع شارع كراكع وركع، من شرع عليه إذا دنا وأشرف؛

أي: ظاهرة على وجه الماء ﴿نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: جماعة منهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ والمعذرة بوزن المغفرة، اسم مصدر لعذر يعذر عذراً، من باب ضرب، وهي بمعنى العذر، وهو التنصل من الذنب، فمعنى معذرة إلى ربكم، قياماً وإظهاراً بعذر أنفسنا إلى الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: تركوه ترك الناس، وأعرضوا عنه إعراضاً تاماً ﴿عن السوء﴾ والسوء العمل الذي تسوء عاقبته ﴿بئيس﴾ والبئيس الشديد، من البأس وهو الشدة، أو من البؤس وهو المكروه، أو الفقر، فهو فعيل من بؤس يبؤس بأساً وبؤساً إذا اشتد. ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ العتو الإباء والعصيان ﴿خَاسِئِينَ﴾؛ أي: أذلاء صاغرين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ قال سيبويه: أذن أعلم، وأذن نادى وصاح للإعلام ومنه ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ ومثله تأذن ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ ليسلطن ﴿يَسُومُهُمْ﴾ يذيقهم ويوليهم ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ فرقناهم ﴿أُمَمًا﴾؛ أي: جماعات ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: منحطون عنهم ﴿وَبَلَوْنَاهُم﴾ امتحناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الحسنات النعم، والسيئات النقم ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ والخلف بسكون اللام يستعمل في الأشرار، وبالتحريك في الأخيار يقال: خلف سوء بسكون اللام، وخلف صدق بفتحها اهـ «الخازن»، وفي «البيضاوي»: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾؛ أي: بدل سوء، وهو مصدر نعت به، ولذلك يقع على الواحد والجمع، وقيل: هو جمع وهو شائع في البشر، والخلف بالفتح في الخير. انتهى. وفي «السمين» والخلف بفتح اللام وبإسكانها هل هما بمعنى واحد؛ أي: يطلق كل منهما على القرن الذي يخلف غيره، صالحاً كان أو طالحاً أو أن الساكن اللام في الطالح، ومفتوحها في الصالح خلاف مشهور بين اللغويين، قال الفراء: يقال للقرن خلف: يعني ساكناً، ولمن استخلفته خلف يعني متحرك اللام. اهـ ﴿عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ والعرض بالتحريك متاع الدنيا وحطامها، و﴿الْأَدْنَىٰ﴾: الشيء القريب الزوال، والمراد به هنا الدنيا. ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾؛ أي: قرؤوا فهم ذاكرون له ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾؛ أي: يتمسكون به ويعملون.

وفي «المختار» أمسك بالشيء وتمسك واستمسك به، كله بمعنى اعتصم به وكذا مسك به تمسيكاً. اهـ.

وفي «المصباح» مسكت بالشيء مسكاً، من باب ضرب، وتمسكت وامتسكت بمعنى أخذت به وتعلقت واعتصمت، وأمسكته بيدي إمساكاً قبضته باليد، وأمسكت عن الأمر: كففت عنه. اهـ. ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾؛ أي: رفعناه، كما روى عن ابن عباس أو زلزلناه، وهو مرفوع يقال: نتق السقاء إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبد، أو اقتلعناه، كما هو رأي كثير من العلماء، وفي «الفتوحات»: ﴿والنتق﴾ اختلفت فيه عبارات أهل اللغة، فقال أبو عبيدة: هو قلع الشيء من موضعه والرمي به، ومنه نتق ما في الجراب إذا نفضه فرمى ما فيه، وامرأة ناتق ومنتاق إذا كانت كثيرة الولادة، وفي الحديث: «عليكم بزواج الأبكار فإنهم أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً وأرضى باليسير» وقيل: النتق الجذب بشدة، ومنه نتقت السقاء إذا جذبته بشدة لتقلع الزبدة من فمه، وقال الفراء: هو الرفع، وقال ابن قتيبة: هو الزعزعة وبه فسر مجاهد، وكل هذه معان متقاربة، وقد عرفت أن ﴿فوقهم﴾ يجوز أن يكون منصوباً بنتق؛ لأنَّه بمعنى رفع وقلع اهـ «سمين»، ونتق من باب نصر كما في «المختار».

﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ والظلة كل ما أظلك من سقف بيت، أو سماء، أو جناح طائر، والجمع ظلل وظلال ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ والظهور جمع ظهر، وهو ما فيه العمود الفقري لهيكل الإنسان الذي هو قوام بنيته فيصح أن يعبر به عن جملة الجسد ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ والذرية سلالة الإنسان من الذكور والإناث، ﴿شَهِدْنَا﴾ والشهادة تارة قولية كما قال: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا...﴾ الآية وتارة تكون حالية، كما قال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾؛ أي: حالهم شاهدة عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع.

فمنها: التكرار في قوله: ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ ﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ وفي قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ أي: عن أهل القرية لما فيه من إطلاق المحل وإرادة الحال.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾. وفي قوله: ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، وفي قوله: ﴿بِٱلْحَسَنَـٰتِ﴾ ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشعاراً بسرعة إيقاع العذاب بهم، وترجية لمن آمن منهم في غفرانه ورحمته.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾؛ لأنه استعار النسيان للشرك، فاشتق من النسيان بمعنى الشرك نسوا، بمعنى تركوا، بجامع الإعراض في كل على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿أَنجَيْنَا﴾ ﴿وَأَخَذْنَا﴾.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿حِيتَانُهُمْ﴾: لاختصاصهم بأحكام فيها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لأنَّه استعار الأخذ للإخراج، فاشتق منه أخذ بمعنى أخرج، وإيثار[1] الأخذ على الإخراج للاعتناء بشأن المأخوذ، لما فيه من الإنباء عن اختيار الاصطفاء، وهو السبب في إسناده إلى الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي.

ومنها: إضافة ﴿رَبُّكَ﴾ إلى ضميره ﷺ للتشريف.

ومنها: الالتفات في لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ من التكلم إلى الغيبة؛ لأن مقتضى السياق أنْ يقال: وإذا أخذنا، كما قال أولاً: وإذ نتقنا الجبل فوقهم، والنكتة

---

(١) الفتوحات.

فيه: تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب إليه، وفي الآية أيضاً البيان بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، في قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ونكتته: التوبيخ والتأنيب.

ومنها: الإظهار في وضع الإضمار في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾؛ لأنَّ مقتضى السياق أن يقال: إنا لا نضيع أجرهم، ونكتة الإظهار: الإشارة إلى شرفهم، والاعتناء بهم.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام إظهاراً لفضله وشرفه في قوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ لأنَّها داخلة بما في الكتاب، خصها بالذكر لأنَّها أعظم أركان الدين بعد التوحيد.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾؛ لأنَّه كناية عن سرعة المسخ، إذ لا يكلف الشخص إلا بما يقدر عليه، وكونهم قردة ليس في طاقتهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ
ٱلْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا
لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا
يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا
وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ
وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِى مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى
مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ
بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ
أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا
بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّآ
أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ
ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر أنَّه أخذ العهد والميثاق على بني آدم جميعاً، وأشهدهم على أنفسهم بأنَّ الله ربهم، كي لا يكون لهم العذر يوم القيامة في الإشراك بالله، جهلاً أو تقليداً.. أردف ذلك بضرب المثل للمكذبين

(١) المراغي.

بآياته المنزلة على رسوله، بعد أن أيدها بالأدلة العقلية والكونية، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها، قادراً على بيانها، والجدل بها، لكنَّه لم يؤت العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفاً لعلمه فسلبها لأنَّ العلم الذي لا يعمل به لا يلبث أن يزول، فأشبه الحية تنسلخ من جلدها، وتخرج منه وتتركه على الأرض.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر أخذ الميثاق على توحيده تعالى وتقرير ربوبيته، وذكر إقرارهم بذلك وإشهادهم على أنفسهم.. ذكر حال من آمن به، ثم بعد ذلك كفر، كحال اليهود كانوا مقرين منتظرين بعثة رسول الله ﷺ، لما اطلعوا عليه من كتب الله المنزلة، وتبشيرها به، وبذكر صفاته، فلما بعث.. كفروا، فذكروا أنَّ ما صدر منهم هو طريقة لأسلافهم اتبعوها.

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أمر[2] نبيه ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ عن آيات الله تعالى على أولئك الضالين الذين حالهم كحاله ليتفكروا فيه، ويتركوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة، ويعودوا إلى حظيرة الحق.. أردف ذلك ببيان أنَّ أسباب الهدى والضلال ينتهيان للمستعد لأحدهما إلى إحدى الغايتين بتقدير الله تعالى، والسير على سننه في استعمال مواهبه، وهداياته الفطرية من العقل والحواس في أحد السبيلين كما قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ و﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قدم ذكر المهتدين والضالين.. أخبر هنا أنَّه هو المتصرف فيهم بما شاء من هداية وضلال. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ...﴾ مناسبة[3] هذه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أنَّه تعالى لما ذكر أنَّه هو الهادي وهو المضل.. أعقبه بذكر من خلق للخسران والنار، وذكر أوصافهم فيما ذكر، وفي ضمنه وعيد الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما بين[1] في الآية السالفة أنَّ المخلقين لجهنم لما يستعملوا عقولهم ومشاعرهم في الاعتبار بالآيات، والتفقه في تزكية أنفسهم بالعلم النافع، فأورثهم ذلك الإهمال الغفلة التامة عن صلاح أنفسهم، بذكر الله تعالى وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال.. أردف ذلك بذكر الدواء لتلك الغفلة، والوسائل التي تخرج إلى ضدها، وهي ذكر الله تعالى، ودعاؤه في السر والعلن، بكرة وعشياً.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر[2] أنَّه ذرأ كثيراً من الجن والإنس للنار.. ذكر نوعاً منهم ـ وهم يلحدون في أسمائه ـ وهم أشد الكفار عتياً، أبو جهل وأحزابه، وأيضاً لما نبه على أن دخول جهنم هو للغفلة عن ذكر الله تعالى، والمخلص من العذاب هو ذكر الله تعالى.. أمر بذكر الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، والقلب إذا غفل عن ذكر الله وأقبل على الدنيا وشهواتها وقع في الحرص، وانتقل من رغبة إلى رغبة، ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة، وقد وجدنا ذلك بالذوق، حتى إنَّ أحدهم ليصلي الصلوات كلها قضاء في وقت واحد، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله تعالى تخلص من آفات الغفلة، وامتثل ما أمره الله به، واجتنب ما نهى عنه. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[3] أنَّه ذرأ لجهنم كثيراً من الثقلين ـ الجن والإنس ـ وأبان أهم أسباب ذلك، وهي أن هؤلاء أفسدوا فطرتهم بإهمال مواهبهم من العقل والحواس، ثم أرشدنا إلى ما يصلح الفطرة من دعائه بأسمائه الحسنى.. أردف ذلك ببيان وصف أمة الإجابة، وثنى بذكر المكذبين من

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

أمة الدعوة، وثلث بتنفيذ ما عرض لهم من الشبهة، ثم أرشد إلى التفكر الموصل إلى الفقه في الأمور ومعرفة الحقائق، وإلى النظر الهادي إلى الحجة والبرهان الموصل إلى معرفة صدق الرسول، ثم ختمها ببيان عدم الطمع في هداية من قضت سنة الله بضلاله، وتركه يعمه في طغيانه.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه تعالى لما ذكر[1] من ذرأ للنار.. ذكر مقابلهم، وفي لفظة ﴿وَمِمَّنْ﴾ دلالة على التبعيض، وأن المعظم من المخلوقين ليسوا هداة إلى الحق، ولا عادلين به، انتهى.

وقال أيضاً: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه تعالى لما حضهم على التفكر في حال الرسول، وكان مفرعاً على تقرير دليل التوحيد.. أعقب بما يدل على التوحيد ووجود الصانع الحكيم.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أرشد من كانوا في عصر التنزيل وعصر نزول السورة إلى النظر والتفكر في اقتراب أجلهم بقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾.. أتبع ذلك بالإرشاد إلى النظر والتفكر في أمر الساعة التي ينتهي بها جميع أجل الناس.

والخلاصة: أن هذا كلام في الساعة العامة بعد الكلام في الساعة الخاصة بكل فرد، وهي انتهاء أجله.

وقال أبو حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه لما ذكر[2] التوحيد والنبوة والقضاء والقدر.. أتبع ذلك بذكر المعاد، وأيضاً فلما تقدم قوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، وكان ذلك باعثاً على المبادرة إلى التوبة.. أتى بالسؤال عن الساعة ليعلم أن وقتها مكتوم عن الخلق، فيكون ذلك سبباً للمسارعة إلى التوبة. انتهى.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا...﴾ الآية، مناسبة هذه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أنَّ[1] الله سبحانه وتعالى لما أمر خاتم رسله أن يجيب السائلين عن الساعة: بأن علمها عند الله تعالى وحده.. قفى على ذلك بأمر رسوله ﷺ أن يبين للناس أنَّ كل الأمور بيده وحده، وأن علم الغيب كله عنده.

وهذه الآية أساس[2] من أسس الدين وقواعد عقائده، إذ بينت حقيقة الرسالة، وفصلت بينها وبين الربوبية، وهدمت قواعد الشرك، واجتثت جذور الوثنية.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ قيل: نزلت هذه الآية في بلعم بن باعوراء، وكان قد[3] حفظ بعض الكتب المنزلة، وقيل: كان قد أوتي النبوة، وكان مجاب الدعوة، بعثه الله إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان، فأعطوه الأعطية الواسعة، فاتبع دينهم وترك ما بعث به، فلما أقبل موسى في بني إسرائيل لقتال الجبارين.. سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى، فقام ليدعو عليه فتحول لسانه على أصحابه، فقيل له في ذلك؟ فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون، واندلع لسانه على صدره فقال: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة، وسأمكر لكم، وإنِّي أرى أنْ تخرجوا إليهم فتياتكم، فإن الله يبغض الزنا، فإن وقعوا فيه هلكوا، فوقع بنوا إسرائيل في الزنا، فأرسل الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً، وقيل: إنَّ هذا الرجل اسمه باعم، وهو من بني إسرائيل، وقيل: المراد به أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب المتقدمة، وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل محمد ﷺ، وشرفه الله بالنبوة.. حسده وكذبه، وكان أمية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة، فقصد بعض الملوك، فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل عنهم؟ فقيل له: قتلهم محمد، فقال: لو كان نبياً ما قتل أقرباءه. فلما مات أمية.. أتت أخته فازعة إلى

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني والمراح والخازن.

رسول الله ﷺ، فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها؟ فقالت: بينما هو راقد أتاه اثنان، فكشفا سقف البيت ونزلا، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: أوعى؟ قال: وعي، قال أذكى؟ قال: أبى، قالت: فسألته عن ذلك؟ فقال: خير أريد بي، فصرف عني ثم غشي عليه فلما أفاق من غشيته قال شعراً:

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْراً صَائِرٌ مَرَّةً إِلَىٰ أَنْ يَزُوْلاَ
لَيْتَنِيْ كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِيْ فِيْ قِلاَلِ ٱلْجِبَالِ أَرْعَىٰ ٱلْوُعُوْلاَ
إِنَّ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيْمٌ شَابَ فِيْهِ ٱلصَّغِيْرُ يَوْمَاً ثَقِيْلاً

فقال لها رسول الله ﷺ: أنشديني من شعر أخيك، فأنشدته بعض قصائده، فقال رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه» فأنزل الله تعالى عز وجل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا...﴾ الآية، وقيل نزلت في قريش، آتاهم الله آياته التي أنزلها على محمد ﷺ فكفروا بها، وقيل: نزلت في اليهود والنصارى، انتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ...﴾ الآية. قال[1] مقاتل: إن رجلاً دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن، فقال بعض مشركي مكة ـ قال ابن الجوزي: هو أبو جهل ـ إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون إلهاً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ...﴾ أخرج[2] أبو حاتم وأبو الشيخ، عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا ليلاً، فجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً: يا بني فلان، يا بني فلان، إنِّي لكم نذير مبين، وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت؛ أي: إلى الصباح، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ...﴾ قال قتادة: قالت قريش لرسول الله ﷺ:

---

(١) الخازن.
(٢) لباب النقول.

إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا متى الساعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وأخرج[1] ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال: قال جبل بن أبي قشير وسموأل بن زيد لرسول الله ﷺ ـ وهما من اليهود ـ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول، فإنا نعلم ما هي؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ يعني عن خبر الساعة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واقرأ وقص يا محمد على هؤلاء اليهود النبأ العجيب ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: خبر الشخص الذي أعطيناه حجج توحيدنا، وأفهمناه دلائل قدرتنا، حتى صار عالماً بها، وكان يعلم علوم الكتب المتقدمة، والتصرف بالاسم الأعظم، وهو أحد علماء بني إسرائيل على ما قيل، فكان يدعو به حيث شاء، فيجاب بعين ما طلب في الحال ﴿فَٱنسَلَخَ﴾ وانسل وخرج ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من آياتنا، وتركها وراءه ظهرياً، ولم يلتفت إليها ليهتدي بها؛ أي: انسلخ منها كما تنسلخ الحية من جلدها، بأن كفر بها، وأعرض عنها، وفي التعبير بالانسلاخ إيماء إلى أنَّه كان متمكناً منها، ظاهراً لا باطناً ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: وبعد أن انسلخ منها باختياره أتبعه الشيطان ولحقه وأدركه واستحوذ عليه، وتمكن من الوسوسة إذ لم يبق لديه من نور البصيرة، ولا أمارات الهداية ما يحول بينه وبين قبول وسوسته، وسلوك فهمه.

وقرأ طلحة بخلاف، والحسن فيما روى عنه هارون: ﴿فاتَّبعهُ﴾ مشدداً بمعنى تبعه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي فصار من الضالين المضلين المفسدين في الأرض، قال ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء، كان عنده اسم الله الأعظم، وقال[2] ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، بعثه موسى إلى ملك مدين داعياً إلى الله، فرشاه الملك، وأعطاه الملك على أنّ يترك دين موسى، ويتابع الملك على دينه، ففعل وأضل الناس بذلك.

---

(١) لباب النقول.

(٢) التسهيل.

والخلاصة: أنَّه أوتي الهدى فانسلخ منه إلى الضلال، ومال إلى الدنيا، فتلاعب به الشيطان، وكانت عاقبته البوار والخذلان، وخاب في الآخرة والأولى.

وفي الآية عبرة وعظة للمؤمنين، وتحذير لهم من اتباع أهوائهم، حتى لا ينزلقوا في مثل تلك الهوة التي انزلق إليها صاحب المثل بحبه للدنيا، وركونه إلى شهواتها ولذاتها، ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾؛ أي: ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات وبالعمل بها إلى درجات الكمال والعرفان ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾؛ أي: لرفعنا ذلك المنسلخ ﴿بِهَا﴾؛ أي: بتلك الآيات إلى درجات الكمال، ومنازل العلماء الأبرار، بأن نخلق له الهداية خلقاً، ونلزمه العمل بها طوعاً أو كرهاً، إذ لا يعجزنا ذلك ولكنه مخالف لسنتنا ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾؛ أي: ولكن ذلك المنسلخ ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أراد الخلود في الأرض، وركن إلى الدنيا، ومال إليها، وآثر لذاتها وشهواتها على الآخرة، وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام، والأرض هنا عبارة عن الدنيا؛ لأنَّ الأرض عبارة عن المفاوز والقفار، وفيها المدن والضياع، والمعادن والنبات، ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا، فالدنيا كلها هي الأرض. ذكره في «الخازن» ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: واتبع ما تهواه نفسه، وجعل كل حظه من حياته التمتع من لذائذها الجسدية، ولم يوجه إلى الحياة الروحية عزماً، وركب رأسه فلم يراع الاهتداء بشيء مما آتيناه من آياتنا، فخسر دنياه وآخرته، ووقع هاوية الردى والهلاك وانحط في أسفل سافلين، وقيل: المعنى: اتبع رضا زوجته، وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله تعالى.

وخلاصة ذلك[1]: أنَّ من شأن من يؤتى الآيات أن تسمو نفسه وتصعد في سلم الكمال، لما فيها من الهداية إلى سبيل الخير الحاضة على العمل النافع، وما فيه فائدة روحية له، على شريطة أن يتلقاها بعزيمة ونية صادقة، كما جاء في الحديث: «إنَّما الأعمال بالنيات وإنَّما لكل امرىء ما نوى». أما من تلقاها بغير

---

(١) المراغي.

قصد أو بنية كسب المال والجاه، وفي نفسه ما يصرفه عنها.. فلن يستفيد منها شيئاً، وسرعان ما ينسلخ منها.

وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا، وشهوات النفس، ويتبعون الهوى، وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى خص هذا الرجل بآياته وحكمته، وعلمه اسمه الأعظم، وجعل دعاءه مستجاباً، ثم إنَّه لما اتبع هواه، وركب إلى الدنيا، ورضي بها عوضاً عن الآخرة.. نزع منه ما كان أعطيه، وانسلخ من الدين، فخسر الدنيا والآخرة، ومن الذي يسلم من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى إلا من عصمه الله بالورع، وثبته بالعلم، وبصره بعيوب نفسه.

وعن كعب بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» أخرجه الترمذي. ثم ضرب الله تعالى مثلاً لهذا الرجل الذي آتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾؛ أي: مثل هذا المنسلخ عن آيات الله تعالى وصفته في الدناءة والخسة، ولزوم حاله له ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾؛ أي: كصفة الكلب الذي صار لهث اللسان طبيعة له ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ أيها المخاطب؛ أي: إن تزجره وتطرده ﴿يَلْهَثْ﴾؛ أي: يخرج لسانه مع التنفس الشديد ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾؛ أي: تترك ذلك الكلب غير مطرود ﴿يَلْهَث﴾؛ أي: يخرج لسانه مع التنفس؛ أي:[1] إن شددت عليه وأجهدته لهث، أو تركته على حاله لهث، لأن اللهث طبيعة أصلية فيه، فكذلك حال الحريص على الدنيا، إن وعظته.. فهو حرص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه، وإنْ تركته ولم تعظه.. فهو حريص أيضاً؛ لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة، كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب اهـ. «خازن».

وعبارة الشوكاني هنا قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾؛ أي:[2] فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة، مماثلاً له في أقبح أوصافه، وهو أنه يلهث في كلا حالتي قصد

(١) الخازن.   (٢) الشوكاني.

الإنسان له وتركه فهو لاهث، سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شد عليه أو لم يشد عليه، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء، وجملة قوله: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ في محل النصب على الحال؛ أي: مثله كمثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة، والمعنى: إن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الواعظ، وذكره المذكر، وزجره الزاجر، أو لم يقع شيء من ذلك، قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب؛ فإنَّه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال المرض، وحال الصحة وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، فقال: إن وعظته ضل، وإنْ تركته ضل، فهو كالكلب، إن تركته لهث، وإن طردته لهث كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾، واللهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش، أو غير ذلك مع التنفس الشديد، وقيل معنى الآية: إنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هارباً، وإنْ تركته شد عليك ونبح فيتعب نفسه مقبلاً عليك، ومدبراً عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان. انتهت.

والمعنى(١): أن هذا الرجل كالكلب في صفته هذه، وهي أقبح حالاته وأخسها، فهو لإخلاده وميله إلى الدنيا واتباعه هواه يكون كذلك في أسوء حال، فهو في هم دائب، وشغل شاغل في جمع عرض الدنيا وزخرفها ـ يعني بخسيس أمورها وجليلها ـ كشأن عباد الأهواء وطلاب الأموال، ترى المرء منهم كاللاهث من الإعياء والتعب، وإنْ كان ما يعنى به حقيراً لا يتعب ولا يعيي، وتراه كلما أصاب سعة وبسطة في الدنيا.. زاد طمعاً فيها كما قال الأول:

فَمَا قَضَىٰ أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَلاَ ٱنْتَهَىٰ أَرَبٌ إِلاَّ إِلَىٰ أَرَبِ

والإشارة بقوله: ﴿ذَّٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾؛ أي: ذلك المثل الخسيس مثل القوم؛ أي: تلك الصفة الخسيسة الدنيئة المذكورة في المنسلخ عن

---

(١) المراغي.

آياتنا صفة ليست خاصة به، بل هي صفة عامة قائمة بجميع القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود والمشركين وغيرهم، بعد أن علموا بها وعرفوها فحرفوا، وبدلوا وكتموا صفة محمد ﷺ، وكذبوا بها، فعم[1] هذا المثل جميع من كذب بآيات الله تعالى وجحدها، فوجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث: أنَّهم إذا جاءتهم الرسل ليهدوهم.. لم يهتدوا، وإنْ تركوهم لم يهتدوا أيضاً، بل هم ضلال في كل حال.

أي[2]: ذلك المثل البالغ في الغرابة، مثل هؤلاء القوم الذين جحدوا بآياتنا واستكبروا عنها، جهلاً بها وتقليداً للآباء والأجداد، فهم قد ظنوا أن إيمانهم بها يسلبهم العزة، ويحط من أقدارهم، ويحول بينهم وبين ما يستمتعون به من اللذات، فكان ذلك حجاباً حائلاً بينهم وبين النظر فيها نظر تبصر واستدلال، وإنْ كانوا نظروا إليها من تلك الناحية التي تروق لهم - وهي حرمانهم من التمتع بالحظوظ والشهوات - إلى ما فيها من الاعتراف بضلال السلف من الآباء والأجداد، فما أشبه حالهم، بحال من أوتي الآيات فانسلخ منها، وذلك ليس بعيب فيها، بل العيب عليه باتباعه هواه الذي حرمه من الانتفاع بها، قال بعضهم:

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ مِنْ رَمَدِ ... وَيُنْكِرُ ٱلْفَمُ طَعْمَ ٱلْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

﴿فَٱقْصُصِ﴾ يا محمد على هؤلاء المكذبين لك من اليهود وغيرهم هذا ﴿ٱلْقَصَصَ﴾ الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن آياتنا؛ فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم، فالقصص مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: أخبرهم هذا الخبر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك، ويعملون فيه أفهامهم، فينزجرون عن الضلال، ويقبلون على الصواب.

قال أبو السعود[3]: وجملة الترجي في محل نصب على أنها حال من ضمير

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) أبو السعود.

المخاطب، أو على أنَّها مفعول له؛ أي: فاقصص القصص راجياً لتفكرهم، أو رجاء لتفكرهم. انتهى.

والخلاصة: فاقصص[1] أيها الرسول الكريم قصص ذلك الرجل الذي تشبه حاله حال أولئك المكذبين بما جئت به من الأيات البينات رجاء أن يتفكروا فيه، فيحملهم سوء حالهم، وقبح مثلهم على إطالة التأمل والتفكر في المخلص مما هم فيه، والنظر في الآيات بعين البصيرة لا بعين الهوى والعداوة، إذ هو من القصص الذي لا يعلمه إلا من درس الكتب، إذ هو من خفي أخبارهم، ففي إخبارك بذلك أعظم معجز.

﴿سَآءَ﴾ وقبح من جهة كونه ﴿مَثَلًا﴾ وصفة مثل ﴿ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بعد قيام الحجة عليها، وعلمهم بها وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُوا۟﴾ فهو داخل مع حكم الصلة، أي: ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وكانوا يظلمون أنفسهم بذلك التكذيب؛ أي: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله، وظلم أنفسهم خاصة؛ أي: ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها.

والمعنى[2]: قبحت صفة أولئك القوم في الصفات، وساء مثلهم في الأمثال، بإعراضهم عن التفكر في الآيات، وبالنظر إليها نظر عداوة وبغضاء، وهم بعملهم هذا إنَّما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها، وجعلها السبيل الموصلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وقرأ[3] الحسن وعيسى ابن عمر والأعمش ﴿ساء مثل﴾ بالرفع ﴿القوم﴾ بالجر، واختلف على الجحدري، فقيل: كقراءة الأعمش، وقيل بكسر الميم وسكون الثاء وضم اللام مضافاً إلى القوم. ولم يبين الكتابُ الكريم اسمَ من ضرب به المثل ولا جنسه ولا وطنه، ولا جاء في السنة الصحيحة شيء من ذلك، فلا حاجة لنا في العظة إلى بيانه، ولرواة

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

التفسير بالمأثور روايات كثيرة في شأنه كما ذكرنا في مبحث أسباب النزول، وبالجملة فهذه الروايات الإسرائيلية لا يعتد بها، وليست بحجة في بيانه.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من يوفقه الله تعالى لسلوك سبيل الهداية باستعماله عقله وحواسه فيما خلقا له، بمقتضى الفطرة وإرشاد الدين ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ الذي شكر نعم الله عليه، وأدى حقه عليه، ففاز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وفي[1] «السمين»: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ راعى لفظ ﴿مَن﴾ فأفرد، وراعى معناها في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فجمع، وياء ﴿ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ ثابتة عند جميع القراء لثبوتها في الرسم، وسيأتي لك خلاف في التي في الإسراء والكهف، وبحثها، وقال الواحدي: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ يجوز إثبات الياء فيه على الأصل، ويجوز حذفها استخفافاً اهـ.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾؛ أي: ومن يخذله ويحرمه التوفيق، فيتبع شيطانه وهواه، ويترك استعمال عقله وحواسه في فقه آياته، وشكر ما أنعم به عليه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: فهو الكفور الضال، الذي خسر سعادة الدنيا وسعادة الآخرة إذ هو قد خسر تلك المواهب التي كان بها إنساناً مستعداً للسعادتين الدنيوية والأخروية؛ أي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالضلالة ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران في الدنيا والآخرة، فالهداية والضلالة من جهة الله تعالى، وإنما العظة والتذكير من جهة الوسائط العادية في حصول الاهتداء، من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعي إلى صرف العبد اختياره جهة تحصيله، كسائر أفعال العباد. ولا شك أن الهداية الإلهية نوع واحد وهو الإيمان الذي ثمرته العمل الصالح، أما أنواع الضلال فلا حصر لها، يرشد إلى ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ ثم فصل سبحانه ما أجمله في الآية السالفة مع بيان سببه فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد خلقنا في العالم ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ

---

(١) الفتوحات.

﴿وَٱلۡإِنسِۖ﴾؛ أي: خلقاً كثيراً منهما لسكنى جهنم، والمقام فيها، وهم الذين حقت كلمة العذاب عليهم، وخلقنا للجنة مثل ذلك بمقتضى استعداد الفريقين كما قال: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ وقال: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾. ومن خلقه للنار فلا حيلة له في الخلاص منها؛ أي: خلق خلقاً كثيراً من النوعين لسكنى جهنم بحكم القبضة الإلهية حين قبض قبضة وقال: هذه للجنة ولا أبالي، وقبض قبضة وقال: هذه للنار ولا أبالي، وقوله: ﴿كثيراً﴾ يؤخذ منه أن أهل النار أكثر من أهل الجنة، وهو كذلك لما ورد من أنه من كل ألفٍ واحدٌ للجنة والباقي للنار، ثم بين سبب كونهم معدين لجهنم، وصفاتهم المؤهلة لذلك فقال: ﴿لَهُمۡ﴾؛ أي: لأولئك الكثير ﴿قُلُوبٞ﴾ وعقول ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾؛ أي: لا يعقلون ولا يفهمون بها الخير والهدى؛ أي: إنَّهم لا يفقهون بقلوبهم ما تزكو به أنفسهم من توحيد الله، المبعد لها عن الخرافات والأوهام، وعن الذلة والصغار؛ فإن من يعبد الله تعالى وحده.. تسمو نفسه بمعرفته، فلا تذل بدعاء غيره، ولا الخوف منه ولا الرجاء فيه، والاتكال عليه، بل يطلب من الله ما يحتاج إليه، فإن كان مما أقدر الله عليه خلقه بإعلامهم بأسبابه، وتمكينهم منها.. طلبه بسببه مع مراعاة سننه في خلقه، وإنْ لم يكن كذلك.. توجه إلى الله لهدايته إلى العلم بما لم يعلم من سببه، وإقداره على ما يقدر عليه من وسائله، أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه، كالأطباء لمداواة الأمراض، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال، والعلماء الراسخين للفتوى في المسائل العلمية، وحل إشكال ما غمض من حقيقتها.

﴿وَلَهُمۡ﴾؛ أي: ولأولئك الكثير ﴿أَعۡيُنٞ﴾ وأبصار ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ إبصار تأمل وتفكر في مصنوعات الله ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ﴾ وأسماع ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ سماع اعتبار واتعاظ في مصنوعاته؛ أي: فهم لا يفهمون بقلوبهم، ولا يبصرون بأعينهم، ولا يسمعون بآذانهم ما يرجع إلى مصالح الدين؛ أي: وكذلك لهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات الله في خلقه، وفيما يسمعون من آياته المنزلة على رسله، ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه في خلقه، فيهتدوا بكل منها إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، فالآذان إنَّما خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع، والأبصار إنَّما خلقت لينتفع بكل ما يبصر، وإنَّما يكون

ذلك بتوجيه الإرادة والقصد إلى استعمال كل منهما فيما خلق له، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وا أسفا للمسلمين أصبحوا اليوم أشد الناس إهمالاً لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم في النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق، وصاروا أجهل الشعوب بالعلوم التي تعرف بها آياته في مشاعر الإنسان، وانفعالاته النفسية، وقواه العقلية، وآياته في الحيوان والنبات، والجماد والهواء، والماء والبخار، وسنن النور والكهرباء، والعلوم الفلكية. ومن أصاب منهم حظاً من معرفتها فإنَّما يعرفها للانتفاع بها في الحياة الدنيا، من غير مراعاة أنَّها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً مدبراً عليماً قديراً رحيماً، يجب أن يعبد وحده وأن يخشى ويحب فوق كل أحد، وأنْ تكون معرفته منتهى كل غاية من هذه الحياة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ من إبل وبقر وغنم، فهم لا حظ لهم من عقولهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشهم في هذه الحياة. ﴿بَلْ هُمْ﴾؛ أي: بل هؤلاء الموصوفون بالصفات المذكورة ﴿أَضَلُّ﴾ وأجهل وأخطأ من الأنعام؛ لأنَّها تعرف صاحبها وتطيعه، وهؤلاء الكفار لا يعرفون ربهم ولا يطيعونه؛ أي: بل هم أضل سبيلاً منها، إذ هذه البهائم لا تجني على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها، وجمع حاجاتها، لكن عبيد الشهوات يسرفون في كل ذلك إسرافاً عظيماً، قد تتوالد منه الأمراض الكثيرة، كما قد يجاهدون هذه الشهوات جهاداً يفرطون فيه بحقوق البدن، فلا يعطونه ما يكفيه من الغذاء، ويقصرون في الحقوق الزوجية، فيجنون على أشخاصهم وعلى النوع كله بالتفريط، كما يجني عليهما عبيد الشهوات بالإفراط، وهداية الإسلام تحظر هذا وذاك، وتوجب الأكل من الطيبات بشرط عدم الإسراف، ولو سلكوا مسلك الإهتداء بالقرآن في فهم أسرار الخلق، ومعرفة منافعه.. لاستفادوا السعادة في معاشهم، والاستعداد لمعادهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ والساهون عما فيه صلاحهم في الحياتين، أو عما أعد الله لأوليائه من الثواب، ولأعدائه

من العقاب، وهم في الغفلة على درجات، فمنهم الغافلون عن آيات الله في الأنفس والآفاق التي تهدي العبد إلى معرفة ربه، والغافلون عن استعمال مشاعرهم وعقولهم في أفضل ما خلقت لأجله، والغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية والقومية والدينية.

والخلاصة: أنّ أهل النار هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون عقولهم في فقه حقائق الأمور، وأبصارهم وأسماعهم في استنباط المعارف، واستفادة العلوم، ولا في معرفة آيات الله الكونية، وآياته التنزيلية، وهما سبب كمال الإيمان والباعث النفسي على كمال الإسلام ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها، لدلالتها على أحسن المعاني وأشرفها. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾؛ أي: فادعو الله سبحانه وتعالى وسموه ونادوه﴿بِهَا﴾؛ أي: بتلك الأسماء عند الدعاء لحوائجكم، وعند الذكر والثناء عليه، كأن تقول: يا الله يا رحمن يا رحيم؛ أي: فاذكروه ونادوه بها إما للثناء عليه نحو ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ونحو: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ وإما لدى السؤال، وطلب الحاجات، وذكر الأسماء الحسنى في أربع سور من القرآن:

أولها: هذه السورة.

ثانيها: في آخر سورة الإسراء في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾.

وثالثها: في أول طه في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

رابعها: في آخر الحشر في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. اهـ. الخطيب.

وللذكر فوائد: منها تغذية الإيمان، ومراقبة الله تعالى، والخشوع له، والرغبة فيما عنده، واحتقار آلام الدنيا، وقلة المبالاة بما يفوت المؤمن من نعيمها، ومن ثم جاء في الحديث: «من نزل به غم أو كرب أو أمر مهم فليقل:

لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم» رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وروى الحاكم في «المستدرك» عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

وأسماء الله كثيرة، وكلها حسنى لدلالة كل منها على منتهى كمال معناه، وتفضيلها على ما يطلق منها على المخلوقين، كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم.

وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها.. دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر». وفي رواية: «من أحصاها» في رواية أخرى: «لله تسعة وتسعون اسماً، مئة إلا واحداً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». قال البخاري: أحصاها: حفظها. وفي رواية الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة:

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز، الجبار المتكبر، الخالق البارىء المصور، الغفار القهار، الوهاب الرزاق، الفتاح العليم، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف الخبير، الحليم العظيم، الغفور الشكور، العلي الكبير، الحفيظ المقيت، الحسيب الجليل، الكريم الرقيب، المجيب الواسع، الحكيم الودود، المجيد الباعث، الشهيد الحق، الوكيل القوي، المتين الولي، الحميد المحصي، المبدىء المعيد، المحي المميت، الحي القيوم، الواجد الماجد، الواحد الصمد، القادر المقتدر، المقدم المؤخر، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الوالي المتعال، البر التواب، المنتقم العفو،

الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، المقسط الجامع، الغني المغني، المانع الضار النافع، النور الهادي، البديع الباقي، الوارث الرشيد الصبور» وقد شرحت معاني هذه الأسماء كلها في كتابي «هدية الأذكياء على طيبة الأسماء منظومة الأسماء الحسنى» لرستم الحلبي، فراجعه إن شئت.

وقد اختلف[1] المحدثون في سرد هذه الأسماء، هل هو مرفوع أو مدرج في الحديث من بعض الرواة؟ والثاني هو الراجح، ومن ثم لم يخرجه الشيخان لتفرد الوليد بن مسلم به واحتمال الإدراج كما قاله الحافظ بن حجر في «الفتح».

﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾؛ أي: فادعوا[2] بأسمائه التي سمى بها نفسه، أو سماه بها رسوله، ففيه دليل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية، ومما يدل على صحة هذا القول ويؤكده أنَّه يجوز أن يقال: يا جواد، ولا يجوز أن يقال: يا سخي، ويجوز أن يقال: يا عالم، ولا يجوز أن يقال: يا عاقل، ويجوز أن يقال: يا حكيم، ولا يجوز أن يقال: يا طبيب.

وللدعاء بها شروط: منها أن يعرف الداعي معاني الأسماء التي يدعو بها، ويستحضر في قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى، ويخلص النية في دعائه، مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس لله، ويعزم المسألة مع رجاء الإجابة، ويعترف لله سبحانه وتعالى بالربوبية، وعلى نفسه بالعبودية، فإذا فعل العبد ذلك.. عظم موقع الدعاء، وكان له تأثير عظيم.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ تعالى؛ أي[3]: واتركوا أيها المؤمنون تسمية الذين يزيفون ويميلون عن الحق في أسمائه تعالى، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، يا سخي يا عاقل، أو بما يوهم معنى فاسداً، كقولهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه، كقولهم: ما نعرف إلا رحمن اليمامة، أو: وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام،

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.
(٣) البيضاوي.

واشتقاق أسمائها منها، كاللات من الله، والعزى من العزيز، ولا توافقوهم عليه، أو: أعرضوا عنهم، فإنَّ الله سبحانه وتعالى مجازيهم كما قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لأنَّهم سيلقون جزاء عملهم، وتحل بهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، فاجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم مثل ما يصيبهم، وهذا تهديد لمن ألحد في أسمائه تعالى، وهذا قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ بآية السيف، وقرأ حمزة ﴿يَلحدون﴾ بفتح الياء والحاء هنا وفي فصلت والنحل، ووافقه عاصم والكسائي في النحل، يقال: لحد وألحد إذا مال عن الحق، وهي قراءة ابن وثاب والأعمش وطلحة وعيسى، وقرأ باقي السبعة بضم الياء وكسر الحاء فيهن من ألحد الرباعي.

فصل في الإلحاد

في أسمائه تعالى وأقسامه

والإلحاد ضربان[1]: إلحاد إلى الشرك بالله وهو ينافي الإيمان ويبطله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب كأن ينظر إليها مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيره، أو يعتقد أنَّها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى، وهذا يوهن عرا الإيمان، ولا يبطله.

والخلاصة: أن الإلحاد في أسمائه الحسنى أقسام:

١ ـ تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه في كتابه أو ما صح من حديث رسوله ﷺ، فقد اتفق أهل الحق على أن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية؛ أي: تحتاج إلى إذن من الشارع لصحة إطلاقها عليه تعالى، وكل ما ورد في الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاء ووصفاً له، وإخباراً عنه، يصح إثباته له، ويمنع كل ما دلت على منعه، قال في «الكشاف»: كقول أهل البدو: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا سخي.

(١) المراغي.

٢ ـ ترك تسميته بما سمى به نفسه، أو وصفها به، أو ترك إسناد ما أسنده تعالى إلى نفسه من الأفعال، بناء على أن ذلك لا يليق به تعالى، أو أنَّه يوهم نقصاً في حقه، كأن هؤلاء الملحدين أعلم منه ومن رسوله ﷺ بما يليق به وما لا يليق.

٣ ـ تغيير أسمائه بوضعها لغيره مما عبد من دونه، كاللات والعزى.

٤ ـ تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضرب من التأويل، فقد ذهب جماعة من المسلمين إلى جعل الرب القدوس الذي ليس كمثله شيء كرجل من خلقه؛ لأنَّه تعالى وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك، كالسمع والبصر والكلام، والوجه، واليد، والرجل، والضحك، والرضا والغضب، وذهبوا إلى تأويل جميع صفاته تعالى حتى جعلوها كالعدم.

٥ ـ إشراك غيره فيما هو خاص به من أسمائه باللفظ، كاسم الجلالة الله، والرحمن، ورب العالمين، وما في معناه كرب السماء والأرض، أو رب الكعبة أو رب البيت (الكعبة) كما قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾.

٦ ـ إشراك غيره في كمال أسمائه، كمن يزعم أو يعتقد أن لغيره تعالى رحمة كرحمته، ورأفة كرأفته، وغير ذلك من معاني أسمائه، كالمجيب مثلاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وبعض الذين يدعون غير الله تعالى من الموتى يعتقدون أنَّهم أسرع وأقرب في إجابتهم من الله تعالى، فيجمعون بذلك بين شركين، شرك دعاء غير الله مع اعتقاد إجابته، وشرك الكفر بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة الإجابة مع أن الله يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؛ أي: لا يجيب المضطر إلا هو، فهو المستحق وحده للعبادة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة وعصابة كثيرة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ويدلونهم على الاستقامة حالة كونهم ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل والصواب ﴿وَبِهِ﴾؛ أي: وبالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يحكمون بين الناس في الحكومات والخصومات الجارية فيما بينهم، ولا يجورون فيها، والمعنى: وبالحق خاصة يجعلون الأمور متعادلة، لا

زيادة في شيء منها على ما ينبغي، ولا نقص، لأنّا وفقناهم فكشفنا عن أبصارهم حجاب الغفلة التي ألزمناها أولئك المتقدمين، والمعنى[1]: ويكون ممن خلقنا جماعة كبيرة مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة يهدون الناس بالحق، ويدلونهم على الاستقامة، وبالحق يحكمون في الحكومات التي تجري بينهم، ولا يجورون في حكمهم، فسبيلهم واحدة؛ لأن الحق واحد لا يتعدد، وهؤلاء هم أمة محمد ﷺ.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «هذه أمتي بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون»، وأخرج عبد الله بن حميد وابن المنذر عن قتادة فيها قال: بلغنا أنَّ النبي ﷺ كان يقول إذا قرأها: «وهذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها» ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال: لتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة، يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ فهذه هي التي تنجو من هذه الأمة.

وروى الشيخان عن معاوية قال ـ وهو يخطب ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» وفي الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به، ويهدي إليه.

ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة.. بين حال من يخالفهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآنية والكونية التي جاء بها محمد ﷺ، وهم جميع أنواع الكفرة من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ أي: سنأخذهم قليلاً قليلاً ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من حيث لا يحتسبون الهلاك والأخذ ولا يظنونه، وقيل معناه[2]: سنقربهم إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

ما يراد بهم؛ لأنَّهم كانوا إذا أتوا بجرم، أو أقدموا على ذنب.. فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا، فيزدادون بذلك تمادياً في الغي والضلال، ويتدرجون في الذنوب والمعاصي، فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه، والمعنى: أي: والذين كذبوا بآيات الله، ولم يؤمنوا بها سندعهم ونتركهم يسترسلون ويستمتعون في غيهم وضلالهم، لا يدرون شيئاً من عاقبة أمرهم لجهلهم سنن الله تعالى في المنازعة بين الحق والباطل، وأن الحق يدفع الباطل، وما ينفع الناس يتغلب على ما يضرهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وقال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾.

وقد صدق الله وعده، فقد كان كفار قريش وصناديدها يبالغون في عداوة النبي ﷺ اغتراراً بكثرتهم وثروتهم، لا يعتدون به ولا بغيره ممن آمن به أولاً، وأكثرهم من الضعفاء الفقراء، فما زالوا يتدرجون في عداوتهم له، وقتالهم إياه حتى أظهره الله تعالى عليهم في غزوة بدر، فلم يعتبروا، ثم زادهم غروراً تغلبهم عليه آخر معركة أحد، حتى قال أبو سفيان يوم بيوم بدر، إلى أن كان الفتح الأعظم فتح مكة، فأظهر رسوله ﷺ ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سننه تعالى.

وأثر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لما حملت إليه كنوز كسرى: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً، فإني سمعتك تقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ وقرأ بعضهم: ﴿سيستدرجهم﴾ بالياء فيحتمل أن يكون الفاعل الله سبحانه، وهو التفات من التكلم إلى الغيبة، وأن يكون الفاعل ضمير التكذيب المفهوم من قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾؛ أي: وأمهل لهؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر، وأمد لهم في أسباب المعيشة، والتدرب على الحرب بمقتضى سنني في نظام الاجتماع البشري، كيداً لهم ومكراً بهم، لا حباً فيهم، ونصراً لهم، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وروى الشيخان من حديث أبي موسى: «إن الله ليمد للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

وخلاصة ذلك: أنَّ سنة الله قد مضت في الأمم والأفراد بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق، فالظالم إذا لم ينزل به العقاب عقب ظلمه ازداد بغياً وظلماً، ولا يحسب للعواقب حساباً، فيسترسل في ظلمه إلى أن تحيق عاقبة ظلمه في الدنيا بأخذ الحكام له، أو بوقوعه في المصائب والمهالك، وله في الآخرة عذاب النار، وبئس القرار.

﴿إِنَّ كَيۡدِى مَتِينٌ﴾؛ أي: إنَّ استدراجي ومكري وأخذي قوي لا يدافع بقوة، ولا بحيلة، وسمى العذاب كيداً لأنَّ ظاهره إحسان ولطف، وباطنه خذلان وقهر، وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر: ﴿أنَّ كيدي﴾ بفتح الهمزة على معنى: لأجل أن كيدي. وقرأ الجمهور بكسرها على الاستئناف، والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: أكذبوا بآياتنا ولم يتفكروا فيها فيعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾؛ أي: شيء من جنون؛ أي: أكذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من بدء نشأته، وفي حقيقة دعوته، ودلائل رسالته، وآيات وحدانية الله وقدرته على إعادة خلقه كما بدأهم.

إنَّهم إنْ تفكروا في ذلك ملياً.. أوشكوا أن يعرفوا الحق، وما الحق إلا أن صاحبهم ليس به جنة، وقد حكى الكتاب الكريم أنَّهم رموه بالجنون كقوله في كفار مكة: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ وقوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾.

وعبر عنه ﷺ بصاحبهم للإعلام بأن طول مصاحبتهم له ﷺ مما يطلعهم على نزاهته ﷺ عن شائبة الجنون.

وقد جرت عادة الكفار أن يرموا رسلهم بالجنون؛ لأنَّهم ادعوا أن الله خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشراً كغيرهم، لا يمتازون من سائر الناس بزعمهم؛ ولأنَّهم ادعوا ما لم يعهد له نظير عندهم، فقد حكى الله عن قوم نوح أنَّهم اتهموه بالجنون فقالوا: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ

﴿وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾. وقال في شأنهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾. وقال حكاية عن فرعون في موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾. وقد بين سبحانه ذلك على وجه عام فقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾. ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما صاحبكم محمد ﷺ ﴿إِلَّا﴾ رسول ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: مخوف من عذاب الله لمن كذب به ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: مظهر لهم في التخويف بلغة يعرفونها؛ أي: إنَّه ليس بمجنون بل هو منذر ناصح، ومبلغ عن الله تعالى، فهو ينذركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له، وقد دعاكم إلى ما فيه صلاحكم في الدنيا بجمع الكلمة، وصلاح حال الفرد والمجتمع، والسيادة على من سواكم، وصلاحكم في الآخرة بلقاء ربكم وأنتم في جنان النعيم.

ولو تأمل مشركوا مكة في نشأته ﷺ - وما جربوا من أمانته وصدقه - إلى أن اكتهل، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته وحده، وما دعاهم إليه من إصلاح في حالهم الدينية والمدنية والاجتماعية.. لعلموا أن هذا كله لا يصدر من مجنون، بل الذي يقتضيه العقل، ويسرع إليه الفكر أن هذا ليس من رأي ذلك النبي الأمي الناشىء بين الأميين، وأنَّ ما أقامه من الحجج والبراهين العقلية والكونية على ما يدعي لا يصدر ممن لم يناظر، ولم يفاخر، ولم يجادل أحداً فيما مضى، إن هو إلا وحي من الله ألقاه في روعه، ونزل من لدنه على روح القدس، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ للاستفهام التوبيخي التعجبي، داخلة على محذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف تقديره: أكذبوا الرسول الذي علموا صدقة وأمانته وقالوا: إنه مجنون، وهو الذي شهر لديهم بالروية والعقل، ولم ينظروا نظرة تأمل واستدلال في هذا الكون العظيم من السموات والأرض، فيروا ذلك النظام البديع فيهما الدال على القدرة الباهرة والحكمة الظاهرة ﴿و﴾ لم ينظروا في ﴿ما خلق الله﴾ سبحانه وتعالى فيهما ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأجناس التي لا يحصرها عدد، وإن دق وصغر، فإنَّهم لو تأملوا

في كل ذلك.. لرأوا آثار قدرته وعلمه وفضله ورحمته، وأنَّه لم يخلق شيئاً من ذلك عبثاً، ولا ترك الناس سدى، إنَّ كل ذرة فيهما لدليل لائح على الصانع المجيد، وسبيل واضح إلى التوحيد.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

إنهم لو نظروا في شيء من ملكوت السموات والأرض.. لاهتدوا بدلائله إلى تصديق الرسول ﷺ وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ معطوف[١] على ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و ﴿أَن﴾ مصدرية أو مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وكذا اسم ﴿يَكُونَ﴾ ضمير الشأن، والمعنى: أولم ينظروا في اقتراب آجالهم، وتوقع حلولها، فيسارعون إلى طلب الحق، والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مغافصة[٢] الموت، ونزول العذاب، فإنهم لو نظروا في توقع قرب آجالهم وقدومهم على ربهم بسوء عملهم.. لاحتاطوا لأنفسهم، ورأوا أنَّ من الحكمة أن يقبلوا إنذاره ﷺ لهم، فما جاءهم به لا ينكرون أنَّه خير لهم في الدنيا، وخير لهم في الآخرة إذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء، وهو صدق وحق لا شك فيه.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ وكتاب ﴿بَعْدَهُۥ﴾؛ أي: بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون إن لم يؤمنوا به، وهو أكمل كتب الله تعالى بياناً، وأقواها برهاناً، فمن لم يؤمن به.. فلا مطمع في إيمانه بغيره، وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وهي جملة استفهامية سيقت للعجب؛ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث.. فكيف يؤمنون بغيره.

والمعنى[٣]: فبأي كتاب بعد الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ يصدقون إنْ لم يصدقوا به، وليس بعد محمد نبي، ولا بعد كتابه كتاب؛ لأنَّه خاتم الأنبياء، وكتابه آخر الكتب لانقطاع الوحي بعد محمد ﷺ؟ ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان فقال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من يرد الله سبحانه وتعالى إضلاله عن الحق والصواب: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾؛ أي: فلا مرشد له إلى الحق، فإنَّ إعراضهم

---

(١) البيضاوي.

(٢) مغافصة الموت: مفاجئة الموت.

(٣) الخازن.

عن الإيمان لإضلال الله إياهم؛ أي: إن الله تعالى قد جعل هذا الكتاب أعظم أسباب الهداية للمتقين لا للجاحدين المعاندين، وجعل الرسول المبلغ له أقوى الرسل برهاناً، وأكملهم عقلاً وأجملهم أخلاقاً، فمن فقد الاستعداد للإيمان بهذا الكتاب وهذا الرسول.. فهو الذي أضله الله؛ أي: هو الذي قضت سنته في خلق الإنسان، وارتباط أعماله بأسباب تترتب عليها مسبباتها، بأن يكون ضالاً راسخاً في الضلال، وإذا كان ضلاله بمقتضى تلك السنن.. فمن يهديه من بعد الله؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير تلك السنن وتبديلها ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾؛ أي: وهو سبحانه وتعالى يذر هؤلاء الضالين ويتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يتحيرون يترددون حيرة، ولا يهتدون سبيلاً للخروج مما هم فيه، بما كسبت أيديهم من الطغيان، وتجاوز الحد في الظلم والفجور.

والخلاصة(١): أنَّه ليس معنى إضلال الله لهم أنَّه أجبرهم على الضلال وأعجزهم بقدرته عن الهدى، فكان ضلالهم جبراً لا اختياراً، بل المراد أنَّهم لما مرنت قلوبهم على الكفر والضلال، وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمه في الطغيان.. فقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضادها من الهدى والإيمان، فأصبحت نفوسهم لا تستنير بالهدى، وقلوبهم لا ترعوي لدى الذكرى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقرأ الحسن(٢) وقتادة وأبو عبد الرحمن وأبو جعفر والأعرج وشيبة ونافع وابن كثير وابن عامر: ﴿ونذرهم﴾ بالنون ورفع الراء، وأبو عمرو وعاصم: بالياء ورفع الراء، وهو استئناف إخبار قطع أو أضمر قبله نحن، فيكون جملة اسمية، وقرأ ابن مصرف والأعمش والأخوان - حمزة والكسائي - وأبو عمرو فيما ذكر أبو حاتم: بالياء والجزم، وروى خارجة عن نافع: بالنون والجزم، وخرج سكون الراء على وجهين:

أحدهما: أنَّه سكن لتوالي الحركات، كقراءة: ﴿وما يشعركم وينصركم﴾ فهو مرفوع.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

والآخر: أنَّه مجزوم عطفاً على مَحلَ ﴿فَلَا هَادِىَ لَمُۥ﴾؛ فإنه في موضع جزم، فصار مثل قوله: ﴿فهو خير لكم ونكفر﴾: في قراءة من قرأ بالجزم، في (راء) و ﴿نكفر﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: يسألك يا محمد كفار قريش سؤال استهزاء وسخرية ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: عن وقت قيام الساعة ومجيء القيامة، والساعة من الأسماء الغالبة، كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة على حين غفلة من الناس، أو لأنَّ حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة، أو لأنَّها مع طولها في نفسها عند الخلق كساعة من الساعات عند الله.

وهذا كلام مستأنف مسوق لبيان بعض أنواع ضلالهم وطغيانهم؛ أي: يسألونك عن الساعة بقولهم ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ أي: متى إرساؤها ووقوعها وحصولها، وكأنه شبهها بالسفينة القائمة في البحر تشبيهاً للمعاني بالأجسام، والساعة الوقت الذي تموت فيها الخلائق، وقرأ الجمهور: ﴿أيان﴾ بفتح الهمزة، والسلمي بكسرها حيث وقعت، وهي لغة قومه بني سليم. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في جواب سؤالهم ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾؛ أي: علم وقت مجيئها كائن ﴿عِندَ رَبِّى﴾ سبحانه قد انفرد بعلمها، بحيث لم يخبر به أحداً من ملك مقرب، أو نبي مرسل؛ أي: ما علمها حاصل إلا عند الله سبحانه وتعالى، والمعنى: يسألونك أيها الرسول عن الساعة يقولون: متى إرساؤها واستقرارها؟ - والسائلون هم قريش - لأنَّ السورة مكية ولم يكن في مكة أحد من اليهود، وسؤالهم عن هذا الوقت استبعاد منهم لوقوعه، وتكذيب بوجوده، كما جاء حكاية عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾. وفي التعبير عن زمن وقوعها - بالإرساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والاضطراب - إيماء إلى أنَّ قيام الساعة هو انتهاء أمر هذا العالم، وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بما فيها من العوالم المتحركة المضطربة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾؛ أي: قل إن علم الساعة عند ربي وحده، لا عندي ولا عند غيري من الخلق، وقد جاء بمعنى الآية قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾ إشارة إلى أنَّ ما هو من شأن الرب لا يكون للعبد، فالله قد أعد نبيه ليكون منذراً ومبشراً، والإنذار إنَّما يكون بالساعة وأهوالها، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها، إذ تحديد ذلك ينافي هذه الفائدة، بل فيه مفاسد، إذ لو وقت الرسول ميعاد الساعة بتاريخ معين لاستهزأ به المكذبون، ولألحوا في تكذيبه، وازدادوا ارتياباً، حتى إذا ما وقع الأجل وقع المؤمنون في رعب عظيم، ينغص عليهم حياتهم، ويشنج أعصابهم، فلا يستطيعون عملاً، ولا يستسيغون طعاماً ولا شراباً، ويسخر الكافرون من المؤمنين.

والخلاصة: أن هناك حكمة بالغة في إبهام أمر الساعة العامة للعالم، والساعة الخاصة بالأفراد والأمم والأجيال يجعلها من الغيب الذي استأثر الله تعالى به.

﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾؛ أي: لا يظهر أمرها الذي تسألونني عنه ﴿لِوَقْتِهَآ﴾؛ أي: في وقتها المعين لها ﴿إِلَّا هُوَۚ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: لا يقدر على إظهار وقتها المعين بالإخبار عنه إلا هو سبحانه وتعالى، والمعنى: لا يكشف حجاب الخفاء عنها، ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الله تعالى، إلا هو سبحانه، إذ لا وساطة بينه وبين عباده في إظهارها، ولا في الإعلام بميقاتها، وإنَّما وساطة الرسل في الإنذار بها.

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾؛ أي: ثقل وصعب تحصيل العلم بوقتها على أهل السموات والأرض، فلم يعلم أحد من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين متى وقوعها، وقيل المعنى: ثقل وقتها، وعظم أمرها في السموات والأرض على أهلهما من الملائكة والإنس والجن؛ لأنَّ الله تعالى أنبأهم بأهوالها، ولم يشعرهم بميقاتها، فهم دائماً يتوقعون أمراً عظيماً لا يدرون متى يفجؤهم قيامها.

وقال السدي: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها ملَك مقرب ولا نبي مرسل. وقال ابن عباس: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه ضرر يوم القيامة. وروي عن ابن جريج: أن ثقلها يكون يوم مجيئها ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ إلى نحو ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ الساعة أيها السائلون عنها ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾؛ أي: إلا فجأة وحين غفلة من الخلق بلا إشعار ولا إنذار، وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته، فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه ـ أي يصلحه بطين وجص ليمسك الماء ـ فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فمه فلا يطعمها». والمراد من هذا كله أنَّها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم.

ويجب[١] على المؤمنين أنْ يخافوا ذلك، وأنْ يحملهم ذلك على مراقبة الله تعالى في أعمالهم، بأن يلتزموا فيها الحق ويتحروا الخير، ويتقوا الشر والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدل فيها، وكثرة القيل والقال في شأنها، وفي تعيين ميقاتها، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ فيه تقديم وتأخير؛ أي: يسألونك عنها كأنك حفي بها؛ أي: سألك قومك يا محمد عن حقيقة الساعة وكنهها وثقلها وشدائدها، كأنك حفي أي: عالم بها، ومتيقن لها، فعلى هذا التفسير فلا تكرار مع ما سبق؛ لأن السؤال الأول عن وقت مجيئها، وهذا الثاني عن حقيقتها وكنهها وثقلها، وقيل: السؤال هنا أيضاً عن وقت مجيئها، ولكن كرره تأكيداً لما سبق، وتقريراً له. وقد يكون المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي وشفيق بهم، وصديق لهم بينك وبينهم مودة، ويؤيد هذا ما روي عن ابن عباس قال: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأن محمداً حفي بهم؟ فأوحى الله إليه: «إنما علمها عنده استأثر به، فلا يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا رسولاً» وما روي عن قتادة قال: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة. فأشر إلينا متى الساعة، فقال: الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

وقرأ عبد الله[٢]: ﴿كأنك حفي بها﴾ بالباء مكان عن؛ أي: عالم بها، بليغ

---

(١) المراغي.　　(٢) البحر المحيط.

في العلم بها ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾؛ أي: علم حقيقتها أو علم وقت مجيئها كائن ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، استأثر بعلمه لا يعلمه أحد من خلقه، أنا ولا غيري، وكرر الجواب إثر تكرير السؤال مبالغة في التأكيد، وإيآساً لهم من العلم بوقت مجيئها، وتخطئة لمن يسألون عنها، وعبَّر في هذا الجواب بلفظ الجلالة حيث قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي الجواب السابق بلفظ: ﴿رَبِّي﴾ حيث قال: ﴿عِندَ رَبِّي﴾ إشارة إلى أنَّه استأثر بعلمها لألوهيته، كما أشعر في السابق بأن علمها من شؤون ربوبيته، وكلاهما مستحيل على خلقه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون اختصاص علمها به تعالى، ولا حكمة ذلك، ولا أدب السؤال ولا نحو ذلك مما ينبغي أن يعلم في هذا الباب، وإنَّما يعلم ذلك القليلون منهم، وهم المؤمنون بما جاء في كتاب الله من أخبارها، وبما سمع من رسوله ﷺ، كمن حضروا تمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل، وسؤاله النبي محمد ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، ثم عن الساعة؟ وإجابة النبي ﷺ له عن سؤاله الأخير بقوله: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»؛ أي: إنا سواء في جهل هذا الأمر، فلا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة.

وقال الطبري(١): المعنى: لا يعلمون أنَّ هذا الأمر لا يعلمه إلا الله، بل يظن أكثرهم أنَّه مما يعلمه البشر. اهـ وقيل: لا يعلمون أن القيامة حق؛ لأنَّ أكثر الناس ينكرون المعاد ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾... الآية. قيل: لا يعلمون أني أخبرتك أن وقتها لا يعلمه إلا الله، وقيل: لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيت معرفة وقتها، والأظهر قول الطبري كما أشرنا إليه في الحل.

قال الألوسي(٢): وإنَّما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك، فإنه أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك، وظاهر الآيات أنه عليه السلام لم يعلم وقتها، نعم علم عليه

---

(١) البحر المحيط. (٢) الألوسي.

الصلاة والسلام قربها على الإجمال، وأخبر به، فقد أخرج الترمذي وصححه عن أنس مرفوعاً: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى، وفي «الصحيحين» عن ابن عمر مرفوعاً أيضاً «إنما أجلكم فيما مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس». اهـ.

فصل في عمر الدنيا

ألف الجلال السيوطي رسالة سماها: «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف» أخرج فيها عدة أحاديث في أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وأن مدة هذه الأمة تزيد على ألف ولا تبلغ الزيادة خمس مئة، وسمى بعضهم الألف الثانية بالألف المخضرمة؛ لأن نصفها دنيا، ونصفها الآخر أخرى، ولا شك أن ما جاء في هذا الباب كله مأخوذ من الإسرائيليات التي كان يبثها زنادقة اليهود والفرس في المسلمين، حتى رووه مرفوعاً وقد اغتر بها من لا ينظر في نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها، وقد هدمها الزمان وهدم كثيراً مثلها من الأوهام والخرافات، التي أريد بها الكيد للإسلام.

والخلاصة: أنَّ القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بسبعة آلاف لم يثبت في نص يعتمد عليه، وإنْ كانت قد رويت فيه آثار عن السلف، أكثرها مأخوذ عن أهل الكتاب، وفي أسانيدها مقال، قال ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ: أما نحن فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا، ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل.. فقد قال ما لم يأت قط عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح، بل صح عنه خلافه، بل نقطع على أنَّ للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «ما أنتم في الأمم قبلكم إلا كالشعر البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض» وهذه نسبة من تدبرها، وعرف مقدار عدد أهل الإسلام، ونسبة ما بأيديهم من معمور الأرض، وأنَّه الأكبر.. علم أنَّ للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله اهـ.

فصل في بعض أشراط الساعة وعلاماتها

الأشراط واحدها شرط، أسباب وسبب، وهي العلامات والأمارات الدالة على قربها، وقد ثبت في الكتاب والسنة أنَّ للساعة أشراطاً كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ ومن أعظم أشراطها بعثة خاتم النبيين بآخر هداية الوحي الإلهي للناس أجمعين، فبعثته قد كمل بها الدين، وبكماله تكمل الحياة البشرية الروحية، ويتلوها كمال الحياة المادية، وما بعد الكمال إلا الزوال.

وقد وردت أحاديث في أشراط الساعة يدل بعضها على أنَّ الشهوات المادية تتنازع مع الهداية الروحية فيكون لها الغلبة زمناً. ثم تنتصر الهداية الروحية، ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر، حتى تقوم الساعة على شرار الخلق، وقد قسموا أشراطها ثلاثة أقسام:

١ ـ ما وقع بالفعل منذ قرون خلت، كقتال اليهود، وفتح بيت المقدس، والقسطنطينية.

٢ ـ ما وقع بعضه ـ وهو لا يزال في ازدياد ـ كالفتن والفسوق، وكثرة الزنا وكثرة الدجالين، وكثرة النساء وتشبههن بالرجال، والكفر والشرك، حتى في بلاد العرب.

٣ ـ ما سيقع بين يدي الساعة من العلامات الصغرى والكبرى.

المهدي المنتظر

أشهر الروايات أنَّ اسمه محمد بن عبد الله، والشيعة يقولون: إنَّه محمد بن الحسن العسكري، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظَر، ويقولون: إنَّه دخل السرداب في دار أبيه في مدينة «سرَّ من رأى» التي تسمى الآن «سامراء» سنة (٣٦٥)، وله من العمر تسع سنين، وأنَّه لا يزال في السرداب حياً، وزعمت الكيسانية أنه محمد بن الحنفية، وأنه حي مقيم بجبل رضوى ـ جبل بالمدينة ـ بين أسدين يحفظانه، وعنده عينان نضاختان تفيضان عسلاً ولبناً، ومعه أربعون من أصحابه.

والمشهور في نسبه أنَّه علوي فاطمي من ولد الحسن، وهناك رواية مصرحة بأنَّه من ولد العباس، فقد روى الرافعي عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال للعباس: «ألا أبشرك يا عم إنَّ من ذريتك الأصفياء ومن عترتك الخلفاء، ومنك المهدي في آخر الزمان، به ينشر الله الهدى، ويطفىء نيران الضلالة، إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يختم».

ومن حديث ابن عساكر عنه مرفوعاً «اللهم انصر العباس وولد العباس ـ ثلاثاً ـ يا عم، أما علمت أن المهدي من ولدك موفقاً مرضياً». وفي معناهما أحاديث أخرى لأبي هريرة وأم سلمة وعلي، وأكثر العلماء ينكرون هذه الأحاديث، ويقولون: إنها موضوعة لا نصيب لها من الصحة، ومن ثم لم يعتد بها الشيخان، ومن هؤلاء ابن خلدون، فقد ذكر الأحاديث التي وردت في المهدي وضعفها، وضعف أسانيدها، وانتهت به خاتمة المطاف إلى أنَّه لم يصح فيه شيء يوثق به، إلى أنْ قال: إن لله سنناً ـ في الأمم والدول والعمران ـ مطردة في كل زمان ومكان، كما ثبت في مصحف القرآن وصحف الأكوان، ومنها أن الدول لا تقوم إلا بعصبية، وأن الأعاجم سلبوا العصبية من قريش والعترة النبوية، فإن صحت أخبار هذا المهدي فلا يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية، ولو سمعوا وعقلوا لسعوا وعملوا، ولكان استعدادهم لظهور المهدي بالاهتداء بسنن الله رحمة لهم تجاه ما كانوا في أخباره من الفتن والنقم فيهم، وربما أغناهم عن بعض ما يروجون من زعامته، إن لم يغنهم عنه كله.

هذا والمسلمون لا يزالون على ظهور المهدي، ويزعم دهماؤهم أنَّه سينقض لهم سنن الله، أو يبدلها تبديلاً وهم يتلون قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

فإذا كان من أشراط الساعة آيات، وكان في زمانها خوارق عادات، فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم، وإقامة لشرعهم في عزة وسلطان في أرضهم، وكان لكعب الأحبار جولة واسعة في تلفيق تلك الأخبار.

وقد كانت هذه المسألة أكبر مثارات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية،

إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان، ومن أدعياء الولاية لدعوى المهدوية في الشرق والغرب، وتأييد دعواهم بالقتال والحرب، وبالبدع والإفساد في الأرض، حتى خرج ألوف الألوف من هداة الدين، ومرقوا من الإسلام.

وقد كان من حصافة الرأي أنْ يكون خروج المهدي باعثاً لهم على الاستعداد لظهوره، بتأليف عصبية قوية بزعامته، تجدد الإسلام وتنشر العدل في الإسلام، لكنهم لم يفعلوا، بل تركوا ما يجب من حفظ سلطان الملة بجمع كلمة الأمة، وبإعداد ما استطاعوا من حول وقوة، واتكلوا على قرب ظهور المهدي، وأنه هو الذي سيرد إليهم ملكهم بالكرامات وخوارق العادات، لا بالمدافع والدبابات والطيارات، والقاذفات، والأساطيل، والغواصات، وقد فاتهم أنَّ الحرب كانت بين النبي ﷺ وبين المشركين سجالاً، وكان المؤمنون ينفرون منه خفافاً وثقالاً، فهل يكون المهدي أهدى وأحسن منه حالاً ومآلاً؟.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد فيما تبلغه لهم من أمر دينهم ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى﴾ ولا لغيري ﴿نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي: جلب نفع ولا دفع ضر، مستقلاً بقدرتي على ذلك ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أنْ يقدرني عليه، فإذا أقدرني على جلب النفع.. جلبته بفعل أسبابه، وإذا أقدرني على منع الضر.. منعته بتسخير الأسباب كذلك.

وقد كان المسلمون ـ ولا سيما حديثوا العهد بالإسلام ـ يظنون أنَّ منصب الرسالة يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب، وأنَّ الرسول يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضر عن نفسه وعمن يحب، أو عمن يشاء، أو منع النفع وإحداث الضر بمن يكره، أو بمن يشاء، فأمره الله تعالى أن يبين للناس أنَّ منصب الرسالة لا يقتضي ذلك، وأن وظيفة الرسول إنَّما هي التعليم والإرشاد لا الخلق والإيجاد، وأنَّه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك مما علمه الله بوحيه، وأنه فيما عدا ذلك بشر كسائر الناس ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ أي: جلب منافع الدنيا، ودفع مضراتها ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾؛ أي: لحصلت كثيراً من الخير بترتيب الأسباب، كالادخار في زمن الخصب لزمن الجدب ﴿و﴾ لـ﴿ما مسني السوء﴾؛ أي: ولما أصابني

الضر والفقر لاحترازي عنه باجتناب الأسباب، وفي «الكرخي»: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾؛ أي: سوء يمكن التقصي عنه بالتوقي عن موجباته، والمدافعة بموانعه، لا سوءٌ ما؛ فإن منه ما لا مدفع له. اهـ.

قال ابن كثير: أمره الله تعالى أن يفوض الأمر إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب في المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك، إلا ما أطلعه الله عليه كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ روى الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: من المال. وقال ابن جرير: أي: لو كنت أعلم الغيب.. لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص. وقال عبد الله بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته. اهـ.

ثم علل نفي امتيازه عن البشر بملك النفع والضر من غير طرق الأسباب، وسنن الله في الخلق، ونفي امتيازه عنهم بعلم الغيب فقال: ﴿إِنْ أَنَا۠﴾؛ أي: ما أنا ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾؛ أي: مخوف من النار ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالجنة والنار؛ أي: كتب في الأزل أنهم يؤمنون فإنَّهم المنتفعون به، فلا ينافي كونه بشيراً ونذيراً للناس كافة، واللام في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ تتعلق بكل من ﴿النذير﴾ و ﴿البشير﴾؛ لأن[1] النذارة والبشارة إنما ينفعان فيهم، أو متعلق بالبشير وحده، والمتعلق بالنذير محذوف؛ أي: إلا نذير للكافرين، وبشير للمؤمنين.

والمعنى[2]: إنَّه لا امتياز لي عن جميع البشر إلا بالتبليغ عن الله عز وجل بالإنذار والتبشير، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة، والآيات في ذلك كثيرة نحو قوله: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾.

والخلاصة: أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام عباد مكرمون، لا يشاركون الله في صفاته ولا في أفعاله، ولا سلطان لهم على التأثير في علمه، ولا في

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

تدبيره، وإنَّما يمتازون باختصاص الله تعالى إياهم بوحيه واصطفائهم لتبليغ رسالته لعباده، وجعلهم قدوة صالحة للناس في العمل بما جاؤوا به عن الله تعالى من الصلاح والتقوى والأخلاق الفاضلة.

قال الشوكاني: وفي[1] هذه الآية من إظهار العبودية، والإقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد، والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له ﷺ ما فيه أعظم زاجر، وأبلغ واعظ لمن يدعي لنفسه ما ليس من شأنها، وينتحل علم الغيب بالنجامة أو الرمل، أو الطرق بالحصى أو الزجر اهـ.

قال أبو حيان: وظاهر[2] قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ انتفاء العلم عن الغيب على جهة عموم الغيب، كما روي عنه: «لا أعلم ما وراء هذا الجدار إلا أنْ يعلمنيه ربي» بخلاف ما يذهب إليه هؤلاء الذين يدعون العلم بالمستقبل الغيبي، وأنَّهم برياضة نفوسهم يحصل لهم إطلاع على المغيبات، وإخبار بالكوائن التي تحدث، وما أكثر ادعاء الناس لهذا الأمر، وخصوصاً في ديار مصر، حتى إنَّهم لينسبون ذلك إلى رجل متضمخ بالنجاسة، يظل دهره لا يصلي ولا يستنجي من نجاسة، ويكشف عورته للناس حين يبول، وهو عار عن العلم والعمل الصالح. انتهى.

الإعراب

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿وَاتْلُ﴾ الواو: عاطفة، ﴿اتْلُ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على العامل المقدر في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ كما ذكره أبو السعود، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿اتل﴾، ﴿نَبَأَ الَّذِي﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة صلة الموصول، ﴿فَانسَلَخَ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿انسلخ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿آتَيْنَاهُ﴾، ﴿فَأَتْبَعَهُ

(١) فتح القدير. (٢) البحر المحيط.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿انسلخ﴾، ﴿فَكَانَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على المنسلخ، ﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿شِئۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿رفعناه﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾: ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿والهاء﴾: اسمها. ﴿أَخۡلَدَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على المنسلخ، ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿لو﴾، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المنسلخ، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَخۡلَدَ﴾، ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت صفات المنسلخ المذكورة، وأردت بيان مثله لك.. فأقول: مثله كمثل الكلب، ﴿مَثَلُهُۥ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿تَحۡمِلۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ وفاعله ضمير يعود على المخاطب ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿تَحۡمِلۡ﴾، ﴿يَلۡهَثۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلۡكَلۡبِ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب حال من ﴿ٱلۡكَلۡبِ﴾؛ أي: حالة كون الكلب لاهثاً في كل حال، ﴿أَوۡ تَتۡرُكۡهُ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿إِن تَحۡمِلۡ﴾ على كونه فعل شرط لـ﴿إن﴾ وفاعله ضمير يعود على المخاطب، ﴿يَلۡهَثۡ﴾: فعل مضارع معطوف على

﴿يَلْهَثْ﴾ الأول على كونه جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْكَلْبِ﴾.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾، ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، بـ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كَذَّبُوا۟﴾، ﴿فَٱقْصُصِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا تحققت أن المثل المذكور مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وأردت بيان ما هو اللازم.. فأقول لك: ﴿ٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾: ﴿ٱقْصُصِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿ٱلْقَصَصَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج، ﴿والهاء﴾: اسمها، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ خبرها، وجملة[1] الترجي في محل النصب على أنَّها حال من ضمير المخاطب، أو على أنَّها مفعول له؛ أي: فأقصص القصص راجياً لتفكرهم، أو رجاءً لتفكرهم.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿سَآءَ﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً لشبهه بالمثل تقديره: هو، يعود على مبهم يفسره التمييز، ﴿مَثَلًا﴾ تمييز لفاعل ﴿سَآءَ﴾ المستتر فيه، ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ مخصوص بالذم مرفوع على الابتداء، ولكنه على تقدير مضاف تقديره: مثل القوم، وخبره جملة ﴿سَآءَ﴾ والتقدير: مثل القوم الذي كذبوا بآياتنا ساء مثلاً، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل رفع صفة لـ﴿ٱلْقَوْمُ﴾. ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾: مفعول مقدم لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾: خبره، وجملة

---

(١) الفتوحات.

﴿كَانُواْ﴾ معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُواْ﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو جملة الشرط، أو هما، ﴿يَهْدِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾: مبتدأ وخبر، و﴿الفاء﴾ رابطة الجواب وجوباً، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة من الشرطية مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: الواو: عاطفة ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب على الخلاف المذكور آنفاً، ﴿يُضْلِلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿أولئك﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فعل، ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبره والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾ موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ذَرَأْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ متعلق به، ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، ﴿وَٱلْإِنسِۖ﴾: معطوف على ﴿ٱلْجِنِّ﴾، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿قُلُوبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب صفة ثانية لـ﴿كَثِيرًا﴾، ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿قُلُوبٌ﴾، ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿أَعْيُنٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ على كونها صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، وجملة ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿أَعْيُنٌ﴾، وجملة ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ وجملة ﴿لَّا

﴿يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿ءَاذَانٌ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿أَضَلُّ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: صفة له، والجملة مستأنفة، ﴿فَٱدْعُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن لله الأسماء وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم، ﴿ادعوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فادعوا﴾، ﴿يُلْحِدُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل، ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبرها، وجملة: ﴿كَانُوا۟﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: كانوا يعملونه.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ممن﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿خَلَقْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وممن خلقناه، ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿يَهْدُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق به، والجملة صفة لـ﴿أُمَّةٌ﴾، ﴿وَبِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وجملة ﴿يعدلون﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَهْدُونَ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول،

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿مِّنْ حَيْثُ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، وجملة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿حَيْثُ﴾.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿وَأُمْلِي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أملي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، وفيه نوع من الالتفات؛ لأنَّ مقتضى السياق أن يقال: ونملي، أو مستأنفة أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: وأنا أملي، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿كَيْدِي﴾: اسمها ومضاف إليه، ﴿مَتِينٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: أكذبوا بآياتنا ولم يتفكروا، الواو: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم يتفكروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة معطوفة على المحذوف الذي قدرناه آنفاً، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿بِصَاحِبِهِم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِّن﴾: زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول لـ﴿يَتَفَكَّرُوا﴾؛ لأنَّها علقت بما النافية، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿نَذِيرٌ﴾: خبر، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها وتأكيده.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف تقديره: أكذبوا الرسول الذي علموا صدقه، والواو: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم ينظروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾.

الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر، معطوفة على ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن شَيْءٍ﴾ حال من الضمير المحذوف من ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: وفي ما خلقه الله من شيء، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: وفي ما خلقه من شيء، ﴿وَأَنْ﴾ الواو: عاطفة ﴿أن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وفي أنَّه، ﴿عَسَىٰٓ﴾: فعل ماض تام من أفعال الرجاء، ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿يَكُونَ﴾ منصوب بـ﴿أَن﴾، واسمها ضمير الشأن، ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿يَكُونَ﴾، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿عَسَىٰٓ﴾ والتقدير: وأن عسى اقتراب أجلهم، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر معطوف على ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والتقدير: أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وفي ما خلق الله من شيء، وفي توقع اقتراب أجلهم، ﴿فَبِأَيِّ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب شرط محذوف تقديره: إن لم يؤمنوا بهذا القرآن.. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿بأيّ حَدِيثٍۭ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، والاستفهام فيه تعجبي، ﴿بَعْدَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بالفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بالشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مستأنفة.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾: الفاء رابطة الجواب بالشرط وجوباً، ﴿لا﴾ نافية تعمل عمل ليس، ﴿هَادِىَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور، خبر ﴿لا﴾، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة من الشرطية مستأنفة، وهذه الجملة تذييل لما قبلها، ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾: فعل ومفعول،

وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا هَادِيَ﴾، وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في محل النصب حال من هاء ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متعلق بـ﴿يسألون﴾ على أنه مفعول ثان له، ﴿أَيَّانَ﴾: ظرف زمان بمعنى متى في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، لتضمنه معنى حرف الاستفهام، وهو خبر مقدم، و﴿مُرْسَىٰهَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الجر بدل عن ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، تقديره: يسألونك عن الساعة عن زمان حلول الساعة، كما ذكره أبو البقاء.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ إلى قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿عِلْمُهَا﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عِندَ رَبِّي﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُجَلِّيهَا﴾: فعل ومفعول، ﴿لِوَقْتِهَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه في محل الرفع فاعل، والجملة مستأنفة في محل النصب مقول القول، ﴿ثَقُلَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق به ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، والجملة مستأنفة في محل النصب مقول القول، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بَغْتَةً﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: لا تأتيكم إلا إتيان بغتة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان خطئهم في

توجيه السؤال إلى رسول الله ﷺ بناء على زعمهم أنَّه عليه الصلاة والسلام عالم بالمسؤول عنه، ﴿كَأَنَّكَ﴾: ﴿كأن﴾: حرف نصب وتشبيه، ﴿والكاف﴾: اسمها، ﴿حَفِيٌّ﴾ خبرها، وجملة ﴿كأن﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: يسألونك حال كونك مشبهاً حالك عندهم بحال من هو حفي بها؛ أي: عالم، ﴿عَنْهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يسألون﴾، وجملة ﴿كأنَّ﴾ معترضة، وصلة ﴿حَفِيٌّ﴾: محذوف تقديره: بها، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مؤكدة للجواب السابق؛ لأنَّها عينه، وعبارة أبي السعود: أُمر عليه السلام بإعادة الجواب الأول تأكيداً للحكم وإشعاراً بعلته. انتهت. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿عِلْمُهَا﴾: مبتدأ، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبرها، وجملة الاستدراك مستأنفة.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت. ﴿لَّآ﴾: نافية، ﴿أَمْلِكُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿لِنَفْسِى﴾: جار ومجرور، متعلق به ﴿نَفْعًا﴾: مفعول به ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ معطوف على ﴿نَفْعًا﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء، ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: إلا ما شاءه الله.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿أَعْلَمُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا

محل لها من الإعراب، ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿استكثرت﴾: فعل وفاعل ﴿مِنَ الْخَيْرِ﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾: فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿استكثرت﴾.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنْ﴾: نافية مهملة لانتقاض نفيها بإلا، ﴿أَنَا﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿نَذِيرٌ﴾: خبر، ﴿وَبَشِيرٌ﴾: معطوف عليه، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿لِقَوْمٍ﴾: جار ومجرور تنازع فيه ما قبله، فعند البصريين يتعلق بـ﴿بشير﴾ لقربة، وعند الكوفيين بـ﴿نَذِيرٌ﴾ لِسَبقه، ويجوز أنْ يكون متعلق النذارة محذوفاً؛ أي: نذير للكافرين، وحذف لدلالة ما قبله عليه، كما في «الكرخي» وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿قوم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ التلاوة: القراءة، والنبأ الخبر الذي له شأن، وانسلاخه منها: كفره بها ونبذه لها من وراء ظهره، ويقال لكل من فارق شيئاً بحيث لا تحدثه نفسه بالرجوع إليه: انسلخ منه، وقال أبو حيان: الانسلاخ التعري من الشيء حتى لا يعلق به منه شيء، ومنه: انسلخت الحياة من جلدها إذا خرجت منه اهـ.

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: أدركه ولحقه، قال الجوهري: يقال: أتبعت القوم إذا سبقوك فلحقتهم، والمعنى: فصار هو قدوة ومتبوعاً للشيطان على سبيل المبالغة. ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾؛ أي: من الراسخين في الغواية بعد أن كان مهتدياً، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾؛ أي: ركن إلى الدنيا ومال إليها، وقال أبو السعود: الإخلاد إلى الشيء الميل إليه مع الاطمئنان به، وفي «المصباح» خلد بالمكان خلوداً ـ من باب قعد ـ أقام، وأخلد بالألف مثله، وخلد إلى كذا وأخلد إليه ركن اهـ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾؛ أي: الذي هو أخس الحيوانات،

والكلب[1] حيوان معروف، ويجمع في القلة على أكلب، وفي الكثرة على كلاب، وشذوا في هذا الجمع، فجمعوه بالألف والتاء فقالوا: كلابات، وتقدمت هذه المادة في مكلبين، وكررناها لزيادة الفائدة ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تشد عليه وتطرده ﴿يَلْهَثْ﴾ يقال: لهث الكلب يلهث من باب قطع، لهثاً بفتح اللام ولهثا بضمها ولهاثا بضمها أيضاً إذا أخرج لسانه مع التنفس الشديد، وهي حالة له في التعب والراحة والعطش والري، بخلاف غيره من الحيوان، فإنَّه لا يلهث إلا إذا أعيا أو عطش ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ يقال ساء الشيء يسوء فهو سيء، إذا قبح، وساءه يسوؤه مساءة والمثل الصفة.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾. الذرء[2] لغة: الخلق، يقال: ذرأ الله الخلق إذا أوجد أشخاصهم، والخلق التقدير؛ أي: إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لا جزافاً، والجن: الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بالحواس. والقلب يطلق أحياناً على المضغة الصنوبرية الشكل في الجانب الأيسر من جسد الإنسان، وأحياناً على العقل والوجدان الروحي الذي يسمونه أحياناً بالضمير وهو محل الحكم في أنواع المدركات والشعور الوجداني لما يلائم أو يؤلم، وهو كثير بهذا المعنى في الكتاب الكريم كقوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ وسر استعمال القلب في هذا المعنى: ما يراه الإنسان من انقباض أو انشراح حين الخوف والاشمئزاز، أو حين السرور والابتهاج. والفقه: العلم بالشيء والفهم له، وفسره الراغب بالتوصل بعلم شاهد إلى علم غائب، وقد استعمله القرآن في مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم، والتعمق في العلم ليترتب عليه أثره ـ وهو الانتفاع به ـ ومن ثم نفاه عن الكفار والمنافقين؛ لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفى فقهه عنهم، ففاتتهم المنفعة مع العلم المتمكن من النفس.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ و﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ جمع اسم، وهو اللفظ الدال على الذات، أو عليها مع صفة من صفاتها، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بوزن فعلى مؤنث الأحسن، كالكبرى والصغرى، وقيل: الحسنى مصدر وصف به، كالرجعى، وأفرده كما أفرد وصف ما لا يعقل في قوله: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ ولو طوبق به.. لكان التركيب الحسن كقوله: ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾؛ أي: سموه ونادوه بها للثناء عليه، أو للسؤال وطلب الحاجات ﴿وَذَرُوا۟﴾؛ أي: أتركوا ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يقال: لحد وألحد لغتان، قيل بمعنى واحد، وهو العدول عن الحق، والإدخال فيه ما ليس منه - قاله ابن السكيت - وقال غيره: العدول عن الاستقامة، والرباعي أشهر في الاستعمال من الثلاثي، قال الشاعر:

لَيْسَ ٱلأَمِيْرُ بِٱلشَّحِيْحِ ٱلْمُلْحِدِ

والإلحاد الميل عن الوسط حساً أو معنى، والأول هو الأصل فيه، ومنه لحد القبر وهو ما يحفر في أسفل جانب القبر، مائلاً عن وسطه، وألحد السهم الهدف: إذا مال في أحد جانبيه ولم يصب وسطه، ومن الثاني: ألحد فلان إذا مال عن الحق، وقيل: ألحد بمعنى مال وانحرف، ولحد بمعنى ركن وانضوى، قال الكسائي: ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾؛ أي: سيلقون جزاء عملهم.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، الاستدراج[1] إما مأخوذ من درج الكتاب والثوب وأدرجه إذا طواه، وإما من الدرجة وهي المرقاة، فعلى الأول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ أي: سنطويهم طي الكتاب، ونغفل أمرهم كما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ وعلى الثاني: سنأخذهم درجة بعد درجة بإدنائهم من العذاب شيئاً فشيئاً، كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها، وقال في «التحرير»[2]: الاستدراج استفعال من الدرج، بمعنى النقل درجة بعد درجة من سفل إلى علو، فيكون استصعاداً، أو بالعكس، فيكون استنزالاً، والمعنى؛ أي: نقربهم إلى الهلاك بإمهالهم وإدرار النعم عليهم، حتى يأتيهم وهم غافلون لاشتغالهم بالترفه، ولذا قيل: إذا رأيت

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

الله أنعم على عبده ـ وهو مقيم على معصيته ـ فاعلم أنه مستدرج له، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ الإملاء الإمداد في الزمن، والامهال والتأخير من الملوة والملاوة، وهي الطائفة الطويلة من الزمن، والملوان الليل والنهار ﴿والكيد﴾ كالمكر: هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره، بحيث ينخدع المكيد بمظهره، فلا يفطن له حتى ينتهي إلى ما يسؤه، وأكثره احتيال مذموم، ومنه ما هو محمود يقصد به المصلحة، ككيد يوسف لأخذ أخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم، ومقتضى شريعتهم، وفي «الكرخي»: وسمى الأخذ كيداً لأنَّ ظاهره إحسان وباطنه خذلان. اهـ.

و﴿المتين﴾ القوي الشديد، ومنه المتن وهو الوسط؛ لأنَّه أقوى ما في الحيوان، وقد متن بالضم يمتن متانة؛ أي: قوي واشتد. ﴿الجنة﴾: بالكسر نوع من الجنون، والإنذار: التعليم والإرشاد المقترن بالتخويف من مخالفته، والملكوت: الملك العظيم، ﴿ومَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مجموع العالم، والحديث: كلام الله تعالى وهو القرآن، والطغيان: تجاوز الحد في الباطل والشر، من الكفر والفجور والظلم، والعمه: التردد في الحيرة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ﴾. ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: لغة: جزء قليل غير معين من الزمن، وعند الفلكيين: جزء من أربع وعشرين متساوية، يضبط بآلة تسمى الساعة، وقد كان ذلك معروفاً عند العرب، فقد جاء في الحديث: «يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة». وقد تطلق بمعنى الوقت الحاضر، وبمعنى الوقت الذي تقوم فيه القيامة، كما هنا، وأكثر استعمال (ساعة) بدون أل في الكتاب الكريم بمعنى الساعة الزمنية، وبأل بمعنى الساعة الشرعية، وهي ساعة خراب العالم، وموت أهل الأرض جميعاً، وجاء المعنيان في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾، والغالب التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذي يكون فيه الحساب والجزاء، والتعبير بالساعة عن الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم، ويضطرب نظامه، فالساعة مبدأ، والقيامة غاية ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ﴾. ﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى متى، فهي للسؤال عن الزمان، و﴿مُرْسَىٰهَاۖ﴾؛ أي: إرساؤها وحصولها واستقرارها، ويقال: رسا الشيء يرسو إذا ثبت، وأرساه

غيره، ومنه إرساء السفينة وإيقافها بالمرساة التي تلقى في البحر، فتمنعها من الجريان كما قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وقال أبو البقاء: ﴿ومُرْسَاهَا﴾: مفعل من أرسى، وهو مصدر مثل المدخل والمخرج بمعنى الإدخال والإخراج؛ أي: متى أرساها. اهـ وفي «المختار»: رسا الشيء ثبت، وبابه عدا، ورست السفينة وقفت عن الجري، وبابه عدا وسما. اهـ.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ يقال جلى فلان الأمر تجلية إذا أظهره أتم الإظهار، ﴿لوقتها﴾؛ أي: في وقتها كما يقال: كتبت هذا لغرة رمضان؛ أي: في غرته ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة من غير توقع ولا انتظار ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ من قولهم: أحفى في السؤال، إذا ألحف، وهو حفي عن الأمر بليغ في السؤال عنه، واستحفيته عن كذا استخبرته على وجه المبالغة، وتحفى بك فلان إذا تلطف بك وبالغ في إكرامك ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ قسمان: حقيقي لا يعلمه إلا الله تعالى، وإضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ والخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية كالمال والعلم ﴿والسوء﴾ ما يرغبون عنه مما يسؤهم ويضرهم ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ والإنذار تبليغ مقترن بتخويف من العقاب على الكفر والمعاصي، والتبشير تبليغ مقترن بترغيب في الثواب مع الإيمان والطاعة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾؛ لأنه شبه الإعراض عن الآيات بانسلاخ نحو الحية من جلدها بجامع التجرد والتبري في كلٍّ.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حيث جعله قدوة وإماماً ومتبوعاً للشيطان على سبيل المبالغة، مع أنَّه تابع للشيطان.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ حيث شبه حاله

التي هي مثل في السوء، بحال أخس الحيوانات وأسفلها، وهي حالة الكلب في دوام لهثه، في حالتي التعب والراحة، فالصورة منتزعة من متعدد، ولهذا يسمى التشبيه التمثيلي.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ المراد بالأرض ما فيها من المستلذات والشهوات، فهو من إطلاق المحل وإرادة الحال.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، والجناس المغاير في قوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ و﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لأنه ذكرت فيه الأداة، ولم يذكر فيه وجه الشبه.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ لأنَّ الاستدراج في الأصل التحول والتنقل على الدرجات استصعاداً أو نزولاً، فاستعاره للأخذ والعقوبة شيئاً فشيئاً.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

ومنها: التذييل في قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّه تذييل[1] لما قبله خارج مخرج المثل.

---

(١) الصاوي.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ على قراءة النون.

ومنها: الاستعارة[1] بالكناية في قوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ حيث شبه الساعة بسفينة في البحر، وطوى ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإرساء، فذكره تخييل.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الصاوي.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا
حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ
(١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا
لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ
إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ (١٩٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ
أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟
شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩٦)
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَٰنُهُمْ
يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ
مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها(١): أنه لما تقدم سؤال الكفار عن الساعة ووقتها، وكان فيهم من لا يؤمن بالبعث.. ذكر ابتداء خلق الإنسان وإنشائه تنبيهاً على أن الإعادة ممكنة،

---

(١) البحر المحيط.

كما أن الإنشاء كان ممكناً، وإذا كان إبرازه من العدم الصرف إلى الوجود واقعاً بالفعل، فإعادته أحرى أن تكون واقعة بالفعل. وقيل: وجه المناسبة أنَّه لما بين الذين يلحدون في أسمائه ويشتقون منها أسماء لآلهتهم وأصنامهم، وأمر بالنظر والاستدلال المؤدي إلى تفرده بالإلهية والربوبية.. بين هنا أنَّ أصل الشرك من إبليس لآدم وزوجته حين تمنيا الولد الصالح، وأجاب الله دعاءهما، فأدخل عليهما إبليس الشرك، بقوله: سمياه عبد الحرث؛ فإنَّه لا يموت، ففعلا ذلك.

وقيل المناسبة: لما افتتح[1] الله سبحانه وتعالى هذه السورة بالدعوة إلى التوحيد، واتباع ما أنزل على لسان رسوله، وتلاه بالتذكير بنشأة الإنسان الأولى في الخلق والتكوين والعداوة بينه وبين الشيطان.. اختتم السورة بهذه المعاني، فذكر بالنشأة الأولى، ونهى عن الشرك، واتباع وسوسة الشيطان، وأمر بالتوحيد، واتباع ما جاء به القرآن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أنَّها من تتمة ما قبلها مؤكدة له، ومقررة لما تتضمنه، وهو إثبات التوحيد ونفي الشرك، وهو رأس الإسلام وركنه المتين، فلا غرو أن يتكرر الكلام فيه في القرآن نفياً وإثباتاً ليتأكد في النفوس، ويثبت في القلوب، وبه تخلع جذور الوثنية، ويحل محلها نور الوحدانية.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: لما أنكر تعالى عليهم عبادة الأصنام، وحقر شأنها، وأظهر كونها جماداً عارية عن شيء من القدرة.. أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك؛ أي: لا مبالاة بكم ولا بشركائكم، فاصنعوا ما تشاؤون، وهو أمر تعجيز؛ أي: لا يمكن أن يقع منكم دعاء لأصنامكم، ولا كيد لي، وكانوا قد خوفوه آلهتهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ...﴾ الآية، مناسبة[4] هذه

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضره، وأراهم أنَّ الله هو القادر على كل شيء.. عقب ذلك بالاستناد إلى الله تعالى، والتوكل عليه، والإعلام أنَّه تعالى هو ناصره عليهم، وبين جهة نصره بأن أوحى إليه كتابه، وأعزه برسالته، ثم إنَّه تعالى يتولى الصالحين من عباده، وينصرهم على أعدائه ولا يخذلهم.

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنَّه هو الذي يتولى أمر رسوله وينصره: وأن الأصنام وعابديها لا يقدرون على إيذائه، وإيصال الضر إليه.. بين في هذه الآية النهج القويم، والصراط المستقيم في معاملة الناس، وهذه الآية تشمل أصول الفضائل، فهي من أسس التشريع التي تلي ـ في المرتبة ـ أصول العقيدة المبنية على التوحيد الذي تقرر فيما سلف، بأبلغ وجه وأتم برهان.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات أمثل الطرق في معاملة الناس بعضهم بعضاً، مما لو عملوا بهديه لم يجد الفساد إلى نفوسهم سبيلاً.. أردف ذلك بالوصية التي تتضمنها هذه الآيات الثلاث، وهي اتقاء إفساد الشياطين؛ أي: شياطين الجن المستترة، فالآية السالفة أمرت بالإعراض عن الجاهلين ـ وهم السفهاء ـ اتقاء لشرهم، وهذه الآيات أمرت بالاستعاذة بالله من الشياطين اتقاء لشرهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية السالفة أن شياطين الجن والإنس لا يقصرون في الإغواء والإضلال.. أردف ذلك بذكر نوع خاص من هذا الإغواء، وهو طلبهم آيات معينة ومعجزات مخصوصة، تعنتاً كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾؛ أي: إذا

---

(١) المراغي.

لم تأتهم بما طلبوا.. قالوا: هلا افتعلتها وأتيت بها من عند نفسك؛ لأنَّهم كانوا يقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر مزايا القرآن الكريم، وأنَّه آيات بينات للمؤمنين، وهدى ورحمة لهم.. أردف ذلك بذكر الدلائل على الطريق الموصلة لنيل الرحمة به، والفوز بالمنافع الجليلة التي ينطوي عليها، وهي الإنصات له إذا قرىء.

وقال أبو حيان[2]: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن القرآن بصائر وهدى ورحمة.. أمر باستماعه إذا شرع في قراءته، وبالانصات وهو السكوت مع الإصغاء إليه؛ لأنَّ ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة، حري بأن يصغى إليه حتى يحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة، وينتفع بها، فيستبصر من العمى، ويهتدي من الضلال، ويرحم بها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ...﴾ أخرج[3] البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: ما نزلت: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ إلا في أخلاق الناس.

وأخرج[4] ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن الشعبي قال: لما أنزل الله ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟ قال لا أدري حتى أسال العالم، فذهب ثم رجع، فقال: إن الله أمرك أنْ تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك» وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: لما نزل ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ...﴾. الآية، قال رسول الله ﷺ: «كيف بالغضب يا رب»؟ فنزل: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الخازن.

(٤) الشوكاني.

أخرجه[1] ابن أبي حاتم وغيره عن أبي هريرة قال: نزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ في رفع الأصوات في الصلاة خلف النبي ﷺ. وأخرج عنه أيضاً قال: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ. . .﴾. الآية، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله، وأخرج عن الزهري قال: نزلت الآية في فتى من الأنصار كان كلما قرأ رسول الله ﷺ شيئاً قرأه. وقال سعيد بن منصور في «سننه»: حدثنا أبو معتمر عن محمد بن كعب قال: كانوا يتلقفون من رسول الله ﷺ إذا قرأ شيئاً قرؤوا معه، حتى نزلت هذه الآية التي في الأعراف: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾.

قلتُ: ظاهر ذلك أنّ الآية مدنيَّة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ وأوجدكم وأنشأكم يا أهل مكة ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: من آدم عليه السلام على طريق التوالد والتناسل، وهذا كلام[2] مستأنف يتضمن ذكر نعم الله تعالى على عباده، وعدم مكافأتهم لها بما يجب من الشكر عليها، والاعتراف بالعبودية، وأنَّه المنفرد بالألوهية قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على ﴿خَلَقَكُم﴾؛ أي: وهو سبحانه وتعالى الذي خلقكم من نفس آدم على سبيل التوالد والتناسل، وجعل من هذه النفس الواحدة زوجها وقرينتها، على سبيل النزع والفصل، وهي حواء، خلقها من ضلع من أضلاع آدم من غير ألم، وقيل المعنى: ﴿جَعَلَ مِنْهَا﴾؛ أي: من جنسها ﴿زَوْجَهَا﴾، كما في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ والأول أولى، وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ علة للجعل المذكور؛ أي: جعله منها ليسكن آدم ويميل إليها، ويستأنس بها، ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه، أو جنسه؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أميل، خصوصاً إذا كان بعضاً منه كما سكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه، وإنَّما ذكر ضمير النفس في قوله: ﴿لِيَسْكُنَ﴾ بعدما أنث في قوله: ﴿وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ نظراً إلى

---

(١) لباب النقول.
(٢) الشوكاني.

معنى النفس، ليبين أنَّ المراد بها آدم، وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار، ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما إلى الأرض فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ أي: فلما جامع آدم حواء ﴿حَمَلَتْ﴾ حواء، وعلقت بعد الجماع ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾؛ أي: حملاً هيناً غير ثقيل في بادىء الأمر ﴿فَمَرَّتْ﴾ حواء ودامت متلبسة ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الحمل من غير خروج ولا سيلان منها، حتى كبر الولد في بطنها، وأحست بثقل الحمل، أو المعنى: ترددت في أغراضها وحوائجها من غير مشقة ولا كلفة، كما في «الفتوحات» ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ حواء؛ أي: فلما أحست حواء بثقل الحمل في بطنها، وأحست تحركها، وعرفت أنَّه حيوان في بطنها، وأخبرت حال حملها لآدم ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ أي: دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما أن يؤتيهما ولداً صالحاً، حالفين بالله بقولهما والله ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: والله لئن أعطيتنا يا إلهنا ولداً صالحاً؛ أي: بشراً سوياً مثلنا؛ أي: كامل الخلق، مستوى الأعضاء، خالياً من العوج والعرج ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ يا إلهنا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على هذه النعمة، وذلك[1] أنَّ إبليس أتاها في غير صورته التي عرفته، وقال لها: ما الذي في بطنك؟ قالت ما أدري: قال: إنِّي أخاف أن يكون بهيمة أو كلباً أو خنزيراً، وذكرت ذلك لآدم، فلم يزالا في هم من ذلك، ثم أتاها فقال: إن سألت الله أن يجعله خلقاً سوياً مثلك فسميه عبد الحارث، وكان اسم إبليس عند الملائكة الحارث، ولم يزل بها حتى غرها، فلما ولدت ولداً سوي الخلق. . سمته عبد الحارث برضا آدم فذلك قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ أي: فلما أعطى الله سبحانه وتعالى آدم وحواء ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: ولداً صالحاً، وبشراً سوياً ﴿جَعَلَا﴾؛ أي: جعل آدم وحواء ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شُرَكَآءَ﴾ يعني إبليس، فأوقع الواحد موقع الجمع ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾؛ أي: في تسمية ما أعطاهما الله سبحانه وتعالى من الولد الصالح، حيث سمياه عبد الحارث، ولا ينبغي أن يكون عبداً إلا لله تعالى، ولم تعرف حواء أنَّه إبليس، ولم يكن هذا شركاً بالله، لأنَّهما لم يذهبا إلى أن الحارث

---

(١) الشوكاني.

ربهما، لكنهما قصدا إلى أنَّه كان سبب نجاته وسلامة أمه. قال كثير[1] من المفسرين: إنَّه جاء إبليس إلى حواء وقال لها: إنْ ولدت ولداً.. فسميه باسمي، فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، ولو سمى لها نفسه لعرفته، فسمته عبد الحارث، فكان هذا شركاً في التسمية، ولم يكن شركاً في العبادة، وإنَّما قصدت أن الحارث كان سبب نجاة الولد، كما سمى الرجل نفسه عبد ضيفه، كما قال حاتم الطائي:

وَإِنِّيْ لَعَبْدُ ٱلضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيَا وَمَا فِيَّ إلاَّ تِلْكَ مِنْ شِيْمَةِ ٱلْعَبْدِ

وقرأ[2] حماد بن سلمة عن ابن كثير: ﴿حِمْلاً﴾: بكسر الحاء، وقرأ الجمهور: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال الحسن: أي: استمرت به، وقيل: هذا على القلب؛ أي: فمر الحمل بها؛ أي: استمر بها، وقال الزمخشري: فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق، وقرأ ابن عباس فيما ذكر النقاش، وأبو العالية، ويحيى بن يعمر وأيوب ﴿فمرَت به﴾ خفيفة الراء من المرية؛ أي: فشكت فيما أصابها أهو حمل أو مرض؟. وقيل: معناه استمرت به، لكنهم كرهوا التضعيف فخففوه، نحو: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ فيمن فتح من القرار، وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاص والجحدري ﴿فمارت به﴾ بألف وتخفيف الراء؛ أي: جاءت وذهبت وتصرفت به، كما تقول: مارت الريح موراً، ووزنه فعل، وقال الزمخشري: من المرية كقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ ومعناه ومعنى المخففة: ﴿فمرت﴾ وقع في نفسها ظن الحمل، وارتابت به، ووزنه فاعل، وقرأ عبد الله ﴿فاستمرت بحملها﴾. وقرأ سعد بن أبي وقاص وابن عباس أيضاً والضحاك: ﴿فاستمرت به﴾. وقرأ أبي بن كعب والجرمي ﴿فاستمارت به﴾. والظاهر رجوعه إلى المرية، بني منها استفعل كما بني منها فاعل في قولك: ﴿ماريت﴾.

وقرىء: ﴿فلما أثقلت﴾ على البناء للمفعول، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعكرمة ومجاهد، وأبان بن تغلب ونافع وأبو بكر عن عاصم: ﴿شركاً﴾

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

على المصدر، وهو على حذف مضاف؛ أي: ذا شرك، ويمكن أن يكون أطلق الشرك على الشريك، كقولهم: زيد عدل، قال الزمخشري: أو أحدث لله إشراكاً في الولد. انتهى، وقرأ الأخوان ـ حمزة والكسائي ـ وابن كثير وأبو عمرو: ﴿شركاء﴾. على الجمع ويبعد توجيه الآية أنها في آدم وحواء على هذه القراءة، وتظهر باقي الأقوال عليهما، وفي مصحف أبي ﴿فلما آتاهما صالحاً أشركا فيه﴾ وجملة قوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: فترفع الله سبحانه وتعالى، وتنزه عن شركة ما يشرك به الكفار، من الأصنام والطواغيت، معطوفة[1] على جملة قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ والتقدير: هو الذي خلقكم من نفس واحدة، فتعالى عما يشركون، ويكون في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ التفات وما بينهما، وهو قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وفي «الكرخي»: هذه الجملة مسببة معطوفة على خلقكم؛ أي: وليس لها تعلق بقصة آدم وحواء أصلاً، ويوضح ذلك تغيير الضمير إلى الجمع بعد التثنية، ولو كانت القصة واحدة لقال: عما يشركان، كقوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ اهـ، ويؤيد هذا التأويل قراءة السلمي: ﴿عما تشركون﴾ بتاء الخطاب، التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب.

وقال بعض المفسرين: وقد نسب[2] هذا الجعل إلى آدم وحواء، والمراد أولادهما، قال الحسن البصري: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهودوا ونصروا، وقال الحافظ ابن كثير: أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا التأويل، وأنه ليس المراد من السياق آدم وحواء، وإنَّما المراد من ذلك ذريته، ولهذا قال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ثم قال: فذِكره آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذِكر الشخص إلى الجنس. اهـ وقال صاحب «الانتصاف»: إن المراد جنس الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكأن المعنى ـ والله أعلم ـ: خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

الذي هو الأنثى.. جرى من هذين الجنسين كيت كيت، وإنَّما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإنْ كان فيهم الموحدون لأنَّ المشركين منهم، كقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾. اهـ وقال صاحب «الكشاف»: إن المراد بالزوجين الجنس لا الفرد؛ أي: معينان، والغرض بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفي والجلي في هذا الشأن وأمثاله، والجنس يصدق ببعض أفراده.

وبهذا[1]: تعلم أن ما روي عن بعض الصحابة والتابعين من أن الآية في آدم وحواء، وما روي في حديث سمرة بن جندب مرفوعاً: قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد ـ وذلك لأنَّها ولدت قبل ذلك عبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن فأصابهم الموت ـ فقال لها: سميه عبد الحارث، فإنَّه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان؛ أي: وسوسته، ونحوه آثار كثيرة في هذه المعنى مفصلة ومطولة، فهو خرافة من دس الإسرائيليين، نقلت عن مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه، فلا يوثق بها؛ لأنَّ فيها طعناً صريحاً في آدم وحواء عليهما السلام، ورمياً لهما بالشرك، ومن ثم رفضها كثير من المفسرين، وقال الحافظ ابن كثير: وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنَّها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

وأخبار أهل الكتاب ثلاثة أقسام[2]:

فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله.

ومنها: ما علمنا كذبه بما دل الدليل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً.

ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

وهو لا يصدق ولا يكذب لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». ثم بين

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

سبحانه فساد رأيهم، وسخافة عقولهم لهذا الشرك، فقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع؛ أي: أيشركون به سبحانه وتعالى، وهو الخالق لهم ولأولادهم، ولكل مخلوق ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: أصناماً لا تقدر على خلق شيء من الأشياء وإن كان حقيراً، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾، ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: بل هم مخلوقون، ولا يليق بذي العقل السليم أن يجعل المخلوق العاجز شريكاً للخالق القادر، ومعبوداً لنفسه، ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده.

والمعنى[1]: أتشركون الأصنام ـ وهي لا تقدر على خلق شيء ـ كما يخلق الله، وهم يخلقون؛ أي: يخلقهم الله تعالى ويوجدهم كما يوجدكم، أو المعنى: وهم ينحتون ويصنعون، فعبدتهم يخلقونهم، وهم لا يقدرون على خلق شيء، فهم أعجز من عبدتهم، وجملة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ معطوفة على جملة الصلة، وجمع الضمير اعتباراً بمعنى ﴿مَا﴾ كما أفرده في ﴿يَخْلُقُ﴾ اعتباراً بلفظه، وعبر عن الأصنام بضمير العقلاء نظراً لاعتقاد الكفار فيهم، أو لأن من جملة من عبد الشياطين والملائكة وبعض بني آدم، فغلبوا على غيرهم.

والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الأصنام عامة، وينتظم فيهم مشركو مكة وأمثالهم ممن نزل القرآن في عهدهم، وتوبيخ لهم بتفصيل أحوال أولئك الشركاء التي تنافي ما اعتقدوه، وقرأ السلمي ﴿أتشركون﴾ بالتاء من فوق.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾؛ أي: ولا يستطيع المعبودون نصراً ومعونة لعابديهم إذا حزبهم أمر مهم وخطب ملم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؛ أي: كما لا يستطيعون نصراً لأنفسهم على من يعتدي عليهم بإهانة لهم، أو أخذ شيء مما عندهم من طيب أو حلي، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

والخلاصة: أنّهم يحتاجون إليكم في تكريمهم وفي الدفاع عنهم، وأنتم لا

---

(١) البحر المحيط.

تحتاجون إليهم، فلو تفكرتم في ذلك.. لآمنتم بالله تعالى وكفرتم بها ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: وإنْ تدعوا أيها المشركون الأصنام ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: إلى أن يهدوكم إلى الحق والرشاد ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾؛ أي: لا يجيبوكم كما يجيبكم الله تعالى.

والمعنى: وإن تدعوا تلك الأصنام إلى أنْ يهدوكم إلى ما تحصلون به رغباتكم، أو إلى ما تنجون به من المكاره التي تحيق بكم.. لا يتبعوكم؛ أي: لا يوافقوكم ولا يجيبوا لكم، ولا ينفعوكم بجلب المصالح، أو دفع المضار، ويجوز أنْ يكون ضمير الفاعل في ﴿تَدْعُوهُمْ﴾ إلى ﴿المؤمنين﴾ والمنصوب إلى ﴿الكفار﴾؛ أي: وإن تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الكفار إلى الهدى والإيمان.. لا يتبعوكم؛ أي: لا يوافقوكم إلى الإيمان والتوحيد، فهم مصرون على شركهم، راسخون فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لا يتَّبعوكم﴾ مشدداً هنا وفي ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾. من اتبع الخماسي، ومعناه: لا يقتدوا بكم، وقرأ نافع فيهما: ﴿لا يتبعوكم﴾ مخففاً من تبع الثلاثي، ومعناه: لا يتبعوا آثاركم، ثم أكد عدم نفعهم فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: أدعوتم تلك الأصنام واستغثتم بها ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ عن دعوتها، وساكتون عن الاستغاثة بها؛ أي: دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء في عدم الإفادة، لا فرق بينهما؛ لأنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يسمعون ولا يجيبون؛ فإنه لا يتغير حالكم في كلتا الحالتين إذ هم لا يفهمون دعاءكم، ولا يسمعون أصواتكم، ولا يعقلون ما يقال لهم، وفي «السمين»: وإنَّما أتى بالجملة الثانية اسمية ـ ولم يقل أم صمتُّم ـ لأنَّ الفعل يشعر بالحدوث؛ ولأنَّها رأس فاصلة اهـ.

والخلاصة: أنه لا ينبغي أنْ يعبد من كانت هذه صفته، وإنَّما الرب المعبود هو النافع من يعبده، الضار من يعصيه، الناصر وليه، الخاذل عدوه، والهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه.

---

(١) البحر المحيط.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أيها المشركون في كونهم مخلوقين لله، خاضعين لإرادته وقدرته، مع أنَّكم أكمل منهم؛ لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله، مسخرة لأمره، لا آلهة.

وإذا كانوا أمثالكم.. كان من المستحيل عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم، ولا بمساعدة أمثالكم، وإنَّما يدعى الرب الخالق لما وراء الأسباب المشتركة، والذي تخضع لإرادته الأسباب، وهو لا يخضع لها، ولا لإرادته أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها، وفي هذا تقريع لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم.

والدعاء: هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع، الذي يوجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطانا يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه، إما بذاته وإما بحمله الرب الخالق على ذلك، وجملة قوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من أنَّهم إن دعوهم إلى الهدى.. لا يتبعوهم، وأنَّهم لا يستطيعون شيئاً؛ أي: فادعوا هؤلاء الشركاء والأصنام، فإنْ كانوا كما تزعمون.. فليستجيبوا لكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضر؛ أي: إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم قادرون على ما تعجزون عنه بقواكم البشرية، من نفع أو ضر، فادعوهم، فليستجيبوا لكم إما بأنفسهم، وإما بحملهم الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون. وقرأ سعيد بن جبير: ﴿إن الذين تدعون﴾ بتخفيف ﴿إن﴾، وقرأ ﴿عباداً أمثالكم﴾ بنصب الدال واللام، على إعمال ﴿إن﴾ النافية عمل ما الحجازية، وقد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه وغيره، من اختيار الرفع في خبرها لإهمالها، وقد أطال أبو حيان الكلام فيها في «البحر»، فراجعه إنْ شئت.

ثم ارتقى سبحانه في الرد عليهم، وأثبت أنَّهم ليسوا أمثالهم بل أحط منهم منزلة، ودونهم رتبة، ووبخهم وأنبهم على عبادة هذه الأحجار والأصنام فقال:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ والاستفهام فيه وفيما بعده للتقريع والتوبيخ والإنكار؛ أي: إن هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم، فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم؛ فإنَّهم ـ كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ـ ليست لهم ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ في نفع أنفسهم، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ في دفع ما يؤذي ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ المنافع من المضار ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ تضرعكم ودعاءكم؛ أي: وليست لهم أيد يبطشون ويعملون بها كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليست لهم أعين يبصرون بها كما تبصرون، وليست لهم آذان يسمعون بها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، وبهذه المنزلة من العجز؟!! و﴿أَمْ﴾ في هذه المواضع هي المنقطعة التي بمعنى (بل) والهمزة؛ كما ذكره أئمة النحو.

والمعنى[١]: أنّ هؤلاء فقدوا وسائل الكسب التي يناط بها النفع والضر في هذه الحياة، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضر أو جلب نفع، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير، أو تخافون من شر، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم، ولا آذان يسمعون بها أقوالكم، ويعرفون بها مطالبكم، فهم ليسوا مثلكم، بل دونكم في الصفات والقوى التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الخلق، فكيف ترفعونهم عن مماثلتكم وهم دونكم بالاختبار والمشاهدة، وإنَّكم تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول، ويقول بعضكم لبعض ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فما بالكم تأبون قبول الحق والخير من مثلكم، وقد فضله الله عليكم بالعلم والهدى، ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهية، مع انحطاطه عن درجة المثلية؟

وقرأ الحسن والأعرج ونافع[٢]: ﴿يبطِشون﴾: بكسر الطاء، وقرأ أبو جعفر

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وشيبة ونافع بضمها. ثم أمر رسوله ﷺ أنْ يبين لهم حقارة شأنهم فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يحتقرون نعم الله عليهم ﴿ٱدۡعُواْ﴾ ونادوا ﴿شُرَكَآءَكُمۡ﴾ الذين اتخذتموهم أولياء من دون الله، واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وشركاؤكم جميعاً؛ أي: تعاونوا على كيدي وبالغوا فيما تقدرون عليه من المكر وأوقعوا الضر بي سريعاً ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: فلا تمهلوني ولا تؤخروني ساعة من نهار، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على ولاية الله وحفظه، فمعنى ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾: استعينوا بهم على إيصال الضر إلي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾؛ أي: امكروا بي، ولا تؤخرون عما تريدون بي من الضر.

والحكمة في مطالبتهم بهذا[1]: أن العقائد الموروثة يتضاءل دونها كل برهان، ولا يجدي معها دليل، ومن ثم طالبهم بأمر عملي ينزع هذا الوهم من أعماق القلوب، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء ويستنجدوا بهم لصد دعوة الداعين إلى الكفر بها، وإثبات العجز له، وإنكار ما لهم من سلطان غيبي وتدبير كامن، فإنْ كان لها سلطان في أنفسها أو من عند الله تعالى.. فهذا أوان ظهوره، وإلا فمتى يظهر ليساعد إبطال عبادتها، وينصر عابديها ومعظمي شأنها، ومن الجلي أنَّ القوم كانوا ينكرون البعث، فكل ما يرجونه منها من خير أو يخافونه منها من شر فهو في هذه الحياة.

وقرأ أبو عمرو وهشام بخلاف عنه: ﴿كيدوني﴾ بإثبات الياء وصلاً ووقفاً، وقرأ باقي السبعة بحذف الياء، اجتزاء بالكسرة عنها.

ثم زاد الأمر بياناً، وبالغ في حقارة هذه المعبودات وعابديها على ما كان به من ضعف وقلة ناصر، وهو بمكة حين نزول هذه السورة، فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ﴾؛ أي: إن ناصري ومتولي أموري هو ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ الكريم والقرآن العظيم المؤيد لوحدانيته، ووجوب عبادته، ودعائه عند الشدائد والملمات، والناعي على المشركين عبادة غيره من وثن أو صنم، ﴿وَهُوَ﴾

---

(١) المراغي.

سبحانه وتعالى ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من عباده؛ أي: ينصرهم على أعدائه ولا يخذلهم، فلا تضرهم عداوة من عاداهم، وهم مَنْ صلحت أنفسهم بصحيح العقائد، وسلمت من الأوهام والخرافات، وبالأعمال التي تصلح بها شؤون الأفراد والجماعات، فنصرهم على ذوي الخزعبلات والأوهام، وفاسدي العقائد والأحلام، تصديقاً لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ بياء مشددة مضافاً لياء المتكلم المفتوحة، وهي ياء فعيل، أدغمت في لام الكلمة، وهي قراءة واضحة، أضاف الولي إلى نفسه، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه: بياء واحدة مشددة مفتوحة، ورفع الجلالة، قال أبو علي: لا يخلو إما أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة وهو لا يجوز؛ لأنَّه ينفك الإدغام الأول، أو تدغم ياء فعيل في ياء الإضافة ويحذف لام الفعل، فليس إلا هذا. انتهى.

وروي[2]: أن عمر بن عبد العزيز ما كان يدخر لأولاده شيئاً، فقيل له في ذلك؟ فقال: ولدي إما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين، فإنْ كان من الصالحين فوليه الله، ومن كان الله له ولياً.. فلا حاجة له إلى مالي، وإنْ كان من المجرمين.. فقد قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ومن رده الله لم أشتغل بإصلاح مهماته.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: والذين تعبدونهم من دون الله تعالى من الأصنام ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أيها المشركون في أمر من الأمور ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؛ أي: ولا يحفظون أنفسهم ويمنعونها مما يراد بهم من الضرر، فكيف أبالي بهم؟!! وهذه الجملة[3] من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم فهي معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا أبالي بهم؛ لأن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

وليَ الله؛ ولأنَّ ﴿الذين تدعون من دونه﴾ الخ. وبهذا يندفع توهم التكرار مع ما سبق؛ لأنَّ ما سبق للفرق بين من تجوز عبادته ومن لا، وما هنا لتعليل عدم المبالاة بهم.

والمعنى(١): أي وإنَّ الذين تدعونهم لنصركم، وجلب النفع لكم، ودفع الضر عنكم عاجزون، فلا هم بالمستطيعون نصركم، ولا نصر أنفسهم على من يحقر شأنهم، أو يسلبهم شيئاً مما وضع عليهم من طيب، أو حلي، فقد كسر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه الأصنام، فجعلهم جذاذاً، فما استطاعوا أنْ يدفعوه عن أنفسهم، ولا أن ينتقموا منه لها.

وقد روي(٢) عن معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ـ وكانا شابين من الأنصار قد أسلما، لما قدم النبي ﷺ المدينة ـ أنَّهما كانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانه ويتلفانها، ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك ويرتؤوا لأنفسهم رأياً آخر.

وكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيد قومه ـ صنم يعبده، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه، ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء ورأى ذلك.. علم أن ما كان عليه من الدين باطل وأنشد:

تَـالـلَّـهِ لَـوْ كُـنْـتَ إِلٰـهـاً مُـسْـتَـدِنْ لَـمْ تَـكُ وَالْـكَـلْـبُ جَـمِـيْـعَـاً مُـقْـتَـرِنْ

ثم أسلم وحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه، وبعد أن نفى عنهم القدرة على النصرة، أردف ذلك بنفي قدرتهم على الإرشاد إلى الهدى والرشاد.

فقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: وإن تدعوا أيها المشركون أصنامكم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم وتنتصرون به من أسباب خفية أو ظاهرة ﴿لَا يَسْمَعُوا۟﴾ دعاءكم، ولا يجيبونه، فضلاً عن مدِّ يد المعونة والمساعدة؛

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

لأنهم أموات غير أحياء، وقيل[1]: المعنى وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى والإيمان لا يسمعوا؛ أي: لا يقبلوا ذلك بقلوبهم، فلا يجيبوكم، والآية كقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾.

﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾؛ أي: وترى أيها المخاطب تلك الأصنام ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ بما وضع لهم من أعين صناعية، وحدق زجاجية، أو جوهرية، موجهة إلى من يدخل عليها، كأنها تنظر إليه ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بها؛ لأن حاسة الإبصار لا تحصل بالصناعة، وإنَّما هي من خواص الحياة التي استأثر الله بها؛ أي: والحال أنَّهم غير قادرين على الإبصار؛ لأنَّهم أموات غير أحياء، وهم إذ فقدوا السمع لا يسمعون نداء ولا دعاء ممن يعبدونهم، ولا من غيرهم، وإذ فقدوا البصر لا يبصرون حاله وحال خصمه، فكيف يرجى منهم نصر وشد أزر؟ أو أي معونة أخرى؟ أو كيف يخشى منهم إيصال ضر وأذى لمن يحتقرهم؟!!

وقيل المعنى: وترى يا محمد المشركين ينظرون إليك بأعينهم، وهم لا يبصرونك بقلوبهم. ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يا محمد؛ أي: اقبل الميسور من أخلاق الناس من غير تجسس لئلا تتوالد العداوة والبغضاء، أو المعنى: خذ ما تيسر من المال فما آتوك به فخذه، ولا تسأل عما وراء ذلك، وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة، وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس، وذلك مثل قبول الاعتذار منهم، وترك البحث عن الأشياء، والعفو: المساهلة في كل شيء، وقال أبو السعود: ولما ذكر الله سبحانه وتعالى من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق.. حمله أمره عليه السلام بمكارم الأخلاق، التي من جملتها الإغضاء عنهم، انتهى.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾؛ أي: وأمر الناس بكل ما أمرك الله به، وهو كل ما عرفته بالوحي من الله عز وجل، وقرأ[2] عيسى بن عمر ﴿بالعرف﴾ ـ بضمتين ـ وهما لغتان، والعرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن

---

(١) الفتوحات.

(٢) الشوكاني.

إليها النفوس، ومنه قول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ ٱلْخَيْرَ لاَ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ   لاَ يَذْهَبُ ٱلْعُرْفُ بَيْنَ ٱللَّهِ وَٱلنَّاسِ

﴿وَأَعْرِضْ﴾ واصفح ﴿عَنِ﴾ إساءة ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بالمعروف، المستهزئين بك؛ أي: إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف، فلم يفعلوا، فأعرض عنهم، ولا تمارهم، ولا تسافههم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة، قيل: وهذه الآية من جملة ما نسخ بآية السيف، قاله عبد الرحمن بن زيد وعطاء، وقيل: هي محكمة، قاله مجاهد وقتادة. وقيل[1]: إن كان المراد بالجاهلين الكفار، وبالإعراض عدم مقاتلتهم.. فالآية منسوخة بآية السيف، وإن كان المراد بالجاهلين ضعفاء الإسلام وأجلاف العرب، وبالإعراض عدم تعنيفهم والإغلاظ عليهم.. فالآية محكمة، وفي معنى ذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ وهو الذي لا عتاب فيه.

وقال بعضهم[2]: أول هذه الآية وآخرها منسوخ، ووسطها محكم، يريد بنسخ أولها أخذ الفضل من الأموال، فنسخ بفرض الزكاة، والأمر بالمعروف محكم، والإعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال، وفي هذه الآية تعليم مكارم الأخلاق للعباد، فليس هذا الأمر من خصوصياته ﷺ.

وحاصل معنى الآية: أن الله سبحانه وتعالى[3] أمر نبيه في هذه الآية بثلاثة أشياء، هي أسس عامة للشريعة في الآداب النفسية والأحكام العملية:

١ ـ **العفو**: وهو السهل الذي لا كلفة فيه؛ أي: خذ ما عفا لك وسهل من أفعال الناس وأخلاقهم، وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى ينفروا، وهذا كما جاء في الحديث: «يسروا ولا تعسروا». وقال الشاعر:

خُذِ ٱلْعَفْوَ مِنِّيْ تَسْتَدِيْمِيْ مَوَدَّتِيْ   وَلاَ تَنْطُقِيْ فِيْ سَوْرَتِيْ حِيْنَ أَغْضَبُ

---

(١) الصاوي.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

وقيل إن المعنى: خذ العفو وما تسهل من صدقاتهم.

والخلاصة: أن من قواعد الدين وفوائده اليسر وتجنب الحرج، وما يشق على الناس، وقد صح أن النبي ﷺ: «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما».

٢ ـ الأمر بالمعروف: وهو ما تعرفه النفس من الخير وتأنس به وتطمئن إليه، ولا شك أنَّ هذا مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة، وما تتواطأُ عليه من الأمور النافعة في مصالحها، وإجمال القول فيه: أنه اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس.

وقد ذكر المعروف في السور المدنية في الأحكام الشرعية العملية، كوصف الأمة الإسلامية وحكومتها كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾، وعند ذكر الحقوق الزوجية كقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، وفي أحكام الطلاق كقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، وقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

ومن ذلك ترى أن هذا اللفظ ﴿المعروف﴾ لم يذكر إلا في الأحكام الهامة، وأنَّ المراد به ما هو معهود بين الناس في المعاملات والعادات، ولا شك أنَّه يختلف باختلاف الشعوب والبلاد والأوقات، ومن ثم قال بعض الأئمة: المعروف ما يستحسن في العقل فعله، ولا تنكره العقول الصحيحة، ويكفي المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة، إذ لا يمكن المؤمن أنْ يستنكر ما جاء عن الله ورسوله، وليكن للجماعة الإسلامية بعده رأي فيما يعرفون وينكرون، ويستحسنون ويستهجنون، ويكون عمدتهم في ذلك جمهور العقلاء، وأهل الفضل والأدب في كل عصر.

٣ ـ الإعراض عن الجاهلين: وهم السفهاء، بترك معاشرتهم، وعدم مماراتهم، ولا علاج للوقاية من أذاهم إلا الإعراض عنهم، وقد روي عن جعفر الصادق رحمه الله أنه قال: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

وروي الطبري وغيره عن جابر: «أنَّه لما نزلت هذه الآية سأل النبي ﷺ جبريل عنها؟ فقال: لا أعلم حتى أسأل، ثم رجع فقال: إن ربك يأمرك أنْ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». كما مر وأخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

خُـذِ ٱلْـعَـفْـوَ وَأْمُـرْ بِـعُـرْفٍ كَـمَـا أُمِـرْتَ وَأَعْـرِضْ عَـنِ ٱلْـجَـاهِـلِـيْـن
وَلِـنْ فِـيْ ٱلْـكَـلَامِ لِـكُـلِّ ٱلْأَنَـامْ فَـمُـسْـتَـحْـسَـنٌ مِـنْ ذَوِيْ ٱلْـجَـاهِ لِـيْـنْ

وقال بعض العلماء: هذه الآية قد تضمنت قواعد الشريعة، فلم يبق فيها حسنة إلا وعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ إيماء إلى جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء وأمور التكليف وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ تناول جميع المأمورات والمنهيات، وأنهما ما عرف في الشريعة حكمه، واتفقت القلوب على علمه، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تناول جانب الصفح بالصبر الذي يتأتى للعبد به كل مراد في نفسه وغيره. اهـ.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ويصيبنك[1] يا محمد ويعرض لك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾؛ أي: نخسة ووسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به من العفو والإعراض عن الجاهلين ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فاستجر بالله، والتجىء إليه في دفعه عنك ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع دعاءك واستعاذتك ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالك، أو سميع باستعاذتك بلسانك، عليم بما في ضميرك من استحضاره معاني الاستعاذة، فالقول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر، أو سميع بأقوال من آذاك، عليم بأفعاله، فيجازيه عليها مغنياً لك عن الانتقام، ومتابعة الشيطان.

والمعنى[2]: وإنْ يثر فيك الشيطان داعية الشر والفساد، بسبب غضب أو شهوة، فيجعلك تتأثر وتتحرك للعمل بها، كما تتأثر الدابة إذا نخست بالمهماز فتسرع، فالجأ إلى الله وتوجه إليه بقلبك ليعيذك من شر هذا النزغ، حتى لا يحملك على ما يزعجك من الشر، وعبر عن ذلك بلسانك فقل: أعوذ بالله من

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

الشيطان الرجيم؛ فإنَّه سميع لما تقول، عليم بما تحدثك به نفسك، ويجيش به صدرك، فهو سبحانه وتعالى يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر.

وقد دلت التجربة على أن الالتجاء إلى الله تعالى، وذكره بالقلب واللسان يصرف عن النفس وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩)﴾. والخطاب في الآية وما ماثلها من الآيات موجه إلى كل مكلف يبلغه، وأولهم الرسول ﷺ، فإنَّ الشيطان يجد مجالاً في حمل الإنسان على ما لا ينبغي في حالة الغضب والغيظ، فأمر الله بالالتجاء إليه، والتعويذ في تلك الحالة، فهي تجري مجرى العلاج لذلك المرض.

فصل[1]: واحتج الطاعن في عصمة الأنبياء بهذه الآية

فقالوا: لو كان النبي معصوماً.. لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج إلى الاستعاذة منه، والجواب عنه بأوجه:

الأول: أن معنى الكلام: إن حصل في قلبك نزغ من الشيطان.. فاستعذ بالله، وإنَّه لم يحصل له ذلك ألبتة، فهو كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ وهو بريء من الشرك ألبتة.

والوجه الثاني: على تقدير أنَّه لو حصل وسوسة من الشيطان، لكن الله عصم نبيه ﷺ عن قَبولها وثبوتها في قلبه، روى مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال وإياي، إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

قال النواوي: ويروى: (فأسلم) بفتح الميم وضمها، فمن رفع قال: معناه فاسلم من شره وفتنته، ومن فتح قال: معناه أن القرين أسلم من الإسلام، يعني:

---

(١) الخازن.

صار مؤمناً، لا يأمرني إلا بخير، ورجح النواوي الفتح لقوله: «فلا يأمرني إلا بخير».

والوجه الثالث: يحتمل أنْ يكون الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره، ومعناه: وإمَّا ينزغنَّك أيها الإنسان من الشيطان نزع.. فاستعذ بالله، فهو كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

قال القاضي عياض: واعلم أنَّ الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه، وفي هذا الحديث المذكور آنفاً إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، أعلمنا أنَّه معنا لنحترز عنه بحسب الإمكان. والله أعلم.

ثم بين سبحانه طريق سلام من يستعيذُ من الشيطان من الوقوع في المعصية فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾؛ أي: إن الذين اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرها ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ وأصابهم ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: شيء قليل من وسوسة الشيطان، وخاطر منه ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ما أمرهم الله به، من ترك إمضاء الغضب، ومن أنَّ الإنسان إذا أمضى الغضب.. كان شريكاً للسباع المؤذية والحيات القاتلة، وإنْ تركه واختار العفو.. كان شريكاً لأكابر الأنبياء والأولياء والصالحين، ومن أنَّه ربما انقلب ذلك الضعيف الذي يريد أنْ يعدو عليه قوياً قادراً على الغضب، فحينئذ ينتقم منه على أسوأ الوجوه، أما إذا عفا كان ذلك إحساناً منه إلى ذلك الضعيف ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ بسبب التذكر مواقع الخطأ، ومكايد الشيطان، ومنتبهون لها، فيتحرزون عنها، ولا يتبعونه فيها؛ أي: إذا حضرن هذه التذكرات في قلوبهم، ففي الحال يحصل الخلاص من وسوسة الشيطان، ويحصل لهم الإبصار لها، والانكشاف عنها، وينتهون عن المعصية.

والمعنى: أن خيار المؤمنين وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ إذا ألم ونزل بهم طائف وخيال من الشيطان ليحملهم بوسوسته على المعصية، أو إيقاع البغضاء بينهم.. تذكروا أن هذا من إغواء الشيطان عدوهم الذي أمر الله بالاستعاذة منه، والالتجاء إليه في الحفظ من

غوايته، فإذا هم أولو بصيرة يربئون أنفسهم أن تطيعه فهو إنَّما تأخذ وسوسته الغافلين من ربهم، الذين لا يراقبونه في شؤونهم وأعمالهم، ولا شيء أقوى على طرد وسواس الشيطان من ذكر الله، ومراقبته في السر والعلن من قبل أنه يقوي في النفس حب الحق، وداعي الخير، ويضعف فيها الميل إلى الشرور والآثام.

فقويُّ الروح بالإيمان والتقوى غير قابل لتأثير الشيطان في نفسه، لكن الشيطان دائماً يتحين الفرص وعروض بعض الأهواء النفسية، من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام، حتى إذا وجد الفرصة سانحة افترصها، ولابس النفس وقوىَّ فيها داعي الشر، كالحشرات القذرة التي تعرض للنظيف إذا أهملها بالغفلة عنها فعلت فعلها، وإذا تداركها نجا من شرها وضرِّها.

وإن الإنسان ليشعر بتنازع دواعي الخير والشر في نفسه، وإن لداعية الخير والحق مسلكاً يقويها، ولداعية الشر والباطل شيطاناً يقويها، وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله: «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك.. فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾.

وقرأ النحويان[1]: أبو عمرو والكسائي وابن كثير: ﴿طيف﴾ فيحتمل أن يكون مصدراً من طاف يطيف طيفاً، كباع يبيع بيعاً، ويحتمل أنْ يكون مخففاً من طيف، كميت وميت، وليِّن وليْن، وقرأ باقي السبعة ﴿طائف﴾ اسم فاعل من طاف، وقرأ ابن جبير: ﴿طيف﴾ بالتشديد، وهو فيعل، وقرأ ابن الزبير: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تأملوا فإذا هم مبصرون﴾ وفي مصحف أبي ﴿إن الذين اتقوا إذا طاف من الشيطان طائف تأملوا فإذا هم مبصرون﴾. وينبغي أن يحمل هذا، وقراءة ابن الزبير على أن ذلك من باب التفسير، لا على أنَّه قرآن، لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون من ألفاظ القرآن.

(١) البحر المحيط.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾؛ أي: وإخوان الشياطين وهم الكفار، ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾؛ أي: تمدُّهم الشياطين وتساعدهم وتشجعهم ﴿فِي الْغَيِّ﴾ والضلالة بتزيينه لهم، ﴿ثُمَّ﴾ أولئك الإخوان الذين هم الكفار ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ ولا ينكفون عن الغي، ولا ينزجرون عنه بالتبصر فيه كما تبصر المتقون، وإخوانهم مبتدأ، والخبر جملة ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ ولكن الخبرجرى على غير من هو له؛ لأنَّ الضمير المرفوع يعود على ﴿الشياطين﴾ والمنصوب على ﴿الكفار﴾، فكأنَّه[1] قيل: والكفار الذين هم إخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي، وهذا التفسير الذي ذكرته هو قول الجمهور، وعليه عامة المفسرين، وجرى عليه الطبري، قال الزمخشري: وهذا التفسير هو أوجه التفاسير؛ لأنَّ ﴿إخوانهم﴾ في مقابلة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.

وقيل الضمير المرفوع يعود على الإخوان، والمنصوب على ﴿الشياطين﴾.

والمعنى[2]: وإخوان الشياطين من الكفار يمدونهم، أي: يقوون الشياطين في الغي والضلال، وذلك لأن شياطين الإنس إخوان لشياطين الجن، فشياطين الإنس يضلون الناس، فيكون ذلك تقوية منهم لشياطين الجن على الإضلال ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾؛ أي: لا ينكف الغاوون عن الضلال، والمغوون عن الإضلال، وعلى هذا فالخبر جارٍ على من هو له، وقيل غير ذلك.

والمعنى: أي إن[3] إخوان الشياطين ـ وهم الجاهلون والمشركون ـ الذين لا يتقون الله يتمكن الشياطين من إغوائهم، فيمدونهم ويزيدونهم في غيهم وإفسادهم؛ لأنَّهم لا يذكرون الله إذا شعروا بالنزوع إلى الشر، ولا يستعيذون به من نزغ الشيطان ومسه، إما لأنَّهم لا يؤمنون بالله، وإما لأنَّهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطاناً من الجن يوسوس إليه ويغريه بالشر، ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم، فلذلك يصرون على الشر والفساد لفقد الوازع النفسي، والواعظ القلبي.

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

والخلاصة: أنَّ المؤمنين إذا مسهم طائف من الشيطان يحملهم على المعاصي.. تذكروا فأبصروا وحذروا وسلموا، وإنْ زلوا تابوا وأنابوا، وإنَّ إخوان الشياطين تتمكن الشياطين من إغوائهم، فيمدونهم في غيهم، ولا يكفون عن ذلك، ومن ثم تراهم يستمرون في شرورهم وآثامهم لفقد الوازع النفسي.

وقرأ نافع[1]: ﴿يُمِدُّونَهم﴾ بضم الياء وكسر الميم، من أمد الرباعي، وباقي السبعة ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بفتح الياء وضم الميم، من مد الثلاثي، وقرأ الجحدري ﴿يمادونهم﴾ بألف بعد الميم من ماد على وزن فاعل، وقرأ الجمهور ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ بضم الياء من أقصر الرباعي، بمعنى كف، وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى ابن عمر ﴿ثمَّ لاَ يَقْصُرونَ﴾ بفتح الياء وضم الصاد من قصر الثلاثي؛ أي: ثمَّ لا ينقصون من إمدادهم وغوايتهم.

﴿وَإِذَا﴾ تباطأ ظهور الخوارق على يديك يا محمد و﴿لَمْ تَأْتِهِم﴾؛ أي: لم تأت أهل مكة ﴿بِآيَةٍ﴾؛ أي: بمعجزة باهرة مما اقترحوا وطلبوا منك ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال أهل مكة استهزاء وسخرية ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾؛ أي: هلا اصطفيت تلك الآية واخترعتها وأنشأتها من عند نفسك، كما اخترعت واختلقت ما قبلها، وقال[2] الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنتاً، فإذا تأخرت اتهموه وقالوا: لولا اجتبيتها، يعني: هلا أحدثتها وأنشأتها من عند نفسك كما اختلقت ما قبلها.

قال الفراء: تقول العرب: اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا افتعلته من قبل نفسك، وعبارة المراغي هنا: وإذا لم تأتهم أيها الرسول بآية قرآنية، بأن تراخى نزول الوحي زمناً ما.. قالوا: لولا افتعلت نظمها وتأليفها، واخترعتها من تلقاء نفسك، وقد يكون المعنى: وإذا لم تأتهم بآية مما اقترحوا عليك قالوا: هلا حباك الله بها بأن مكنك منها، فاجتبيتها وأبرزتها لنا إن كنت صادقاً في أن الله يقبل دعاءك، ويجيب التماسك.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يجيبهم الجواب الشافي بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات: لست ممن يأتي بالآيات ويختلقها من عند نفسه كما تزعمون بل ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ فما أوحاه إلي وأنزله علي أبلغته إليكم؛ أي: إنه ليس لي أن اقترح على ربي أمراً من الأمور، وإنما انتظر الوحي، فكل شيء أكرمني به قلته، وإلا وجب علي السكوت وترك الاقتراح.

وقد يكون المعنى: ما أنا بقادر على إيجاد الآيات الكونية، ولا بمفتات على الله في طلبها، وإنَّما أنا متبع لما يوحى إلي، فضلاً من ربي علي إذ جعلني مبلغا عنه، وقد وصف الله تعالى القرآن بثلاثة أوصاف فقال:

١ ـ ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: وقل لهم يا محمد هذا القرآن الذي أنزل عليَّ، وأوحاه الله إلي بصائر من ربكم؛ أي: بمنزلة البصائر للقلوب، فبه تبصر الحق وتدرك الصواب؛ أي: حجج بينة وبراهين نيرة للعقول في الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد ـ صادرة من ربكم، من تأملها حق التأمل يكن بصير العقل بما تدل عليه من الحق، فهي أدل عليه مما تطلبونه من الآيات الكونية.

٢ ـ ﴿وَهُدًى﴾؛ أي: وهو هاد إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

٣ ـ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: وهو رحمة في الدنيا والآخرة.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: للذين يؤمنون به، ويمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه؛ أي: فالقرآن في حق أصحاب عين اليقين، وهم من بلغوا ـ في معارف التوحيد والنبوة والمعاد ـ مرتبة أصبحوا بها كالمشاهدين لها، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فهو لهؤلاء بصائر، وفي حق أصحاب علم القين، وهم الذين بلغوا إلى درجات المستدلين به هدى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة لا جرم، وهم أصحاب حق اليقين.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ عليكم أيها المؤمنون ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾؛ أي: فاصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾؛ أي: اسكتوا عن

الكلام لاستماعه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لكي يرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم من فرائضه في آيه، فمن استمع وأنصت كان جديراً أن يفهم ويتدبر، ومن كان كذلك.. كان حرياً أن يرحم.

والآية تدل على وجوب الاستماع والانصات للقرآن إذا قرىء، سواء أكان ذلك في الصلاة أو في خارجها، وهو المروي عن الحسن البصري، لكن الجمهور خصوه بقراءة الرسول ﷺ في عهده، وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده، ذلك أن إيجاب الاستماع والإنصات في غير الصلاة والخطبة فيه حرج عظيم، إذ يقتضي أن يترك له المشتغل بالعلم علمه، والمشتغل بالحكم حكمه، وكل ذي عمل عمله.

أما قراءة النبي ﷺ، فكان بعضها تبليغاً للتنزيل وبعضها وعظاً وإرشاداً، فلا يسع أحداً من المسلمين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع، أو يتكلَّم بما يشغله، أو يشغل غيره عنه، وهكذا شأن المصلي مع إمامة وخطيبه، إذ هذا هو المقصود من الصلاة، والواجب فيها.

وما يفعله جماهير الناس، والمحافل التي يقرأ فيها القرآن ـ كالمآتم وغيرها ـ من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة، فمكروه كراهة شديدة، ولا سيما لمن كانوا على مقربة من التالي.

ولا يجوز[1] لقارىء أن يقرأ على قوم لا يستمعون له، وإنْ كان أكثرهم يستمع وينصت فشذ بعضهم بمناجاة صاحبه بالجنب بلا تهويش على القارىء، ولا على المستمعين كانت المخالفة سهلة لا تقتضي ترك القراءة، ولا تنافي الاستماع.

والواجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته، كما يحرص على تلاوته، وأنْ يتأدب في مجلس التلاوة، والضابط في ذلك: أنْ لا

---

(١) المراغي.

يصدر من السامع ـ ما يعد في اعتقاده أو في عرف الناس ـ أنه مناف للأدب، ولا بأس بقراءة القرآن حال القيام والقعود، والاضطجاع والمشي والركوب، ولا تكره مع حدث أصغر ولا مع نجاسة ثوب أو بدن، وإن كان يستحب الوضوء حين القراءة حال الحدث، ولا سيما للقارىء في المصحف، وتستحب القراءة بالترتيل والنغم الدالة على التأثير والخشوع، من غير تكلف ولا تصنع، فقد روى أبو هريرة مرفوعاً: «ما أَذِنَ ـ استمع ـ الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن» رواه الشيخان.

فصل

واختلف[1] العلماء في القراءة خلف الإمام، فذهب جماعة إلى إيجابها، سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسر، يروى ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ، وهو قول الأوزاعي، وإليه ذهب الشافعي، وذهب قوم إلى أنه يقرأ فيما أسر الإمام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الإمام فيه، يروى ذلك عن ابن عمر، وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد، وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق، وذهب قوم إلى أنَّه لا يقرأ سواء أسر الإمام أو جهر، يروى ذلك عن جابر، وإليه ذهب أصحاب الرأي[2]. حجة من لا يرى القراءة خلف الإمام ظاهر هذه الآية، وحجة من قال: يقرأ في السرية دون الجهرية، قال: إن الآية تدل على الأمر بالاستماع لقراءة القرآن، ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الإمام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية، وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية، جمعاً بين دلائل الكتاب والسنة، وحجة من أوجب القراءة خلف الإمام في صلاة السرية والجهرية قال: الآية واردة في غير الفاتحة؛ لأن دلائل السنة قد دلت على وجوب القراءة خلف الإمام، ولم يفرق بين السرية والجهرية، قالوا: وإذا قرأ الفاتحة خلف الإمام تتبع سكتاته، ولا ينازعه في

(١) الخازن.

(٢) هذا يدل على أن المؤلف ربما يكون متعصباً لمذهب من المذاهب. اهـ.

القراءة، ولا يجهر بالقراءة خلفه، ويدل عليه ما روي عن عبادة بن الصامت: قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: أراكم تقرؤون وراء إمامكم؟! قال: قلنا: يا رسول الله إي والله، قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن؛ فإنَّه لا صلاة لمن لم يقرأ بها» أخرجه الترمذي بطوله، وأخرجاه في الصحيحين أقصر منه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج» يقولها ثلاثاً غير تمام، فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ قال: اقرأ بها في نفسك، وذكر الحديث. والخطاب في قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ للنبي ﷺ، ويدخل فيه غيره من أمته؛ لأنَّه عام لسائر المكلفين؛ أي: واذكر أيها المكلف ربك الذي خلقك ورباك بنعمه، عارفاً بمعاني الأذكار التي تقولها بلسانك، مستحضراً لصفات الكمال والجلال، والعز والعلو والعظمة ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ وقلبك؛ أي: أسمع نفسك سراً، وذلك لأن الذكر باللسان إذا كان عارياً عن الذكر بالقلب.. كان عديم الفائدة؛ لأن فائدة الذكر حضور القلب واستشعاره عظمة المذكور عز وجل، وقيل: المعنى: أذكر ربك سراً في نفسك؛ لأن ذِكر النفس أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء والسمعة.

وقوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ منصوبان على الحال، ولكن بعد تأويله بالمشتق؛ أي: واذكر ـ أيها المكلَّف ـ ربك في نفسك حالة كونك متضرعاً ومتذللاً وخاضعاً له، وخائفاً منه، راجياً نعمه، وقرىء ﴿وخُفية﴾ بضم الخاء ﴿و﴾ اذكره بلسانك مع ذِكره في نفسك ذِكراً ﴿دون الجهر﴾ برفع الصوت ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وفوق التخافت والسر، بل ذكراً قصداً وسطاً بين الجهر والمخافتة، بأن يذكر الشخص ربه بحيث يسمع نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

وذكر اللسان وحده دون ذكر القلب، وملاحظة معاني الذِّكر لا يجدي نفعاً، فكم رأينا من ذوي الأوراد والأدعية، الذين يذكرون الله كثيراً بالمئين والألوف،

ولا يفيدهم ذلك معرفة بالله تعالى، ولا مراقبة له؛ لأنَّ ذلك أصبح عادة لهم، تصحبها عادات أخرى منكرة، ومن ثم كان الواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان.

والمعنى: واذكر ربك أيها الملكف بأي[1] نوع من أنواع الذكر، من قرآن وتهليل وتحميد وتكبير وتسبيح ودعاء، وغير ذلك، سراً في نفسك إنْ لم يلزم عليه الكسل، وإلا جهراً وذكراً وسطاً دون الجهر، وفوق السر ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾؛ أي: في البكر والعشايا وما بينهما من جميع الأوقات، وقرأ أبو مجلز ﴿والإيصال﴾ جعله مصدراً لقولهم: أصلت؛ أي: دخلت في وقت الأصيل، والغدو جمع غدوة، وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والآصال جمع أصيل، وهو من العصر إلى الغروب، وإنَّما خص هذين الوقتين بالذكر؛ لأن الإنسان يقوم من النوم عند الغداة، فطلب أن يكون أول صحيفته ذكر الله تعالى، وأما وقت الآصال فلأن الإنسان يستقبل النوم ـ وهو أخو الموت ـ فينبغي له أن يشغله بالذكر، خيفة أنْ يموت في نومه، فيبعث على ما مات عليه، وقيل: إن الأعمال تصعد في هذين الوقتين، وقيل: لكراهة النفل في هذين الوقتين، فطلب بالذكر فيهما، لئلا يضيع على الإنسان وقته، ولأن من افتتح نهاره بذكر الله، واختتمه به، كان جديراً بأن يراقب الله ولا ينساه فيما بينهما، ﴿وَلَا تَكُن﴾ أيها الملكف ﴿مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله تعالى، بل أشعر قلبك الخضوع له والخوف من قدرته عليك، إذا أنت غفلت عن ذلك، ومن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه، وضعف إيمانه، واستحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكره.

ثم ختم[2] سبحانه هذه الآيات بما يؤكد الأمر والنهي السابقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا محمد؛ أي: إن ملائكة الرحمٰن المقربين عنده ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون، بل يؤدونها حسب ما أُمروا به ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾؛ أي: ينزهون الله سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق

---

(١) الصاوي.
(٢) المراغي.

بعظمته وكبريائه وجلاله، وعن اتخاذ الولد والند والشريك، ولا يفعلون كما يفعل هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأنداداً، يحبونهم كحبه ﴿وَلَهُۥ﴾ وحده سبحانه وتعالى، يصلون و﴿يَسْجُدُونَ﴾؛ فلا يشركون معه أحداً، فالواجب على كل مؤمن أنْ يجعل خواص الملائكة المقربين إليه تعالى من حملة عرشه، والحافين به أسوة حسنة له في صلاته وسجوده، وسائر عبادته.

فإنْ قلت[١]: التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾؛ لأنَّهما من جملة العبادة، فكيف أفردهما بالذكر؟

قلت: أخبر الله عز وجل عن حال الملائكة أنَّهم خاضعون لعظمته لا يستكبرون عن عبادته، ثم أخبر عن صفة عبادتهم أنَّهم يسبحونه وله يسجدون.

ولما كانت الأعمال تنقسم إلى قسمين، أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأعمال القلوب هي: تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله ﴿ويسبحونه﴾ وعبر عن أعمال الجوارح بقوله: ﴿وله يسجدون﴾.

وقد شرع الله سبحانه وتعالى لنا[٢] السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها، إرغاماً لمن أبى ذلك من المشركين، واقتداء بالملائكة المقربين، ومثلها آيات أخرى ستأتي في مواضعها، وقد كان ﷺ يقول في سجوده لذلك: «اللهم لك سجد سوادي، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعي وعملاً يرفعني» وفي سنن ابن ماجه عن ابن عباس أنَّه ﷺ كان يقول في سجدة التلاوة: «اللهم احطط عني بها وزراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً».

وهذه السجدة[٣] من عزائم سجود القرآن، فيستحب للقارىء والمستمع أن يسجد عند قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم،

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

والجمهور على أنَّه ليس بواجب، وقال أبو حنيفة: هو واجب، ولا خلاف في أنَّ شرطه شرط الصلاة من طهارة خبث وحدث ونية واستقبال ووقت، إلا ما روى البخاري عن ابن عمر وابن المنكدر عن الشعبي: أنَّه يسجد على غير طهارة، وذهب الشافعي وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع اليدين، وقال مالك: يكبر لها في الخفض والرفع في الصلاة، وأما في غير الصلاة فاختلف عنه، ويسلم عنها عند الجمهور، وقال جماعة من السلف وإسحاق: لا يسلم ووقتها سائر الأوقات مطلقاً؛ لأنَّها صلاة بسبب، ذكره أبو حيان في «البحر» وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبي ﷺ: (كان يقرأ القرآن، فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته في غير وقت صلاة) متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويلنا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» رواه مسلم.

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليك بكثرة السجود لله، فإنَّك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة» رواه مسلم أيضاً.

وفي الآية إرشاد إلى أن الأفضل إخفاء الذِّكر، وقد روى أحمد قوله ﷺ: «خير الذِّكر الخفي».

الإعراب

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿خَلَقَكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿مِّن نَّفْسٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿خلق﴾، ﴿وَٰحِدَةٍ﴾: صفة لـ﴿نَّفْسٍ﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض، ﴿مِنْهَا﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الموصول، ﴿زَوْجَهَا﴾: مفعول به

ومضاف إليه والجملة معطوفة على جملة ﴿خلق﴾. ﴿لِيَسْكُنَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يسكن﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على نفس واحدة، وذكره نظراً لمعناها، لأنَّها بمعنى آدم ﴿إِلَيْهَا﴾ متعلق بـ﴿يسكن﴾، وجملة يسكن: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بـ﴿جعل﴾؛ أي: وجعل منها زوجها لسكونه إليها.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: ولما سكن إليها غشاها وجامعها، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على آدم، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿حَمَلَتْ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على حواء، ﴿حَمْلًا﴾ مفعول به أو مفعول مطلق، ﴿خَفِيفًا﴾ صفة لـ﴿حَمْلًا﴾: والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ المحذوفة، ﴿فَمَرَّتْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مرت﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على حواء، ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق به، وجملة ﴿مرت﴾ معطوفة على جملة ﴿حَمَلَتْ﴾، ﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: ولما مرت به أثقلت، ﴿لما﴾: حرف شرط ﴿أَثْقَلَت﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على حواء، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿رَبَّهُمَا﴾: بدل من الجلالة، والجملة جواب ﴿لما﴾ وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿لما﴾ المحذوفة، ﴿لَئِنْ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة لقسم محذوف تقدير: أقسمنا والله، ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾: ﴿اللام﴾ لام قسم مؤكدة للأولى جيء بها لتدل على أن ما بعدها جواب القسم لا جواب الشرط، ﴿نكونن﴾: فعل مضارع ناقص في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسمها ضمير يعود على آدم وحواء، ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: خبرها،

وجملة ﴿نكون﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم تقديره: إن آتيتنا صالحاً.. نكن من الشاكرين، وجملة إنْ الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه، وجملة القسم مع جوابه في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: دعوا الله ربهما فقالا: لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين، أو جملة مفسرة لجملة الدعاء لا محل لها من الإعراب، وفي «السمين»[(1)]: هذا القسم وجوابه فيه وجهان:

أظهرهما: أنَّه مفسر لجملة الدعاء، كأنَّه قيل: فما كان دعاؤهما؟ فقيل: كان دعاؤهما كيت وكيت.

والثاني: أنَّه مفعول لقول محذوف تقديره: فقالا: لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فآتاهما صالحاً، ﴿لما﴾: حرف شرط، ﴿ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿جَعَلَا﴾: فعل وفاعل، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني. ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعول أول لـ﴿جَعَلَا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿فِيمَآ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾، ﴿ءَاتَىٰهُمَآ﴾: فعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: فيما آتاه إياهما، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿تعالى الله﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وما بينهما اعتراض كما مر في مبحث التفسير، ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق

---

(١) الفتوحات.

بـ﴿تعالى﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: عما يشركونه به، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية، إنْ قلنا ﴿ما﴾ مصدرية أي: تعالى عن إشراكهم.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي ﴿يشركون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يشركون﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، وأفرده نظراً للفظ ﴿مَا﴾، ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُخْلَقُونَ﴾: خبره، وجمع الضمير هنا نظراً لمعنى ﴿مَا﴾ كما مر في بحث التفسير، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿يَخْلُقُ﴾، على كونها صلة ﴿لما﴾ الموصولة ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة أيضاً على جملة الصلة ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به أو متعلق بنصراً ﴿نَصْرًا﴾: مفعول به ﴿وَلَآ﴾. الواو: عاطفة لا نافية، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به مقدم على عامله لرعاية الفاصلة، والجملة معطوفة على جملة الصلة أيضاً.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿تَدْعُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ متعلق به، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَتَّبِعُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بإنْ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم لمبتدأ متعد من الجملة التي بعدها، من غير سابك لإصلاح المعنى، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلقان بـ﴿سواء﴾. ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للتسوية، وهي في الأصل للاستفهام، ولكنه غير مراد هنا لوقوعها بعد ﴿سَوَآءٌ﴾، ﴿دعوتموهم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً لـ﴿سَوَآءٌ﴾ من غير

سابك لإصلاح المعنى، وقيل: السابك هنا همزة التسوية كما مر في أول البقرة، ﴿أَمْ﴾: عاطفة متصلة لوقوعها بعد همزة التسوية، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿صَٰمِتُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية المذكورة قبلها على كونها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء والتقدير: دعاؤكم إياهم وصمتكم عنهم سواء؛ أي: سيان في عدم الإفادة، والجملة الاسمية مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَدْعُونَ﴾ صلة الموصول، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تَدْعُونَ﴾. ﴿عِبَادٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ صفة لـ﴿عِبَادٌ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب شرط محذوف تقديره: إن زعمتم أنَّها آلهة.. فادعوهم، ﴿ادعوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم على أنَّها جواب الشرط، وجملة الشرط المحذوف مع جوابها مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿واللام﴾: لام الأمر، ﴿يستجيبوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لام﴾ الأمر، والواو فاعل، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ على كونها جواباً لشرط محذوف، ﴿لَكُمْ﴾ متعلقان بالفعل ﴿يستجيبوا﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط معلوم مما قبله تقديره: إنْ كنتم صادقين في أنَّها آلهة.. فادعوهم، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة مقررة لما قبلها.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ﴾.

﴿أَلَهُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿لهم﴾: جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿أَرْجُلٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يَمْشُونَ بِهَآ﴾ صفة ﴿أَرْجُلٌ﴾، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أَمْ﴾: عاطفة منقطعة بمعنى همزة الاستفهام الإنكاري، وبمعنى بل التي للإضراب الانتقالي من توبيخ إلى

توبيخ آخر، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿أَيْدٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها الثقل، وجملة ﴿يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾: صفة لـ﴿أَيْدٍ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾، ﴿أَمْ﴾: عاطفة، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿أَعْيُنٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ صفة ﴿أَعْيُنٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ وكذلك جملة ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ معطوفة على الجملة الأولى.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول محكي لـ﴿قُلِ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿كِيدُونِ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة النون في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب، ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تُنظِرُونِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية وعلامة جزمه حذف النون، والواو: فاعل و﴿النون﴾ للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة النون في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿وَلِـِّۧيَ﴾: اسمها منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وهو مضاف وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ على كونها تعليلاً لما قبلها. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة للجلالة، ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود

على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل الرفع خبر ﴿هو﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿نَزَّلَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الذين﴾: مبتدأ، ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: والذين تدعونهم، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تَدْعُونَ﴾، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، ومعطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قل﴾، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول مقدم لما بعده، ﴿يَنصُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ على كونها خبر الموصول.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَدْعُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل الشرط، ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ متعلق به، ﴿لَا يَسْمَعُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ على كونها خبر الموصول ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾: فعل ومفعول به؛ لأنَّ رأى بصرية، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿تَرَاهُمْ﴾، وجملة ﴿تَرَاهُمْ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، على كونها خبر المبتدأ، ﴿وَهُمْ﴾، مبتدأ وجملة ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿يَنظُرُونَ﴾.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿وَأْمُرْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة

على جملة ﴿خُذِ﴾. ﴿بِٱلْعُرْفِ﴾ متعلق به ﴿وَأَعْرِضْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿خُذِ﴾، ﴿عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ متعلق به.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿وَإِمَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إما﴾ ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ﴿ما﴾ الزائدة، ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: متعلق به ﴿نَزْغٌ﴾ فاعل، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجزم جواب ﴿إنْ﴾ الشرطية و﴿الفاء﴾: فيه رابطة الجواب وجوباً، لكون الجواب جملة طلبية، ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ﴿استعذ﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول له، ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثان له، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها أعني جملة الأمر بالاستعاذة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، ﴿ٱتَّقَوْا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: صفة لـ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا الشرطية، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إنَّ مستأنفة، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية، ﴿إِذَا﴾ حرف فجأة لا محل لها من الإعراب، ﴿هُم مُّبْصِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾: مبتدأ، ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، ولكنه خبر سببي، والجملة الاسمية معطوفة على جملة

﴿إن﴾. ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾ متعلق بـ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدأ.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿لَمْ تَأْتِهِم﴾: جازم وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِآيَةٍ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلاَّ، ﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ﴾: إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿أَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿مَا يُوحَىٰ﴾: ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿أَتَّبِعُ﴾، ﴿يُوحَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور، متعلق به، وكذا ﴿مِن رَّبِّي﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿بَصَائِرُ﴾، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: معطوفان على ﴿بَصَائِرُ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور تنازع فيه كل من ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ على كونه صفة لهما، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قُرِئَ

﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿فَٱسْتَمِعُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً ﴿استمعوا﴾: فاعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿استمعوا﴾، ﴿وَأَنصِتُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿استمعوا﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾: حرف نصب وترج، و﴿الكاف﴾: اسمها، وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

﴿وَٱذْكُر﴾ الواو: استئنافية، ﴿اذكر ربك﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مكلف، والجملة مستأنفة، ﴿فِى نَفْسِكَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿اذكر﴾، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾: حالان من فاعل ﴿اذكر﴾، ولكن بعد تأويله بمشتق تقديره: حالة كونك متضرعاً وخائفاً من ربك، ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف[1] على قوله: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ على كونه متعلقاً بـ﴿اذكر﴾، أو على كونه صفة لمصدر محذوف تقديره: واذكر ربك ذكراً دون الجهر، ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: جار ومجرور حال[2] من الدون؛ أي: حالة كون الدون من القول، أو متعلق بـ﴿ٱلْجَهْرِ﴾ على أن ﴿مِنَ﴾ بمعنى الباء؛ أي: الجهر بالقول تأمل، ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿اذكر﴾، ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ معطوف على ﴿الغدو﴾، ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على أي مكلف، ﴿مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ على كونها خبراً لـ﴿إِنَّ﴾، ﴿وَلَهُۥ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَسْجُدُونَ﴾، وجملة ﴿يَسْجُدُونَ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ المشهور[1] أن الحمل ـ بفتح الحاء ـ ما كان في بطن أو على شجرة، والحمل بكسرها خلافه، وقد حكى في كل منهما الكسر والفتح، وهو هنا إما مصدر فينتصب انتصاب المفعول المطلق، أو الجنين المحمول، فيكون مفعولاً به، وخفته إما عدم التأذي به كالحوامل، أو على الحقيقة في ابتدائه، وكونه نطفة لا تثقل البطن اهـ «شهاب».

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾؛ أي: صارت ذات ثقل، كقولهم: البن الرجل وأتمر؛ أي: صار ذا لبن وتمر، وقيل: دخلت في الثقل كقولهم: أصبح وأمسى؛ أي: دخل في الصباح والمساء، والمعنى: صار حملها ثقيلاً.

﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾: اسم فاعل من صمت بمعنى سكت، والصمت السكوت، يقال منه: صمت يصمت صمتاً بالفتح في الماضي والضم في المضارع من باب قتل، ويقال: صمت بالكسر يصمت بالفتح، والمصدر الصمت، والصمات بضم الصاد اهـ «سمين». وإصمت[2] بوزن إضرب اسم فلاة معروفة، وهي مسماة بفعل الأمر قطعت همزته، إذ ذاك قاعدة في التسمية بفعل فيه همزة وصل، وكسرت الميم؛ لأن التغيير يأنس بالتغيير، ولئلا يدخل في وزن ليس في الأسماء.

---

(١) شهاب.

(٢) البحر المحيط.

﴿يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ﴾ في «المصباح»: بطش بطشاً، من باب ضرب، وبها قرأ السبعة، وفي لغة من باب قتل، وبها قرأ الحسن البصري. وأبو جعفر المدني، والبطش: الأخذ بقوة وشدة وعنف، ويقال: بطشت اليد إذا عملت فهي باطشة اهـ.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ النزغ[1]: كالخنس والنغز والوكز، إصابة الجسد برأس محدد كالإبرة والمهماز والرمح، والمراد هنا: نزغ الشيطان بإثارته داعية الشر والفساد في النفس، بغضب أو شهوة، بحيث تلجىء صاحبها إلى العمل بتأثيرها، كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع، وفي «البحر المحيط»: النزغ أدنى حركة، ومن الشيطان أدنى وسوسة، قاله الزجاج، وقال ابن عطية: حركة فيها فساد، وقلما تستعمل إلا في فعل الشيطان؛ لأنَّ حركته مسرعة مفسدة، وقيل: هو لغة الإصابة تعرض عند الغضب، وقال الفراء: النزغ: الإغراء والإغصاب. اهـ.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ والاستعاذة بالله الالتجاء إليه ليقيك من شر هذا النزغ.

﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ الطائف الخاطر منه كما مر، وقرىء ﴿طيف﴾ بوزن[2] بيع، يقال: طاف يطيف طيفاً، كباع يبيع بيعاً، فوزنه فعل، ويحتمل أنَّه مخفف طيف، كميْت مخفف ميِّت، فوزنه فيل؛ لأن عينه ـ وهي الياء الثانية ـ محذوفة، وفي «المراغي»: والطوف والطواف بالشيء الاستدارة به، أو حوله، وطيف الخيال: ما يرى في النوم من مثال الشخص، والمس يراد به هنا ما ينال الإنسان من شر وأذى، فقد ذكر في التنزيل مس الضر والضراء والبأساء، والسوء والعذاب.

﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ والمد والإمداد الزيادة في الشيء ومن جنسه، واستعمل في القرآن في الخلق والتكوين، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ وفي مد الناس فيما يذم ويضر، كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ والإقصار التقصير، ويقال أقصر عن الأمر تركه وكف عنه، وهو قادر عليه.

﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ الاستماع[1] أخص من السمع؛ لأنَّه إنَّما يكون بقصد ونية، أو توجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه، أما السمع فيحصل ولو بغير قصد، والانصات السكوت للاستماع حتى لا يكون شاغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ، وقال[2] الفراء: الانصات السكوت للاستماع، يقال: نصت وأنصت وانتصت، بمعنى واحد، وقد ورد الإنصات متعدياً في شعر الكميت حيث قال:

أَبُوْكَ ٱلَّذِيْ أَجْدَىٰ عَلَيْهِ بِنَصْرِهِ فَأَنْصِتْ عَنِّىَ بَعْدَهُ كُلَّ قَائِلِ

قال: يريد فأسكت عن، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ والتضرع إظهار الضراعة، وهي الذلة والضعف والخضوع، والخيفة حالة الخوف والخشة، وأصله خوفة، فوقعت الواو ساكنة إثر كسرة فقلبت ياء، فهو واوي من الخوف ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾؛ أي: ذكراً دون الجهر برفع الصوت، وفوق التخافت والسر، بأن يذكر ذكراً وسطاً.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ والغدو جمع غدوة، وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس، والآصال[3] جمع أصل، كعنق وأعناق، أو جمع أصيل كيمين وأيمان، ولا حاجة لدعوى أنَّه جمع جمع كما ذهب إليه بعضهم، إذ ثبت أنَّ أصلاً مفرد، وإنْ كان يجوز جمع أصيل على أصل.. فيكون جمعاً ككثيب وكثب، وممن ذهب إلى أنَّ آصالاً جمع أصل، ومفرد أصل أصيل الفراء، ويقال: جئناهم موصلين؛ أي: عند الآصال ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾؛ أي: ينزهونه عما لا يليق به. ﴿يَسْجُدُونَ﴾؛ أي: يصلون.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الكناية في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ لأنَّ التغشي هنا كناية عن الجماع، وهو من الكنايات اللطيفة.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿ءَاتَىٰهُمَا﴾، وفي قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

ومنها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، إنْ قلنا إنَّه معطوف على قوله: ﴿هو الذي خلقكم﴾ كما مر في بحث التفسير وبحث الإعراب.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ بعد قوله أولاً: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ وفائدته: الاشعار بمزيد الاعتناء بأمر التوبيخ، والتبكيت ببيان عجز الأصنام عما هو أدنى من النصر المنفي عنها وأيسر، وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله للطالب.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ في عدم إفادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر، كما ذكره أبو السعود، وفي «السمين»: وإنَّما أتى في الآية بالجملة الثانية اسمية ولم يقل: أم صمتم؛ لأنَّ الفعل يشعر بالحدوث؛ ولأنَّها رأس فاصلة. اهـ.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ وكذا في المواضع الثلاثة المذكورة بعده.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ﴾، وفائدته زيادة التقريع والتوبيخ لهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾؛ لأنَّ النزغ في الأصل النخس ـ وهو حث السائق للدابة على السير ـ والمراد هنا الوسوسة، فشبهت الوسوسة بالنزغ، بمعنى الحث على السير، بجامع السرعة في كل، واستعير اسم المشبه به ـ الذي هو النزغ ـ للمشبه ـ الذي هو الوسوسة، فاشتق من النزغ بمعنى الوسوسة، ينزغنك بمعنى: يوسوسنك، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، وذكر الشيطان تجريد؛ لأنه يلائم المشبه الذي هو الوسوسة.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو ما حذف فيه أداة التشبيه ووجه الشبه، وأصله: هذا كبصائر من ربكم، وقيل: إنَّه من قبيل المجاز المرسل، حيث أطلق المسبب على السبب؛ لأنَّ القرآن لما كان سبباً لتنوير العقول.. أطلق عليه لفظ البصيرة؛ لأنَّ البصائر جمع بصيرة، وأصل البصيرة ظهور الشيء واستحكامه حتى يبصره الإنسان فيهتدى به، فأطلق لفظ البصيرة على القرآن تسمية للسبب باسم المسبب. اهـ. «كرخي».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾؛ لأنَّ المراد به جميع الأوقات، من إطلاق اسم الجزء على الكل على ما قيل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خاتمة في خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة من الموضوعات

جملة ما اشتملت عليه هذه السورة من المقاصد سبعة:

الأول: التوحيد: وهو يتضمن دعاء الله وحده، وإخلاص الدين له، وتخصيصه بالعبادة؛ فإنه شارع الدين، فيجب اتباع ما أنزله، ولا يجوز اتباع الأولياء من دونه في العقائد والعبادات، ولا التحليل والتحريم الديني، كما قال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وإنَّ القول عليه بغير علم بتشريع أو غيره لا يجوز لأحد، كما قال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأن جميع ما يشرعه لعباده حسن، وما سواه قبيح ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ونحن مأمورون بذِكره تضرعاً وخفية سراً وجهراً.

الثاني: الوحي والكُتب: ويتضمن ذلك إنزال القرآن على النبي ﷺ للإنذار به، والأمر باستماعه والانصات له، رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به، وأمر المؤمنين باتباع المنزل عليهم من ربهم.

الثالث: الرسالة والرسل: ويشمل ذلك بعثة الرسل إلى جميع بني آدم كما قال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ وسؤالهم يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الأمم عن الإجابة، ومجيء الرسل بالبينات من الله تعالى تأييداً منه لهم، وعقاب الأمم على تكذيب الرسل، كما ذكر في قصص نوح وهود وصالح وشعيب.

الرابع: عالم الآخرة: ويتضمن ذلك البعث والإعادة في الآخرة كما قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ووزن الأعمال يوم القيامة، وترتيب الجزاء على ثقل الموازين وخفتها، وأنَّ الجزاء بالعمل، وإقامة أهل الجنة الحجة على أهل النار، والحجاب بين أهل الجنة وأهل النار، ونداء أصحاب النار أصحاب الجنة، واعتراف أهل النار في الآخرة بصدق الرسل، وصفة أهل النار، وقيام الساعة، وكونها تأتي بغتة.

الخامس: أصول التشريع: ويتضمن هذا وجوب اتباع الدين على أنّه قربة

يثاب فاعلها عليها، ويعاقب تاركها في الآخرة، وتحريم التقليد فيه، والأخذ بآراء البشر، وتعظيم شأن النظر العقلي والتفكر، لتحصيل العلم بما يجب الإيمان به، ومعرفة آيات الله وسننه في خلقه، والأمر بالعدل في الأحكام والأعمال، كما قال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ وحصر أنواع المحرمات الدينية العامة في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ . . .﴾ الخ وبيان أصول الفضائل الأدبية والتشريعية في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

السادس: آيات الله وسننه في الكون: ويتضمن ذلك خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستواءه على العرش، ونظام الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وخلق الرياح والمطر، وإحياء الأرض به، وإخراجه الثمرات من الأرض، خلق الناس من نفس واحدة، وخلق زوجها منها ليسكن إليها، وإعداد الزوجين للتناسل، وتفضيل الإنسان على من في الأرض جميعاً، خلق بني آدم مستعدين لمعرفة الله تعالى، وإشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنَّه ربهم، وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهم، بما منحوه من العقل، وحجته تعالى عليهم بذلك: خلقهم مستعدين للشرك وما يتبعه من الخرافات، وضرب الأمثال لاختلاف الاستعداد لكل من الخير والشر، وعلامة كل منهما فيهم يكون بما يرى من ثماره. وفي ذلك تعليم لنا بطلب معرفة الشيء بأثره، ومعرفة الأثر بمصدره، عداوة إبليس والشياطين من نسله لبني آدم، وإغوائهم بالفساد مع ذكر حكمة ذلك، بيان أن الشياطين أولياء للمجرمين الذين لا يؤمنون، منة الله تعالى على البشر، بتسهيل أسباب المعاش لهم في آيات الله تعالى ونعمه على بني إسرائيل، إلى نحو ذلك مما فيه سعادة البشر في دينهم ودنياهم.

السابع: سننه تعالى في الاجتماع والعمران البشري: ويتضمن ذلك إهلاك الله الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها، وأن للأمم آجالاً لا تتقدم ولا تتأخر عنها بما اقتضته السنن الإلهية العامة، ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة، وبالرخاء والنعماء أخرى، وأن الإيمان بما دعا إليه، والتقوى في العمل بشرعه، فعلاً وتركاً سبب لكثرة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة، كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأن الله إرث الأرض، واستخلاف الأمم، والسيادة على الشعوب سنناً لا تتبدل، كما قال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾؛ أي: إن الأرض ليست رهن تصرف الملوك والدول بقدرتهم الذاتية، فتدوم لهم، وإنما هي لله، ولله سنن في سلبها من قوم، وجعلها إرثاً لقوم آخرين، وقد جعل العاقبة للمتقين الذين يتقون أسباب الضعف والتخاذل والفساد في الأرض، ويتصفون بضدها وبسائر ما تقوى به الأمم من الأخلاق والأعمال، كالصبر على المكاره، والاستعانة بالله الذي بيده ملكوت كل شيء وإنا نرى أن بعض الشعوب الإسلامية المستضعفة في هذا العصر باستعمار الشيوعية لها كالشعوب الأرمية في شرقي افريقيا يائسة من استقلالها وعزتها لما ترى من رجحان ذوي السيادة عليها في القوى المادية والسلاحية، جهلاً منهم بسنة الله التي بينها للناس؛ فإنَّ رجحان فرعون وقومه على بني إسرائيل، كان فوق رجحان قوى السائدين عليهم وقهرهم إياهم، وقد كان ينبغي للمسلمين أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه الله عليهم من ذنوب الأمم، التي هلك بها من كان قبلهم، حتى دالت دولتهم، وزال ملكهم، ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

---

(١) إلى هنا تم ما تيسر لنا جمعه من تفسير سورة الأعراف، في الليلة الرابعة والعشرين من الجمادى الأخيرة، منتصف الليل، في تاريخ ٢٤/ ٦/ ١٤١٠هـ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات، وأزكى التحيات.. فالحمد لله على توفيقه، والشكر له على تيسيره، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، حمداً يعدل حمد الملائكة المقربين وجميع عباده الصالحين وصل الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين... آمين.

سورة الأنفال

سورة الأنفال مدنية إلا سبع آيات، من قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فمكية، والأصح[١]: أنَّ سورة الأنفال كلها مدنية كما في «الخازن» وإن كانت الآيات السبع المذكورة في شأن الواقعة التي وقعت بمكة، إذ لا يلزم من كون الواقعة في مكة أن تكون الآيات التي في شأنها مكية، فالآيات المذكورة نزلت بالمدينة تذكيراً له ﷺ بما وقع له في مكة، فقولهم: مدنية إلا سبع آيات ضعيف، وقيل: كلها مدنية إلا[٢] قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾؛ فإنّها نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال. وجملة آيات هذه السورة خمس أو ست[٣] وسبعون آية، وكلماتها ألف وست مئة وإحدى وثلاثون كلمة، وحروفها خمسة آلاف ومئتان وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

ومما ورد في فضلها: ما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب: (أنَّ[٤] النبي ﷺ كان يقرأ بها في صلاة المغرب).

وأخرج الطبراني أيضاً عن زيد بن ثابت: (أن النبي ﷺ كان يقرأ في الركعتين من المغرب بسورة الأنفال).

المناسبة: ومناسبة هذه السورة لسورة الأعراف[٥]: أنَّها في بيان أحوال النبي ﷺ مع قومه، وسورة الأعراف مبينة لأحوال الرسل مع أقوامهم.

الناسخ والمنسوخ: وجملة ما في هذه السورة من المنسوخ ست آيات[٦]:

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) ابن كثير.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراغي.
(٦) الناسخ والمنسوخ لابن حزم.

أولاهن: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية (١) نسخت بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ...﴾ الآية (٤١).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ الآية (٣٣)، منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ﴾ الآية (٣٤).

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية (٣٨): منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ...﴾.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا...﴾ الآية (٦١) منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ (٢٩)، من سورة التوبة.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ (٦٥) منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية (٦٦).

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ (٧٢) وذلك أنهم كانوا يتوارثون بالهجرة لا بالنسب، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ الآية (٧٥).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ
عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ
يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (٤)
كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ (٥) يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ
بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا
لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ
دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٨) إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ
فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ
وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذۡ يُغَشِّيكُمُ
ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ
وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ (١١) إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ
بَنَانٖ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ
(١٣) ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٤)﴾.

المناسبة

المناسبة بين أول هذه السورة وآخر سورة الأعراف: أن سورة الأنفال بُدئت بالأمر بتقوى الله تعالى وبإصلاح ذات البين وبالحث على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وبيان أنَّ الخوف من الله تعالى وعدم الاستكبار عن طاعته من صفات المؤمنين، وأن إقامة الصلاة التي من أركانها السجود من صفاتهم، وأن سورة الأعراف ختمت بأخذ العفو، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، المستلزم لإصلاح ذات البين، وبالأمر باستماع القرآن والإنصات له عند قراءته،

المسلتزم خوف القلوب من ربها، وزيادة الإيمان لها عند تدبرها معاني آيات الله تعالى، وختمت أيضاً ببيان أنَّ من صفات الملائكة المقربين عدم الاستكبار عن عبادته تعالى، وأنَّهم يسبحونه وله يسجدون؛ أي: يصلون، كما أنَّ من صفات المؤمنين إقامة الصلاة وعدم الاستكبار عن طاعة الله تعالى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية، سبب نزولها[١]: ما أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قَتل قتيلاً.. فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً.. فله كذا وكذا»، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنَّا كنا لكم ردءاً، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

وروى أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قتل أخي فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، فأتيت به النبي ﷺ فقال: «اذهب فاطرحه في القبض» فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي، وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال النبي ﷺ: «اذهب فخذ سيفك».

وروى[٢] أبو داود والترمذي والنسائي عن سعد قال: لما كان يوم بدر.. جئت بسيف فقلت: يا رسول الله، إنَّ الله قد شفى صدري من المشركين، هب لي هذا السيف، فقال: «هذا ليس لي ولا لك»، فقلت: عسى أن يعطى هذا من لا يبلي بلائي، فجاءني الرسول ﷺ فقال: «إنَّك سألتني وليس لي، وإنَّه قد صار لي وهو لك»، قال: فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنَّهم سألوا النبي ﷺ عن الخُمس بعد الأربعة

---

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

الأخماس؟ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ...﴾. الآية.

وأخرج الإمام أحمد وابن جرير والحاكم، وقال صحيح على شرط مسلم، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، فأكبت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ على وفاق بين المسلمين. الحديث هذا لفظ أحمد. ولا تنافي بين السببين، إذ لا مانع أن تكون الآية نزلت في الجميع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ - ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت -: «ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا؟» فخرجنا فسرنا يوماً أو يومين، قال: «ما ترون فيهم» فقلنا: يا رسول الله، ما لنا طاقة بقتال القوم إنما أخرجنا للعير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال موسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ فأنزل الله عز وجل: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝٥﴾. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ سبب نزوله: ما أخرجه الإمام أحمد (ج ١/ ص ٣٠) قال: حدثنا أبو نوح قراد، أنبأنا عكرمة عن عمار، حدثنا سماك الحنفي - أبو زميل - حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى

أصحابه وهم ثلاث مئة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه ـ وعليه رداؤه وإزاره ـ قال: «اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجزني ما وعدتني، اللهم إنَّك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ رداءه، فرداه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك؛ فإنَّه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾. الحديث أخرجه مسلم والترمذي وقال حسن صحيح غريب.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾؛ أي: يسألك يا محمد أصحابك ـ منهم سعد بن أبي وقاص ـ سؤال استفتاء أو سؤال طلب ﴿عَنِ الْأَنفَالِ﴾؛ أي: عن الغنائم يوم بدر لمن هي؟ أللشبان أم للشيوخ أو للمهاجرين هي؟ أم للأنصار أم لهم جميعاً؟ وسميت الغنائم أنفالاً لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم التي لم تحل لهم الغنائم؛ ولأنَّها عطية من الله تعالى زائدة على الثواب الأخروي للجهاد، وقرأ سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وعلي بن الحسين وغيرهم ﴿يسألونك الأنفال﴾ بدون ﴿عَنِ﴾ ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿الْأَنفَالُ﴾ والغنائم يوم بدر ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ أي: الحكم فيها لله سبحانه وتعالى، يحكم فيها بحكمه، وللرسول ﷺ، يقسمها بحسب حكم الله تعالى من غير أن يدخل فيه رأي أحد، وقد قسمها رسول الله ﷺ بالسواء، وقد[1] بين الله سبحانه وتعالى بهذه الجملة أنَّ أمرها مفوض إلى الله ورسوله، ثم بين مصارفها، وكيفية قسمتها، في آية الخُمس: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية. وللإمام أنْ ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس، وقد روي عن سعد بن وقاص أنَّه قال: قتل أخي عمير يوم بدر، فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجئت به إلى النبي ﷺ، فقلت: إن الله شفى

---

(١) المراغي.

صدري من المشركين، فهب لي هذا السيف، فقال لي عليه الصلاة والسلام: «ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القبض» فطرحته وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا سعد، سألتني السيف وليس لي، وقد صار لي فخذه». والحديث سبق في أسباب النزول.

وكان سبب نزول الآية[1]: اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في يوم بدر كما سبق بيانه، فنزع الله ما غنموه من أيديهم وجعله لله والرسول فقال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: حكمها مختص بهما، يقسمها بينكم رسول الله ﷺ على حسب ما أمره الله سبحانه به، وليس لكم حكم في ذلك.

وقد ذهب[2] جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصة، ليس لأحد فيها شيء، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ ...﴾ الآية. ثم أمرهم بالتقوى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وترك الاختلاف الذي وقع بينهم، فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون في أخذ الغنائم، واتركوا المنازعة فيها؛ أي: فاجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع والاختلاف الموجب لسخط الله، لما فيه من المضار، ولا سيما في حال الحرب. ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: وأصلحوا الحال والشأن والمواصلة بينكم، بترك النزاع وتفويض أمر الغنائم إلى الله ورسوله؛ أي: وأصلحوا ما بينكم من الأحوال والشؤون، حتى تكون أحوال ألفة ومودة ومحبة واتفاق، وعبارة «البيضاوي» هنا؛ أي: وأصلحوا الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى، وتسليم أمره إلى الله والرسول. انتهت. وعبارة «الصاوي» هنا قوله: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: الحالة التي بينكم، وهي الوصلة الإسلامية، فالمعنى: اتركوا النزاع والشحناء، والزموا المودة والمحبة بينكم، ليحصل النصر والخير لكم، انتهت. وهذا

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

الإصلاح[1] واجب شرعاً، وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها، وبه تحفظ وحدتها، روي عن عبادة بن الصامت قال: نزلت هذه الآية فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من بين أيدينا، فجعله لرسوله، فقسمه بين المسلمين على السواء، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البين.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ﷺ أيها المؤمنون في كل ما يأمر به وينهى عنه، ويقضي به ويحكم، فالله تعالى مالك أمركم، والرسول مبلغ عنه، ومبين لوحيه بالقول والفعل والحكم، وعلى هذه الطاعة تتوقف النجاة في الآخرة، والفوز بثوابها، والرسول ﷺ يطاع في اجتهاده في أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة، ولا سيما في الشؤون الحربية؛ لأنَّه القائد العام، فمخالفته تخل بالنظام، وتؤدي إلى الفوضى التي لا تقوم للأمة معها قائمة، ولأئمة المسلمين من حق الطاعة في تنفيذ الشرع، وإدارة شؤون الأمة، وقيادة الجند، ما كان له ﷺ بشرط عدم معصية الله تعالى، ومشاورة أولي الأمر، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: امتثلوا لهذه الأوامر الثلاثة إنْ كنتم مستمرين على الإيمان بالله؛ لأنَّ هذه الأمور الثلاثة ـ التي هي تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول ـ لا يكمل الإيمان بدونها، بل لا يثبت أصلاً لمن لم يمتثلها؛ فإن من ليس بمتق وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن.

أي: إن كنتم كاملي الإيمان.. فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة، إذ كمال الإيمان يقتضي ذلك الامتثال؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أوجبه، فالمؤمن بالله حقاً يكون من نفسه وازع يسوقه إلى الطاعة واتقاء المعاصي، إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحياناً من ثورة شهوة، أو فورة غضب، ثم لا يلبث أنْ يفيء إلى أمر الله، ويتوب إليه مما عرض له.

ثم وصف الله تعالى المؤمنين بخمس صفات تدل على وجوب التقوى،

---

(١) المراغي.

وإصلاح ذات البين، وطاعة الله تعالى ورسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إنَّما المؤمنون حقاً المخلصون في إيمانهم هم الذين اجتمعت فيهم خمس خصال:

الأولى منها: ما ذكره بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ ورقت وخافت ﴿قلوبهم﴾: من الله تعالى خوف عقاب، وهو خوف العصاة، وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص، ولفظة ﴿إنَّما﴾ تفيد الحصر، والمعنى: ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله، إنَّما المؤمنون الصادقون في إيمانهم هم الذين إذا ذكروا الله بقلوبهم وجلت قلوبهم؛ أي: خضعت وخافت ورقت قلوبهم؛ أي: فزعوا لعظمته وسلطانه، أو لوعده ووعيده، ومحاسبته لخلقه، والآية بمعنى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

فإن قلت: إنَّه سبحانه وتعالى قال في هذه الآية: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بمعنى خافت، وقال في آية أخرى ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، فكيف الجمع بينهما؟.

قلتُ: لا منافاة بين هاتين الحالتين؛ لأن الوجل هو خوف العقاب، والاطمئنان إنما يكون من ثلج اليقين، وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد، وهذا مقام الخوف والرجاء، وقد جمعا في آية واحدة، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله، ورجاء ثوابه، وهذا حاصل في قلب المؤمنين.

والثانية: ما ذكره بقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: وإذا قرأت عليهم آيات القرآن المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ أي: زادتهم تصديقاً ويقيناً في الإيمان، وقوة في الاطمئنان، ونشاطاً في الأعمال؛ لأنَّ تظاهر الأدلة، وتعاضد الحجج يوجد زيادة اليقين، فإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان مؤمناً بإحياء الله الموتى حين دعا ربه أن يريه كيف يحييها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ فمقام الطمأنينية في الإيمان يزيد على ما دونه من

الإيمان المطلق قوة وكمالاً، قيل: والمراد بزيادة الإيمان: هو زيادة انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات. وقيل: المراد بزيادة الإيمان: زيادة العمل؛ لأنَّ الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والآيات المتكاثرة، والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». ففي هذا الحديث دليل على أنَّ الإيمان فيه أعلى وأدنى، وإذا كان كذلك.. كان قابلاً للزيادة والنقص، ويروى أن علياً المرتضى قال: لو كشف عني الحجاب ما ازددت يقيناً، والعلم التفصيلي في الإيمان أقوى من العلم الإجمالي، فمن آمن بأن لله علماً محيطاً بالمعلومات، وحكمة قام بها نظام الأرض والسموات، ورحمة وسعت جميع المخلوقات، ويعلم ذلك علماً إجمالياً، ولو سألته أنَّ يبين لك شواهده في الخلق.. لعجز، لا يوزن إيمانه إيمان صاحب العلم التفصيلي بسنن الله في الكائنات في كل نوع من أنواع المخلوقات، ولا سيما في العصور الحديثة، التي اتسعت فيها معارف البشر بهذه السنن، فعرفوا منها ما لم يكن يخطر عشر معشاره لأحد من العلماء في القرون الخوالي، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: في وصف ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ في غزوة أحد ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

والثالثة: ما ذكره بقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ومالك أمرهم لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يعتمدون بالكلية، وينقطعون بالكلية عما سوى الله تعالى؛ أي: إنَّهم يتوكلون على ربهم وحده، لا يفوضون أمرهم إلى غيره، فمن كان موقناً بأن الله هو المدبر لأموره وأمور العالم كله.. لا يمكن منه أن يكل شيئاً منها إلى غيره، فلا يعتمد على مال، ولا على عمل، ولا يخاف من غيره.

واعلم: أن هذه الخصال الثلاث ـ أعني الوجل عند ذكر الله، وزيادة

الإيمان عند تلاوة القرآن، والتوكل على الله ـ من أعمال القلوب، والصفتان الباقيتان من أعمال الجوارح، كما سترى قريباً.

واعلم: أنَّه إذا كان الشرع والعقل حاكمين بأن للإنسان كسباً اختيارياً كلفه الله العمل به، وأنه يجازى على عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.. وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما وضعه الله تعالى في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، وأنَّ هذا الارتباط لم يكن إلا بتسخير الله تعالى وأما ما يناله باستعمالها فهو فضل من الله تعالى الذي سخرها وجعلها أسباباً، وعلمه ذلك، وأن ما لا يعرف له سبب يطلب به، فالمؤمن يتوكل على الله وحده، وإليه يتوجه فيما يطلبه منه، أما ترك الأسباب وتنكب سنن الله في الخلق.. فهو جهل بالله وجهل بدينه، وجهل بسننه التي لا تتبدل ولا تتحول.

والرابعة: ما ذكره بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذا الموصول في محل رفع على أنَّه وصف للموصول قبله، أو بدل منه، أو بيان له، أو في محل نصب على المدح، وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه، يعني: يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها؛ أي: يؤدونها مقومة كاملة في صورتها وأركانها الظاهرة من قيام، وركوع، وسجود، وقراءة، وذكر، وفي معناها وروحها الباطن من خشوع وخضوع، في مناجاة الرحمن، واتعاظ وتدبر في تلاوة القرآن، وبهذا كله تحصل ثمرة الصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

والخامسة: ما ذكره بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: وينفقون بعض ما رزقناهم في وجوه البر، من الزكاة المفروضة، والحج والجهاد، والنفقات الواجبة والمندوبة للأقربين، والمحتاجين، وفي مصالح الأمة ومرافقها العامة، التي بها يعلو شأنها بين الأمم، ويكون عليه تقدمها وعمرانها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات الخمس المذكورة ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً ﴿حَقًّا﴾ لا شك في إيمانهم؛ لأنهم حققوا إيمانهم بضم الأعمال القلبية والقالبية إليه.

روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، أنَّه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ماذا تقول يا حارثة؟ فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال: «يا حارثة عرفت فالزم» ثلاثاً.

وروي عن الحسن أنَّ رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والجنة والنار، والبعث والحساب.. فأنا مؤمن، وإنْ كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ . . .﴾ الخ فوالله لا أدري أنا منهم أم لا.

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافهم، ذكر جزاءهم عند ربهم فقال: ﴿لَّهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء الموصوفين بالصفات السابقة ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ من الكرامة والزلفى، ومراتب متفاوتة، بعضها فوق بعض بحسب تفاوتهم في الإيمان، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين مئة عام» أخرجه الترمذي.

وله أيضاً عن أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنة مئة درجة، لو أنَّ العالمين اجتمعوا في إحداهن.. لوسعتهم مدخرة لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي خلقهم وسواهم، وهو القادر على جزائهم على أعمالهم الصالحة في دار الجزاء والثواب، والله تعالى فضل بعض الناس على بعض، ورفعهم درجة أو درجات في الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وقال تعالى في الرسل: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾. الآية. وقال في درجات الدنيا وحدها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

وفي كونها عنده سبحانه وتعالى زيادة تشريف لهم، وتكريم وتعظيم وتفخيم.

﴿و﴾ لهم ﴿مغفرة﴾ من الله سبحانه وتعالى لذنوبهم التي سبقت وصولهم إلى درجات الكمال ﴿و﴾ لهم ﴿رزق كريم﴾؛ أي: ثواب حسن في الجنة، مقرون بالإكرام والتعظيم، خال عن كد الاكتساب وخوف الحساب، وهو ما أعد الله سبحانه وتعالى لهم من نعيم الجنة، من لذيذ المآكل والمشارب، وهناء العيش، والكريم تصف به العرب كل شيء حسن، لا قبح فيه ولا شكوى.

والكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جوازاً تقديره: الأمر والشأن كائن كما أخرجك ربك، و﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: قضاء الله وأمره وشأنه كائن كإخراجه إياك من بيتك في المدينة، حال كونك ملتبساً بالحق والوحي ﴿و﴾ الحال ﴿إن فريقاً﴾ وجماعة ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ ذلك الخروج، لعدم استعدادهم له بالعدد والعدد، وقيل: إن الكاف اسم بمعنى مثل واقعة خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: حالهم في كراهة ما رأيت من تنفل جميع الغزاة بالسوية، مثل حالهم في كراهة خروجهم للحرب؛ أي فكراهتهم لقسمة الغنيمة على السوية مثل كراهتهم لقتال قريش.

والحاصل: أنه وقع للمسلمين في وقعة بدر كراهتان:

كراهة قسمة الغنيمة على السوية، وهذه الكراهة من شبابهم فقط، وهي الداعي الطبيعي، ولتأولهم بأنَّهم باشروا القتال دون الشيوخ.

والكراهة الثانية: كراهة قتال قريش، وعذرهم فيها أنَّهم خرجوا من المدينة ابتداء لقصد الغنيمة، ولم يتهيؤوا للقتال، فكان ذلك سبب كراهتهم للقتال، فشبه إحدى الحالتين بالأخرى في مطلق الكراهة.

وقيل: إن التشبيه واقع بين إخراجين؛ أي: إخراج ربك إياك من بيتك في مكة بالحق والوحي، وأنت كاره للخروج، وكان عاقبة ذلك الإخراج الظفر والنصر، والخير كائن، كإخراجه إياك ـ وبعض المؤمنين ـ من بيتك في المدينة بالحق والوحي في أنَّه يكون عقب ذلك الخروج الثاني الظفر والنصر والخير، كما

كانت عقيب ذلك الخروج الأول، وقيل: المعنى الأنفال ثابتة لله ثبوتاً بالحق والوحي، كثبوت إخراجك من بيتك بالمدينة بالحق والوحي، والحال: إنَّ فريقاً وطائفة من المؤمنين لكارهون ذلك الخروج.

وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام ـ وفيها تجارة عظيمة ومعه أربعون راكباً، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام ـ فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا وبلغوا وادي دقران ـ بوزن سلمان وهو قريب من الصفراء ـ نزل عليه ﷺ جبريل فقال: يا محمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين، إما العير وإما قريشاً، فاستشار النبي أصحابه فقال: «ما تقولون؟ إنَّ القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أم النفير؟» ـ وهو اسم عسكر مجتمع ـ فقالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو، فتغير وجه رسول الله ﷺ، ثم ردد عليهم فقال: «إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل؛ أي: بجمع أهل مكة، ومضى إلى بدر» فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ، فقام عند ذلك أبو بكر وعمر، فأحسنا في القول، ثم قال سعد بن عبادة فقال: انظر أمرك فامض، فوالله لو سرت إلى عدن ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو: يا رسول الله، امض كما أمرك ربك، فإنا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس» فقال سعد بن معاذ: امض يا رسول الله لما أردت، فوالله الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، ففرح رسول الله ﷺ، وبسطه قول سعد، ثم قال ﷺ: «سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

وحاصل المعنى: أنَّ الأنفال لله يحكم فيها بالحق، ولرسوله يقسمها بين من

جعل الله لهم الحق فيها بالسوية، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ممن كانوا يرون أنَّهم أحق بها، كما يكرهون إخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين، وقد كان كثير من المؤمنين كارهين لذلك، لعدم استعدادهم للقتال، ولقلة عددهم، وقلة سلاحهم، وكثرة عدوهم وسلاحهم، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾؛ أي: يجادلك يا محمد المؤمنون وينازعونك ﴿فِي ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: في القتال وتلقي النفير لإيثارهم عليه تلقي العير كراهية للقاء المشركين، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾؛ أي: بعد أن ظهر لهم الحق الذي هو القتال بإخبارك أنَّهم سينصرون أينما توجهوا، وبعد ما أمرت به، ويقولون: ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا وأخبرته أولاً لنستعد ونتأهب له، وما كان هذا إلا لكراهتهم للقتال، إذ أنَّهم كانوا في حال ضعف، فكان من حكمة الله أو وعدهم أولاً إحدى طائفتي قريش تكون لهم على طريق الإبهام لا على طريق التعيين، فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام؛ لأنَّها كسب عظيم لا مشقة في إحرازه لضعف الحامية، فلما ظهر لهم أنَّها فاتتهم ونجت ـ إذ ذهبت من طريق سيف البحر، طريق الشاطىء ـ وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل ما لدى قريش من قوة، وأنَّها قد قربت منهم، ووجب عليهم قتالها، إذ تبين أنَّها هي الطائفة التي وعدهم الله تعالى بالنصر عليها.. صعب على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها، وضعفهم وقوتها، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها، وطفقوا يعتذرون إلى النبي ﷺ بأنَّهم لم يخرجوا إلا للعير؛ لأنَّه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له.

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدل فيه وجه.. فلا ينبغي أن يقال: إنَّ طائفة العير هي مراد الله؛ لأنَّها نجت، ولا بأن يقال: إننا لم نعد للقتال عدته؛ لأنَّه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعد الله به، فإذاً لا وجه للجدل إلا الجبن والخوف من القتال، وقرأ عبد الله ﴿بعد ما بُين﴾ بضم الباء من غير تاء، وفي قوله: ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ إنكار عظيم عليهم؛ لأن من جادل في شيء لم يتضح.. كان أخف عتباً، أما من نازع في أمر واضح.. فهو جدير باللوم والإنكار.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: يجادلونك في الحق حالة كونهم لشدة ما بهم من جزع ورهب، يساقون بعنف وشدة وقهر إلى موت محقق لا مهرب منه، لوجود أماراته وأسبابه، حتى كأنَّهم ينظرون إليه بأعينهم، إذ ما بين حالهم وحال عدوهم، من التفاوت في القوة والعدد، والخيل والزاد، قاض بذلك، ولكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين بالظفر والنصر عليهم ووعده لا يتخلف.

وأما هذه الأسباب العادية فكثيراً ما تتخلف: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الذي بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء، وهكذا أنجز الله وعده لرسوله والمؤمنين، وكان لهم الظفر والفوز على عدوهم، وكان هذا نصراً مؤزراً للمسلمين على المشركين، وبه علا ذِكرهم في البلاد العربية، وهابهم قاصيها ودانيها.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾؛ أي: واذكروا أيها المؤمنون قصة إذ وعدكم الله تعالى الظفر بإحدى الطائفتين العير والنفير ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾؛ أي: أن تلك الإحدى تكون وتحصل لكم وتتسلطون وتتصرفون فيها ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾؛ أي: والحال أنَّكم تتمنون وتحبون كون الطائفة غير صاحب الشوكة والقوة، وحصولها لكم - وهي العير - لضعفها وقلة عددها؛ لأنَّه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، وعبر عنها بذلك تعريضاً لكراهتهم للقتال، وطمعهم في المال، والمعنى: تمنون أنَّ العير التي ليس فيها قتال ولا سلاح ولا شوكة تكون لكم، والشوكة: الشدة والقوة ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بوعده غير ما أردتم ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ الذي أراده ويظهره، وهو نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: بآياته المنزلة على رسوله في محاربة ذات الشوكة، أو بما أمر به الملائكة من نزولهم للنصرة، أو بما قضى به من أسر المشركين وقتلهم وطرحهم في قليب - بئر - بدر، أو بأمره إياكم بالقتال، وقيل: بعداته التي سبقت لكم من إظهار الدين وإعزازه، وقيل: كلماته هي ما وعد نبيه في سورة الدخان، فقال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي من أبي جهل وأصحابه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ويهلك أصل الكافرين من أولهم إلى آخرهم،

ويعدم المعاندين بالجملة، ويذهب أثرهم، ويمحق قوتهم، وقد كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها، إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة، قال صاحب[1] «الكشاف»: يعني أنَّكم تريدون الفائدة العاجلة، وسفساف الأمور، وأنْ لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم، والله عز وجل يريد معالي الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين، ونصرة الحق، وعلو الكلمة، والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقتلكم، وأعزكم وأذلهم اهـ.

وقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: وعد بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق الذي هو الإسلام؛ أي: ليظهر حقيته ويثبته، ويبطل الباطل الذي هو الشرك؛ أي: ليظهر بطلانه ويزيله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: المشركون أولو الاعتداء والطغيان إظهار الحق وإحقاقه، وإبطال الباطل وإزالته، ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير، بل بقتل أئمة الكفر من صناديد قريش الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم.

وفي الآية سؤالان[2]:

الأول: أن قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ تكرير مع قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ فما معناه؟

والجواب: أنَّه ليس بتكرار؛ لأن المراد بالمذكور أولاً تثبيت ما وعد في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء، وبالمذكور ثانياً تقوية الدين، وإظهار الإسلام مدى الأيام؛ لأنَّ الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم، وقهر الكافرين مع كثرتهم.. كان سبباً لإعزاز الدين وقوته، ولهذا السبب قرنه بقوله: ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، وقيل: إنَّ الأول للفرق بين الإرادتين، إرادة الله تعالى وإرادتهم، والثاني لبيان الداعي إلى حمله ﷺ على اختيار ذات الشوكة ونصره؛ لأنَّ الذي وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سبباً لإعزاز الدين وقوته مدى الأيام.

---

(١) الكشاف.
(٢) الخازن مع بعض زيادة.

السؤال الثاني: الحق حق لذاته، والباطل باطل لذاته، فما المراد بتحقيق الحق، وإبطال الباطل؟

والجواب: أنَّ المراد من تحقيق الحق: إظهار كون ذلك الحق حقاً، والمراد من إبطال الباطل: إظهار كون ذلك الباطل باطلاً، وذلك بإظهار دلائل الحق، وتقويته، وقمع رؤساء الباطل وقهرهم.

وقرأ مسلمة بن محارب[1]: ﴿يعدكم﴾ بسكون الدال لتوالي الحركات، وابن محيصن ﴿الله احدى﴾: بإسقاط همزة إحدى على غير قياس، وعنه أيضاً ﴿أحد﴾ على التذكير، إذ تأنيث الطائفة مجاز، وأدغم أبو عمرو ﴿الشوكة تكون﴾ وقرأ مسلم بن محارب ﴿بكلمته﴾ بالإفراد، وحكاها ابن عطية عن شيبة وأبي جعفر ونافع، بخلاف عنهم، وأطلق المفرد مراداً به الجمع للعلم به، أو أريد به كلمة تكوين الأشياء وهو: كن.

وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ ظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكروا أيها المؤمنون قصة وقت استغاثتكم ربكم؛ أي: وقت طلبكم الغوث والنصر من ربكم قائلين: ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا، والأمر بهذا الذكر لبيان نعمة الله عليهم حين التجائهم إليه، إذ ضاقت عليهم الحيل، وطلبوا مخلصاً من تلك الشدة، فاستجاب دعاءهم كما قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾؛ أي: فأجاب دعاءكم بأني ممدكم ومساعدكم فمعينكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: متتابعين؛ أي يردف بعضهم بعضاً، ويتبعه؛ أي: يأتي بعضهم إثر بعض، وهذا[2] الألف هم وجوههم وأعيانهم، وبهذا يطابق ما جاء في سورة آل عمران ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ و﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ وقيل[3]: يجمع بين ما هناك وهنا بأن الملائكة كانت ألفاً في ابتداء الأمر، ثم صارت ثلاثة، ثم خمسة؛ أي: ثم صارت بعد الوعد بالألف ووقوع القتال بالفعل ومقاتلة الألف معهم صارت الألف بزيادة الله عليها ألفين ثلاثة آلاف، ثم صارت الثلاثة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الفتوحات.

بزيادة ألفين عليها خمسة.

ومعنىٰ بـ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾؛ أي:[1] بإمدادي إياكم؛ أي: بوعدي إياكم بالإمداد، وذلك لأنَّه وقت الإجابة لم يحصل الامداد بالفعل؛ لأن الدعاء واستجابته كانا قبل وقوع القتال، وفي «الخازن»: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ الأصل بأني ممدكم؛ أي: مرسل إليكم مدداً ورِدءاً لكم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة على تقدير حذف الجر؛ أي: بأني، وقرأ عيسى بن عمر ورواها عن أبي عمرو ﴿إني﴾ بكسرها، وفيه مذهبان:

مذهب البصريين: أنه على إضمار القول؛ أي: فقال: إني ممدكم.

ومذهب الكوفيين: أنَّها محكية باستجابَ، إجراء له مجرى القول؛ لأنَّه بمعناه.

وقرأ الجمهور[3]: بألْفٍ بالإفراد، وقرأ الضحاك وأبو رجاء: ﴿بآلاف﴾ بهمزة ممدودة و﴿بألف﴾ على الجمع، وقرأ أبو العالية وأبو المتوكل: ﴿بألوف﴾ بوزن فلوس، بضم الهمزة واللام، وبواو بعدها، على الجمع، وقرأ تميم بن حذلم الضبي والجحدري: ﴿بألف﴾ بضم الألف واللام من غير واو ولا ألف، وقرأ أبو الجوزاء وأبو عمران: ﴿بيلف﴾: بياء مفتوحة، وسكون اللام من غير واو، ولا ألف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي والحسن ومجاهد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسر الدال؛ أي: متتابعين، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم وروي عن قنبل أيضاً بفتح الدال، قال الفراء: أراد فعل ذلك بهم؛ أي: إن الله أردف المسلمين بهم، وقرأ معاذ القارىء وأبو المتوكل الناجي وأبو مجلز: ﴿مُرَدَّفين﴾ بفتح الراء والدال، مع التشديد، وقرأ أبو الجوزاء وأبو عمران: ﴿مرُدِّفين﴾: بضم الراء وكسر الدال، وقال الزجاج: يقال ردفت الرجل إذا ركبت خلفه، وأردفته إذا أركبته خلفك، فمعنى ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يأتون فرقة بعد

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) زاد المسير.

فرقة، ويجوز في اللغة: مرَدِّفين ومُرُدِّفين ومُرِدِّفين، فالدال مكسورة مشددة على كل حال، والراء يجوز فيها الفتح والضم والكسر، قال سيبويه: الأصل مرتدفين، فأدغمت التاء في الدال، فصار مردفين؛ لأنَّك طرحت حركة التاء على الراء، وإنْ شئت لم تطرح حركة التاء، وكسرت التاء لالتقاء الساكنين، والذين ضموا الراء جعلوها تابعة لضم الميم ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وما جعل الله إمدادكم بإنزال الملائكة عياناً لعلة من العلل ﴿إِلَّا بُشْـرَىٰ﴾؛ أي: إلا لأجل البشرى لكم بأنَّكم تنصرون ﴿و﴾ إلا ﴿لتطمئن به قلوبكم﴾؛ أي: وإلا لتسكن بذلك الإمداد قلوبكم من الزلزال الذي عرض لكم، فكان من مجادلتكم للرسول في أمر القتال ما كان، وبذا تلقون أعداءكم ثابتين، موقنين بالنصر، وفي هذا إشعار بأنَّ الملائكة لم يقاتلوا، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم، وتطمين قلوبهم وتثبيتها، وحذف ﴿لكم﴾ هنا وأثبته في آل عمران لأن القصة هناك مسهبة، فناسبها الإثبات، وهنا موجزة فناسبها الحذف، وهنا قدم لفظة ﴿به﴾ وأخر هناك على سبيل التفنن والاتساع في دائرة الكلام، وجاء هنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مراعاة لأواخر الآي، وهناك ليست آخر آية، لتعلق ﴿يقطع﴾ بما قبله، فناسب أنْ يأتي ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على سبيل الصفة، وكلاهما يشعر بالعلية، ذكره أبو حيان.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ لا من عند غيره؛ أي: إنَّ الله ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره، ولا تتكلوا على قوتكم، فإمداد الملائكة، وكثرة العدد، والأهب ونحوها وسائط لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه بفقدها، وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل إلا على الله تعالى في جميع أحواله، ولا يثق بغيره؛ فإن الله تعالى بيده النصر والإعانة؛ أي: ليس النصر إلا من عند الله تعالى دون غيره من الملائكة أو سواهم من الأسباب، فهو سبحانه الفاعل للنصر، والمسخر له كتسخيره للأسباب الحسية والمعنوية، ولا سيما ما لا كسب للبشر فيه، كتسخير الملائكة لتخالط المؤمنين، فتفيد أرواحهم الثبات والاطمئنان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب على أمره، قوي منيع لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، بل هو يقهر كل شيء ويغلب ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره

ونصره، ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء من عباده، لا يضع شيئاً في غير موضعه.

وظاهر الآية يدل على أن لإنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدة معنوية، فهو يؤثر في القلوب فيزيدها قوة، وإنْ لم يكونوا محاربين، وهناك روايات تدل على أنَّهم قاتلوا فعلاً، وفي يوم أحد وعدهم الله وعداً معلقاً على الصبر والتقوى، ولكن الشرط الأخير قد انتفى، فانتفى ما علق عليه. واذكروا أيها المؤمنون نعمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾؛ أي: نعمة إذ يلقي الله سبحانه وتعالى عليكم ﴿النُّعَاسَ﴾؛ أي: النوم الخفيف ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾؛ أي: حالة كون النعاس أماناً من الله لكم؛ أي: سبب أمان وسلامة لكم من عدوكم أن يغلبكم، قال عبد الله بن مسعود[1] النعاس في القتال أمنة من الله؛ أي: طمأنينة منه، وفي الصلاة من الشيطان، والفائدة في كون النعاس أمنة في القتال: أنَّ الخائف على نفسه لا يأخذه النوم، فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلاً على الأمن، وإزالة الخوف، وقيل: إنَّهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم، وقلة المسلمين عدداً وعدداً وعطشوا عطشاً شديداً.. ألقى الله عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من قتال عدوهم، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم؛ لأنَّه كان خفيفاً بحيث لو قصدهم لعرفوا وصوله إليهم، وقدروا على دفعه عنهم، وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله: أنَّه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة، فناموا كلهم مع كثرتهم، وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم ـ مع وجود الخوف الشديد ـ أمر خارج عن العادة، فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة؛ لأنَّه أمر خارق للعادة، وهذه[2] الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي أنَّهم مع خوفهم من لقاء العدو، والمهابة لجنابه، سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين، وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها.

قيل: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

أحدهما: أنَّه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أنَّه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم.

وقيل: إن النوم غشيهم في حال التقاء الصفين، وقد مضى في يوم أحد نحو من هذا في سورة آل عمران، وروى البيهقي في «الدلائل» عن علي كرم الله وجهه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأينا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة، حتى أصبح. والمتبادر من الآية أنَّ النعاس كان في أثناء القتال، وهو يمنع الخوف؛ لأنَّه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر.

وقرأ[1] ابن كثير، وأبو عمرو، ومجاهد، وابن محيصن ﴿إِذْ يَغْشَيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ بفتح الياء، وسكون الغين، وفتح الشين بعدها ألف مضارع غشي الثلاثي، والنعاس رفع به، وقرأ الأعرج وابن نصاح وأبو حفص ونافع: ﴿يُغْشِيكُمُ﴾ بضم الياء وسكون الغين وكسر الشين، النعاس بالنصب مضارع أغشى الرباعي، وقرأ عروة بن الزبير، ومجاهد، والحسن وعكرمة، وأبو رجاء، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يغشيكم﴾ بضم الياء وفتح الغين مشددة الشين مكسورة، النعاس بالنصب، وقرأ الجمهور ﴿أَمَنَةً﴾ بالتحريك، وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي، وأبو المتوكل، وأبو العالية، وابن يعمر، وابن محيصن، ﴿أمْنة منه﴾ بسكون الميم على وزان رحمة.

﴿و﴾ اذكروا نعمة ﴿إذ ينزل﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: مطراً ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الماء من الأحداث والجنابات، ﴿و﴾ ﴿يذهب عنكم رجز الشيطان﴾؛ أي: وسوسته إليكم، بأنكم لو كنتم على الحق ما كنتم عطاشاً مُحْدِثين، والمشركون على الماء ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ به ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ باليقين والصبر، وقال الواحدي: ويشبه أن تكون لفظة ﴿عَلَىٰ﴾ صلة، والمعنى: وليرْبِطَ قلوبكم بالصبر، وما أوقع فيها من اليقين، وفي «الوسيط»: ﴿عَلَىٰ﴾ زائدة، والمعنى: وليربطَ قلوبَكُم بما أنزل من الماء، ولا تضطرب بوسوسة الشيطان اهـ

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير.

«زاده» أي: يقويها ويعينها باليقين، فجعَلَها صابرةً قويةً ثابتة في مواطن الحرب، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾؛ أي: بذلك الماء ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ على الرمل فقدروا على المشي عليه، كيف أردوا في مواطن القتال.

روى[1] ابن المنذر من طريق ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه: أنَّ المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء، فظَمِىء المسلمون، وصلُّوا مجنبين محدثين، وكان بينهم، رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن، وقال أتزعمون أنَّ فيكم نبيًّا وأنكم أولياء، وتصلون مجنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء، فسال عليهم الوادي ماء، فشرب المسلمون، وتطهَّروا، وثبتت أقدامهم؛ أي: على الرمل اللين لتلبده بالمطر، وذهبت وسوسته.

وقال ابن القيم: أنزل الله تعالى تلك الليلة مطراً واحداً، فكان على المشركين وابلاً شديداً مَنَعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلاً طهَّرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرضَ وصلب الرمل، وثبت الأقدام، ومهَّدَ به المنزل، وربط على قلوبهم فسبقَ رسول الله وأصحابُه إلى الماء، فنزلوا عليه شطر الليل، وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله وأصحابه أعلى الحياض، وبني لرسول الله ﷺ عريش على تَلّ مشرف على المعركة، ومشى في موضع المعركة، وجَعَل يشير بيدِهِ هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى، فما تعدَّى أحد منهم موضع إشارته.

وقال ابن إسحاق[2]: إن الحباب بن المنذر قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا أن نتأخر عنه، أمْ هو الرأي والحرب والمكيدةُ؟ قال: «بل هو الحرب والرأي والمكيدة» قال: يا رسول الله، فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم تغور ما وراءه من القُلب، ـ الأبار غير المبنية ـ ثم نبني عليها حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتِلُ القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي»

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

وفعلوا ذلك، وقد فهم من الآية أنَّه كان لهذا المطر أربع فوائد:

١ ـ تطهيرهم حسّياً بالنظافة التي تنشط الأعضاء وتدخل السرور على النفس، وشرعيًّا بالغسل من الجنابة، والوضوء من الحدث الأصغر.

٢ ـ إذهاب رجس الشيطان ووسوسته.

٣ ـ الربط على القلوب؛ أي: توطين النفس على الصبر وتثبيتها، كما قال: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وهذا لما للمطر من المنافع التي تكون أثناء القتال.

٤ ـ تثبيتُ الأقدام به؛ ذاك أنَّ هذا المطر لبد الرمل وصيره بحيث لا تغوص فيه أرجلهم، فقدَروا على المشي كيف أرادوا، ولولاه لما قدروا على ذلك.

وقرأ طلحة[1]: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد، وعبارة النسفي: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ قرأ مكيٌّ وبصري بالتخفيف، وقرأ غيرهم بالتشديد. اهـ.

وقرأ الجمهور: ﴿ماء﴾ بالمد، وقرأ الشعبي، ﴿ما﴾ بغير همز، والأصحُّ أنها بمعنى ماء المدودة، قصر للتخفيف، وقيل: هي ما الموصول، ولا يصح لأنَّ لام كي لا تكونُ صلة الموصول، وقرأ ابن المسيب ﴿لِيُطْهِرَكُم﴾ بسكون الطاء، وقرأ عيسى بن عمر ﴿ويذهبْ﴾ بسكون الباء، وقرأ ابن محيصن ﴿رُجز﴾ بضم الراء، وأبو العالية ﴿رجس﴾ بالسين.

واذكر يا محمد نعمة ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: نِعْمَةَ وقت إيحاء ربك إلى الملائكة، الذين أمد بهم المؤمنين يوم بدر، وإعلامه إياهم، فألْ فيه للعهد الذِّكري ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾؛ أي: أني مع المؤمنين بالنصر، والمعونة، والتأييد، أو أني معكم يا ملائكتي في إمدادهم وإعانتهم ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: فثبتوا يا ملائكتي قلوب الذين آمنوا بإلقاء النصر والغلبة في قلوبهم، أو ثبتوهم بقتالكم معهم للمشركينْ. وقيل: بَشّروهم بالنصر والظفر، فكان الملَك يمشي في صورة رجل أمام الصف، ويقول: أبشروا فإنَّ الله ناصركم عليهم، فالمراد بالمعية في

---

(١) البحر المحيط.

قوله أنِّي معكم معية الإعانة والنصر والتأييد في مواطن الجد، ومقاساة شدائد القتال، وهذه منة خفية أظهرها الله تعالى ليشكروه عليها.

وقال الزجاج[١]: كان التثبيتُ لهم بأشياء يلقونها في قلوبهم، تصح بها عزائمهم، ويتأكد جدهم، وللملك قوة إلقاء الخير، ويقال له: إلهام، كما إن للشيطان قوة إلقاء الشر، ويقال لها وسوسةٌ. وقوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ والخوف منكم تفسير لقوله: ﴿أني معكم﴾ كأنه قيل: أني معكم في إعانتكم بإلقاء الرعب في قلوبهم، فلا يكون لهم ثبات، وكان ذلك نعمة من الله تعالى على المؤمنين، حيث ألقَى الخوف منهم في قلوب المشركين، وقولُه: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فثبتوا﴾ وهو أمر للمؤمنين، أو للملائكة، وفيه دليل على أنَّهُمْ قاتلوا، قال ابن الأنباري: ما كانت الملائكة تَعْرِفُ كيف تِقاتِلُ بني آدم، فعلمهم الله تعالى ذلك بقوله: فاضربوا يا ملائكتي فَوْقَ الأعناق ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٢]؛ أي: فاضربوا رؤوسهم، واضْرِبُوا أطراف الأصابع؛ أي: اضربوا أيها المؤمنون، أو يا ملائكتي في جميع أعضاء المشركين من أعاليها إلى أسافلها، كيف شئتم؛ لأن الله تعالى ذَكَرَ الأشْرَفَ والأخس، فهو إشارة إلى جميع الأعضاء.

ومعنى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: فاضربوا الأعناق وما فوقها، وهي الرؤوس، ومعنى ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ أي: واضربوا أطراف أصابع اليدين، سميت[٣] بذلك، لأنَّ بها صلاح الأشياء التي يمكن الإنسان أن يعملها بيديه، وإنما خصَّت بالذكر دون سائر الأطراف، لأجل أن الإنسان بها يقاتل، وبها يمسك السلاحَ في الحرب، وقيل: إنه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب أعلى الجسدِ وهو الرأس، وهو أشرف الأعضاء وبضرب البنان، وهو أضعف الأعضاء، فيدخل في ذلك كلُّ عضو في الجسد، وقيل: أمرهم بضرب الرأس، وفيه إهلاك الإنسان، وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الإنسان عن الحرب؛ لأنه بالبنان يتمكن من مسكِ

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) الخازن.

السلاح وحمله والضرب به، فإذا قطعت بنانه تعطَّل عن ذلك كلِّه.

روي[١] عن أبي داود المازني، وكان شهد بدراً قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه، إذ وقع رأسهُ قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري. وعن سهل بن حنيف قال: لقد لقِينَا يومَ بدر، وإنَّ أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وقرأ[٢] عيسى بن عمر بخلاف عنه: ﴿إِنِي مَعَكُمْ﴾ بكسر الهمزة على اضمار القول على مذهب البصريين، أو على إجراء ﴿يوحي﴾ مجرى يقول على مذهب الكوفيين، وقرأ ابن عامر، والكسائي، والأعرج: ﴿الرُّعُبُ﴾ بضم العين، وقال[٣] الفراء علمهم مواضع الضرب، فقال: اضربوا الرؤوس والأيدي، والأرجل، فكأنه قال: فاضربوا الأعالي إن تمكنتم من الضرب فيها، فإن لم تقدروا، فاضربوهم في أوساطهم، فإن لم تقدروا فاضربوهم في أسافلهم، فإنَّ الضرب في الأعالي يسرع بهم إلى الموت، والضرب في الأوساط يسرع بهم إلى عدم الامتناع، والضرب في الأسافل يمنعهم من الكر والفر، فيحصل من ذلك إما إهلاكهم بالكلية، وإما الاستيلاء عليهم. انتهى.

والخلاصة[٤]: فاضربوا الهَامَ وافلقوا الرؤوس، واجتزوا الرقابَ، وقطِّعوها، وقطعوا الأيدي ذات البنان، التي هي أداة التصرف في الضرب وغيره، وقد كان النبي ﷺ يمر بين القتلى ببدر بعد انتهاء المعركة، ويقول: «نفلق هاما» فيتم البيت أبو بكر رضي الله عنه وهو:

نُفَلِّقُ هَامَاً مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ ... عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوْا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

وفي ذلك دليل على ألمه ﷺ من الضرورة التي ألجأته إلى قتل صناديد قومه، فالمشركون هم الذين ظلموه، هو ومنْ آمن به، حتى أخرجوهم من وطنهم بغياً وعُدواناً، ثم تبعوهم إلى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

ثم بيَّن سبب ذلك التأييد والنصر فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من تأييد الله للمؤمنين بالنصر والمعونة والإمداد، والظفر، والغلبة، وخذلانه للمشركين بالقتل والأسر والهزيمة، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: كائن بسبب أنَّ المشركين ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ﷺ؛ أي: خالفوهما في الأوامر والنواهي وعادوهما، فكان كل منهما في شقٍّ، وجانب غير الذي فيه الآخر، فالله هو الحق، والداعي إلى الحق ورسوله، هو المبلغ عنه، والمشركون على الباطل، وما يستلزمه من الشرور والآثام، والخرافات، والكاف في ذلك، لخطاب الرسول، أو لخطاب كل سامع ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: ومن يخالف الله ورسوله فيما أمرا به، ونهيا عنه. وأجمعوا[1] على الفك في ﴿يُشَاقِقِ﴾ اتباعاً لخط المصحف، وهي لغة الحجاز، والإدغام لغة تميم، كما جاء في الآية الأخرى ﴿وَمَن يشاقّ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى يعاقبه يوم القيامة على مخالفته، وشركه لأنه سبحانه وتعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ له، فالذي نزل بهم في ذلك اليوم قليل بالنسبة إلى ما أعده الله لهم من العقاب يوم القيامة، فلا أجدر بالعقاب من المشاقين له، الذين يؤثرون الشرك وعبادة الطاغوت على توحيده تعالى وعبادته، ويعتدون على أوليائه بمحاولة ردهم عن دينهم بالقوة والقهر، وإخراجهم من ديارهم، ثم اتّباعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه، والخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ للمشركين؛ أي: هذا العقاب الذي عجلت لكم أيها المشركون، المشاقون لله ورسوله في الدنيا، من انكسار وهزيمة مع الخزي، والذل أمام فئة قليلة العدد والعدد من المسلمين؛ أي: ذلك العذاب المذكور ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلاً في الدنيا وباشروه ﴿و﴾ اعلموا ﴿أن للكافرين عذاب النار﴾؛ أي: إنَّ لكم في الآخرة عذاب النار إن أصررتم على كفركم، وهو شر العذابين، وأبقاهما، وأشار بالتعبير بالذوق إلى أنَّ عذاب الدنيا يسير بالنسبة لعذاب الآخرة، وقيل: المعنى ذوقوا ما عجل لكم في الدنيا مع ما أجل لكم في الآخرة.

وقرأ الحسن وزيد بن علي وسليمان التيمي[2]: ﴿وإن للكافرين﴾ بكسر همزة ﴿إن﴾ على استئناف الإخبار.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الإعراب

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ جار ومجرور متعلق به على كونه مفعولاً ثانياً له، والجملة مستأنفة ﴿قُلِ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكى لـ﴿قُلِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱلْأَنفَالُ﴾ مبتدأ ﴿لِلَّهِ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَٱلرَّسُولِۖ﴾ معطوف على الجلالة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿اتقوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ على كونها مقولا لـ﴿قال﴾ ﴿وَأَصْلِحُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ معطوف على الجلالة ﴿إِن﴾ حرف شرط وجزم ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبرها وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن كنتم مؤمنين فأطيعوا الله ورسوله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قل﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حقيقة المؤمنين المذكورين في الآية السابقة، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها، وجوابها صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، والعائد ضمير ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿وَإِذَا﴾ الواو: عاطفة ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿تُلِيَتْ﴾ فعل

ماض مغير الصيغة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق به ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إذا﴾. ﴿زَادَتۡهُمۡ﴾ فعل ومفعول أول ﴿إِيمَٰنٗا﴾ مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على الآيات، والجملة جواب ﴿إذا﴾ وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ السابقة على كونها صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿زَادَتۡهُمۡ﴾. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، وجملة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى على كونها صلة الموصول، أو مستأنفة أو في محل النصب حال من مفعول ﴿زَادَتۡهُمۡ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع صفة للموصول الأول ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَمِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: مما رزقناهم إياه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف ﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على كونها صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة مسوقة، لبيان ما للمؤمنين من الأجور ﴿حَقّٗاۚ﴾ صفة لمصدر محذوف، تقديره: المؤمنون إيماناً حقاً ﴿لَّهُمۡ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ تقديره: درجات كائنات عند ربهم، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ثان لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. ﴿وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ﴾ معطوفان على ﴿دَرَجَٰتٌ﴾. ﴿كَرِيمٞ﴾ صفة لـ﴿رزق﴾.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

﴿كَمَآ﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه ﴿ما﴾ مصدرية ﴿أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فعل ومفعول وفاعل ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ متعلق به ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق به أيضاً، أو حال من مفعول ﴿أَخۡرَجَكَ﴾؛ أي: حال كونك ملتبساً بالحق، والجملة الفعلية صلة

﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كإخراج ربك إياك ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً لمبتدأ محذوف تقديره الأمر والشأن كائن كإخراج ربك إياك من بيتك بالحق؛ أي: الأمرُ والشأنُ الجاري في الأنفال من قسمها بالتسوية بينهم، كائن كإخراج ربك من بيتك في كونه مكروهاً لهم، وقد ذكروا في متعلق هذه الكاف نحو عشرين وجهاً أكثرها معترضة، وبعضها صعبة، وفيما ذكرناه كفاية، لأنه أوضح الوجوه، وأسلمها من الاعتراض، ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا﴾ الواو: واو الحال ﴿إن﴾ حرف نصب ﴿فَرِيقٗا﴾ اسمها ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿فَرِيقٗا﴾ ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿كارهون﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب حال من مفعول ﴿أَخۡرَجَكَ﴾ تقديره: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، حال كون فريق من المؤمنين كارهين خروجك.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿فِي ٱلۡحَقِّ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مستأنفة إخباراً عن حالهم في المجادلة، أو حال ثانية من مفعول ﴿أَخۡرَجَكَ﴾؛ أي: أخرجك في حال مجادلتهم إياك، ويحتمل أن تكون حالا من الضمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾؛ أي: لكارهون في حال الجدال. ﴿بَعۡدَمَا﴾ ﴿بعد﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ ﴿ما﴾ مصدرية ﴿تَبَيَّنَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الحق، والجملة صلة ما المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: بعد تبينه ﴿كَأَنَّمَا﴾ ﴿كأن﴾ حرف نصب وتشبيه ﴿ما﴾ كافة لكفها ﴿كأن﴾ عن العمل فيما بعدها، ولذلك دخلت على الجملة الفعلية ﴿يُسَاقُونَ﴾ فعل ونائب فاعل ﴿إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾؛ أي: حال كونهم مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل، ﴿وَهُمۡ﴾ مبتدأ ﴿يَنظُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿يُسَاقُونَ﴾.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكروا ﴿إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين﴾ فعل ومفعول أول، وفاعل ومفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إذ﴾ تقديره: واذكروا نعمة وقت وعد الله سبحانه وتعالى إياكم إحدى الطائفتين؛ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أنَّ حرف نصب والهاء اسمها ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب على البدلية من ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ بدل اشتمال تقديره: وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين كونها لكم ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ الواو: حالية ﴿تودون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من كاف ﴿يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب ﴿غَيْرَ﴾ اسمها ﴿ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ مضاف إليه، ﴿تَكُونُ﴾ فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ وأنث الضمير مراعاة لمعنى ﴿غَيْرَ﴾ وهو الفرقة ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور خبر ﴿تَكُونُ﴾، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ في محل رفع خبر ﴿أَنَّ﴾ تقديره كائنة لكم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: وتودون كون غير ذات الشوكة لكم، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿كاف﴾ ﴿إذ يعدكم﴾. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يُحِقَّ﴾، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ويريد الله إحقاق الحق بكلماته، ﴿وَيَقْطَعَ﴾ معطوف على ﴿يُحِقَّ﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والتقدير: ويريد الله إحقاق الحق بكلماته، وقَطْعَ دابر الكافرين بقدرته وقهره.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿لِيُحِقَّ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يحق﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي وفاعله ضمير يعود على الله ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مفعول به ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ فعل

ومفعول معطوف على ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿يُحِقَّ﴾ مع ما عطف عليها صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: لإحقاقه الحق، وإبطاله الباطل، الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: وعد بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة لإحقاقِهِ الحقَّ وإبطاله الباطل، والجملة المحذوفة مستأنفةٌ. ﴿وَلَوْ﴾ الواو: واو الحال ﴿لو﴾ حرف شرط وغاية لا جواب لها ﴿كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من الحق والباطل، تقديره: وعد بما وعد ليحق الحق، ويبطل الباطل، حالة كون المجرمين كارهين إحقاق الحق، وإبطال الباطل، و﴿لو﴾ الغائية هي التي لا تطلب جواباً، ويكون ما بعدها حالاً. وقال أبو حيان[1]: والتحقيق أن الواو فيه للعطف على محذوف، وذلك المحذوف في موضع الحال، والمعطوف على الحال حال، ونظيره قولهم: أعطوا السائل ولو جاء على فرس؛ أي: على كل حال، ولو على هذه الحالة التي تنافي الصدقة على السائل، وإنْ ﴿ولو﴾ هذه تأتي لاستقصاء ما بطن، لأنه لا يندرج في عموم ما قبله، لملاقاة التي بين هذه الحال وبين المسند الذي قبلها. انتهى.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره، واذكروا إذ تستغيثون، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾ تقديره، واذكروا أيها المؤمنون نعمة وقت استغاثتكم ربكم ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿استجاب﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجلمة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ ﴿أَنِّى﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، والياء اسمها ﴿مُمِدُّكُم﴾ خبرها، ومضاف إليه بـ﴿بِأَلْفٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ صفة

(١) البحر المحيط.

لـ﴿ألف﴾. ﴿مُرْدِفِينَ﴾ حال من ألف لتخصصه بالصفة، أو صفة ثانية لألف، وجملة ﴿أن﴾ المفتوحة في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: بإمدادي إياكم بألف ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿استجاب﴾، وعلى قراءة كسر همزة ﴿إن﴾ فهو مقول لقول محذوف تقديره: وقال: إني ممدكم بألف من الملائكة.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾ نافية ﴿جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من أعم العلل ﴿بُشْرَىٰ﴾ مفعول لأجله ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ الواو: عاطفة و﴿اللام﴾ لا كي ﴿تطمئن﴾ منصوب بأن مضمرة ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولاطمئنان قلوبكم به، وهذا المصدر المؤول معطوف[1] على ﴿بُشْرَىٰ﴾ على كونه مفعولاً لأجله، ولكن جر باللام لفقد شرط النصب من اتحاد الفاعل كما لا يخفى، فإن فاعل الجعل هو الله تعالى وفاعل الاطمئنان القلوب، وعبارة «السمين» هنا: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول لأجله، وهو استثناء مفرغ، إذ التقدير: وما جعله لشيء من الأشياء، إلا للبشرى، وشروط نصبه موجودة، وهي اتحاد الفاعل، والزمان، وكونه مصدراً.

والثاني: أنه مفعول ثان لـ﴿جعل﴾ على أنه بمعنى صير.

والثالث: أنه بدل من ﴿الهاء﴾ في ﴿جَعَلَهُ﴾ قاله الحوفي.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿ما﴾ نافية، ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ مبتدأ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر المتبدأ، والجلمة الاسمية مستأنفة ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿عَزِيزٌ﴾ خبر أول لها ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان

(١) الفتوحات.

لها، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: اذكروا إذ يغَشِّيكُم النعاس، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾. ﴿أَمَنَةً﴾ إما حال من ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، و﴿مِّنْهُ﴾ صفة له؛ أي: حالة كونه أماناً منه تعالى لكم، أو مفعول لأجله، أي لأجل تأمينه لكم، وفي المقام أوجه أخر من الإعراب تركناها خوف الإطالة. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق به ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلق به أيضاً ﴿مَآءً﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ على كونها مضافاً إليه، لـ﴿إِذْ﴾. ﴿لِّيُطَهِّرَكُم﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يطهركم﴾ فعل ومفعول به منصوب بأن مضمرةً وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتطهيره إياكم به الجار والمجرور متعلق بـ﴿ينزل﴾ ﴿وَيُذْهِبَ﴾ معطوف على ﴿يطهر﴾، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق به ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ الواو: عاطفة ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يربط﴾ منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولربطه على قلوبكم، الجار والمجرور معطوف على الجار، والمجرور في قوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم﴾ ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ معطوف على ﴿يربط﴾ ﴿بِهِ﴾ متعلق به وفاعله ضمير يعود على الله ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ مفعول به.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر يا محمد إذ ﴿يُوحِى رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه، لـ﴿إِذْ﴾، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿أَنِّى﴾ أن حرف نصب، والياء

اسمها ﴿مَعَكُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه والظرف متعلق بمحذوف خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ومجرور بحرف جر، محذوف تقديره: بكوني ﴿مَعَكُمْ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُوحِى﴾. ﴿فَثَبِّتُوا﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿ثبتوا﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة مفرعة على جملة ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾. ﴿ءَامَنُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿سَأُلْقِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة، وهذه الجملة كالتفسير لقوله: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾. ﴿فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿ألقى﴾ ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ مفعول به منصوب بـ﴿ألقى﴾. ﴿فَٱضْرِبُوا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿اضربوا﴾ فعل وفاعل ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اضربوا﴾، وعلى هذا المفعول محذوف تقديره فاضربوا رؤوسهم فوق الأعناق، وقيل: ﴿فَوْقَ﴾ مفعول به على التوسع منصوب بالفعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿سَأُلْقِى﴾ وهذه الجملة كالتفسير لقوله: ﴿فَثَبِّتُوا﴾ الخ. ﴿وَٱضْرِبُوا﴾ فعل وفاعل ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿اضربوا﴾ أو حال من ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿أن﴾ حرف نصب و﴿الهاء﴾ اسمها ﴿شَآقُّوا ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾ تقديره: ذلك بأنهم مشاقوا الله ورسوله، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ تقديره: ذلك بسبب مشاقتهم الله ورسوله، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائن بسبب مشاقتهم الله ورسوله، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَمَن﴾ الواو: عاطفة ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما ﴿يُشَاقِقِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿ٱللَّهَ﴾ لفظ الجلالة مفعول

به، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف عليه ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً أو تعليلية للجواب المحذوف ﴿إن﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ خبرها، ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، والرابط محذوف تقديره، فإن الله شديد العقاب له، أو الجملة في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية، على كونها معللة للجواب المحذوف، تقديره: ومن يشاقق الله ورسوله يعاقبه الله تعالى؛ لأنَّ الله شديد العقاب، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ على كونها مقررة ومكملة لها.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فَذُوقُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة في الخبر على رأي الأخفش، ﴿ذوقوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: ذالكم العذاب، والجملة مستأنفة. ﴿فَذُوقُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، وجملة: ﴿ذوقوه﴾: مستأنفة. ﴿وَأَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: خبر مقدم لـ﴿أن﴾ ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: اسمها مؤخر ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي عَلِمَ المحذوف تقديره: واعلموا كون عذاب النار للكافرين، وجملة علم المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ أي[1]: سؤال استفتاء، لأنَّ هذا أول تشريع الغنيمة، وفاعل السؤال يعود على معلوم، وهو من حضر بدراً، وسأل: تارةً يكون لاقتضاء معنى في نفس المسؤول، فيتعدَّى بعن كهذه الآية، وقد يكون لاقتضاء مال فيتعدى لاثنين، نحو سألت زيداً مالاً، وقد ادعى بعضهم أن السؤال هنا بهذا المعنى، وزعم أن ﴿عن﴾ زائدة، والتقدير: يسألونك الأنفال، وأيد هذا بقراءة سعد بن

---

(١) الفتوحات

أبي وقاص وابن مسعود وعلي بن الحسين وغيرهم ﴿يسألونك الأنفال﴾ بدون عن، والصحيح أن هذه القراءة على إرادة حرف الجر ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[1] جمع نفل بفتح النون والفاء، كفرس وأفراس، والمراد بها هنا الغنائم، وسميت أنفالاً، والنفل هو الزيادة لزيادة هذه الأمة بها على الأمم السابقة، وفي «المصباح» النفل: الغنيمة، والجمع أنفال مثل سبب وأسباب، والنفل: وزان فلس مثله اهـ ومنه: صلاة النفل، وقيل: الغنيمة[2] كل ما حصل مستغنماً بتعب أو بغير تعب، وقبل الظفر أو بعده، والنفل ما يحصل للإنسان قبل القسمة من الغنيمة، ومن إطلاقها على الغنيمة قول عنترة:

إِنَّا إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْوَغَىٰ نَرْوِيْ ٱلْقَنَا   وَنَعِفُّ عِنْدَ مَقَاسِمِ ٱلأَنْفَالِ

أي الغنائم.

ويطلق[3] النفل على معان أخر: منها اليمين، والابتغاء، ونبت معروف، والنافلة التطوع لكونها زائدة على الواجب، والنافلة ولد الولد، لأنه زيادة على الولد.

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ والبين: يطلق على الاتصال والافتراق، وعلى كل ما بين طرفين، كما قال: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وذات البين الصلة التي تربط بين شيئين، وإصلاحها بالمودة وترك النزاع.

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل: الفزع والخوف وفي «السمين»[4] يقال: وجل بالكسر في الماضي يوجل بالفتح في المضارع، وفيه لغة أخرى قرىء بها شاذاً ﴿وجَلَت﴾: بفتح الجيم في الماضي، وكسرها في المضارع، فتحذف الواو في المضارع، كوعد يعد، ويقال في المشهورة: وجل يوجل بإثبات الواو في المضارع اهـ.

﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ والدرجات منازل الرفعة، ومراقي الكرامة ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) الفتوحات.

والطائفتان طائفة العير الآتية من الشام، وطائفة النفير التي جاءت من مكة للنجدة، وغير ذات الشوكة هي العير، والشوكة الحدة، والقوة: وأصلها واحدة الشوك شبهوا بها أسنة الرماح ﴿دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ودابر القوم: آخرهم الذي يأتي في دبرهم، ويكون من روائهم و﴿يحق الحق﴾؛ أي: يعز الإسلام؛ لأنه الحق ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: يزيل الباطل، وهو الشرك ويمحقه.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فالسين والتاء فيه للطلب؛ أي: تطلبون الغوث من ربكم، والاستغاثة طلب الغوث، وهو التخليص من الشدة والنقمة ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾؛ أي: أجاب لكم، فالسين والتاء فيه زائدتان ﴿مُمِدُّكُم﴾؛ أي: ناصركم ومعينكم ﴿بِأَلْفٍ﴾ قرىء بألف، وأصل آلف أألف بوزن أفلس فقلبت الهمزة الثانية ألفاً، فصار آلفا ﴿مُرْدِفِينَ﴾ من أردفه إذا أركبه وراءه ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ مصدر على وزن فعلى كرجعى بمعنى البشارة، وهو الخبر السار ﴿وتطمئن﴾: تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضع شيئاً في غير موضعه ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾؛ أي: يجعله مغطياً لكم، ومحيطاً بكم، وفيه ثلاث قراءات سبعية، يغشاكم كيلقاكم من غشيه، إذا أتاه، وأصابه، وفي «المصباح» غشيته أغشاه من باب تعب أتيته ﴿ويغشيكم﴾: من أغشاه؛ أي: أنزله بكم، وأوقعه عليكم ﴿ويغشيكم﴾ من غشاه تغشية غطّاه؛ أي: يغشيكم الله النعاس؛ أي: يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتماله عليكم، والنعاس على الأولى مرفوع على الفاعلية، وعلى الأخيرتين منصوب على المفعولية.

﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ والنعاس: فتور في الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم، فهو يضعف الإدراك، ولا يزيله كله، فإذا أزاله كان نوماً، وقال بعض الفقهاء: علامة النعاس: أن تسمع كلام الحاضرين ولا تفهمه، وعلامة النوم: أن لا تسمع كلامهم. ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ والرجز والرجس والركس الشيء المستقذر حساً، أو معنى، ويراد به هنا وسوسة الشيطان، وفي الكرخي: الرجز في الأصل العذاب الشديد، وأريد به هنا نفس وسوسة الشيطان مجازاً لمشقتها على أهل الايمان،

كما قيل: كل ما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز. اهـ.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ والربط على القلوب تثبيتها وتوطينها على الصبر، وفي «زاده» الربط الشد، يقال لكل من صبر على أمر ربط على قلبه، أي قواه وشدده. وعدى بعلى للإيذان بأن قوة قلوبهم بلغت في الكمال إلى أن صارت مستولية على القلوب، حتى صارت كأنها علت عليها، وارتفعت فوقها؛ أي: فتفيد التمكن في القوة ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ والرعب الخوف الذي يملأ القلب ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: الرؤوس ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ والبنان: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، وهي جمع بنانة وفي «المصباح» البنان الأصابع، وقيل: أطرافها، والواحدة بنانة اهـ وفي «السمين» والبنان قيل: الأصابع، وهو اسم جنس، الواحد: بنانة، وضربها عبارة عن الثبات في الحرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتالُ بخلاف سائر الأعضاء، قال عنترة:

وَقَدْ كَانَ فِيْ الْهَيْجَاءِ يَحْمِيْ ذِمَارَهَا وَيَضْرِبُ عِنْدَ الْكَرْبِ كُلَّ بَنَانِ

﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: عادوا وخالفوا، وسميت العداوة مشاقة لأن كلاً من المتعاديين يكون في شق غير الذي يكون فيه الآخر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الأيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحصر في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لأن تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر.

ومنها: الإشارة بالبعيد عن القريب في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إشعاراً بعلو مرتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ استعار الدرجات التي هي حقيقة في المحسوسات للمراتب الرفيعة، والمنازل العالية في الجنة بجامع العلو في كل.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ شبه حالهم وقت قسم الأنفال

بالسوية بينهم بحالهم وقت إخراجه من بيته بجامع الكراهة في كل مع كونه خيراً لهم، وفي قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ شبههم بمن يساق إلى الموت؛ أي: القتل، وهو ينظر بعينه أسبابه، بجامع الكراهة في كل.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ فلما نجت العير علم أن الموعود بها النفير.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وقوله: ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْحَقَّ﴾ و﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ فلذلك عطف عليه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ بصيغة الماضي على مقتضى الواقع.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ فإنها حقيقة في شوك الشجر فاستعيرت للسلاح بجامع الحدة والطعن في كل.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿إذ يغشاكم النعاسُ﴾: على قراءة رفع النعاس،

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنه كناية عن استئصالهم بالهلاك.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: لأن الرجز حقيقة في العذاب، فاستعاره لوسوسة الشيطان بجامع المشقة والضرر في كل، لأن وسوسة الشيطان ضرر ومشقة على أهل الايمان، كما أن العذاب مشقة على أهله.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ لأن الربط حقيقة في الأجرام، فاستعاره لتقوية القلوب وتثبيتها بجامع القوة في كل.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ لأن قوله ﴿سَأُلۡقِى﴾ الخ كالتفسير لقوله: ﴿أَنِّى مَعَكُمۡ﴾ وقوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾ الخ كالتفسير لقوله ﴿فَثَبِّتُواْ...﴾ الخ.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل، أو سبب الجمع بين العاجل والآجل؛ لأنَّ أصل الكلام فذوقوه وإن لكم عذاب النار، فوضع ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ موضع لكم شهادة عليهم بالكفر وتنبيهاً على العلة المذكورة.

ومنها: الإضافة لتشريف المضاف إليه في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ومنها: التهييج والإلهاب - أي: الإطناب - في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لأنَّ الإيمان موجود فيهم مع الصفات السابقة، والمعنى: إن كنتم مستمرين على الإيمان.

ومنها: الدلالة على التشريف والتكريم في قوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لأن في كونها عنده سبحانه وتعالى زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ ۖ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنه تعالى لما أخبر أنه سيلقي الرعب في قلوب الكفار، وأمر من آمن بضرب فوق أعناقهم، وبنانهم.. حرضهم على الصبر عند مكافحة العدو، ونهاهم عن الانهزام.

(١) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه لما نهى الله تعالى عن تولي الأدبار.. توعد من ولى دبره وقت لقاء العدو.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما هدد المشركين بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾.. أردف ذلك بتأديب المؤمنين، بالأمر بطاعة الرسول، وإجابة دعوته إذا دعا للقتال في سبيل حياطة الدين وصد من يمنع نشره ويقف في طريق تبليغ دعوته.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] وجوب طاعة الرسول ﷺ، وعدم التولي حين الجهاد.. أردفه بالأمر بالاستجابة له إذا دعاهم لهدى الدين وأحكامه عامة؛ لما في ذلك من تكميل الفطرة الإنسانية وسعادتها في الدنيا والآخرة، وكرر النداء بلفظ المؤمنين تنشيطاً لهم إلى الإصغاء لما يرد بعده من الأوامر والنواهي، وإيماء إلى أنهم قد حصلوا ما يوجب عليهم الاستجابة، وهو الإيمان.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[3] أخبر أن هؤلاء المشبه بهم لا يسمعون.. أخبر أن شر الحيوان الذي يدب الصم، أو أن شر البهائم، فجمع بين هؤلاء وبين جمع الدواب، وأخبر أنهم شر الحيوان مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما حذر من الفتنة بالأموال والأولاد.. أردف ذلك بطلب التقوى التي ثمرتها ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد.

(١، ٢) المراغي.   (١) البحر المحيط.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ...﴾ الآية، روى أبو داود (جـ ٢ ص ٣٤٩): حدثنا محمد بن هشام المصري، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا داود بن أبي نضرة، عن أبي سعيد، قال: نزلت في يوم بدر ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ الحديث أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي وابن جرير، وعزاه الحافظ بن كثير (جـ ٢/ ص ٣٩٥) إلى النسائي، وابن مردويه مع من ذكرنا، ثم قال: وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم، كما دل عليه حديث أبي هريرة، من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجمهور والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ...﴾ الآية، في سبب نزولها ثلاثة أقوال[1]:

أحدها: أن النبي ﷺ قال لعلي: «ناولني كفاً من حصباء» فناوله فرمى به في وجوه القوم، بما بقى منهم أحد إلا وقعت في عينه حصاة، رواه الطبراني عن ابن عباس، وفي رواية أخذ قبضة من تراب، فرمى بها، وقال: «شاهت الوجوه» فما بقى مشرك إلا شغل بعينيه بعالج التراب الذي فيها، فنزلت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وذلك يوم بدر، وهذا قول الأكثرين.

والقول الثاني: أن أُبَيَّ بن خلف، أقبل يوم أحد إلى النبي ﷺ يريده، فاعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله، وطعنه النبي ﷺ بحربته، فسقط أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا: إنما هو خدش، فقال: والذي نفسي بيده، لو كان الذي بي بأهل الحجاز لماتوا أجمعون، فمات قبل أن يقدم مكة، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن المسيب عن أبيه.

والثالث: أنَّ رسول الله ﷺ رمى يوم خيبر بسهم فأقبل السهم يهوي حتى

---

(١) زاد المسير.

قتل ابن أبي الحقيق وهو على فراشه، فنزلت هذه الآية. ذكره أبو سليمان الدمشقي في آخرين، والحديث مرسل[1]، جيد الإسناد، والمشهور أنها نزلت في رمية يوم بدر بالقبضة من الحصباء.

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ. . .﴾ الآية، روى[2] الحاكم عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير، قال: كان المستفتح أبا جهل، فإنه قال حين التقى القوم: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وأتى بما لا يعرف، فأَحِنْهُ الغداة، وكان ذلك استفتاحاً، فأنزل الله ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية، قال: قال أبو جهل: اللهم انصر أعز الفئتين وأكرم الفرقتين، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ. . .﴾ الآية، روى[3] سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة، قال: نزلت هذه الآية ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ في أبي لبابة رفاعة بن عبد المنذر، وذاك أن النبي ﷺ لما حاصر بني قريظة، سألوه أن يصالحهم على ما صالح عليه بني النضير، على أن يسيروا إلى أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا، وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحا لهم، لأنَّ ولده وأهله كانوا عندهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ، فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه، أنه الذبح فلا تفعلوا، فأطاعوه، فكانت تلك خيانته، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس والأكثرين، وروي أن أبا لبابة ربط نفسه بعد نزول هذه الآية إلى سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام كذلك، ثم تاب الله عليه، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاء فحله بيده،

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

(٣) زاد المسير.

فقال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال رسول الله ﷺ: «يجزئك الثلث». وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» وأخرج بعضه الطبري، وابن هشام.

وروى ابن جرير[١] وغيره عن جابر بن عبد الله: أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي ﷺ، فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان أن محمداً يريدكم، فخذوا حذركم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية. غريب جداً، في سنده وسياقه نظر.

وأخرج ابن جرير عن السدي، قال: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين، فنزلت.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: قابلتموهم للقتال حالة كونهم ﴿زَحْفًا﴾؛ أي: زاحفين لقتالكم زحفاً، إذ الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فقابلوهم ببدر، والمعنى[٢] على التشبيه؛ أي: حالة كونهم مثل الزاحفين والماشين على أدبارهم، وذلك لأن الجيش إذا كثر والتحم بعضهم ببعض يتراءى أن سيره بطيء، وإن كان في نفس الأمر سريعاً، فالمقصود من هذه الحال بعد كون المراد التشبيه ما يلزم هذه المشابهة، وهو الكثرة.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ أي: فلا تولوهم ظهوركم، وأقفيتكم منهزمين؛ أي: لا تجعلوا ظهوركم مما يليهم، بل قابلوهم بوجوهكم، وقاتلوهم مع قلتكم، ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تلقونهم ﴿دُبُرَهُ﴾ بضمتين، وقراءة الحسن ﴿دُبْره﴾: بسكون الباء كقولهم عنق في عنق، أي ظهره؛ أي: ومن يجعل ظهره

---

(١) لباب النقول.

(٢) الفتوحات.

والياً ومقبلاً إليهم شارداً منهزماً منهم ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾؛ أي: إلا رجلاً منعطفاً مائلاً لمكان رآه أحوج إليه ﴿لِّقِتَالٍ﴾ فيه، أو لضرب من ضروبه رآه أنكى بالعدو كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه ليغريه على اتباعه، حتى إذا انفرد عن أنصاره، كر عليه فقتله ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾؛ أي: منتقلاً منضماً ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾؛ أي: إلى جماعة أخرى من المؤمنين، في جهة غير الجهة التي كان فيها، ليشد أزرهم، وينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم، فصاروا أحوج إليهم ممن كان معهم؛ أي: من فعل ذلك التولي ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾؛ أي: رجع عن قتاله حالة كونه ملتبساً ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ الذي يأوي إليه في الآخرة أي منزله ومسكنه في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ دار العقاب ﴿وَبِئْسَ﴾؛ أي: قبح ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع هي. وانتصاب ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ على الاستثناء، أو على الحال كما سيأتي، والمعنى: ومن ينهزم ويفر من الزحف فقد رجع بغضب كائن من الله، إلا المتحرف والمتحيز، وهذا مخصوص بما إذا لم يزد الكفار على الضعف، ذاك أن المنهزم أراد أن يأوي إلى مكان يأمن فيه الهلاك، فعوقب بجعل عاقبته دار الهلاك، والعذاب الدائم، وجوزي بضد غرضه.

وفي الآية دلالة على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي، وجاء التصريح بذلك في صحيح الأحاديث، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً «اجتنبوا السبع الموبقات» ـ المهلكات ـ قالوا يا رسول الله وما هي؟: قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وقد خصص بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين، قال الشافعي: إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم، لم أحب لهم أن يولوا، ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة.

وروي عن ابن عباس قال: من فر من ثلاثة.. فلم يفر، ومن اثنين.. فقد فر.

و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم[١] ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة، وإيقاع الرعب في قلوبهم.. فأقول لكم: لم تقتلوا أنتم أيها المؤمنون الكفار في الحقيقة، ولكن الله سبحانه وتعالى قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر، من إلقاء الرعب في قلوبهم، وإمداد الملائكة لكم؛ أي: إن افتخرتم بقتلكم، فأنتم لم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم؛ لأنه هو الذي أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر وقَوىٰ قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجذع، ذكره أبو حيان.

والمعنى: يا أيها[٢] الذين آمنوا لا تولوا الكفار ظهوركم أبداً، فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر، ثم بنصر الله تعالى، انظروا إلى ما أوتيتم من نصركم عليهم على قلة عددكم، وكثرتهم واستعدادهم، ولم يكن ذلك إلا بتأييد من الله تعالى لكم، وربطه على قلوبكم، وتثبيت أقدامكم، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذي أفنى كثيراً منهم بقوتكم وعدتكم، ولكن الله قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم، بمخالطة الملائكة، وملابستها لأرواحكم وبإلقائه الرعب في قلوبهم، وهذا بعينه هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾، والمؤمن أحرى بالصبر الذي هو من أجل عوامل النصر من الكافر، إذ هو أقل حرصاً على متاع الدنيا، وأعظم رجاء لله والدار الآخرة، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾.

ثم انتقل من خطاب المؤمنين الذين قتلوا أولئك الصناديد بسيوفهم، إلى خطاب الرسول ﷺ، وهو قائدهم الأعظم فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد أحداً

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

من المشركين ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ أي: في الوقت الذي رميت فيه القبضة من التراب بإلقائها في الهواء، فأصابت وجوههم، فإن ما فعلته لا يكون له من التأثير مثل ما حدث ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَمَىٰ﴾ وجوههم كلهم بذلك التراب، الذي ألقيته في الهواء على قلته أو بعد تكثيره بمحض قدرته.

فقد روي أن النبي ﷺ رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب وقال: «شاهت الوجوه» ثلاثاً، فأعقبت رميته هزيمتهم، ومعنى[1] شاهت الوجوه، قبحت يقال: شاه وجهه يشوه شوهاً وشوهة، ويقال: رجل أشوه وامرأة شوهاء إذا كانا قبيحين.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، أن النبي ﷺ لما قال في استغاثته يوم بدر: «يا رب إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد في الأرض أبداً» قال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها وجوههم، ففعل، فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين.

وقال ثعلب[2]: المعنى ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ الفزع والرعب في قلوبهم، ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصباء فانهزموا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ أي: أعانك وأظفرك، والعرب تقول: رمى الله لك، أي أعانك وأظفرك وصنع لك، وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب «المجاز» وقال محمد بن يزيد المبرد: المعنى ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ بقوتك ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ولكنك بقوة الله رميت، وقيل: المعنى إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ، لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه، لأنَّ أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلاً، هكذا في «الكشاف» فإن قلت: كيف نفى عن المؤمنين قتل الكفار مع أنهم قتلوهم يوم بدر، ونفى عن النبي ﷺ رميهم

(١) زاد المسير.　　(٢) الشوكاني.

مع أنه رماهم يوم بدر بالحصى في وجوهم، قلت: نفى الفعل عنهم وعنه باعتبار الإيجاد إذ الموجد له حقيقة هو الله تعالى، وإثباته لهم باعتبار الكسب والصورة فقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ أي: أتيت بصورة الرمي، وقرأ[1] حمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، ﴿ولكِنِ ٱللَّهُ رمىٰ﴾ بتخفيف نون ﴿لكن﴾، ورفع الجلالة، والباقون بالتشديد ونصب الجلالة، وجاءت هنا لكن أحسن مجيء لوقوعها بين نفي وإثبات، ولم يقل: فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم كما قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ مبالغة في الجملة الثانية اهـ من «السمين».

فصل

والفرق[2] بين قتل المسلمين للكفار، وبين رمي النبي ﷺ إياهم بالتراب: أن الأول فعل من أفعالهم المقدورة لهم، بحسب سنن الله في الأسباب الدنيوية، وأن الثاني لم يكن سبباً عادياً لإصابتهم، وهزيمتهم لا مشاهداً كضرب أصحابه، لأعناق المشركين، ولا غير مشاهد، إذ هو لا يكون سبباً لشكاية أعينهم، وشوهة وجوههم لقلته، وبعده عن راميه وكونهم غير مستقبلين له، كلهم، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى بيان نقص الأول، وعدم استقلاله بالسببية، وبيان أنه لولا تأييد الله ونصره لما وصل كسبهم المحض إلى هذا الفشل؛ لأنك قد علمت ما كان من خوفهم، وكراهتهم للقتال، وبمجادلة النبي ﷺ فهم لو ظلوا على هذه الحال مع قلتهم وضعفهم، لكان مقتضى الأسباب العادية أن يمحقهم المشركون محقاً.

والفرق بين فعله تعالى في القتل، وفعله في الرمي: أن الأول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل، كما هو الحال في جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل في حصول غاياتها إلا بفعل الله، وتسخيره لهم للأسباب التي لا يصل إليه كسبهم عادة كما بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فالإنسان يحرث الأرض ويلقي فيها البذر، ولكنه لا يملك إنزال المطر، ولا إنبات الحب وتغذيته بمختلف عناصر

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

التربة، ولا دفع الجوائح عنه.

وأن الثاني من فعله تعالى وحده، بدون كسب عادي للنبي ﷺ في تأثيره فالرمي منه كان صورياً لتظهر الآية على يده ﷺ، فما مثله في ذلك إلا مثل أخيه موسى عليه السلام، في إلقائه العصا ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾.

والواو في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾؛ أي: ولينعم على المؤمنين إنعاماً جميلاً عاطفة[1] لما بعدها على علة مقدرة قبلها؛ أي: ولكن الله رمى ليمحق الكافرين، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً بالنصر والغنيمة، وحسن السمعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم، والبلاء هنا بمعنى النعمة، والمعنى: فعل الله تعالى ما ذكر لإقامته حجته وتأييد رسوله، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً، إنه تعالى سميع لما كان من استغاثة الرسول والمؤمنين ربهم، ودعائهم إياه وحده ولكل نداء وكلام، عليم بنياتهم الباعثة عليه، والعواقب التي تترتب عليه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ خبره محذوف، والمصدر المؤول من قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مضعف مكرهم لرسوله وللمؤمنين، ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد، والإصلاح قبل أن يقوى أمرها وتشتد، معطوف عليه، والتقدير[2] ذلكم الإبلاء والإنعام للمؤمنين بالنصر والغنيمة حق، وتوهين كيد الكافرين بالهزيمة حق.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ﴿مَوهِّنٌ﴾ بفتح الواو، وتشديد الهاء، والتنوين فـ﴿كيدَ﴾ منصوب على المفعولية من وهن، والتعدية بالتضعيف بما عينه حرف حلق غير الهمزة قليل، نحو ضعفت، ووهنت، وبابه أن يعدى بالهمزة نحو أذهلته، وأوهنته، وألحمته، وقرأ باقي السبعة والحسن، وأبو رجاء، والأعمش، وابن محيصن بسكون الواو وتخفيف الهاء من أوهن، كأكرم منوناً، وأضافه حفص إلى كيد.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الصاوي.

وبعد أن ذكر خذلانهم وإضعاف كيدهم: انتقل منه إلى توبيخهم على استنصارهم إياه على رسول الله ﷺ وقد روى محمد بن إسحاق عن الزهري أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وأتى بما لا يعرف، فأحنه[١] الغداة، فكان ذلك منه استفتاحاً.

وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا الله، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، فأجابهم الله تعالى بقولهم: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾؛ أي: إن تطلبوا الفتح والنصر لأعلى الجندين، وأهداهما ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ والنصر لأعلاهما وأهداهما، وهذا من قبيل التهكم بهم، لأنه قد جاءهم الهلاك والذلة.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ وتنزجروا عن عداوة النبي ﷺ وقتاله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: فالانتهاء خير لكم، لأنكم قد ذقتم من الحرب ما ذقتم من قتل وأسر بسبب ذلك العدوان.

﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلى حربه وقتاله ﴿نَعُدْ﴾ إلى مثل ما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجيء الفتح الأعظم، الذي به تدول الدولة للمؤمنين عليكم، وبه يذل شرككم، وتذهب ريحكم ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾؛ أي: ولن يدفع عنكم رهطكم ﴿شيئاً﴾ من بأس الله، وشديد نقمته، ولو كثرت عدداً إذ لا تكون الكثرة وسيلة من وسائل النصر أمام القلة، إلا إذا تساوت معها في أمور كثيرة، كالصبر والثبات، والثقة بالله تعالى، فهو الذي بيده النصر والقوة.

قال الحسن ومجاهد والسدي[٢]: وهذا خطاب للكفار على سبيل التهكم بهم، والمعنى: إن تستنصروا أيها الكفار لأعلى الجندين فقد جاءكم النصر لأعلاهما، وقد زعمتم أنكم الأعلى، فالتهكم في المجيء، أو: فقد جاءكم الهزيمة، فالتهكم في نفس الفتح، وإن تنتهوا عن قتال الرسول وعداوته وتكذيبه

(١) من حان الرجل إذا هلك وباعه باع، وأحانه الله إذا هلكه ا.هـ مختار.

(٢) المراح.

فهو خير لكم في الدين بالخلاص من العقاب والفوز بالثواب، وفي الدنيا بالخلاص من القتل، والأسر والنهب، وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى تسليط المسلمين على قتلكم، ولن تدفع عنكم جماعتكم شيئاً من الضرر ولو كثرت.

وقيل: هذا خطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا أيها المؤمنون، فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن المنازعة في أمر الأنفال، وعن طلب الفداء على الأسرى فهو خير لكم، وإن تعودوا إلى تلك المنازعة نعد إلى ترك نصرتكم، ثم لا تنفعكم كثرتكم.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم[1]: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بفتح همزة أن على أنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: والأمر، والشأن كون الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين بمعونته، وتوفيقه، فلا تضرهم قلتهم، ولا كثرة عددكم فهو يؤتي النصر من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، أو على أنه معطوف على علة محذوفة، لمعلول محذوف، تقديره: فعل الله بكم ما فعل من الأسر، والقتل، والهمزيمة، لأن الله سبحانه وتعالى ليس معكم، وأن الله مع المؤمنين، وقرأ باقي السبعة بكسرها على الاستئناف، وقرأ ابن مسعود: ﴿والله مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الاجابة إلى الجهاد، وترك المال إذ أمر الله بتركه؛ أي: داوموا على طاعته، وعلى عدم التولي، وعلى ترك المال يدم لكم العز الذي حصل لكم ببدر ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾؛ أي: عن الرسول؛ أي: ولا تعرضوا عن طاعته، وعن قبول قوله، وعن معونته في الجهاد، فالضمير في ﴿عَنْهُ﴾ عائد على الرسول؛ لأنَّ طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله، ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى الله، وإلى رسوله، وقل: الضمير راجع إلى الأمر الذي دل عليه ﴿أَطِيعُواْ﴾ وأصل تولوا تتولوا بتائين.

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم تسمعون كلامه الداعي إلى وجوب طاعته، وموالاته، ونصره في جهاده، ولا شك أن المراد بالسماع هنا: سماع

---

(١) الفتوحات والبحر المحيط.

الفهم والتصديق بما يُسمَع كما هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمعنى: وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج، والبراهين، وتصدقون بها، ولستم كالصم البكم ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ بأسلنتهم ﴿سَمِعْنَا﴾ دعوتك ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: لا يتعظون، ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن، والمواعظ؛ أي: قالوا بألسنتهم: إنا قبلنا تكاليف الله تعالى، والحال: أنهم لا يقبلونها بقلوبهم، وهم المشركون، أو المنافقون، أو اليهود، أو الجميع من هؤلاء، فإنهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل، فهم كالذي لا يسمع أصلاً، لأنهم لم ينتفعوا بما سمعوا.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابة، وهي كل ما دب على الأرض، وقل أن يستعمل في الإنسان، بل الغالب أن يستعمل في الحشرات، ودواب الركوب، فإذا استعمل في الإنسان كان ذلك في موضع الاحتقار؛ أي: إن شر ما دب على الأرض وأقبحه وأخسه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: في حكم الله وقضائه هم ﴿ٱلصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطقون به، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يعرفون ما فيه النفع لهم، فيأتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه، فهم شر الدواب عند الله تعالى، لأنها تميز بعض تمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها، والمعنى: إن شر الدواب في حكم الله وقضائه هم الصم الذين لا يصغون بأسماعهم ليعرفوا الحق، ويعتبروا بالموعظة الحسنة، فهم بفقدهم لمنفعة السمع كانوا كأنهم فقدوا حاسته، البكم الذين لا يقولون الحق ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا النطق الذين لا يعقلون الفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، إذ هم لو عقلوا لطلبوه واهتدوا إلى ما فيه المنفعة والفائدة لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

والخلاصة: أنهم حين فقدوا منفعة السمع والنطق والعقل.. كانوا كأنهم فقدوا هذه المشاعر والقوى بأن خلقوا خداجاً ناقصي هذه المشاعر، أو طرأت

عليهم آفات أذهبت هذه القوىٰ بل هم شرٌ منهم لأن هذه المشاعر، خلقت لهم، فأفسدوها على أنفسهم، إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله حين التكليف، وفي الآية غاية الذم لهم بأنهم أشر من الكلب، والخنزير، والحمير.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: سعادة ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعاً ينتفعون به ويتعقلون عنده الحجج والبراهين، والمعنى: ولو علم الله فيهم خيراً أي استعداداً للايمان، والهداية بنور النبوة، ولم يفسد قبس الفطرة سوء القدوة، وفساد التربية... لأسمعهم بتوفيقه الكتاب والحكمة سماع تدبر وتفهم، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، فهم ممن ختم الله على قلوبهم، وأحاطت بهم خطاياهم.

قال الزجاج: ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ جواب كل ما سألوا عنه، وقيل: ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم؛ لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب، وغيره، ليشهدوا بنبوة محمد ﷺ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى الحجج والبراهين سماع تفهم، وقد علم أنه لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ عن قبولها وأعرضوا عن إذعانها. ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنها قبل ذلك؛ أي: لتولوا عن القبول، والإذعان، والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به، كراهية وعناداً للداعي إليه، ولأهله، فقد فقدوا الاستعداد لقبول الحق، والخير، فقداً تاماً لا فقداً عارضاً موقوتاً.

واعلم: أن للسماع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الاهتداء بكتابه:

١ ـ أن يتعمد من يتلى عليه أن لا يسمعه مبارزة له بالعدوان بادىء ذي بدء خوفاً من سلطانه على القلوب أن يغلبهم.

٢ ـ أن يستمع، وهو لا ينوي أن يفهم ويتدبر، كالمنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾.

٣ ـ أن يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض، كما كان يفعل

المعاندون من المشركين وأهل الكتاب، وقت التنزيل وفي كل حين إذا استمعوا إلى القرآن أو نظروا فيه.

٤ ـ أن يسمع ليفهم ويتدبر ثم يحكم له أو عليه، وهذا هو المنصف، وكم من السامعين أو القارئين آمن من بعد أن نظر، وتأمل، فقد نظر طبيب فرنسي في ترجمة القرآن، فرأى أن كل النظريات الطبية التي فيه كالطهارة والاعتدال في المآكل، والمشارب، وعدم الإسراف فيهما، ونحو ذلك من المسائل التي فيها محافظة على الصحة، توافق أحدث النظريات التي استقر عليها رأي الأطباء، في هذا العصر، فرغب في هذا كله وأسلم.

وكثير من المسلمين يستمعون القراء، ويتلون القرآن، فلا يشعرون بأنهم في حاجة إلى فهمه وتدبر معناه، بل يستمعونه للتلذذ بتجويده، وتوقيع التلاوة على قواعد النغم، أو يقصدون بسماعه التبرك فقط، ومنهم من يحضر الحفاظ عنده في ليالي رمضان، ويجلسهم في حجرة البوابين أو غيرهم من الخدم تشبهاً بالأكابر والوجهاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: صدقوا الله ورسوله ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ أي: أجيبوا الله والرسول بحسن الطاعة، والانقياد، فاستجاب هنا بمعنى أجاب، لأن السين والتاء فيه زائدتان، وإن كان استجاب يتعدى باللام، وأجاب بنفسه كما أن قوله: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ وقد يتعدى استجاب بنفسه، كما في قول الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيْبُ إِلَىٰ ٱلنَّدَىٰ ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيْبُ

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول محمد ﷺ؛ وإنما أفرد الضمير لأن استجابة الرسول استجابة لله تعالى، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد، وأخرج البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال ﷺ: «ألم يقل الله: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم»، ثم ذكر الحديث.

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج على أبيّ بن كعب

وهو يصلي فقال رسول الله ﷺ: «يا أُبي» فالتفت أُبي ولم يجبه، وصلى أبي، وخفف ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وعليك السلام، ما منعك يا أُبيّ أن تجيبني إذ دعوتك»، فقال: يا رسول الله، إنّي كنت في الصلاة فقال ﷺ: «أفلم تجد فيما أوحي إليَّ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله تعالى، وذكر الحديث. وقال: حديث حسن صحيح.

قيل[1]: هذه الإجابة مختصة بالنبي ﷺ، فعلى هذا ليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر، وقيل: لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير.. فله أن يقطع صلاته.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: لما فيه حياتكم من علوم الديانات والشرائع، لأن العلم حياة، كما أن الجهل موت، قال الشاعر:

لاَ تَعْجَبَنَّ ٱلْجَهُوْلَ حُلَّتُهُ فَذَاكَ مَيْتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ

قال[2] السدي: هو الإيمان لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان، وقال قتادة: هو القرآن لأنه حياة القلوب، وفيه النجاة والعصمة في الدارين، وقال مجاهد: هو الحق، وقال محمد بن إسحاق: هو الجهاد لأن الله أعزه به بعد الذل، وقيل: هو الشهادة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

والمعنى[3]: أن الرسول ﷺ إذا دعاكم بأمر ربكم لما فيه حياتكم الروحية من علم بسننه في خلقه، ومن حكمة وفضيلة، ترفع نفس الإنسان وترقى بها إلى مراتب الكمال، حتى تحظى بالقرب من ربها، وتنال رضوانه في الدار الآخرة... فأجيبوا دعوته بقوة وعزم كما قال في آية أخرى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ وطاعته ﷺ واجبة في حياته، وبعد مماته، فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمور الدين الذي بعثه الله به، كبيانه لصفة الصلاة، وعددها، قولاً أو فعلاً

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

فقد صلى بأصحابه وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، وقال: «خذوا عني مناسككم». وكبيانه لمقادير الزكاة وغيرها من السنن العملية المتواترة، وأقواله كذلك، فكل من ثبت عنده شيء منها ببحثه أو ببحث العلماء الذين يثق بهم.. وجب عليه الاهتداء به، أما الإرشادات النبوية في أمور العادات كاللباس، والطعام، والشراب، والنوم.. فلم يعدها أحد من الأئمة ديناً يجب الاقتداء به فيه.

ويستدل[1] بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله، أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية، أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان، ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال، وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة، وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾؛ أي: يحول بين المرء وبين ما يريده بقلبه، فإن الأجل يحول دون الأمل، فكأنه[2] قال تعالى: بادروا إلى الأعمال الصالحة، ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع طول البقاء فإن ذلك غير موثوق به، وقال مجاهد: المراد بالقلب هنا العقل؛ أي: فإن الله تعالى يحول بين المرء وعقله.

والمعنى: فبادروا إلى الأعمال، وأنتم تعقلون، فإنكم لا تأمنون زوال العقل، والله يحول بين المرء الكافر وطاعته، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته، والقلوب بيد الله، يقلبها كيف يشاء، وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ولا يستطيعون المرء أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه تعالى.

والمعنى[3]: أنه تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء والقادر على

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراح.
(٣) البحر المحيط.

الحيلولة بين الإنسان وبين ما يشتهيه قلبه، فهو الذي ينبغي أن يستجاب له إذا دعا، إذ بيده تعالى ملكوت كل شيء، وزمامه، وفي ذلك حض على المراقبة، والخوف من الله تعالى والبدار إلى الاستجابة له، وقال مجاهد: يحول بين المرء وعقله، فلا يدري ما يعمل عقوبة على عناده، وقال السدي: يحول بين كل واحد، وقلبه فلا يقدر على إيمان ولا كفر إلا بإذنه، وقيل: غير ذلك، وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿بين المرء﴾ بكسر الميم اتباعاً لحركة الإعراب، إذ في المرء لغتان فتح الميم مطلقاً، وإتباعها حركة الاعراب، وقرأ الحسن، والزهري: ﴿بين المرِّ﴾ بتشديد الراء من غير همز، ووجهه: أنه نقل حركة الهمزة إلى الراء، وحذف الهمزة، ثم شدها كما تشدد في الوقف، وأجرى الوصل مجرى الوقف ﴿و﴾ اعملوا ﴿أنه﴾؛ أي: أن الشأن ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿تُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة للجزاء على أعمالكم، فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم، فسارعوا إلى طاعة الله ورسوله ﷺ.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ أي بلية؛ أي: واحذروا سبب بلية إن أصابتكم ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ خطاب للمؤمنين جميعاً صلحائهم وغيرهم، والمراد بالفتنة العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء وتسليط الظلمة، وغير ذلك؛ أي[1]: واحذروا أيها المؤمنون فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تتعدى إليكم جميعاً، وتصل إلى الصالح والطالح، واتقاء تلك الفتنة بالنهي عن المنكر، فالواجب على كل من رآه أن يزيله إذا كان قادراً على ذلك، فإذا سكت عليه فكلهم عصاة، هذا بفعله وهذا برضاه، وقد جعل الله تعالى الراضي بمنزلة العامل، فانتظم في العقوبة. وعلامة الرضا بالمنكر: عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له إلا إذا تألم له تألمه لفقد ولده، أو ماله، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار، وعبارة المراغي هنا: وبعد أن أمرنا الله سبحانه بتلك الأوامر، ونهانا عن النواهي التي تخص أعمال الإنسان الاختيارية أمرنا أن نتقي الفتن الاجتماعية، التي لا تخص الظالمين، بل تتعداهم إلى غيرهم، وتصل

---

(١) المراح.

إلى الصالح والطالح فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾؛ أي: اتقوا وقوع الفتن التي لا تختص إصابتها بمن يباشرها وحده بل تعمه وغيره، كالفتن القومية التي تقع بين الأمم في التنازع على المصالح العامة من الملك والسيادة، أو التفرق في الدين والشريعة، والانقسام إلى الأحزاب الدينية، والأحزاب السياسية، ونحو ذلك من ظهور البدع، والتكاسل في الجهاد، وإقرار المنكر الذي يقع بين أظهرهم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، ونحو ذلك من الذنوب التي جرت سنة الله تعالى أن تعقاب عليها الأمم في الدنيا قبل الآخرة، وروي عن ابن عباس قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب. وقال عدي بن عميرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك.. عذب الله الخاصة والعامة» وقال البيضاوي: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾؛ أي: اتقوا ذنباً يعمكم أثره، كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد انتهى.

وروى البخاري والترمذي «أن الناس إذا رأوا الظالم، ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده» وفي مسلم من حديث زينب بنت جحش، سألت رسول الله ﷺ: «أنهلك وفينا الصالحون، قال: نعم إذا كثر الخبث».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به» متفق عليه.

فإن قلت[1]: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ يشمل الظالم وغير الظالم، كما تقدم تفسيره، فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة إلى من لم يذنب؟

---

(١) الخازن.

قلتُ: إنه تعالى مالك الملك، وخالق الخلق، وهم عبيده وفي ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية، أو لأنه تعالى علم اشتمال ذلك على أنواع من أنواع المصلحة، والله أعلم بمراده.

وقرأ ابن[١] مسعود وعلي، وزيد بن ثابت، والباقر، والربيع بن أنس، وأبو العالية ﴿لتصيبن﴾ وفي ذلك وعيد للظالمين فقط، وعلى هذا التوجيه خرج ابن جني قراءة الجماعة ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ وحكى النقاش عن ابن مسعود، أنه قرأ ﴿فتن أن تصيب﴾ ﴿وَاعْلَمُوٓا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: شديد عقابه للأمم، والأفراد، التي خالفت سننه التي لا تبديل لها ولا تحويل، أو خالفت هدى دينه المزكي، للأنفس المطهر للقلوب، ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه، والمعنى: الزموا الاستقامة خوفاً من عذاب الله تعالى، وهذا العقاب[٢] منه ما هو في الدنيا، وهو مطرد في الأمم وقد أصيبت به الأمة الإسلامية في القرن الأول الذي كان أهله خير القرون بعده، إذ قصروا في درء الفتنة الأولى، فعاقبهم الله عقاباً شديداً على ذلك، ثم تسلسل العقاب في كل جيل وقع فيه ذلك، ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية على الملك والسلطان، حتى زالت الخلافة التي تنافسوا فيها وتقاتلوا لأجلها.

وقد يقع هذا العقاب للأفراد، لكنهم ربما لا يشعرون به، لأنه يقع تدريجياً، فلا يكاد يحس به، وأما العقاب الأخروي فأمره الله إلى العالم بالسر والنجوى، والذي جعل العقاب آثاراً طبيعية للذنوب التي تجترحها الأفراد والأمم.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ خطاب للمهاجرين يذكرهم فيه سبحانه بما كان من ضعفهم وقلتهم، وقد يكون الخطاب للمؤمنين عامة في عصر التنزيل، يذكرهم فيه بما كان من ضعف أمتهم العربية في الجزيرة بين الدول القوية من فارس والروم.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

أي: واذكروا يا معشر المهاجرين ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ في العدد في أول الإسلام ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مقهورون في أرض مكة ﴿تَخَافُونَ﴾ من مبدأ الإسلام إلى حين الهجرة إذا خرجتم من البلد ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: أن يأخذكم مشركو العرب من قريش وغيرها، بسرعة لشدة عداوتهم لكم، ولقربهم منكم، والمراد أن ينتزعوكم بسرعة، فيفتكوا بكم كما كان يتخطف بعضهم بعضاً في خارج الحرم، وتتخطفهم الأمم من أطراف جزيرتهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ﴿فـأواكـم﴾ وضمكم أيها المهاجرون إلى الأنصار ونقلكم إلى المدينة فصرتم آمنين من كفار مكة، ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ وإياهم؛ أي: قواكم ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى إياكم في بدر، وفي سائر غزواتكم، ويؤيدكم على من سواكم من فارس والروم، وغيرهما كما وعدكم بذلك في كتابه الكريم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من الغنائم وغيرها، وكانت محرمة على من كان قبل هذه الأمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم العظيمة؛ أي: رجاء أن تشكروا هذه النعم وغيرها مما يؤتيكم من فضله كما وعد في كتابه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ الآية. قال كان هذا الحي أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً وأبينه ضلالةً معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم، لا والله ما في بلادهم ما يحسدون عليه من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون، لا والله ما نعلم قبيلاً من حاضر الأرض يومئذ كان أشر منهم منزلاً حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من نعم الله عز وجل.

وفي الآية من العبرة التي يجب على المؤمنين أن يتذكروها أنه أورث من اهتدى بهديه سعادة الدنيا وبسطة السلطان، ومكن لأهله في الأرض، وأنالهم ما لم يكونوا يرجونه لولا هدى الدين، وأورثهم في الآخرة فوزاً ورضواناً من ربهم وروحاً، وريحاناً، وجنة نعيم.

هذا حين كانوا يعملون بهديه، فلما أعرضوا عنه، ونأوا بجانبهم، عاقبهم الله بما جرت به سننه في الأرض، فأضاعوا ملكهم، وسلط عليهم أعداءهم، فليعتبر المسلمون بما حل بهم، وليرجعوا إلى تاريخ أسلافهم، وليستضيؤوا بنورهم، وليتوبوا إلى رشدهم، لعله يعيد إليهم تراثهم الغابر، وعزهم الماضي ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى[1] فتعطلوا فرائضه، أو تتعدوا حدوده، وتنتهكوا محارمه التي بينها لكم في كتابه، ﴿و﴾ لا تخونوا ﴿الرسول﴾ محمداً ﷺ فترغبوا عن بيانه لكتابه إلى بيانه بأهوائكم، أو أراء مشايخكم، أو آبائكم، أو أوامر أمرائكم، أو ترك سنته إلى سنة آبائكم وزعمائكم زعماً منكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم، ﴿و﴾ لا ﴿تخُونوا أَماناتِكُم﴾ فيما بين بعضكم وبعض آخر منكم من المعاملات المالية، وغيرها حتى الشؤون الأدبية، والاجتماعية، فإفشاء السر خيانة محرمة، ويكفي في العلم بكونه سراً قرينة قولية كقول محدثك: هل يسمعنا أحد، أو فعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجيء، وآكد الأمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين، كذلك لا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولي الأمر من شؤون سياسية أو حربية، فتطلعوا عليها عدوكم، وينتفع بها في الكيد لكم، وقرأ مجاهد ﴿أمانتكم﴾ بالإفراد، والمراد الجمع.

والخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين، قال أنس بن مالك: قلما خطب رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا عهد له» رواه الإمام أحمد.

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

---

(١) المراغي.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم تعلمون مفاسد الخيانة، وتحريم الله إياها وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة، وقد يكون المعنى: وأنتم تعلمون أنَّ ما فعلتموه خيانة لظهوره، فإن خفي عليكم حكمه، فالجهل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين ضرورة، أو مما يعلم ببداهة العقل، أو باستفتاء القلب، كفعلة أبي لبابة التي كان سببها الحرص على المال والولد، ومن ثم فطن لها قبل أن يبرح مكانه، ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ عظيمةٌ مانعةٌ لكم عن أمور الآخرة؛ أي: محنة يظهر بها ما في النفس من اتباع الهوى، أو تجنبه، ولذلك مال أبو لبابة إلى قريظة في إطلاعهم على حكم سعد، لأنَّ ماله وولده كان فيهم؛ أي:[1] إن فتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تخفى على ذوي الألباب، إذ أموال الإنسان عليها مدار معيشته، وتحصيل رغائبه، وشهواته، ودفع كثير من المكاره عنه من أجل ذلك يتكلف في كسبها المشاق، ويركب الصعاب ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام، ويرغبه في القصد والاعتدال ويتكلف العناء في حفظها، وتتنازعه الأهواء في انفاقها، ويفرض عليه الشارع فيها حقوقاً معينةً، وغير معينة كالزكاة، ونفقات الأولاد، والأزواج وغيرها وأما الأولاد فحبهم مما أودع في الفطرة، فهم ثمرات الأفئدة وأفلاذ الأكباد لدى الآباء والأمهات، ومن ثم يحملهما ذلك على بذل كل ما يستطاع بذله في سبيلهم من مال، وصحة، وراحة، وقد روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة».

فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الذنوب والآثام في سبيل تربيتهم، والإنفاق عليهم، وتأثيل الثروة لهم، وكل ذلك قد يؤدي إلى الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق، أو الأمة، أو الدين، وإلى البخل بالزكاة،

---

(١) المراغي.

والنفقات المفروضة، والحقوق الثابتة، كما يحملهم ذلك على الحزن على من يموت منهم بالسخط على المولى والاعتراض عليه، إلى نحو ذلك من المعاصي كنوح الأمهات، وتمزيق ثيابهن، ولطم وجوههن، وعلى الجملة: ففتنة الأولاد أكثر من فتنة الأموال، الرجل يكسب المال الحرام، ويأكل أموال الناس بالباطل، لأجل الأولاد.

فيجب على المؤمن أن يتقي الفتنتين، فيتقي الأولى بكسب المال من الحلال، وإنفاقه في سبيل البر، والإحسان، ويتَّقي خطر الثانية من ناحية ما يتعلق منها بالمال، ونحوه بما يشير إليه الحديث، ومن ناحية ما أوجبه الدين من حسن تربية الأولاد، وتعويدهم الدين والفضائل، وتجنيبهم المعاصي والرذائل.

﴿و﴾اعلموا أيها المؤمنون ﴿أن الله﴾ سبحانه وتعالى: ﴿عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وثواب جسيم، فعليكم أن تؤثروا ما عند ربكم من الأجر العظيم، بمراعاة أحكام دينه، في الأموال والأولاد على ما عساه قد يفوتكم في الدنيا من التمتع بهما، فإنَّ سعادة الآخرة، وهو ثواب الله تعالى، خير من سعادة الدنيا، وهو المال والولد؟ لأن سَعَادَة الآخرة لا نهاية لها، ولا انقضاء، وسعادة الدنيا تفنى وتنقضي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: إن تمتثلوا أوامر الله وتجتَنبُوا نواهيه ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾؛ أي: نجاة مما تخافون في الدارين، أو يجعل لكم نوراً، وتوفيقاً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل، وقال مجاهد: يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة، وقال مقاتل: مخرجاً في الدين من الشبهات، وقال عكرمة: نجاة، أي: يفرق بينكم وبين ما تخافون، وقال محمد بن إسحاق: فصلاً بين الحق والباطل، يظهر الله به حقكم، ويطفىء باطل من خالفكم، وقيل: يفرق بينكم وبين الكفار، بأن يظهر دينكم ويعليه، ويبطل الكفر ويوهنه، أو نصراً، لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الكفر بإذلال حزبه، والإسلام بإعزاز أهله، أو بياناً وظهوراً في أقطار الأرض ﴿وَيُكَفِّرْ

عَنكُمْ﴾؛ أي: يمح[1] عنكم ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ أي: الصغائر منها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ أي: يستر لكم الكبائر منها ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: ذو المن والعطاء الجسيم على عباده بالمغفرة والجنة، أو المعنى: ﴿يكفر عنكم سيئاتكم﴾؛ أي: يسترها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ أي: يزلها في الآخرة، وفي «الصاوي»: قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ عطف مرادفٌ على ما قبله، انتهى وفي «البحر»: وإنما تغاير الظرفان لئلا يلزم التكرار ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ لأنه هو الذي يفعل ذلك بكم، فله الفضل العظيم عليكم، وعلى غيركم من خلقه، ومن كان كذلك فإنه إذا وعد بشيء وفى به، قيل: إنه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات، ويتفضل على العاصين بغفران السيئات، وقيل: معناه إن بيده الفضل العظيم، فلا يطلب من عند غيره.

وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ إيماء[2] وتنبيه إلى أنَّ ما وعد به المتقين من المثوبة فضل منه وإحسان، تفضل به علينا بدون واسطة، وبدون التماس عوض.

الإعراب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات ﴿أي﴾ من الإضافة، وجملة النداء مستأنفة ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿لَقِيتُمُ الَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

﴿زَحْفًا﴾ حال من المفعول به وهو الذين فهو مصدر مؤول بمشتق تقديره: حال كونهم زاحفين، ﴿فلا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إذا﴾، وجوباً لكون الجواب جملة طلبية ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة جواب إذ لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا جواب النداء، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو: استئنافية ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿يُوَلِّهِمْ﴾ فعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يُوَلِّهِمْ﴾ ﴿يوم﴾ مضاف ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر، مضاف إليه، مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين ﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ إما منصوب على الاستثناء من ضمير المؤمنين؛ أي: ومن يولهم إلا رجلاً منهم ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ أو متحيزاً أو حال من فاعل ﴿يُوَلِّهِمْ﴾ ﴿لِّقِتَالٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ واللام فيه للتعليل ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ معطوف عليه ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُتَحَيِّزًا﴾.

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب مقروناً بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿بَآءَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً، لا محل لها من الإعراب، ﴿بِغَضَبٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بَآءَ﴾ أو حال من فاعله، والباء فيه للملابسة؛ أي ملتبساً ومصحوباً بغضب ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿بَآءَ﴾، ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه، ﴿جَهَنَّمُ﴾ خبره، ولم ينون للعلمية، والتأنيث المعنوي، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿بَآءَ﴾ على

كونها جواباً لـ﴿من﴾ الشرطية ﴿وَبِئْسَ﴾ الواو: استئنافية ﴿بئس المصير﴾ فعل وفاعل، وهو من أفعال الذم، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي، وهو مبتدأ، خبره جملة ﴿بئس﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَلَمْ﴾ ﴿الفاء﴾[(١)] فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره، إن افتخرتم بقتلهم، وأردتم بيان حقيقة الأمر فيهم، فأقول لكم: أنتم لم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم، لأنه هو الذي أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء لكم النصر والظفر، وقوى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع كما ذكره الزمخشري ﴿لم تقتلوهم﴾ جازم وفعل وفاعل ومفعول والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: عاطفة ﴿لكن﴾ حرف نصب واستدراك، ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿قَتَلَهُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله، ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾ وجملة ﴿لكن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لم تقتلوهم﴾ على كونها مقولاً لجواب إذاً المقدرة، ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿رَمَيْتَ﴾ فعل، وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فلم تقتلوهم﴾، وصح العطف عليها؛ لأن[(٢)] المضارع المنفي بـ﴿لم﴾ في قوة الماضي المنفي بما، فإنك إذا قلت: لم يقم كان معناه، ما قام ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية ﴿رَمَيْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿رميت﴾؛ أي: وما رميت الرعب والهزيمة في قلوبهم، وقت رميك إياهم بالحصى ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الواو: عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ونصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿رَمَىٰ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿وَمَا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفتوحات.

رَمَيۡتَ﴾. ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾ الواو: عاطفة ﴿ليبلي﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿يبلي﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مفعول أول، ﴿مِنۡهُ﴾ متعلق بـ﴿يبلى﴾ ﴿بَلَآءً﴾ مفعول ثان ﴿حَسَنًاۚ﴾ صفة له. قال الزمخشري؛ أي: وليعطي المؤمنين من عنده عطاءً جميلاً، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولإبلائه المؤمنين منه بلاءً حسناً، الجار والمجرور معطوف على علة محذوفة تقديره، ولكن الله رمى، وفعل بالكفار ما فعل لمحق الكافرين، ولإبلائه المؤمنين منه بلاءً حسناً، كما أشرنا إليه في مبحث التفسير. ﴿إِنَّ﴾ حرف مشبه بالفعل ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها منصوب ﴿سَمِيعٌ﴾ خبرها مرفوع و﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثان مرفوع.

﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨﴾.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ مبتدأ وخبره محذوف جوازاً تقديره ذلكم الإبلاء، والقتل والرمي حق، والجملة مستأنفة، ﴿وَأَنَّ﴾ الواو: عاطفة ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿مُوهِنُ﴾ خبرها ﴿كَيۡدِ﴾ بالجر مضاف إليه، وبالنصب مفعول ﴿مُوهِنُ﴾. ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مضاف إليه وجملة أن في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ خبره محذوف تقديره: وتوهين الله كيد الكافرين، حق، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، ويجوز أن تكون جملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم المحذوف تقديره: واعلموا توهين الله كيد الكافرين.

﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾.

﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿فَقَدۡ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية، وجوباً لكون الجواب مقروناً بـ﴿قد﴾ ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿فَهُوَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية ﴿هو خير﴾ مبتدأ وخبر ﴿لَّكُمۡۖ﴾ متعلق بـ﴿خَيۡرٞ﴾، والجملة الاسمية في محل

الجزم جواب إن الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿نَعُدْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى، ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لن﴾ حرف نصب ﴿تُغْنِيَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿لن﴾ ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق به ﴿فِئَتُكُمْ﴾ فاعل، ومضاف إليه ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿نَعُدْ﴾ ﴿وَلَوْ﴾ الواو: عاطفة ﴿لو﴾ حرف شرط ﴿كَثُرَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الفئة، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ وجوابها محذوف تقديره: فلن تغنى عنكم، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة محذوفة تقديره، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً إن وجدت ولو كثرت ﴿وأَنَّ﴾ الواو: استئنافية ﴿أنّ﴾ حرف نصب ﴿اللَّهَ﴾ اسمها ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خبرها، وجملة ﴿إن﴾ في تأويل مصدر ساد من مفعولي علم المحذوف تقديره: واعلموا كون الله مع المؤمنين بالنصر والإمداد، والجملة مستأنفة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أي﴾ منادي نكرة مقصودة ﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿الَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فعل وفاعل، ومفعول ﴿وَرَسُولَهُ﴾ معطوف على الجلالة والجملة جواب النداء ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَطِيعُوا﴾ ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ﴿تَوَلَّوْا﴾ ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَسْمَعُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَوَلَّوْا﴾. ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ جازم وفعل ناقص واسمه ﴿كَالَّذِينَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ ﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿سَمِعْنَا﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوا﴾ وان شئت قلت: ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ وجملة ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل

النصب حال من واو: ﴿قَالُوا﴾.

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ اسم ﴿إن﴾ ومضاف إليه، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿شَرَّ﴾، ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ﴾ كل من الثلاثة خبر المبتدأ كقولهم: الرمان حلو حامض، وجملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة. ﴿وَلَوْ﴾ الواو: استئنافية ﴿لو﴾ حرف شرط ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿فِيهِمْ﴾ متعلق بـ﴿عَلِمَ﴾ ﴿خَيْرًا﴾ مفعول به ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ حرف شرط وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَتَوَلَّوا﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب لو الشرطية ﴿تولوا﴾ فعل وفاعل والجملة جواب ﴿لو﴾ وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الأولى ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تولوا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ منادى نكرة مقصودة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة ﴿ءَامَنُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿ٱسْتَجِيبُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ﴿ٱسْتَجِيبُوا﴾ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ معطوف على الجار، والمجرور قبله ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿دَعَاكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الرسول﴾ وجملة ﴿دعا﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها والظرف متعلق بالجواب المحذوف، تقديره: إذا دعاكم لما يحييكم.. استجيبوا لله وللرسُول ﴿لِمَا﴾ جار

ومجرور متعلق بـ﴿دعا﴾ ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها ﴿وَاعْلَمُوا﴾ فعل وفاعل، والجلمة معطوفة على جملة ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿يَحُولُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ ظرف ومضاف إليه، ﴿وَقَلْبِهِ﴾ معطوف على ﴿الْمَرْءِ﴾ والظرف متعلق بـ﴿يَحُولُ﴾، وجملة ﴿يَحُولُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: واعلموا حيلولة الله بين المرء وقلبه، ﴿وَأَنَّهُ﴾ ناصب واسمه ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وجملة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: وحشركم إليه تعالى.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿وَاتَّقُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ على كونها جواب النداء ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول به ﴿لَا﴾ نافية ﴿تُصِيبَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على فتنة ﴿الَّذِينَ﴾ مفعوله، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾ ﴿ظَلَمُوا﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من واو ﴿ظَلَمُوا﴾ ﴿خَاصَّةً﴾ منصوب على الحال من الفاعل المستتر في قوله ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ وأصلها أن تكون صفة لمصدر محذوف تقديره إصابة خاصة كما في «السمين» ﴿وَاعْلَمُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره، واعلموا شدَّة عذاب الله تعالى.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ﴿اذكروا﴾ ﴿أَنتُمۡ﴾ مبتدأ ﴿قَلِيلٌ﴾ خبر والجلمة الاسمية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾ ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ صفة أولى لـ﴿قَلِيلٌ﴾ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق به، ﴿تَخَافُونَ﴾ فعل وفاعل، والجلمة في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿قَلِيلٌ﴾، ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿تَخَافُونَ﴾ تقديره: تخافون تخطف الناس إياكم، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿أواكم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة مفرعة على الجملة الاسمية، في قوله: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٌ﴾ على كونها مضافاً إليه لـ﴿إذ﴾ ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿أواكم﴾ ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أيدكم﴾ ﴿وَرَزَقَكُم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿أواكم﴾ ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿رزق﴾ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ معطوف على الجلالة ﴿وتَخُونُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على تخونوا الأول ﴿أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَأَنتُمۡ﴾ مبتدأ وجملة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿تَخُونُوٓاْ﴾ ومفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ محذوف تقديره: وأنتم تعلمون أن ما وقع منكم خيانة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تَخُونُوٓاْ﴾ على كونه جواب النداء، ﴿أَنَّمَآ﴾ ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب و﴿ما﴾ كافة لكفها ما قبلها عن العمل، فيما بعدها

﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَوْلَٰدُكُمْ﴾ معطوف عليه﴿فِتْنَةٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم تقديره: واعلموا كون أموالكم وأولادكم فتنة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿عِندَهُۥٓ﴾ ظرف ومضاف إليه خبر مقدم ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة لأجر، وجملة المبتدأ والخبر، في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أَنَّمَآ﴾ على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾ تقديره وكون أجر عظيم عند الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ منادى نكرة مقصودة، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صلة الموصول ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ جازم وفعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿يَجْعَل﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿فُرْقَانًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿وَيُكَفِّرْ﴾ معطوف على ﴿يَجْعَل﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق به ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿وَيَغْفِرْ﴾ معطوف على يجعل وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ﴾ خبر ومضاف إليه، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ﴿ٱلْفَضْلِ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿زَحْفًا﴾ من زحف[1] إذا مشى على بطنه كالحية، أو دبَّ على مقعده، كالصبي، أو على ركبتيه، أو مشى بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف صغار الجراد، والعسكر المتوجه إلى العدوِّ لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه

(١) المراغي.

يزحف، إذ الكل يرى كجسم واحد متصل، فتحس حركته بطيئة، وإن كانت في الواقع سريعة، وفي «المصباح» زحف القوم زحفاً من باب نَفَعَ وزحوفاً، ويطلق على الجيش الكثير، زحف تسمية بالمصدر، والجمع زحوف مثل فلس وفلوس، والصبي يزحف على الأرض قبل أن يمشي، وزحف البعير إذا أعيا فجر فرسنه، وأزحف بالألف، ومنه قيل: زحف الماشي، وأزحف أيضاً إذا أعيا. انتهى.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾: جمع دبر، وهو الخلف، ومقابله القُبل، ومن ثم يكنى بهما عن السؤتين، وتولية الدبر والأدبار، يراد بهما الهزيمة، لأن المنهزم يجعل خصمه متوجهاً إلى دبره ومؤخره، وفي «الجمل»[1]: يطلق الدبر على مقابل القُبل، ويطلق على الظهر، وهو المراد هنا، والمقصود ملزوم تولية الظهر، وهو الانهزام، فهذا اللفظ استعمل في ملزوم معناه. انتهى.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾؛ أي: لأجل التمكن من القتال، والمتحرف للقتال أو غيره: هو المنحرف عن جانب إلى آخر من الحرف، وهو الطرف ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ والمتحيز[2] المنضم إلى جانب، وقال أبو عبيدة: التحيز، والتحوز، التنحي والتحوز الانضمام، وقال الليثُ: ما لك متحوزاً إذا لم تستقر على الأرض، وأصله: من الحوز وهو الجمع، يقال: حزته في الطرس، فانحاز، وتحيز انضم، واجتمعَ، وتحوزت الحية انطوت واجتمعت، وسمي التنحي تحيزاً؛ لأنَّ المتنحي عَنْ جانب ينضم عنه، ويجتمع إلى غيره، وتحيز تفيعل أصله تحيوز اجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً، وأدغمت فيها الياء، وتحوز تفعل ضعفت عينه، ووزن[3] متحيز متفيعل، والأصل: متحيوز فاجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ والفئة: الطائفة من الناس ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ والمأوى: الملجأ الذي يأوي إليه الإنسان، ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ والرمي معروف، ويكون بالسهم، والحجر والتراب ﴿بَلَآءً﴾ هو اسم مصدر لأبلى يبلي إبلاءً وبلاءً، والمراد به هنا: المبلو به، أي:

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الفتوحات.

المعطى ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والموهن: المضعف من أوهنه إذا أضعفه، والكيد: التدبير الذي يقصد به غيرُ ظاهره، فتسوء عاقبة من يقصد به ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ والاستفتاح: طلب الفتح، والفصْلُ في الأمر كالنصر في الحرب.

﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الخيانة[1]: لغة تدل على الإخلاف والخيبة بنقص ما كان يرجى ويؤمل من الخائن، فقالوا: خانه سيفه إذا نبا عن الضربة، وخانته رجلاه إذا لم يقدر على المشي، ومنه قوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات، ثُمَّ استُعْمِل في ضد الأمانة والوفاء؛ لأن الرجل إذا خان الرجل فقد أَدْخل عليه النقصان، ﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ جمع أمانة، والأمانة كل حقٍّ مادي أو معنوي يجب عليك أداؤه إلى أهله، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾ والفتنة: الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه، أو قبوله أو إنكاره، فهي تكون في الاعتقاد والأقوال والأفعال، والأشياء، فيمتحن الله المؤمنين والكافرين، والصادقين والمنافقين، ويجازيهم بما يترتب على فتنتهم من اتباع الحق، أو الباطل، وعمل الخير أو الشر ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ وفي «المصباح» خطفه يخطفه من باب تعب استلبه بسرعة وخطفه خطفاً من باب ضرب لغة، واختطف وتخطف مثله، والخطفة مثل تمرة المَرَّة يقال لما اختطفه الذئب ونحوه من حيوان، هي خطفة تسمية بذلك اهـ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ التقوى: ترك الذنوب، والآثام، وفعل ما يستطاع من الطاعات، والواجبات الدينية، وبعبارة أخرى: هي اتقاء ما يضر الإنسان في نفسه، وفي جنسه، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة، والغايات الحسنة.

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ والفرقان أصله الفرق، والفصل بين الشيئين أو الأشياء، ويراد به هنا نور البصيرة الذي به يفرق بين الحق والباطل والضار والنافع،

---

(١) المراغي.

وبعبارة ثانية: هو العلم الصحيح والحكم الرجيح، وقد أطلق هذا اللفظ على التوراة والإنجيل، والقرآن، وغلب على الأخير قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ من قبل أن كلامه تعالى يفرق في العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، والعدل والجور، والخير والشر، والفرقان[1] في الأصل: مصدر فرق بين الشيئين؛ أي: حال بينهما. وقال ابن عباس وجماعة: ﴿فُرْقَانًا﴾؛ أي: مخرجاً في الدين من الضلال، وقال مزرد بن ضرار:

بَـادَرَ ٱلأُفْـقُ أَنْ يَـغِـيْـبَ فَـلَـمَّـا ... أَظْـلَـمَ ٱلـلَّـيْـلُ لَـمْ يَـجِـدْ فُـرْقَـانَـا

وقال الآخر:

مَـالَـكَ مِـنْ طُـوْلِ ٱلأَسَـىٰ فُـرْقَـانُ ... بَـعْـدَ قَـطِـيْـنٍ رَحَـلُـوْا وَبَـانُـوْا

وقال الآخر:

وَكَيْفَ أَرْجُوْ ٱلْخُلْدَ وَٱلْمَوْتُ طَالِبِي ... وَمَا لِيَ مِنْ كَأْسِ ٱلْمَنِيَّةِ فُرْقَانُ

أو مخرجاً من الشبهات، وتوفيقاً وشرحاً للصدور؛ أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة، ولفظ ﴿فُرْقَانًا﴾ مطلق، فيصلح لما يقع به فرق بين المؤمنين والكافرين في أمور الدنيا والآخرة.

والتقوى هنا: إنْ كانت من اتقاء الكبائر، كانت السيئات الصغائر، ليتغاير الشرط والجزاء، وتكفيرها في الدنيا ومغفرتها إزالتها في القيامة، وتغاير الظرفان لئلا يَلْزَمَ التكرار كما مَرَّ في بحث التفسير.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً وضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه البليغ في قوله ﴿زَحْفًا﴾ لأن المعنى[2] على التشبيه بالزاحفين

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

على أدبارهم في بطء السير، وذلك لأنَّ الجيش إذا كثر والتحم بعضه ببعض يتراءى أن سيره بطيء، وإن كان في نفسه سريعاً، فالمراد من هذه الحال بعد كون المراد التشبيه ما يلزم هذه المشابهة، وهو: الكثرة.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ لما فيه من إطلاق اللازم، وهو تولية الظهر، وإرادة الملزوم، وهو الانهزام، فكأنه قال: فلا تنهزموا.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ حيث عدل عن ذكر الظهر إلى الدبر تعريضاً[1] بسوء حالهم، وقبح فعالهم، وخساسة منزلتهم، بذكر ما يستهجن ذكره، وهو الدبر، وبعض البيانيين يسمي هذا بالإيماء، وبعضهم بالكناية، وهذا ليس بشيء فإن الكناية أن تُصرِّح باللفظ الجميل على المعنى القبيح. ذكره في التحرير.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ وفي قوله: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والجناس المغاير في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ وفي قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وفي وقوله: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ لأن الأصح أن يكون الخطاب للمشركين على سبيل التهكم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ لأنهم هم الذين وقع بهم الهلاك، والفتح وقع لغيرهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ لأنه كناية[2] عن كونه أقرب للشخص من قلبه لذاته، بل هو تعالى

(١) البحر المحيط. (٢) الصاوي.

أقرب من السمع للأُذن، ومن البصر للعين، ومن اللمس للجسد، ومن الشم للأنف، ومن الذوق للسان، فشبه القرب بالحيلولة، واستعير اسم المشبه به، وهو الحيلولة للمشبه وهو القرب، واشتق من الحيلولة ﴿يَحُولُ﴾ بمعنى يقرب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ لما فيه من إطلاق المسبب الذي هو المصائب والفتن، وإرادة السبب الذي هو الذنوب والمعاصي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٣٧) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٤٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية، مناسبة(١) هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر المؤمنين عامة بنعمه عليهم بقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. ذكر هنا نعمه على رسوله خاصة، بدفع كيد المشركين، ومكر الماكرين بنصره عليهم، وخيبة مسعاهم في إيقاع الأذى به بعد أن تآمروا عليه، وقطعوا برأي معين فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ...﴾

---

(١) المراغي.

مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما نفى عنهم أن يكونوا ولاة البيت.. ذكر من فعلهم القبيح، ما يؤكد ذلك، وأن من كانت صلاته ما ذكر لا يستأهل أن يكونوا أولياءه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما بيّن أحوال هؤلاء المشركين في الطاعات البدنية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.. أردف ذلك بذكر أحوالهم في الطاعات المالية.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما ذكر[3] الله سبحانه وتعالى ما يحل بهم من حشرهم إلى النار، وجعلهم فيها وخُسْرهم.. تلطف بهم، وأنهم إذا انتهوا عن الكفر، وآمنوا غفرت لهم ذنوبهم السالفة، وليس ثم ما يترتب على الانتهاء عنه غفران الذنوب سوىٰ الكفر، فلذلك كان المعنى أن ينتهوا عن الكفر.

وعبارة «المراغي» هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما بين حال من يصرّ على الكفر، والصد عن سبيل الله، وقتال رسوله والمؤمنين، وعاقبة أعمالهم في الدنيا والآخرة.. أردف ذلك ببيان من يرجعون عنه، ويدخلون في الإسلام، لأن الأنفس في حاجة إلى هذا البيان.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية، أجمع المفسرون على أن سبب نزول هذه الآية: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما بويع[4] رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وأمر أصحابه أن يلحقوا بالمدينة، أشفقت قريش أن يعلو أمره، وقالوا: والله لكأنكم به قد كر عليكم بالرجال، فاجتمع جماعة من

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) زاد المسير.

أشرافهم ليدخلوا دار الندوة فيتشاوروا في أمره، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ كبير، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا شيخ من أهل نجد، سمعت ما اجتمعم له، فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا من رأيي نصحاً، فقالوا: ادخل، فدخل معهم، فقالوا: انظروا في أمر هذا الرجل، فقال بعضهم: احبسوه في وثاق، وتربصوا به ريب المنون، فقال إبليس: ما هذا برأي يوشك أن يغضب له قومه، فيأخذوه من أيديكم، فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم، فتستريحوا من إيذائه لكم، فقال إبليس لا مصلحة لكم فيه، لأنه قد يجمع طائفة على نفسه، ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل: الرأي أن نجمع من كل قبيلة غلاماً، ثم نعطي كل غلام سيفاً فيضربوه به ضربة رجل واحد، فيفرق دمه في القبائل، فلا تقدر بنو هاشم على محاربة قريش كلها، فيرضون بأخذ الدية، فقال إبليس: هذا هو الرأي الصواب، فتفرقوا عن ذلك، وأتى جبريل رسول الله ﷺ، فأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت في مضجعه تلك الليلة، وأمر علياً فبات في مكانه، وبات المشركون يحرسونه، فلما أصبح رسول الله ﷺ أذن الله له في الخروج إلى المدينة، وجاء المشركون لما أصبحوا، فرأوا عليّاً فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره حتى بلغوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن عليه نسج العنكبوت، فأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة، يذكره نعمته عليه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية. ذكره ابن هشام في «سيرته» (١/ ٤٨٠- ٤٨٣) قال فيه، قال ابن إسحاق: حدثني به من لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، وغيره ممن لا أتهم عن عبد الله بن عباس، ورواه أحمد في «مسنده» رقم (٣٢٥١) مختصراً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وكان المقداد

(١) لباب النقول.

أسر النضر، فلما أمر بقتله، قال المقداد: يا رسول الله: أسيري، فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا. . .﴾» الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث.

وروى البخاري عن أنس قال: قال أبو جهل بن هشام: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ. . .﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت، ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ. . .﴾ الآية.

ولا مانع من أن الآية نزلت في هذا وهذا، وأنهما معاً كانا سبباً لنزول الآية. والله أعلم.

وأخرج[١] ابن جرير عن ابن أبزى، قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فخرج إلى المدينة، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وكان أولئك البقية من المسلمين، الذين بقوا فيها يستغفرون، فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ. . .﴾ الآية، فأذن في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ . . .﴾ الآية[٢]، سبب نزولها: أن قريشاً كانوا يطوفون بالبيت، ويصفقون، ويصفرون، ويضعون خدودهم بالأرض، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عمر.

وأخرج ابن جرير عن سعيد، قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في

---

(١) لباب النقول.

(٢) زاد المسير.

الطواف يستهزؤون به، ويصفرون، ويصفقون، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية، قال[1] ابن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمير بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن، قالوا: لما أصيب قريش يوم بدر، ورجعوا إلى مكة، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم فكلموا أبا سفيان ومن كان له من قريش في ذلك العير تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا أن ندرك منه ثأراً، ففعلوا، ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن عتيبة، قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين أربعين أوقية من ذهب. الأوقية اثنان وأربعون مثقالاً.

وأخرج[2] ابن جرير عن ابن أبزى، وسعيد بن جبير، قالا: نزلت في أبي سفيان، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش ـ أي من أخلاط القبائل ـ ليقاتل بهم رسول الله ﷺ.

التفسير وأوجه القراءة

أي: ﴿و﴾ اذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إذ يمكر﴾ ويحتال في إيقاع الضرر والهلاك ﴿بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك، وهذا تذكار لما مكرت قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله تعالى في خلاصه من مكرهم، واستيلائه عليهم؛ أي: واذكر نعمته تعالى عليك في ذلك الزمن القريب، الذي يمكر بك فيه قومك الذين كفروا بما يدبرون في السر من وسائل إيقاع الهلاك بك، فإن في ذلك القصص على

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

المؤمنين والكافرين في عهدك، ومن بعدك، لأكبر الحجج على صدق دعوتك، ووعد ربك بنصرتك؛ أي: واذكر لهم قصة إذ يمكرون بك، ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ في مكان، ويمنعوك من الحركة بالوثاق[١]، أو الحبس أو الإثخان بالجرح من قولهم: ضربه حتى أثبته لا حراك به، ولا براح، وقال ابن عباس ومجاهد: ليقيدوك وقيل: المعنى ليحبسوك، وقرأ النخعي ﴿ليبيتوك﴾ من البيات، وقرىء ﴿ليثبتوك﴾ بالتشديد ﴿أو﴾ لـ﴿يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم ﴿أَوْ﴾ لـ﴿يُخْرِجُوكَ﴾ من وطنك مكة، وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم، فزعوا، فاجتمعوا في دار الندوة، متشاورين في أمره كما سبق في أسباب النزول.

وحديث ذلك المكر الذي ترتبت عليه الهجرة إلى المدينة، وبها ظهر الإسلام، وخذل الشرك، روي من طرق عدة أقربها رواية ابن إسحاق وابن هشام في سيرتهما كما ذكرناها سابقاً، وهذه الآية مدنية كسائر السورة، وهو الصواب.

والخلاصة: أن كلمتهم قد اتفقت على إيقاع الأذى بك بإحدى ثلاث خصال: إما بالحبس الذي يمنعك من لقاء الناس، ودعوتهم إلى الإسلام، وإما بالقتل، بطريق لا يكون ضررها عظيماً عليهم، كما مر، وإما بالإخراج والنفي من الوطن ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بك، وبمن معك من المؤمنين؛ أي: يريدون إهلاككم من حيث لا تحتسبون؛ أي: إن دأبهم معك، ومع من اتبعك من المؤمنين، تدبير الأذى لكم دائماً، والله محيط بما دبروا لكم، فقد أخرجك من بينهم إلى دار الهجرة، ووطن السلطان، والقوة وكرر[٢] قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ إخباراً باستمرار مكرهم، وكثرته ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بهم؛ أي: ويرد الله سبحانه وتعالى عليهم مكرهم في نحورهم، وذلك بأن أخرجهم إلى بدر، وقلل المسلمين حتى حملوا عليهم، فلقوا ما لقوا، والمكر[٣] هو التدبير، وهو من الله تعالى التدبير بالحق، والمعنى:

---

(١) البيضاوي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الخازن.

إنهم احتالوا في إبطال أمر محمد ﷺ والله سبحانه وتعالى أظهره وقواه ونصره، فضاع فعلهم وتدبيرهم، وظهر فعل الله وتدبيره، وسمي[1] ما وقع منه تعالى من التدبير مكراً مشاكلة بما وقع منهم من المكر ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾؛ أي: أفضل المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم، فهو تعالى يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم، وأعظم بلاء من مكرهم، لأن مكره تعالى نصر للحق، وإعزاز لأهله، وخذلان للباطل وحزبه، وفي الآية: إيماء إلى أن هذه حالهم الدائمة في معاملته ﷺ ومن تبعه من المؤمنين.

ولما قص الله سبحانه وتعالى مكرهم في ذات محمد ﷺ.. قص علينا مكرهم في دين محمد ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: وإذا قرأت على هؤلاء الذين كفروا ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآنية الواضحة، لمن شرح الله صدره لفهمها ﴿قَالُوا۟﴾ جهلاً منهم، وعناداً للحق، وهم يعلمون أنهم كاذبون ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما قال محمد ﷺ من الآيات، أو قد سمعنا مثل ما قال محمد من التوراة والإنجيل، وقد تنازع هذا العامل مع قوله: ﴿لقلنا﴾ في قوله: مثل هذا ﴿لو نشاء﴾ القول ﴿لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ الذي تلي علينا محمد ﷺ ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا القرآن الذي تلاه محمد ﷺ علينا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلا أكاذيب الأولين، وأخبار الماضين، من القرون الخالية أي ما سطروه وكتبوه من القصص والأخبار.

والمعنى: ما هذا القرآن إلا ما كتب الأولون من القصص؛ أي: إنَّ أخبار القرآن عن الرسل، وأقوامهم تشبه قصص أولئك الأمم، فهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها، فما هي من خبر الغيب الدال على أنه وحي من الله، وقد كان النضر بن الحارث أول من قال هذه الكلمة، فقلده فيها غيره، لأنه كان يأتي الحيرة - بكسر الحاء بلدة بقرب الكوفة - يتجر، فيشتري كتب أخبار الأعاجم، ويحدث بها أهل مكة، ولكنهم لم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلقة، وأن محمداً هو الذي

---

(١) الشوكاني.

افتراها، إذ لم يكونوا يتهمونه بالكذب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لأنهم يعلمون أنه أمي لم يتعلم شيئاً، بل قالوا ذلك ليصدوا العرب عن القرآن، وقد كان زعماء قريش كالنضر بن الحارث، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، يتواصون بالإعراض عن سماع القرآن، ويمنعون الناس عنه خوفاً من استمالة الناس إليه، لما رأوا من شدة تأثيره وسلطانه على القلوب، حتى قال الوليد بن المغيرة: كلمته المشهورة: إنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه يحطم ما تحته.

﴿و﴾ اذكر يا محمد قصة ﴿إذ قالوا﴾؛ أي: قصة إذ قال هؤلاء الذين كفروا من قومك دعاء على أنفسهم ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ القرآن وما يدعو إليه محمد ﷺ من التوحيد ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ والصدق حالة كونه منزلاً ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ ليدين به عبادك كما يدعي محمد ﷺ ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾؛ أي: فأنزل علينا ﴿حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عقوبة على إنكارنا، قالوا هذه المقالة مبالغة في الجحود والإنكار ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: وجيع غير الحجارة، قاله النضر بن الحارث استهزاء، وقد أسره المقداد يوم بدر، فقتله النبي ﷺ، أو قاله أبو جهل وقد ذبحه ابن مسعود يوم بدر، وقرأ الجمهور: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب جعلوا ﴿هو﴾ فصلاً، وقرأ الأعمش، وزيد بن علي بالرفع، وهي جائزة في العربية، وفي هذا[1] إيماء إلى أنهم لا يتبعونه، وإن كان هو الحق المنزل من عند الله، بل يفضلون الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء، أو بعذاب أليم سوى ذلك كما أن فيه تهكماً وإظهاراً للحزم واليقين، بأنه ليس من عند الله، وحاشاه، ومنه يعلم أيضاً أن دعاءهم كفر وعناد، لا لأن ما يدعوهم إليه قبيح وضار.

روي أن معاوية قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال: أجهل من قومي قومك حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولم يقولوا: فاهدنا له.

---

(١) المراغي.

ثم قال: سبحانه وتعالى: بياناً للموجب لإمهالهم، والتوقف في إجابة دعائهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾؛ أي: وما كان من سنة الله تعالى، ولا من مقتضى رحمته وحكمته أن يعذبهم وأنت الرسول موجود مقيم فيهم؛ لأنه إنما أرسلك رحمة ونعمة، لا عذاباً ونقمة، فإنك ما دمت فيهم، فهم في مهملة من العذاب الذي هو الاستئصال مع أنه قد جرت سنته أيضاً أن لا يعذب أمثالهم من مكذبي الرسل وهم بين أظهرهم، بل كان يخرج الرسل أولاً، كما حدث لهود، وصالح، ولوط، وقرأ أبو السمال: ﴿وما كان ليعذبهم﴾ بفتح اللام، وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ معَذِّبَهُمْ﴾ هذا الاستئصال ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ أي: وفيهم من يستغفر من المسلمين الذين بقوا فيهم بعد الهجرة؛ أي: وما كان الله ليعذبهم هذا العذاب الذي عذب بمثله الأمم قبلهم، فاستأصلهم وفيهم من يستغفر من المسلمين الذين بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده.

روى ابن جرير قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وكان من بقي في مكة من المؤمنين يستغفرون فلما خرجوا أنزل الله ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية، فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم به، وقيل: المعنى وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر الله تعالى، وقيل: المعنى وهم يستغفرون في الطواف بقولهم: غفرانك.

قال أهل المعاني(١): دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب.

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل عليَّ

---

(١) الخازن.

أمانين لأمتي، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة» أخرجه الترمذي.

ولما بين الله سبحانه وتعالى أن المانع من تعذيبهم، هو الأمران المتقدمان، وجود رسول الله ﷺ بين أظهرهم، ووقوع الاستغفار.. ذكر بعد ذلك أنَّ هؤلاء الكفار، أعني كفار مكة، مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وأي شيء لهم يمنع من تعذيب الله إياهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: والحال أنهم يصدون النَّاس ويمنعونهم عن الوصول إلى المسجد الحرام لزيارته، كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت، وفي «السمين»: وما اسم استفهام إنكاري، مبتدأ و﴿لهم﴾ خبره، وقوله: ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ على تقدير الجار المتعلق بما تعلق به الظرف الواقع خبراً، والمعنى: وأي شيء ثبت واستقر لهم في أن لا يعذبهم الله؛ أي: في عدم تعذيبه؛ أي: أي مانع منه؛ أي: لا مانع منه بعد زوال هذين المانعين، وهما كون النبي ﷺ فيهم، وكون الضعفاء يستغفرون، وهم مستضعفون فيما بينهم، فلما زال هذان المنعان وجب عليهم العذاب، ولم يبق له مانع ا.هـ؛ أي: وأي شيء يمنع تعذيبهم، بما دون عذاب الاستئصال، عند زوال المانع منه، وكيف لا يعذبون وهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو لأداء النسك، فما كان مسلم يقدر أن يدخل المسجد الحرام، فإن دخل مكة.. عذبوه، إذا لم يكن فيها من يجيره، والمراد بالعذاب هنا: عذاب بدر، إذ قتل صناديدهم ورؤساء الكفر، كأبي جهل، والنضر بن الحارث، وأسر سراتهم.

وجملة قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ في محل نصب على أنها حال من فاعل ﴿يصدون﴾؛ أي: والحال أنهم ما كانوا أولياء المسجد الحرام، وما كانوا مستحقين للولاية عليه لشركهم وعمل المفاسد فيه، كطوافهم فيه عراة، رجالاً ونساء، وهذا رد لقولهم نحن ولاة الحرم والبيت، فنصد من نشاء، وندخل من نشاء ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: ما يلي أمره إلا من كان براً تقياً، لا من كان كافراً عابداً للصنم؛ أي: ما أولياء المسجد إلا الذين يتحرزون عن

المنكرات، كما كانوا يفعلونه عند البيت من المكاء والتصدية، ومن كانت هذه حاله لا يكون ولياً للمسجد الحرام، بل هم أهل لأن يقتلوا بالسيف، ويحاربوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنه لا ولاية لهم عليه؛ أي: لا يعلمون أنهم ليسوا أولياء الله، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين، فهم الآمنون من عذابه بمقتضى عدله في خلقه، والجديرون بولاية بيته.

وقد نسب هذا الجهل إلى الأكثر، إذ كان فيهم من لا يجهل حالهم في جاهليتهم، وضلالهم في شركهم، وكون الله لا يرضى عنهم كما كان فيهم من يكتم إيمانه خوفاً من الفتنة، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة، وقد جرت سنة القرآن أن يدقق في الحكم، ولا يقول إلا الحق، ولا يقول كما يقول الناس: إنَّ القليل لا حكم له.

ثم بين سبحانه سوء حالهم في أفضل ما بُنِيَ البيت لأجله، وهي الصلاة، فقد كانوا يطوفون عراة فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ﴾؛ أي: عبادتهم ﴿عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ﴾؛ أي: صفيراً فكان الواحد منهم يشبك أصابع إحدى كفيه بأصابع الأخرى، ويضمها، وينفخ فيهما فيظهر من ذلك صوت ﴿وَتَصۡدِيَةٗ﴾؛ أي: تصفيقاً أي ضرباً لإحدى الكفين على الأخرى أي: ما كان شيء مما يعدونه عبادة وصلاة إلا هذين الفعلين، وهما المكاء والتصدية؛ أي إذا كان لهم صلاة، فلم تكن إلا هذين، قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت عراة، مشتبكين بين أصابعهم، يصفرون ويصفقون بإحدى اليدين على الأخرى، وروي عن سعيد بن جبير، قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزؤون ويصفرون، يفعلون ذلك إذا قرأ الرسول ﷺ يخلطون عليه في صلاته، فنزلت ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗ﴾.

وبالجملة[1]: فقد كانت صلاتهم وطوافهم من قبيل اللهو واللعب، سواء عارضوا الرسول ﷺ في طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته، أم لا؟ ﴿فَذُوقُواْ

(١) المراغي.

﴿ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: فذوقوا أيها المشركون في الدنيا عذاب القتل لبعض كبرائكم، والأسر للآخرين منهم، وانهزام الباقين، مدحورين مكسورين يوم بدر، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالقرآن وبمحمد ﷺ.

والخلاصة: فذوقوا العذاب الذي طلبتموه، وما كان لكم أن تستعجلوه إذ قلتم: ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقرأ أبان بن تغلب، وعاصم، والأعمش بخلاف عنهما[١] ﴿صَلاتَهُم﴾ بالنصب ﴿إلا مكاءٌ وتصديةٌ﴾ بالرفع، وخطأ قوم منهم أبو علي الفارسي هذه القراءة لجعل المعرفة خبراً والنكرة اسماً، قالوا: ولا يجوز ذلك إلا في ضرورة كقوله:

يَكُوْنُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

وخرَّجها أبو الفتح على أن المكاء والتصدية اسم جنس، واسم الجنس تعريفه وتنكيره واحد، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه ﴿إلا مكاً﴾ بالقصر منوناً فمن مد فكالثغاء، والرغاء، ومن قصر فكالبكاء في لغة من قصر.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية، وهي المكاء والتصدية.. ذكر عقبها عبادتهم المالية التي لا جدوى لها في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله ﷺ يعني كفار قريش وخبر إن جملة قوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ ويصرفونها في محاربة النبي ﷺ ﴿لِيَصُدُّوا۟﴾ الناس ويمنعوهم ﴿عَن﴾ الدخول في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ودينه واتباع رسوله؛ أي: إن مقصدهم بالانفاق الصد عن اتباع محمد وهو سبيل الله وإن لم يكن عندهم كذلك.

قال مقاتل والكلبي[٢]: نزلت هذه الآية في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش، أبي جهل وأصحابه، يطعم كل واحد منهم كل يوم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

عشر جزور، وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: نزلت في أبي سفيان، وكان استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب، وأنفق فيهم أربعين أوقية، والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً كما مر، وأخرج ابن إسحاق عن مشايخه أنها نزلت في أبي سفيان ومن كان له في العير من قريش تجارة كما مر ذلك في أسباب النزول.

والمعنى(١): أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم، هو الصد عن سبيل الحق، بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك، وإنفاق أموالهم عليها، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش، ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾؛ أي: فينفقون أموالهم في المستقبل في الصد عن سبيل الله، أو المعنى فسيعلمون عاقبة إنفاقها من الخيبة، وعدم الظفر بالمقصود، فحصلت المغايرة، ذكره في «الفتوحات» ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ نفقاتهم في ذلك ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾؛ أي: ندامة لفواتها وفوات قصدهم من نصرتهم على محمد ﷺ ﴿ثُمَّ﴾ في آخر أمرهم ﴿يُغْلَبُونَ﴾ كما وعد الله تعالى به في مثل قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.

أي: إنه سيقع هذا الانفاق، وتكون عاقبته الحسرة؛ لأنه سيذهب المال، ولا يصلون إلى المقصود، بل يغلبون كما وعد الله به نبيه، وسينكسرون المرة بعد المرة.

ومعنى(٢) ﴿ثُمَّ﴾ في الموضعين: إما التراخي في الزمان لما بين الانفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة بين بذل المال، وعدم حصول المقصود من المبيانة، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: استمروا على الكفر، كأبي جهل وأصحابه، وإنما فسرنا كذلك؛ لأن من هؤلاء

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

الكفار المذكورين سابقاً من أسلم، وحسن إسلامه، كالعباس بن عبد المطلب ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ لا إلى غيرها ﴿يُحْشَرُونَ﴾؛ أي: يساقون يوم القيامة فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما.

وقد كان[١] للمسلمين في هذه الآية عبرة وعظة فلينفقوا أموالهم في سبيل الله كما أنفق أسلافهم فيها، لأن لهم بها سعادة الدارين، والكفار في هذا العصر ينفقون الكثير من الأموال للصد عن الإسلام، وفتنة الضعفاء من العامة بالدعوة إلى دينهم، وتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم إلى نحو ذلك من الوسائل الناجعة في نشر دينهم، وفتنة المسلمين عن دينهم، وهم لا يبالون ماذا يفعلون، ألا ساء ما يعملون.

ثم بين سبحانه العلة التي لأجلها كانت الحسرة عليهم والحشر إلى جهنم، فقال: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ وقرأ حمزة[٢] والكسائي، ويعقوب، ﴿لِيُمَيِّزَ﴾ بضم الياء الأولى وفتح الميم وتشديد الياء الثانية المكسورة من التمييز، وهو أبلغ من الميز، وقرأ الباقون بالتخفيف من ماز يميز كباع يبيع، واللام متعلقة بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أو بـ﴿يُغْلَبُونَ﴾؛ أي: يحشرون إلى جهنم ليميز الله سبحانه وتعالى، ويفصل الفريق الخبيث من الكفار ﴿مِنَ﴾ الفريق ﴿الطَّيِّبِ﴾ من المؤمنين ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ﴾؛ أي: ويجعل الفريق الخبيث ﴿بَعْضَهُ﴾ منضماً متراكباً ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾؛ أي: فيجمعه ﴿جَمِيعًا﴾ ويضم بعضه إلى بعض، حتى يتراكم ويركب بعضه بعضاً، لفرط ازدحامهم، يقال: ركم الشيء يركمه إذا جمعه، وألقى بعضه على بعض، ﴿فَيَجْعَلَهُ﴾ أي: يطرحه ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾؛ وقيل: المعنى يضم الله تعالى تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض، فيلقيها في جهنم، ويعذبهم بها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الفريق الذين كفروا، وخبثوا اعتقاداً وأعمالاً ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، لأنهم اشتروا بأعمالهم عقاب الآخرة.

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

وقيل: اللام في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره؛ أي: إن[1] الله سبحانه وتعالى كتب النصر والغلب لعباده المتقين، والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقاتلهم من الكفار، للصد عن سبيل الله، ليميز الكفر من الإيمان، والحق والعدل من الجور والطغيان، وهذا التمييز بين الأمرين في سنن الاجتماع هو بقاء أمثل الأمرين وأصلحهما ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة، فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة، ومن ثم قال: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الآية؛ أي: ويجعل الله الخبيث بعضه منضماً متراكباً على بعض بحسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات، واختلاف المتناكرات، كما جاء في الحديث: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» ثم يجعل أصحابه في جهنم إلى يوم القيامة، وبئس المصير لمن خسر نفسه وماله.

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ أي: لهؤلاء الكفار الذين آذوك وصدوا عن سبيل الله من كفار مكة، كأبي سفيان وأصحابه، وغيرهم من سائر الكفار، وفي «الكشاف»: قل لأجلهم هذا القول وهو: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ وينزجروا ويرجعوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالصد عن سبيل الله ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾؛ أي: يغفر الله سبحانه وتعالى لهم ما سلف، وسبق منهم من عداوتك، وصدهم عن سبيل الله، وغير ذلك من سائر الذنوب، فلا يعاقبهم على شيء من ذلك في الآخرة، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون، فلا يطالبون قاتلاً منهم بدم، ولا سالباً أو غانماً بسلب ولا غنم.

وفي مصحف ابن مسعود[2]: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ بالتاء المثناة من فوق ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ خطاباً لهم، وقرىء ﴿يَغفر﴾ مبنياً للفاعل والضمير لله تعالى.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

روى مسلم من حديث عمرو بن العاص، قال: فلما جعل الله الإيمان في قلبي، أتيت النبي ﷺ فقلت: أبسط يدك أبايعك فبسط يده، فقبضت يدي قال: «مالك؟» قلت: أردت أن أشترط، قال: «ماذا تشترط؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟».

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ ويرجعوا إلى الكفر، ومعاداة النبي ﷺ وإلى الصد عن سبيل الله؛ أي: وإن يرتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، ويرجعوا للكفر، وقتال النبي ﷺ ويكون العود بمعنى الاستمرار، ننتقم منهم بالعذاب ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: لأنه قد سبقت سيرة الأولين، الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتدمير، كما جرى على أهل بدر؛ أي: قد سبقت سنة الله فيهم بالاستئصال والتدمير فلهم ما لهم.

والمعنى: أي وإن يعودوا إلى العداء، والصد، والقتال تجر عليهم سننه المطردة في أمثال لهم من الأولين الذين عادوا الرسل، وقاتلوهم من نصر المؤمنين، وخذلانهم، وهلاكهم كما حدث لهم يوم بدر كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾.

ولا يخفى ما في قوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ من[1] التهديد، والوعيد، الشديد، والتمثيل لهم بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله؛ أي: قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل ما فعل هؤلاء من الأولين من الأمم، أن يصيبه بعذاب، فليتوقعوا مثل ذلك، وترسم ﴿سنت﴾ هذه بالتاء المجرورة، وكذا الثلاثة التي في فاطر، وكذا التي في آخر غافر، ثم بين ما سلف من قوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ورغب المؤمنين في قتالهم فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: حتى لا توجد فتنة في الدين؛ أي: وقاتل الذين كفروا أنت يا محمد ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب

---

(١) الشوكاني.

وضروب الإيذاء لأجل تركه كما فعلوا ذلك حين كانت لهم القوة والبطش في مكة، إذ أخرجوكم منها لأجل دينكم ثم أتوا لقتالكم في دار الهجرة ﴿وَ﴾ حتى ﴿يَكُونَ ٱلدِّينُ﴾؛ أي: العبادة ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾: فلا يستطيع أحد أن يفتن أحداً عن دينه ويكرهه على ترك إلى دين المكره تقية وخوفاً منه.

وخلاصة ذلك[١]: قاتلوهم حتى يكون الناس أحراراً في عقائدهم، لا يكره أحد أحداً على ترك عقيدته إكراهاً، ولا يؤذي ويعذب لأجلها كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ والمسلمون إنما يقاتلون لحرية دينهم، ولا يكرهون عليه أحداً من دونهم.

وروي عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك، والمعنى عليه: قاتلوهم حتى لا يبقى شرك في مكة وغيرها، وتزولَ الأديان الباطلة فلا يبقى إلا الإسلام.

وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة؛ وهنا زيادة ﴿كُلُّهُۥ﴾ توكيداً للدين، وقرأ الأعمش ﴿ويكونُ﴾ برفع النون، والجمهور بنصبها.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الكفر، وعن قتالكم، وعن سائر المعاصي بالتوبة والإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ أي: عليم لأنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ونياتهم، فيجازيهم على أعمالهم الحسنة من الإيمان وغيره ويثيبهم عليها بحسب علمه.

وقرأ الحسن ويعقوب من العشرة وسلام بن سليمان[٢]: ﴿بما تعملون﴾ بالتاء على الخطاب، لمن أمروا بالمقاتلة على معنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الايمان بصير يجازيكم، فيكون[٣] تعليقه بانتهائهم دلالة على أنه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة، يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب، وبالباء التحتية على الغيبة باتفاق السبعة.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البيضاوي.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: وإن أعرض أولئك الكفار عن التوبة، والإيمان، وعن سماع تبليغكم، ولم ينتهوا عن كفرهم، وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾؛ أي: مواليكم، ومعينكم عليهم، وهذا وعد صريح بالظفر والنصر؛ أي: فأيقنوا أيها المؤمنون بنصر الله تعالى ومعونته لكم، وهو متولي أموركم، فلا تبالوا بهم، ولا تخشوا بطشهم، وجواب ﴿إن﴾ محذوف، وجملة قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ علة للجواب المحذوف، والمعنى: وإن تولوا عن الإيمان، فلا تخشوا بأسهم، لأن الله مولاكم، وهو سبحانه وتعالى ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾؛ أي: نعم الولي بالحفظ، فلا يضع من تولاه ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾؛ أي: نعم الناصر على الأعداء، فلا يغلب من نصره، وكل من كان في حماية الله تعالى كان آمناً من الآفات، مصوناً عن المخلوقات، وهذا ثناء من الله تعالى على نفسه، فهو حمد قديم لقديم، وما غلب المسلمون في العصور الأخيرة وذهب أكثر ملكهم إلا لأنهم تركوا الاهتداء بهدي دينهم، وتركوا الاستعداد المادي والحربي الذي طلبه الله بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ واتكلوا على خوارق العادات، وقراءة الأحاديث، والدعوات، وذلك مما لم يشرعه الله، ولم يعمل به رسوله، إلى أنهم تركوا العدل والفضائل، وسنن الله في الاجتماع التي انتصر بها السلف الصالح، وأنفقوا أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الإسراف في شهواتهم.

وعلى العكس من ذلك، اتبع الإفرنج تعاليم الإسلام، فاستعدوا للحرب، واتبعوا سنن الله في العمران، فرجحت كفتهم، ولله الأمر.

وما مكن الله لسلف المسلمين من فتح بلاد كسرى، وقيصر، وغيرهما من البلاد إلا لما أصاب أهلها من الشرك وفساد العقائد في الآداب، ومساوي الأخلاق، والعادات، والانغماس في الشهوات، واتباع سلطان البدع، والخرافات فجاء الإسلام، وأزال كل هذا، واستبدل التوحيد والفضائل بها، ومن ثم نصر الله أهله على الأمم كلها.

ولما أضاع جمهرة المسلمين هذه الفضائل، واتبعوا سنن من قبلهم في اتباع

البدع والرذائل، وقد حذرهم الإسلام من ذلك، ثم قصروا في الاستعداد المادي والحربي للنصر في الحرب، عاد الغلب عليهم لغيرهم، ومكن لسواهم في الأرض ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾؛ أي: الصالحون لاستعمارها والانتفاع بما أودع فيها من كنوز وخيرات. وفق الله المسلمين إلى الهدى والرشاد، وجعلهم يعيدون سيرتهم الأولى، ويهتدون بهدي دينهم، ويستمسكون بآدابه، ويتبعون سيرة السلف الصالح، فيكتب لهم العز في الدنيا، والسعادة في الآخرة بمنه وكرمه، وفضله وجوده آمين.

الإعراب

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد قصة إذ يمكر بك ﴿يَمْكُرُ﴾: فعل مضارع ﴿بِكَ﴾ متعلق به ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول فاعل ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول وجملة ﴿يَمْكُرُ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ اللام: حرف جر وتعليل ﴿يثبتوك﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لإثباتهم إياك الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَمْكُرُ﴾. ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يثبتوك﴾ وكذا قوله: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ معطوف على ﴿يثبتوك﴾ أيضاً، والتقدير: أو لقتلهم إياك أو لإخراجهم إياك ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل مستأنف كرره للتأكيد، ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يمكرون﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان

﴿تُتۡلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق به ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل، ومضاف إليه والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة، ومعطوفة على قوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ﴾ ﴿قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق ﴿سَمِعۡنَا﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: مثل هذا القرآن، وهو التوراة والإنجيل، وقد تنازع هذا العامل مع قوله: ﴿لَقُلۡنَا﴾ في قوله: ﴿مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ كما يستفاد من الخازن، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا؛ ﴿لَوۡ﴾ شرطية ﴿نَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المشركين ومفعوله محذوف تقديره: لو نشاء القول، والجملة فعل شرط لـ لو ﴿لَقُلۡنَا﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية ﴿قلنا﴾: فعل وفاعل ﴿مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، لأن ﴿قلنا﴾: بمعنى ذكرنا، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة لو الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ ﴿إِنۡ﴾: نافية مهملة لانتقاض نفيها بـ﴿إلا﴾ ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ ﴿إلا﴾: إداة استثناء مفرغ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾: والظرف متعلق بمحذوف تقديره: واذكر إذ قالوا، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وإذ يمكر بك﴾: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾: الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿هَٰذَا﴾: اسمها ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلۡحَقَّ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مِنۡ عِندِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ ﴿فَأَمۡطِرۡ﴾

﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿أمطر﴾: فعل دعاء في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق به ﴿حِجَارَةً﴾: مفعول به ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حِجَارَةً﴾ وفائدة[1] توصيف الحجارة بقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الدلالة على أن المراد بالحجارة السجيل وهو حجارة مسومة، أي: معلمة معدة لتعذيب قوم من العصاة. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول قالوا: على كونها جواب النداء ﴿أَوِ ٱئْتِنَا﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿أمطر﴾، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق بـ﴿ٱئْتِنَا﴾ ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة لـ﴿عذاب﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية ﴿ما﴾: نافية ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود ﴿يعذبهم﴾: فعل ومفعول منصوب بـ﴿أن﴾: مضمرة بعد لام الجحود، وجوباً، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿يعذب﴾: صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ما كان الله لتعذيبهم الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً لكان تقديره: ما كان الله مريداً لتعذيبهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة، ومن أراد البسط في مبحث لام الجحود، فليراجع كتابنا «الدرر البهية في إعراب أمثلة الآجرومية» ﴿وَأَنتَ﴾: مبتدأ ﴿فِيهِمْۚ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿يعذبهم﴾: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾: ناف وفعل ناقص واسمه ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل النصب حال من هاء ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟

---

(١) الفتوحات.

أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعل، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر متعلق بما تعلق به الظرف الواقع خبراً، تقديره: وأي شيء ثبت، واستقر لهم في أن لا يعذبهم الله؛ أي: في عدم تعذيب الله إياهم، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ خبره ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ متعلق به، والجملة الاسمية في محل النصب حال من مفعول ﴿يُعَذِّبَهُمُ﴾. ﴿وَمَا﴾ الواو: حالية ﴿ما﴾: نافية ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ﴿أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب حال من واو ﴿يَصُدُّونَ﴾. ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾: ناف وفعل ناقص واسمه ﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من ﴿صَلَاتُهُمْ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مُكَآءً﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ معطوف عليه والجملة مستأنفة ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن صلاتهم هذا اللعب واللهو وأردت بيان ما يقال لهم في الجزاء، فأقول لك: يقال لهم: ذوقوا العذاب ﴿ذوقوا العذاب﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة: ﴿تَكْفُرُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل

مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿ذوقوا﴾، والتقدير، فذوقوا العذاب بكفركم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿لِيَصُدُّوا۟﴾ ﴿اللام﴾: لام كي ﴿يصدوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لصدهم عن سبيل الله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب ﴿سينفقونها﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص واسمها ضمير مستتر فيها يعود على نفقاتهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿حَسْرَةً﴾: لأنه صفة نكرة قدمت عليها، أو متعلق بـ﴿تَكُونُ﴾ ﴿حَسْرَةً﴾: خبر تكون، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ معطوفة على جملة ﴿سينفقونها﴾ ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف: ﴿يُغْلَبُونَ﴾ فعل مغير ونائب فاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿تَكُونُ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿كَفَرُوٓا۟﴾: صلة الموصول ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ متعلق بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾ وجملة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ من الفعل المغير ونائب فاعله في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لِيَمِيزَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل ﴿يميز الله الخبيث﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ متعلق بـ﴿يميز﴾، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره لميز الله الخبيث من الطيب الجار

والمجرور متعلق بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾. ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يميز﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بَعْضَهُۥ﴾ بدل من ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ **بدل بعض من كل** ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿يجعل﴾. ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿يركمه﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يجعل﴾ وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير ﴿يركمه﴾ أو توكيد له، والجملة معطوفة على جملة ﴿يجعل﴾ ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾: فعل ومفعول، معطوف على ﴿يركمه﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾ متعلق به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ صلة الموصول ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿يَنتَهُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿يُغْفَرْ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بإن على كونه جواب الشرط ﴿لَهُم﴾ متعلق به، ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة، في محل الرفع نائب فاعل، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول القول ﴿قَدْ سَلَفَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّا﴾ والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، ﴿وإن﴾ الواو: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿يَعُودُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب[1] الشرط محذوف تقديره: ننتقم منهم بالعقاب والعذاب، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلة ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول على كونها، معللة للجواب المحذوف.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة[1] معطوفة على جملة قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لكنَّ لما كان الغرض من الأول التلطف بهم، وهو وظيفة النبي وحده، بالإفراد، ولما كان الغرض من الثاني تحريض المؤمنين على القتال، جاء بالجمع، فخوطبوا جميعاً ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنى إلى ﴿لَا تَكُونَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، وهو تام ﴿فِتْنَةٌ﴾ فاعله والجملة الفعلية، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى عدم كون فتنة، وشرك الجار والمجرور متعلق بـ﴿قاتلوا﴾ و﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾: فعل مضارع ناقص واسمه معطوف على تكون ﴿كُلُّهُۥ﴾ تأكيد للدين ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿يكون﴾: ﴿فَإِنِ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر: تقديره: إذا عرفتم ما أمرتكم به من قتالهم، وأردتم بيان حكم ما إذا انتهوا أو تولوا فأقول لكم: ﴿إن انتهوا﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿ٱنتَهَوْا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب الشرط وجوباً ﴿إن﴾: حرف نصب ولفظ الجلالة اسمها ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾ الآتي ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما يعملونه ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو: عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة

---

(١) الفتوحات.

لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: فاعلموا، وأيقنوا كون الله تعالى مولاكم، وناصركم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾: فعل وفاعل وهو من أفعال المدح، والمخصوص بالمدح، محذوف وجوباً تقديره: هو، وهو في محل رفع على الابتداء، وجملة ﴿نِعْمَ﴾ في محل الرفع خبر له، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الرفع، خبر للمخصوص بالمدح المحذوف وجوباً المرفوع على كونه مبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ على كونها إنشائية لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾؛ أي: ليشدوك بالوثاق ويرهقوك بالقيد والحبس حتى لا تقدر على الحركة؛ لأن كل من شد شيئاً وأوثقه فقد أثبته لأنه لا يقدر على الحركة، وهذا إشارة لرأي أبي البختري، بفتح الباء وسكون الخاء المعجمة، وقوله: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾؛ أي: كلهم قتلة رجل واحد، وهذا إشارة لرأي أبي جهل، الذي صوبه صديقه إبليس لعنهما الله تعالى، وقوله: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾؛ أي: من مكة منفياً، وهذا إشارة لرأي هشام بن عمرو اهـ من «شرح المواهب اللدنية».

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بك؛ أي: ويحتالون ويتدبرون في أمرك وشأنك، والمكر[1] هو: التدبير الخفي، لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب، والغالب أن يكون فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل، وإذا نسب إلى الله.. كان من المشاكلة في الكلام بتسمية خيبة المسعى في مكرهم، أو مجازاتهم عليه باسمه.

---

(١) المراغي.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إن قلت: كيف[1] قال: والله خير الماكرين؟ ولا خير في مكرهم؟

قلتُ: يحتمل أن يكون المراد: والله أقوى الماكرين، فوضع خير موضع أقوى، وفيه التنبيه على أن كل مكر يبطل بفعل الله. وقيل: يحتمل أن يكون المراد أن مكرهم فيه خير بزعمهم، فقال تعالى: في مقابلته؛ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ وقيل: ليس المراد التفضيل بل إن فعل الله خير مطلقاً اهـ. «خازن».

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والأساطير جمع أسطورة، كأراجيح جمع أرجوحة، وأحاديث جمع أحدوثة، وهي الأقاصيص والأخبار التي سطرت وكتبت في الكتب السالفة، بدون تمحيص ولا تثبت في صحتها، وفي «القاموس»: الأساطير الأحاديث لا نظام لها، واحدها: إسطار وإسطير، وأسطور وبالهاء في الكل، وأصل السطر الصف من الشيء، كالكتاب والشجر اهـ.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ و﴿المكاء﴾[2] مصدر مكا يمكو مكواً من باب عدا و﴿مُكَآءً﴾ أيضاً إذا صفر، أي شبك أصابع إحدى كفيه بأصابع الأخرى، ويضمها وينفخ فيها، فيظهر من ذلك صوت، والمكاء بالضم كالبكاء والصراخ. وهمزة[3] ﴿المكاء﴾ مبدلة من واو؛ لقولهم مكا يمكو كغزا يغزو، ﴿والتصدية﴾ فيها قولان:

أحدهما: أنه من الصدى: وهو ما يسمع من رجع الصوت في الأمكنة الخالية الصلبة، يقال: منه: صدى يصدى تصدية، والمراد بها هنا ما يسمع من صوت التصفيق، والضرب بإحدى الكفين على الأخرى، وفي التفاسير: أن المشركين كانوا إذا سمعوا رسول الله ﷺ يصلي ويتلو القرآن صفقوا بأيديهم، وصفروا بأفواههم، ليشغلوا عنه من يسمعه ويخلو عليه قراءته، وهذا مناسب لقوله: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾، وقيل: مأخوذ من التصدد والضجيج

---

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

(٣) العكبري.

والصياح والتصفيق، فأبدلت إحدى الدالين ياءً تخفيفاً، ويدل عليه قراءة ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ بالكسر؛ أي يضجون ويلغطون.

والثاني: أنها من الصدِّ وهو المنع، والأصل تصددة بدالين أيضاً فأبدلت ثانيتهما ياء، ويؤيد هذا قراءة ﴿يَصُدُّونَ﴾ بالضم؛ أي: يمنعون.

﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾؛ أي: ندامة يقال: حسر يحسر كطرب يطرب بمعنى ندم ندامة، ويقال: حسر كمه عن ذراعه، من باب ضرب يضرب، ويقال: حسر بصره إذا كل، وتعب من باب جلس فالأول والأخير لازمان، والأوسط متعد، هذا ما في «المختار»، وفي «المصباح»: حسر عن ذراعه حسراً من بابي ضرب وقتل، وحسرت المرأة ذراعها وخمارها، من باب ضرب كشفته فهي حاسر بغيرها، وحسر البصر حسوراً من باب: قعد كل لطول المدى، وحسرت على الشيء حسراً من باب تعب، والحسرة اسم منه اهـ.

﴿يُحْشَرُونَ﴾ من بابي ضرب ونصر، كما في «المصباح» ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ يقال: ركمه إذا جمعه، وضم بعضه إلى بعض، وفي «المختار» ركم الشيء إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، وبابه: نصر، وارتكم الشيء وتراكم اجتمع، والركام الرمل المتراكم، والسحاب، ونحوه اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾، وفي قوله: ﴿ينفقون أموالهم﴾ ﴿فيسنفقونها﴾، وفي قوله: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ و﴿الْمَاكِرِينَ﴾ وبين ﴿يُعَذِّبَهُمْ﴾ و﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ لأن المكر

حقيقة في الاحتيال في إيصال الضرر إلى الغير بطريق خفي، والمراد بمكر الله: رد مكرهم بطريق لا يعرفون، فإذاً يقال في تقرير الاستعارة: شبه المكر بمعنى رد الحيلة بالمكر بمعنى الاحتيال في ترتب أثره عليه، فاستعير اسم المشبه به الذي هو المكر بمعنى الحيلة للمشبه الذي هو المكر بمعنى ردها فاشتق من المكر بمعنى الرد، يمكر بمعنى يرد، على طريقه الاستعارة التصريحية التبعية.

ويصح أن يكون مجازاً مرسلاً إذا قلنا: المراد بمكر الله مجازاتهم على مكرهم بجنسه، من إطلاق اسم السبب على المسبب، والعلاقة السببية، والمشاكلة تزيده حسناً على حسن. وتصح الاستعارة في هذا المعنى أيضاً بأن يقال: شبه المكر بمعنى المجازاة بالمكر بمعنى الاحتيال، بجامع إيصال الضرر في كل، فاستعير اسم المشبه به الذي هو المكر بمعنى الاحتيال للمشبه الذي هو المكر بمعنى المجازاة، فاشتق من المكر بمعنى المجازاة، يمكر بمعنى يجازي، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ويصح أن يكون استعارة تمثيلية بتشبيه حالة تقليل المسلمين في أعينهم الحامل لهم على هلاكهم، بمعاملة الماكر المحتال بإظهار خلاف ما يبطن. ويصح أن يكون مشاكلة صرفة، فالوجوه أربعة اهـ «شهاب» بتصرف وزيادة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأن الإمطار حقيقة في إنزال الغيث، ويصح أن يكون مجازاً مرسلاً علاقته المشابهة في الصب بكثرة.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾، وفي قوله: ﴿فإن انتهوا﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونسأل الله الإعانة، وكمال التيسير، والتوفيق لنا لأصوب التفسير، وأن يكرمنا بإكماله كما وفقنا بابتدائه بمنه وكرمه وجوده وإفضاله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين آمين[1].

* * *

---

(١) قال المؤلف: وكان الفراغ من تسويد هذا المجلد العاشر من الشرح على الجزء التاسع من القرآن منتصف ليلة الجمعة، الليلة السابعة من شهر الله المبارك رجب الفرد، من شهور السنة العاشرة بعد الألف وأربع مئة ٧/ ٧/ ١٤١٠هـ من هجرة من أرسله الله تعالى ليكون للعالمين نذيراً، سيدنا ومولانا محمد من جعله الله لدينه سراجاً منيراً، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.
تم تصحيح هذه النسخة في الليلة السادسة والعشرين، أوائلها من شوال بيد مؤلفه في تاريخ ٢٦/ ١٠/ ١٤١١هـ فلله سبحانه الحمد والشكر على هذا التوفيق، ونسأله تعالى الإخلاص في جميع الأعمال، ليكون موجباً لنا الخلاص من عهدتها في يوم العرض والقصاص.

شعر

مُرَادِيَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْكَ فَجُدْ بِهِ وَهُوَ عَلَىٰ ٱلتَّفْصِيْلِ عِنْدَكَ بَادِيْ
تَعَوَّدْتُ مِنْكَ ٱلْجُوْدَ وَٱلْفَضْلَ فِيْ ٱلَّذِيْ أُوَمِّلُ مِنْ خَيْرٍ فَعَجِّلْ جَوَابِيْ
لَدَيْكَ جَمِيْعُ ٱلْخَيْرِ فَٱسْمَحْ بِنَيْلِهِ لِعَبْدٍ يُنَاجِيْ يَا سَمِيْعَ نِدَائِيْ

الفهرس